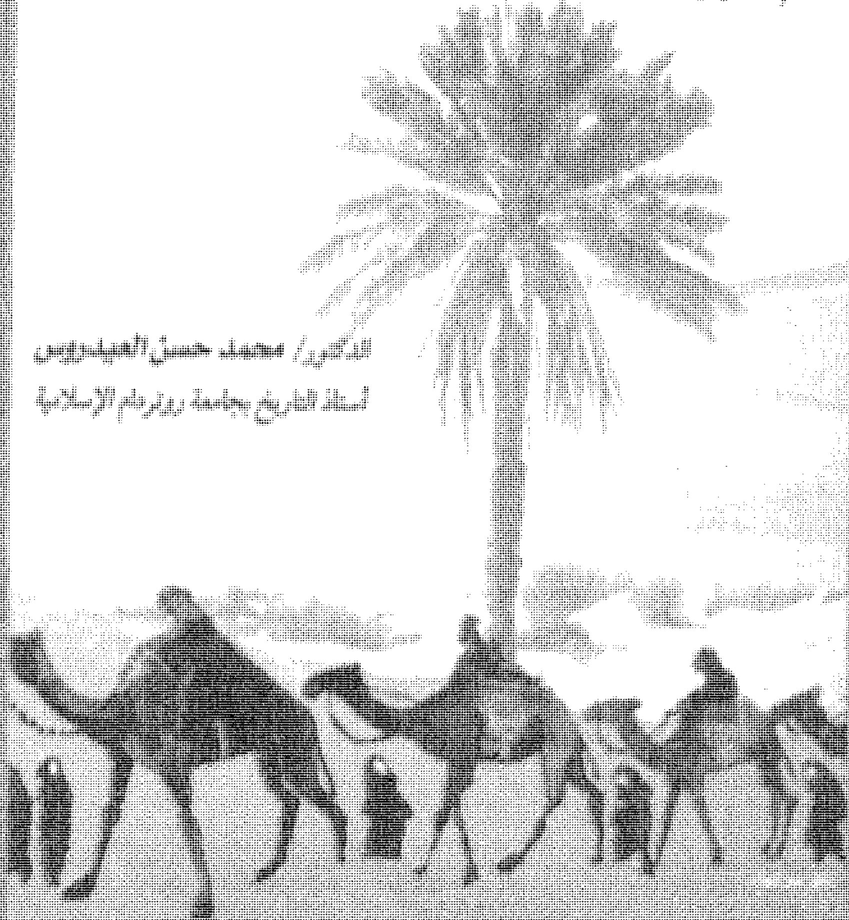
سلسلة في التاريخ الإسلامي

الدولة الإسلامية الأولى

(السيرة النبوية الشريفة لرسول الله محمد ﷺ)



الدكتور/ محمد حسن العيدروس

أستاذ التاريخ بجامعة زايد الإماراتية

دار الكتاب الحديث

سلسلة فى التاريخ الإسلامى

الدولة الإسلامية الأولى

(السيرة النبوية الشريفة لرسول الله محمد ﷺ)

الدكتور/ *محمد حسن العيدروس*

أستاذ التاريخ بجامعة روتردام الإسلامية

الطبعة الأولى

١٤٢١هـ - ٢٠٠١م

1421 هـ / 2001 م



دار الكتاب الحديث

القاهرة	94 شارع عباس العقاد – مدينة نصر – القاهرة ص.ب 7579 البريدي 11762 هاتف رقم : 2752990 (202 00) فاكس رقم : 2752992 (202 00) بريد إلكتروني : kdh@eisl.eis.com.eg
الكويت	شارع الهلالي ، برج الصديق ص.ب : 22754 – 13088 الصفاه هاتف رقم 2460634 (965 00) فاكس رقم : 2460628 (965 00) بريد إلكتروني ktbhades@ncc.moc.kw
الجزائر	Adresse : Gouvernorat du Grand Alger – Lot C no 34 – Draria B. P. No 061 – Draria هاتف رقم : 353035 (02) – 354105 (02) فاكس رقم : 353055 (02) بريد إلكتروني dkhadith@netscape.net

رقم الإيداع **2000/16225**

I.S.B.N. **977-5758-70-X**

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء وإلى زوجها الإمام عليّ عليه السلام وإلى سيديّ شباب أهل الجنة سبطيّ الرسول ﷺ الإمام الحسن والحسين

إلى سيدنا ومولانا بقية العترة الطاهرة الإمام محمد الفقيه المقدم، والإمام عبد الله أبو بكر العيدروس الأكبر

وإلى المرحوم والدي السيد/ حسن أحمد علوي العيدروس

وإلى أبناء الأمة الإسلامية لكي يهتدوا ويسيروا في الطريق الذي رسمه القائد العظيم رسول الله محمد ﷺ، ورئيس أول دولة إسلامية، ليخرجوا هذه الأمة من الذل والهوان والتخلف وجاهلية أنظمة الحكم والتخلف الذي لحق بها من جراء عدم اتباع نهج رسول الله محمد ﷺ في تطبيق الشريعة الإسلامية في أنظمة الحكم والسياسة والعدالة الاجتماعية والديمقراطية الإسلامية، والحرية والمجتمع المدني ودولة المؤسسات الإسلامية.

مقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا وحبيبنا وشفيعنا رسول الله محمد ﷺ وعلى آل بيته الطاهرين الأخيار إلى يوم الدين.

هذه محاولة لدراسة السيرة النبوية الشريفة لرسول البشرية ورحمة للعالمين الذي أخرج البشرية من الظلام إلى النور، وقد جاءت هذه الدراسة استجابة للطلاب المسلمين في أوربا وخاصة في هولندا من إخواننا المسلمين الأتراك إضافة إلى بعض الهولنديين من الأصول العربية الذين قد يجدون صعوبة في فهم الكتب العربية التقليدية أو القديمة للسيرة النبوية الشريفة، وعندما وجدتهم يعانون بعض الصعوبة في قراءتها، فكانت المحاولة لكتابة هذه السيرة بطريقة شاملة وجامعة بقدر الإمكان لعلها تستطيع أن تفيد المسلمين في أوربا خاصة والعالم عامة.

راجيا من الله عز وجل ثم من القارئ الكريم أن يغفر لي إذا ما كان هناك زلة أو خطأ أو سهو، فكل من يكتب قد يخطئ، لهذا أتمنى أن لا يكون هناك أخطاء بقدر الإمكان، والهدف هو فهم وإدراك السيرة النبوية الشريفة وشخصية رسول الله محمد ﷺ، الذي لعب دوراً ربانيا إلاهيا، لتأسيس أول دولة إسلامية عرفتها البشرية، وبقدر ما كان رسول الله وخاتم النبيين فإنه كان أيضا مؤسسا لدولة وحاكما سياسيا عبقريا وقائدًا عسكريًا، علمنا كيف يكون الإنسان وكيف يحمل معنى الإنسانية وكيف يكون الحاكم المسلم ويحكم شعبه ويطبق الشريعة الإسلامية.

فهو إذا، قدوة كحاكم للدولة ونبي الأمة الإسلامية ورسول الله، وأنه كان كأخ للإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وخير رب أسرة كأب لأبنائه السيدة فاطمة الزهراء والسبطين الإمام الحسن والحسين، وزوج لخديجة رضى الله عنها بقية أمهات المؤمنين، وجار، ومعلم، وقائد عسكرى، أي أنه مكمل لما جاء في القرآن الكريم وأنه «كان على خلق عظيم» ومن هذا المنطلق يجب أن يكون رسل الله محمد ﷺ قدوة لكل أب وأخ وزوج ومعلم وقائد عسكري وحاكم سياسي وإمام للمسلمين، في كل يوم وفي كل لحظة من حياة كل فرد من هذه الأمة الإسلامية العظيمة، حيث إنها خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتساهم في البشرية والإنسانية، حيث قال رسول الله محمد ﷺ: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق».. وكما قال تعالى: ﴿... وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ... ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران].

تشمل هذه الدراسة في الباب الأول - البعثة الشريفة لرسول الله محمد ﷺ ومحاربة كفار قريش - الفصل الأول ـ الجزيرة العربية قبل المولد النبوي الشريف لرسول الله محمد ﷺ - الفصل

الثاني – المولد النبوي الشريف لرسول الله محمد ﷺ وسيرته حتى البعثة، الفصل الثالث – الدعوة الإسلامية لرسول الله محمد ﷺ وعداء كفار قريش – الفصل الرابع – من الخروج إلى الطائف حتى الهجرة الشريفة إلى المدينة المنورة.

يحتوي الباب الثاني – معارك وغزوات الدولة الإسلامية الأولى، الفصل الخامس – بناء الدولة الإسلامية الأولى في مدينة رسول الله محمد ﷺ ومعركة بدر، الفصل السادس – معركتي أحد والأحزاب، الفصل السابع – من هدنة الحديبية إلى فتح مكة، الفصل الثامن – رسول الله محمد ﷺ القائد الأعلى للقوات الإسلامية.

ندرس في الباب الثالث – سيادة الدولة الإسلامية الأولى على الجزيرة العربية، الفصل التاسع – التنظيم السياسي للدولة الإسلامية الأولى، الفصل العاشر – الدولة الإسلامية وعلاقاتها الخارجية.

أتمنى أن أكون قد وفقت إلى إعطاء صورة موجزة عن سيرة أعظم شخصية في تاريخ البشرية، ومحاولة لفهم سيرة هذا اليتيم الذي حاربه جميع سكان مدينة مكة من أهله كفار قريش لدعوته إلى الإسلام ولإخراجهم من الضلال إلى الهدى، فخرج مهاجراً إلى المدينة المنورة وناصره سكانها الأنصار، وبعد بضع سنوات يعود ظافراً وفاتحا لمكة التي طرد منها، ومن ثم ينتشر الإسلام إلى كافة أنحاء الجزيرة العربية، وبعد وفاته بعدة أعوام امتد الإسلام من الصين شرقًا إلى أسبانيا في أوربا غربًا، وهنا تكمن عظمة الإسلام وصاحبها الذي حمل لوائها رسول الله محمد ﷺ وعلينا أبناء الإسلام أن تكمل هذه المسيرة الإسلامية سواء في حياتنا اليومية أو نشر الدعوة الإسلامية في الشعوب الأخرى.

نطلب من الله في آخر دعوانا أن يوفقنا إلى قول الحق وعمل الحق والدفاع عن الحق – الحق الإسلامي، والحمد لله تعالى والصلاة على خاتم النبيين وإمام المتقين رسول الله محمد ﷺ وعلى آل بيته الطاهرين الأخيار ـ اللهم صلِّ على سيدنا محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم.

د. محمد حسن العيدروس

روتردام – هولندا

٢٩ / ٩ / ٢٠٠٠



البعثة الشريفة لرسول الله محمد ﷺ ومحاربة كفار قريش

الفصل الأول

الجزيرة العربية قبل المولد النبوي الشريف لرسول الله محمد ﷺ

الفصل الثاني

المولد النبوي الشريف لرسول الله محمد ﷺ وسيرته حتى البعثة

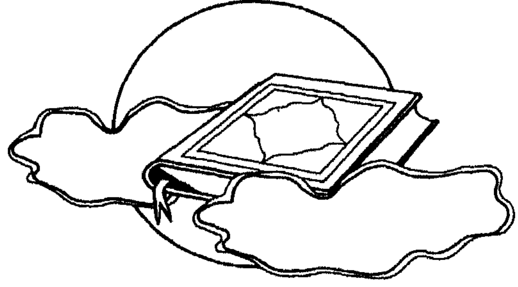
الفصل الثالث

الدعوة الإسلامية لرسول الله محمد ﷺ وعداء كفار قريش

الفصل الرابع

من الخروج إلى الطائف حتى الهجرة الشريفة إلى المدينة المنورة

الفصل الأول



الجزيرة العربية قبل المولد النبوي الشريف لرسول الله محمد ﷺ

الجزيرة العربية قبل المولد النبوي الشريف لرسول الله محمد ﷺ

تحتل «جزيرة العرب» موقعًا متوسطًا في نصف الكرة الذي شمل قارات اسيا وأفريقيا وأوربا وتؤلف قلب العالم القديم والتي أنجبت رسول الله محمداً ﷺ آخر المصلحين الدينيين والدنيويين العظام. إن المحيط الهندي ليغسل شواطئها من ناحية الجنوب، والبحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر يغسلانها من ناحية الغرب. وإلى الشرق يقع الخليج العربي، ودجلة والفرات، وهذان الأخيران يخترقان جزأها الشمالي أيضًا. وهكذا فهي محاطة من نواحيها الأربع كلها تقريبًا بالبحار والأنهار، وهذا هو السبب الذي من أجله اعتبرها المؤرخون والجغرافيون، لا شبه جزيرة، بل جزيرة تضم ضمن تخومها تلك الشقة من الأرض المعروفة ببلاد ما بين النهرين وبلاد الشام العربية. تمتد بلاد العرب على مساحة مقدارها مليون ومئتا ألف ميل مربع. وحوالي ثلث هذه المساحة صحاري رملية، واقعة في وسط الجزء الجنوبي. وليس ثمة في البلاد كلها أنهار. وعبر البلاد كلها تمتد سلسلة جبال، من الجنوب إلى الشمال، تُعرف بجبال السَّراة، ويبلغ ارتفاع أعلى قمة من قممها ثمانية آلاف قدم. والتمر هو نِتاج البلاد الرئيسي. أما في الأيام الخالية فكانت بلاد العرب شهيرة بذهبها، وفضتها، وحجارتها الكريمة، وأفاويهها. ومن الحيوانات التي تعرفها تلك البلاد يُعتبر الجمل أعظمها قيمة ونفعًا، في حين أن الجواد العربي لا نظير له في العالم كله من حيث الجمال، والسرعة والشجاعة. والواقع أن بلاد ما بين النهرين والشام العربية تؤلفان جزءًا لا يتجزأ. فأما بلاد ما بين النهرين فتمتد في محاذاة فارس. وهناك أُسست مدينتا البصرة والكوفة، اللتان ظلّتا طويلاً مركزي الثقافة الإسلامية، خلال خلافة عمر بن الخطاب، وأما الشام العربية فتقع إلى الشمال، ممتدةً حتى حلب. ومن هنا أظهر الجغرافيون العرب الفرات بوصفه التخم الشمالي لهذه الجزيرة. وفي هذا الجزء يقع جبل طور سيناء حيث تلقى موسى الوحي الإلهي. ولقد كان للعماليق في عهد ما مملكة قوية هناك[1].

قبائل العرب: ينحدر العرب من أصلين كبيرين هما قحطان وعدنان، وقد كان موطن قحطان في اليمن، وكان منهم حِمْيَر وأشهر حمير قضاعة. وكان منهم كهلان، وأشهرهم: همدان، وأنمار، ومذحج وطيء وكندة ولخم وجذام والأزد وأولاد جفنة ملوك صحراء الشام ومن أهم بطون قحطان سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان[2]، فلما انهار سد مأرب عام ١٢٠ قبل الميلاد خرج أبناء مأرب إلى الجزيرة بحثًا عن منازل جديدة تصلح لسكناهم، فنزل الأزد المدينة فاستوطنوها فكانت منهم

(١) مولانا محمد علي - حياة محمد ورسالته - ص١١ .

(٢) جمهرة أنساب العرب لابن حزم، وأيضًا جواد علي - أنساب القبائل في تاريخ العرب قبل الإسلام - الجزء الرابع ص٤١٤ - ٤٦٧ .

الأوس والخزرج. ومنهم من افتتح الحرم من جُرهم، ومنهم من اتجه شرقًا إلى عُمان أو غربا إلى تهامة من قبائل الأزد تهامة أو أزد عمان، ومنهم من أوغل في سيره شمالاً حتى بلغ الشام فنزل على ماء غسان وأقاموا مع ملك الغساسنة الموالي للروم. ومنهم من اتجه إلى الحيرة بتخوم العراق وهم لخم بن عدي من أدد بن زيد ابن كهلان ومعهم نصر بن ربيعة أبو الملوك المناذرة بالحيرة فكان ملكهم تابعا لساسان ملوك فارس الذين احتلوا وحكموا العراق. ونزلت قبيلة طيء بالجبلين أجأ وسلمى. ونزلت كلب بن وبرة من قضاعة ببادية السماوة حتى اتصلت بأطراف العراق. كذلك بقي باليمن كثير من قبائل حمير وكندة ومذحج وغيرهم. وفيما يلي تخطيط مختصر يبين أشهر تلك القبائل من نسل قحطان. أما عدنان فكان من ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، ومن نسله رسول الله ﷺ كان موطنه مكة وما جاورها من أرض الحجاز وتهامة. وقد تشعبت بطون هذا الفرع من نزار بن معد بن عدنان. ثم هاجر بعض من هذه البطون إلى مواطن أخرى تبعًا لمواقع القطر ومنابت العشب فاتجهت ربيعة شرقًا فأقامت عبد القيس بالبحرين، وأقامت حنيفة باليمامة، وعبرت تغلب الفرات فأقامت بأرض الجزيرة بين دجلة والفرات. أما عن فرع مضر بن معدّ بن عدنان، فقد نزلت سُليم بالقرب من المدينة من وادي القرى إلى خيبر إلى شرقي المدينة حتى حدود الجبلين أجأ وسلمى. وأقامت ثقيف بالطائف واستوطنت سائر هوازن شرقي مكة على طريق البصرة، وسكنت أسد شمالي وادي الرمة شرقي تيماء إلى غرب الكوفة[1].

تنقسم بلاد العرب إلى أجزاء عديدة. منها الحجاز، وهو الإقليم الذي تقع فيه أرض «الحرم» المقدسة. و«الحرم» (الأرض المحرمة أو المقدسة) إنما دُعي بهذا الاسم لأنه كان منذ أقدم العصور موضع توقير وإجلال بالغين، وكل ضرب من ضروب القتال محظورٌ هناك حظرًا صارمًا. وفي نطاق هذا «الحرم» تقوم الكعبة المقدسة. والتوراة، كتاب اليهود المقدس، يطلق على الحجاز عامة ومكة خاصة لفظ فاران Paran. وأهم مدنه مكة، والمدينة، والطائف. وهذا الإقليم يمتد على طول البحر الأحمر على شكل شُقة مستطيلة. وجدَّة وينبع هما ميناءاه الرئيسيان، حيث الحجاج إلى مكة والمدينة يهبطون إلى البر على التوالي. ويحدّ الحجاز، من ناحية الشرق، إقليم نجد، ومن ناحية الجنوب إقليم عسير، وهو جزء من اليمن. والإقليم الرئيسي الثاني من أقاليم بلاد العرب هو اليمن، وتقع في جنوب الجزيرة. وحضرموت والأحقاف تشكلان جزأين من هذا الإقليم. والواقع أن اليمن أخصب أقاليم بلاد العرب كلها ومن أجل ذلك كانت أكثرها تمدنًا. ولا نزال نقع ههنا على بقايا مبانٍ فخمة رائعة. وههنا أيضا أنشئت في يوم من الأيام سدود للسيطرة على ينابيع الماء المنبجسة من الجبال واصطناعها لأغراض الري. وأشهر هذه السدود سدّ مارب[2] الذي أشار القرآن الكريم إلى خرابه

(١) أحمد راتب عرموش - قيادة الرسول السياسية والعسكرية ص٥ .

(٢) مولانا محمد علي - المرجع السابق - ص١٤

ايضًا: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾﴾ [سبأ]. سميت اليمن يمنا لأنها تقع على يمين الكعبة ولأنها بلاد اليمن والخير والبركة وكان القدماء يسمونها بلاد العرب السعيدة أو اليمن الخضراء ويقول الهمذاني: «وسميت اليمن الخضراء لكثرة أشجارها وثمارها وزروعها وتتكون اليمن من عدة أقسام أهمها حضرموت وعمان وعسير ونجران[1].

وكانت اليمن، مركز التجارة بالمعادن، والحجارة الكريمة، والأفاويه التي اشتهرت بها بلاد العرب، في زمن ما، شهرة عظيمة. ومملكة عاد العظيمة، التي يتحدث عنها القرآن الكريم، إنما أسست هناك، وهذه البقعة بالذات تُعرف بالأحقاف. وحضرموت هي ذلك الجزء من اليمن الواقع في أقصى الجنوب، على ساحل المحيط الهندي. وصنعاء هي عاصمة هذا الإقليم، وعدن هي المرفأ الرئيسي. وإلى شمال صنعاء تقع نجران، حيث انتشرت النصرانية قبل انبثاق فجر الإسلام. والوفد النصراني المشهور الذي زار النبي الكريم والذي أُجيز له أن ينزل في مسجد الرسول إنما أقبل من هذا الموطن. وإلى الشمال من نجران تقع عسير حيث موطن قبائل الأزد اليمنية القوية. والجزء الثالث من اجزاء بلاد العرب هو نجد، وكان بنو حنيفة القبيلة التي ينتسب مُسيلمة الكذاب، يقيمون هناك وإلى الجنوب الشرقي من بلاد العرب، وعلى طول ساحل خليج عُمان، تمتد الأرض المعروفة بعُمان، وعاصمتها مسقط حيث أقيمت اليوم سلطنة منفصلة. وإلى شمال عُمان يقع الجزء المعروف بالبحرين، ـ ويدعى أيضًا الأحساء ـ وهو شهير بلآلئه، وفي محاذاتها تقع الحيرة، وكانت في يوم من الأيام مملكة. وحجر، موطن ثمود التي أرسل الله إليها نبيها صالحًا، مكان آخر جدير بالذكر. إنها تقع إلى شمال المدينة. وفي زحفه على تبوك اتفق للرسول الكريم أن اجتاز بذلك المكان. وتبوك وحجر، اليوم، محطتان واقعتان على خط الحجاز الحديدي. وإلى غربي حجر تقع المدائن، وهي موطن النبي شعيب، وإلى شمال المدينة تقع خيبر، التي كانت يوما معقل اليهود. ومدن الحجاز الثلاث الرئيسية، كما سبقت الإشارة، هي مكة والمدينة والطائف. والطائف مدينة بشهرتها إلى كونها، على سفح الجبال، معتدلة الجو، غنية بالاخضرار، موفورة الينابيع والفاكهة. وهي تقع إلى الشرق من مكة، وتعتبر مصيف النبلاء من أهل الحجاز. ولكن أشهر مدن الحجاز مكة والمدينة. ومكة، أو بكة، تُعرف أيضًا بـ «أم القرى»، أي أم المدن. وهي محاطة من جهاتها الأربع كلها بالجبال. ولقد كانت منذ أقدم العصور، ولا تزال، عاصمة بلاد العرب الروحية والدينية، إذ فيها يقوم بيت الله الحرام المعروف بالكعبة التي كانت قبلة الحجاج من كل ركن وزاوية في بلاد العرب منذ عهودها ما قبل التاريخ[2].

---

(١) د. نبيه عاقل – تاريخ العرب القديم وعصر الرسول – ص٢٨.

(٢) مولانا محمد علي – المرجع السابق ص١٤ .

في القرآن الكريم إشارة عن أول بيت «وُضع للناس» ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [آل عمران]، وبكلمة أخرى، عن أول بيت على سطح الأرض خُصِّص لعبادة الله. فمن هذا المكان انبثقت أشعة الوحي الإلهي، فهذا المكان نفسه يزهو بأنه أنجب خاتم النبيين المباركين. ومكة مدينة بمكانتها المقدسة إلى هذا البيت. فمنذ عهد يرقى إلى ٢٥٠٠ سنة ق. م. كانت محطة للقوافل المترددة ما بين اليمن والشام. والقرآن الكريم أيضًا يُثبت أن البيت الحرام كان قائمًا قبل إبراهيم ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾ [البقرة]، وحين خلف ولده، إسماعيل، هناك، كانت هذه الكلمات التي تضرع بها الشيخ الجليل إلى الله: ﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [إبراهيم]، وهذا يُظهر أن الكعبة كانت قائمة هناك حتى في مثل هذا التاريخ المعرق في القدم. وكانت المدينة تدعى، في الأصل، يثرب. وفي ما بعد عندما اتخذها الرسول الكريم مقرًا له أمست تُعرف بـ «مدينة النبي»، وهو اسم ما لبث أن تقلص، تدريجيا، فأمسى «المدينة» وهذه أيضا مدينة عتيقة. وبعض القرائن التاريخية توحي بأن إنشائها يرقى إلى عام ١٠٠ ق. م. وقد سكنها العماليق، بادئ الأمر[1]، ثم اليهود، والأوس، والخزرج، وجاء اليهود على أثر اضطهاد الروم والمسيحيين الذين طردوا اليهود من فلسطين فجاءوا لاجئين إلى المدينة واستوطنوا هناك واستمروا على دينهم برغم اتخاذهم العربية لغة لهم في حياتهم اليومية بحكم جيرانهم العرب ثم وفدت قبائل «الأوس» و«الخزرج» من اليمن إلى المدينة وأصبحوا سادتها وحكامها ولم يطمئنوا العرب إلى اليهود ولهذا لم يعتنقوا الديانة اليهودية[2].

وحين أقبل الرسول ليقيم فيها كان هؤلاء الأقوام الثلاثة هم أهلها. وفي ما بعد اكتسب الأوس والخزرج. لقب «الأنصار». وفي السنة الثالثة عشرة من البعثة، هاجر الرسول من مكة إلى المدينة، حيث قضي بقية أيام حياته. هناك لفظ النفس الأخير، وهناك يقوم ضريحه إلى يوم الناس هذا. وتقع المدينة على مبعدة مئتين وسبعين ميلاً إلى الشمال من مكة. فيها بالإضافة إلى المزروعات الوافرة عدد غير قليل من الأشجار المثمرة، ومناخها في الشتاء أكثر اعتدالا من مناخ مكة. وعاد، وثمود، وطسم، وجديس هي أقدم أعراق بلاد العرب، وقد تحدث القرآن الكريم عن العرقين الأولين عاد وثمود في بعض آياته. وهذه الأعراق الأولية تعرف بـ«العرب البائدة»، ورغم الشك الذي يبديه بعض المؤرخين حول وجود قبائل «كعاد» و«إرم» فإن القبائل الأخرى «كثمود» وغيرها لا خلاف مطلقا على حقيقة وجودها التاريخى وأخبار وجودها قليلة جدًا ويكتنفها الغموض فى اغلب الأحيان[3].

---

(١) مولانا محمد علي - نفس المرجع - ص١٧ .

(٢) د. شوقى ضيف - العصر الجاهلي ص٣٢.

(٣) د. نبيه عاقل - تاريخ العرب القديم وعصر الرسول - ص٣٦.

فبعد هلاك قوم نوح نشأت «عاد» التي امتدت مساكنها إلى مواطن بعيدة خارج تخوم بلاد العرب. والبينات التاريخية تزكي سيطرة «عاد» على بلاد العرب، ومصر، ومواطن أخرى كثيرة، حتى إذا هلكت انتقلت السيادة إلى ثمود. بعد ذلك ظهر بنو قحطان الذين كانت اليمن موطنهم. وقد تمتعوا في أيامهم بسلطان وسيادة عظيمين أيضًا. وإنما كان الأوس والخزرج من ذريات هذه القبيلة. وجميع هذه الأعراق تعرف بـ «العرب العاربة» أي العرب الخلص. وأخيرًا جاء إسماعيل، الذي عُرفت ذريته بـ «العرب المستعربة»، أي المتعربة. وصدوعا بالأمر الإلهي ترك إبراهيم ابنه إسماعيل مع أمه «هاجر» في الموضع الذي تقوم فيه الكعبة. عاد الأب والولد، نزولاً عند الإيعار الإلهي، بناء الكعبة المقدسة التي كانت، على ما يبدو، في حال متهدمة. ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾ [البقرة]، حتى إذا تم لهما ذلك وجها كلاهما هذا الدعاء المشترك إلى الله الكلي القدرة: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة]، وهو دعاء استجابه الله في شخص الرسول محمد صلوات الله عليه. ومن أجل ذلك يدعى الرسول الكريم أيضًا «صلاة إبراهيم». وتكاثرت ذُرية إسماعيل، وتشعبت إلى قبائل متعددة. وإحدى هذه القبائل تُعرف بـ «قريش»، وهي متحدرة من «النَّضر». وفي ما بعد انقسمت هذه القبيلة إلى عدد من البيوت، وكان الرسول سليل واحد منها هو بيت بني هاشم[1].

مملكة «كندة» لنجد: عرف النسابون قبيلة «كندة» بأنها من القبائل العربية الحضرمية تنسب إلى ثور ابن عفير الذي ينسب إلى كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، لقب ثور بن عفير «كندة» ويدعوها الأخباريون بـ «كندة الملوك»؛ لأن الملك كان لهم على الحجاز التي يسكنها العرب العدنانيون ثم أصبحوا «كندة» ملوك نجد، يذكر الأخباريون أن الموطن الأصلي لكندة هو «حضرموت» وأن حاضرتهم كانت مدينة «دمون» التي يرد اسمها في شعر امرئ القيس:

كأني لم ألهو بدمون مرة ولم أشهد الغارات يوما بعندل

تنزل قبيلة «كندة» في غمر ذي كندة، وفي البحرين والمشقر، وأنها نزحت إلى حضرموت في زمن لا نستطيع تحديده، ونزحت مرة ثانية من حضرموت إلى أرض معد بنجد واستقرت بها. وهناك خلاف بين الأخباريون حول أسباب نزوح كندة إلى الشمال. فاليعقوبي يشير إلى حرب قامت بين قبيلة كندة وقبيلة حضروت طال أمدها وأدت إلى جلاء كندة عن حضرموت: يقول اليعقوبي: «وكان بين كندة وحضرموت حروب أفنت عامتهم، وطالت الحرب بينهم، وفتنت رجالهم، ودامت حتى ضرّستهم، وكثر القتل في كندة، صارت كندة إلى أرض معد، فجاورتهم». وهناك فريق آخر من الأخباريين يرجعون نزوح كندة من حضرموت إلى نجد إلى وجود قرابة بين حجر بن عمرو سيد

---

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق - ص١٧ .

كندة، وتبع صاحب السلطان آنذاك على نجد والحجاز وغيرها من بلاد العرب فولى تبع حجرًا على قبائل معد كلها لأنه قريبه من جهة، ومن أتباعه المخلصين من جهة أخرى إضافة إلى قوته وشجاعته. أما حمزة الأصفهاني، فيذكر نقلاً عن ابن الكلبي، أن تبعًا حين أقبل سائرًا إلى العراق نزل بأرض معد، فاستعمل عليها حجرًا آكل المرار. وكل هذه التفسيرات على ما فيها من خلاف في التفاصيل، توضح أن انتقال كندة إلى أرض معد كان في زمن غير محدد، ولظروف غير متفق عليها. ولكن إذا أخذنا بعين الاعتبار بعض المعطيات المتفق عليها والتي أدت إلى هجرة القبائل من اليمن، كتحول طرق التجارة عنها، ووقوعها ضمن المناطق التي تتصارع عليها القوى الدولية العظمى آنذاك، لوجدنا أنه بالإمكان أن نقبل أن هجرة الكنديين من موطنهم الأصلي في حضرموت، قد تمت حوالي منتصف القرن الثالث الميلادي، وأن من العوامل التي دفعتهم إلى هذه الهجرة تحول طرق التجارة عن موطنهم الأصلي هناك في حضرموت، وقلة موارد عيشهم بنتيجة ذلك[1].

إن أول ملك كان مُرتع بن معاوية بن ثور وكان ملكه عشرين سنة، وخلفه ابنه ثور بن مرتع ولم يطل ملكه إلا مدة يسيرة ثم مات فملك بعده معاوية بن ثور، ثم ملك الحارث بن معاوية فكان ملكه أربعين سنة، وخلفه وهب بن الحارث فملك مدة عشرين سنة. ونصل بعد هؤلاء الملوك الذين لا نعرف عنهم الشيء الكثير والذين حكموا على ما يبدو قبل نزوح كندة من حضرموت إلى نجد، إلى حجر بن عمر أول ملوك كندة في نجد. وحجر هذا، هو حجر بن عمرو بن معاوية بن ثور بن مرتع بن معاوية على ما يذكر حمزة الأصفهاني، أو حجر بن عمرو بن معاوية بن الحارث الأصغر بن معاوية بن الحارث الأكبر بن معاوية بن كندة، على ما ينقل لنا ابن خلدون ويقول د. سعد زغلول[2]: بأنه أول من أقام مملكة «كندة» هو الملك حجر بن الحارث بن عمر مؤسس مملكتها الحقيقي عام ٤٨٠م.

يلقب حجر بن عمرو بـ «آكل المرار»[3]، لأنه أكله ولم يحس به لغضبه وبهذا عُرف بآكل المرار[4] وقد ولاه حسان بن تبع، أخوه لأمه، بعد أن دوخ بلاد العرب وسار في الحجاز، على معد بن عدنان كلها، فدانوا له وسار فيهم أحسن سيرة. ويذهب فيليب حتى إلى القول بأنه، كما كان الغساسنة عمالا للبيزنطيين، واللخميون عمالا للفرس، فقد كان كذلك ملوك كندة في أواسط الجزيرة العربية في «نجد» عمالا لتبابعة اليمن المتأخرين. ويحدد حتى تاريخ تولي حجر على معد بسنة

(١) د. نبيه عاقل – المرجع السابق ص٢١٠.

(٢) د. سعد زغلول عبد الحميد – في تاريخ العرب قبل الإسلام ص٢٣٣.

(٣) المرار: عشب مر إذا أكلته الإبل قلصت عنه مشافرها فبدت أسنانها، وقيل إن حجرا سمي بآكل المرار لكسر كان به، كما قيل إنه كان في نفر من أصحابه في سفر، فأصابهم الجوع، فأما هو فأكل المرار حتى شبع، فعرف بآكل المرار، وهناك أقوال أخرى.

(٤) سهيل زكار – تاريخ العرب والإسلام – ص٢٨.

٤٨٠م. وهو أول زعيم من زعماء كندة تمكن من توحيد صفوفها وفرض سيطرتها على القبائل الأخرى وتوسيع رقعة أرضها حتى بلغت حدود مملكته حدود مملكة اللخميين. وتذكر إحدى الروايات أن حجرًا نزل بنجد في موقع يقال له «بطن عاقل» في جنوب وادي الرمة على الطريق بين مكة والبصرة. وكان هذا الجزء من نجد يقع تحت سيطرة المناذرة يسكنه جماعة من بني بكر بن وائل. فحين نزل حجر به جمع حوله بني بكر ونهض بهم فحارب المناذرة واستخلص أرض بكر منهم. ويستخلص من رواية أخرى أنه غزا عُمان، وأن أحد الأمراء الغساسنة استغل فرصة غيابه عن بلاده فأغار على أرضه وأخذ أموالاً كثيرة وسبى بعض نسائه ومن بينهن قينة كانت من أحب قيانه إليه. ولما عاد حجر من غزواته هذه وعرف بما كان من غدر الغساسنة به، سار مسرعًا فلحق بأرض غسان واسترد أمواله ونساءه. كما قام بحملات ضد القبائل الساكنة في الحجاز شمال الجزيرة العربية والبحرين. وفي فترة من الفترات وصل بفتوحاته حتى حدود دولة المناذرة وانتزع منهم بعض أراضيهم. كما مدّ سلطانه على اليمامة. وقد توفى حجر ودفن ببطن عاقل عام ٥٢٨م. إن حكم حجر كان في الربع الأخير من القرن الخامس الميلادي. وقد تزوج بزوجات ثلاث هن: هند بنت ظالم وكانت تعرف بهند الهنود، وأم أناس بنت عوفْ الشيباني وهي أم الحارث بن حجر، والزوجة الثالثة من حمير. ويبدو أن حجرًا كان يهدف من وراء هذه الزيجات الثلاث أن يقيم علاقات مصاهرة مع قبائل عربية مختلفة حتى يوطد حلفه بها ويرتبط بها برباط متين، وهذا ما كان يفعله سادة القبائل العربية في الجاهلية. خلف حجرًا ابنه عمرو بن حجر، وقد عرف بعمرو المقصور؛ لأنه «قصر على ملك أبيه». كان لعمرو أخ اسمه «الجون» تولى حكم اليمامة، فلم يبق تحت حكم عمرو سوى نجد[1].

يظهر عن عمرو هذا أنه لم يكن قويا. ويقول ابن الكلبي أن عمروًا المقصور كان في جملة الذين دخلوا في خدمة حسان بن تبع سيد حمير، حتى أنه لم يتلقب بلقب «ملك» بل عرف فقط باسم «سيد كندة»، ولما قتل عمرو بن تبع أخاه حسان بن تبع وأصبح ملكا مكانه، دخل عمرو المقصور في خدمة عمرو بن تبع واصطنعه هذا الأخير واعتمد عليه وزوجه ابنة أخيه حسان. وقد ولدت ابنة حسان بن تبع لعمرو المقصور ابنه الحارث الذي سيكون له شأن كبير بعد وفاة أبيه وتسلمه ملك كندة والذي عين أبناءه على قبائل نجد ومنهم ابنه صخر والد امرئ القيس[2]. وكانت علاقة عمرو المقصور مع اللخميين علاقة ود وحسن جوار، حتى أن الأسود بن المنذر ملك الحيرة تزوج ابنة عمروا المقصور، فولدت له النعمان الأسود الذي حكم في زمن قباذ أربع سنين. أما صلاته بالغساسنة فلم تكن كذلك، ويذكر اليعقوبي أخبار غزوة قادها عمرو ومعه ربيعة ضد بلاد الشام، ويبدو أن هذا الجفاء بين عمرو والغساسنة هو الذي قرب بينه وبين المناذرة اللخميين. وقد كانت نهايته، على ما

---

(١) د. نبيه عاقل - المرجع السابق ص٢١١ .

(٢) جواد علي - تاريخ العرب قبل الإسلام - الجزء الثالث ص٣١٥ ـ ٣٨٦.

يذكر اليعقوبي، على يد الحارث بن أبي شمر الغساني الذي قتله أثناء معركة قامت بينهما وكان الحارث الخامس أشهر ملوك الغساسنة والذي جعله «يوستينانوس» قائدًا وأنعم عليه بالتاج ومنحه السلطة المطلقة على القبائل العربية في بلاد الشام[1]. انتقل الملك بعد وفاة عمرو بن حجر أو عمرو المقصور إلى ابنه الحارث بن عمرو من زوجته ابنة حسان بن تبع. وقد استطاع الحارث بعد هذا أن يوسع ملكه ويمد نفوذه، فصار ملكًا على كندة وبكر وقبائل أخرى. وقد امتد حكمه من ٤٩٥ - ٥٢٨، وكان الحارث أقوى ملوك كندة، من أسرة آكل المرار، وقد تولى الإمارة على بكر. وحول هذا الموضوع يتحدث أبو عبيدة: فيقول أنه حين ساءت أحوال هذه القبيلة إلى حد كبير «وغلبها سفهاؤها وتقاطعت أرحامها، فارتأى رؤساؤها وقالوا: إن سفهاءنا قد غلبوا على أمرنا، فأكل القوي الضعيف، فنرى أن نملك علينا ملكا تعطيه الشاة والبعير، فيأخذ للضعيف من القوى ويرد على المظلوم من الظالم، ولا يمكن أن يكون من بعض قبائلنا، فيأباه الآخرون، فيفسد ذات بيننا، ولكننا نأتي تبعًا فتملكه علينا، فأتوه، فذكروا له أمرهم، فملك عليهم الحارث بن عمرو آكل المرار الكندي». وكما مد نفوذه على بكر، فقد نجح الحارث في مد نفوذه على الحيرة في الفترة ما بين ٥٢٤ - ٥٢٨[2].

يرجع نجاحه في بسط نفوذ كندة على الحيرة، وانتزاع السيادة عليها من المناذرة، إلى سببين، على ما يذكر حمزة الأصفهاني. وأول هذين السببين أن الملك الفارسي قباذ أهمل شؤون مملكته وتغاضى عن سياسة رعيته ورعاية أمورهم، كما أنه أخذ بزندقة مزدك. وقد أدى كل هذا إلى صدام بين قباذ والمنذر بن ماء السماء الذي رفض الدخول في المزدكية ولم يرضخ لضغط قباذ. وهرب المنذر من دار مملكته بالحيرة ومضى حتى نزل إلى الجرسا الكلبي، وأقام عنده، وكان كسرى قد أمر باسترداد ودائع النعمان من بني شيبان الذين امتنعوا عن رد الودائع مما أدى إلى إرسال جيش كسرى ضد قبيلة «بني شيبان»[3] الذين حققوا أكبر انتصار لهم وللعرب أجمعين على الفرس في يوم «ذي قار» إلى الشمال من «الكاظمة» وإلى الجنوب الغربي من البصرة وذلك في عام ٦١٠م وهو العام الذي بعث فيه رسول الله محمد ﷺ وقال: «هذا يوم انتصفت العرب فيه من العجم وبي نصروا»[4]، وقال فيه هانئ بن مسعود: «إن الحذر لا يدفع القدر، وإن الصبر من أسباب الظفر، المنية لا الدنية، واستقبال الموت خير من استدباره، والطعن في الثغر أكرم من الطعن في الدبر، يا قوم جدوا فما من الموت بد...»[5]. ولما مات قباذ وملك ابنه كسرى أنوشروان وسار في الملك بسيرة مخالفة لسيرة أبيه ولا سيما فيما يتعلق بالمزدكية، عاد المنذر إلى حاضرة ملكه وطرد منها الحارث بن عمرو الكندي. أما السبب الآخر في رأي حمزة، فهو أن: «امرئ القيس البدء كان يغزو قبائل ربيعة، فينكى فيهم،

---

(١) كارل بروكلمان ـ تاريخ الشعوب الإسلامية ص٢٣

(٢) د. نبيه عاقل - المرجع السابق ص٢١.

(٣) إحسان النص العصبية القبلية في الشعر الأموي ص١٥٦.

(٤) عمر فروخ - تاريخ الجاهلية ص١٤٥.

(٥) علي الجندي شعر الحرب في العصر الجاهلي ص٤٠.

ومنهم أصاب ماء السماء. . ، ثم أنه ترك الحزم في غزوة من غزواته، فثارت به بكر بن وائل إلى أن وهى أمر الملك قباذ، فعندها أرسلت بكر إلى الحارث بن عمرو بن حجر» فملكوه عليهم، ونهضوا معه حتى أخذ الملك ودانت له العرب. وقد عظم سلطان الحارث، وبعد أن سيطر على الحيرة، وفخم أمره، واستطاع أن يولي أولاده ملك قبائل بكر وتميم وقيس وتغلب وأسد. كما أن من حل نجدًا من أحياء نزار غدا تحت سلطانه، وظل الحارث ملكًا على قبائل معد حتى ملك أنوشروان[1].

لما ملك فارس كسرى أنوشروان وأعاد المنذر بن ماء السماء إلى ملك الحيرة، كان الحارث بن عمرو يومئذ بالأنبار، فلما بلغته عودة المنذر إلى عرش الحيرة خرج هاربًا في أصحابه وماله وولده. فتبعه المنذر بالخيل من تغلب وإياد وبهراء، فلحق بأرض كلب ناجيًا بنفسه. ولكن بني تغلب أنتهبوا ماله وهجائنه وأسروا ثمانية وأربعين شخصًا من أفراد أسرته وقدموا بهم على المنذر فضرب رقابهم. وكان بين هؤلاء الأسرى ابنا الحارث عمرو ومالك، فأعدما مع الباقين. وكان الحارث قبل هذا الحادث قد وزع أبناءه ملوكا على قبائل معد، كما ذكرنا، فولى حجرا أكبر أبنائه على بني أسد بن خزيمة وغطفان، وقيل على بني أسد وكنانة، وملك ابنه شرحبيل وهو الذي قتل في يوم الكلاب على بكر بن وائل بأسرها وبني حنظلة بن مالك بن تميم، وبني أسد بن عمرو بن تميم والرباب، وولي ابنه معد يكرب على قيس عيلان وطوائف أخرى. أما سلمة، أصغر أبنائه، فقد أقامه على بني تغلب والنمر بن قاسط وبني سعد بن زيد مناة. أما ابنه قيس بن الحارث فقد كان سيارة، أي يصبح ملكا على أي قوم نزل بهم[2].

اختلف الرواة في مصير الحارث بن عمرو. وكانت نهايته، عند اليعقوبي، على يد ملوك الحيرة، وقام أولاده بعده بقتال المنذر انتقاما لمقتل أبيهم. إن الحارث كان من الرجالات العظام الذين لم يلعبوا دورًا بارزًا في السياسة المحلية في عصرهم فحسب، بل تعدى دورهم السياسي حدود منطقتهم إلى العالم المجاور، إذ يذكر المؤرخ البيزنطي تيوفانس بأن رومانوس حاكم فلسطين في عهد الإمبراطور أناستازيوس أسر سنة ٤٩٧ قائدين عربيين أحدهما الحارث بن عمرو. وبعد أربع سنين من هذا الحادث، قام معد يكرب بن الحارث بهجوم انتقامي على فلسطين فاضطر أناستازيوس أن يعقد صلحا مع الحارث بن عمرو يضمن به أمن المدن السورية من هجمات كندة. ويرى بعض المؤرخين أن هذا الصلح بين بيزنطة وكندة كان موجها أيضا ضد الفرس وحلفائهم المناذرة. كما أننا لا نعرف شيئًا واضحًا عن أثر هذا الصلح على العلاقات بين كندة والمملكة الغسانية في بلاد الشام، ويرجع الغساسنة إلى القبائل اليمنية ومدة حكمها تتجاوز القرن ونصف القرن ويصل عدد ملوكها لثلاثين[3].

---

(١) د. نبيه عاقل - المرجع السابق ص٢١ .

(٢) د. نبيه عاقل - نفس المرجع ص٢٢.

(٣) عبد اللطيف الطيباوي - محاضرات في تاريخ العرب والإسلام - ص١٨١ .

كان الحارث قبل وفاته قد ولى أبناءه حكم القبائل التابعة له فكان من نصيب ابنه حجر بن الحارث حكم قبائل أسد وكنانة. وكانت أسد تقيم في زمنه في جنوب جبلي طيء، أجا سلمي الواقعين على جانبي وادي الرمة. ويقول اليعقوبي أنه كان سيء السيرة في بني أسد لذلك لم يقم في منازلهم بل أقام في تهامة خوفا من بطشهم به. وكان حجر أثناء حياة أبيه يرسل رسله كل سنة إلى أسد لجمع الإتاوة التي كانوا يدفعونها له. ولكن لما مات الحارث أراد بنو أسد اغتنام الفرصة لرفض طاعته والقضاء عليه، وهكذا لما جاءت رسل حجر طالبة الإتاوة السنوية منعوها عنهم وضربوهم وطردوهم. وبلغ الخبر حجراً فسار إليهم بجند من ربيعة وقيس وكنانة، واستباح ديارهم وقتل أشرافهم وأسر عدداً كبيراً من رجالاتهم وأرسلهم إلى تهامة. ولكن ما لبث هؤلاء الأسرى أن قفلوا عائدين وهاجموا معسكر حجر وقتلوه. وبعد مقتله انضمت كنانة وقيس إلى بني أسد في نهب معسكره. أما أخوه شرحبيل بن الحارث فكان أبوه قد ملكه على بكر بن وائل وحنظلة ابن مالك وبني أسيد والرباب من مضر، وكان نصيبه القسم الشرقي من نجد من أملاك أبيه ما عدا البحرين. وكان سلمة بن الحارث، أخوه، ملكًا على تغلب والنمر بن قاسط وسعد بن زيد مناة[1]. كانت خطة المنذر ملك الحيرة حين عجز عن القضاء على أولاد الحارث بن عمرو أن يفرق بينهم بالدسائس والوقيعة، ويعتبر المنذر من أشهر ملوك الحيرة وكان عصره من أزهى عصور المناذرة[2]. فوجه إلى سلمة بعض الهدايا، وأرسل إلى أخيه شرحبيل من يقول له: إن سلمة أكبر منك، وهذه الهدايا تأتيه من المنذر. وظل يوقع بينهما ويدس الدسائس حتى تحاربا وقتل شرحبيل. ولما علم سلمة بمقتل أخيه، وكان ذلك في يوم من أيام العرب المشهورة يدعى بيوم الكلاب، جزع لذلك وادرك أن المنذر إنما أراد الوقيعة بينهما وتفريق شمله وشمل إخوته ثأراً منهم لما كان بينه وبين أبيه الحارث بن عمرو. وبعد مقتل شرحبيل اخرجت تغلب سلمة عنها، فالتجأ إلى بكر بن وائل فدانت له بالطاعة[3]، ولكن المنذر ملك الحيرة طلب إليهم أن يخلعوا طاعة سلمة فرفضوا، فزحف عليهم بجموعه وهزمهم وقتل منهم خلقًا كثيرًا على جبل أوارة، ويعرف هذا اليوم بيوم أوارة الأول الذي يقع قرب الكاظمة والتي تعرف بالجهرة في الكويت الحالية، أما «أوارة» فهي «المطلاع» في الكويت حاليا، وبذلك كان بطش ملوك الغساسنة والمناذرة كبيرًا بقبائل العرب، حيث وجدنا كيف بطش المنذر بن ماء السماء بقبيلة بكر من جماعة «الكندة» وقتل منها خلقا كثيرا كما اسر عددًا كبيرًا وأمر أن يذبحوا على جبل «أوارح» وأمر النساء أن يحرقن بالنار[4].

(١) د. نبيه عاقل - المرجع السابق ص٢١٧.
(٢) جرجي زيدان - العرب قبل الإسلام - ص٢٧٧.
(٣) جاد المولى - ايام العرب ص٩٩.
(٤) ابن الأثير - ١/ ٣٣٤

آخر أولاد الحارث، معد يكرب بن الحارث، فكان أبوه قد ولاه على قيس عيلان وطوائف أخرى. يقول تيوفانس المؤرخ البيزنطي أن شيخًا عربيًا اسمه Madıcaripos قام بغارة على فلسطين وأوغل فيها وأوقع الذعر في جند الروم. ويظن أن Madicaripos هذا، إن هو إلا معد يكرب بن الحارث. والذي يزيد في هذا الاعتقاد هو أن تيوفانس يذكر أن هذا الشيخ العربي كان شقيقًا لشخص يسمى Ogaros أي حجر (حجر بن الحارث) وكان من نتائج هذه الغارات أن عقد الإمبراطور الروماني أناستازيوس صلحًا مع الحارث بن حجر والدهما. وعلى هذا الأساس تكون غارة معد يكرب وأخيه حجر على فلسطين قد حدثت زمن أبيهما الحارث أي في حدود عام ٥٠٢ . ويشير الإخباريون إلى هذه الغزوات التي قام بها معد يكرب وأخوه حجر على حدود سوريا وفلسطين. وقد ظل معد يكرب رئيسا لقبائل قيس عيلان بعد مقتل أخويه شرحبيل وحجر وموت أخيه سلمة. وقضى الشطر الأخير من حياته حزينا على فقد أخويه حتى اعتراه وسواس هلك به». وهكذا قضى أولاد الحارث بن عمرو واحدا بعد الآخر، ولم يبق من نسله سوى حفيده امرئ القيس بن حجر بن الحارث[1].

يتحدث صاحب الأغاني عن قتل حجر بن الحارث ويقول: إنه لما طعن حجر وقبل أن يلفظ أنفاسه أرسل رسولا من قبله إلى أولاده وحمل كتابًا يشرح فيه مقتله أمام قتلته، وطلب من الرسول أن يطوف على أولاده ويدفع لهم كتابه فمن لم يجزع واظهر بأسًا وتشددًا أعطاه سلاحه وخيله ووصيته وطلب إليه الأخذ بثأره. وقد طبق الرسول وصية حجر فطاف بأولاده جميعًا فظهروا الجزع والضعف لمقتل أبيهم، حتى جاء امرؤ القيس، وهو أصغرهم فوجده مع نديم له يشرب الخمر ويلعب بالنرد. فأخبره بمقتل أبيه فلم يلتفت إلى قوله حتى إذا ما فرغ من لعبه، سأل الرسول عن الخبر فحدثه به. وكان حجر قد وطد ابنه امرئ القيس «وآلى الا يقيم معه أنفة من قوله الشعر، وكانت الملوك تانف من ذلك. فكان يسير في أحياء العرب ومعه أخلاط من شذاذ العرب، فإذا صادف غديرًا أو روضة أو موضع صيد أقام فذبح لمن معه في كل يوم، وخرج إلى الصيد تصيد ثم عاد فأكل أكلوا معه وشرب الخمر وسقاهم وغنته قيانه. ولا يزال كذلك حتى ينفذ ماء الغدير ثم ينتقل معه إلي غيره. فأتاه خبر أبيه ومقتله وهو بدمون من أرض حضرموت. . فلما تاه بذلك قال: ضيعني صغيرًا، وحملني دمه كبيرًا، لاصحو اليوم ولا سكر غدا، اليوم خمر وغدا أمر وآلى ألا يأكل لحما ولا يشرب خمرا ولا يدهن بدهن حتى يدرك بثأره». وارتحل امرئ القيس ونزل ببكر وتغلب وسألهم أن ينصروه على بني أسد فاجابوه لذلك. وعلم بنو أسد بما ينويه لهم امرئ القيس فساروا حتى نزلوا منازل بني كنانة لكن لما عرفوا أن امرئ القيس سائر في إثرهم إلى منزلهم الجديد، تركوا بني كنانة. وحين وصل

(١) د. نبيه عاقل - نفس المرجع ص٢١٨ .

امرئ القيس إلى ديار كنانة وعـرف بارتحال بني أسد عنهم، تابع سيره في إثرهم فأدركـهم ظهر اليوم التالي وقد أنهك السـير خيله ورجاله وأضناهم العطش والجوع. وبنو أسد في أحـسن حال وقد نزلوا قرب عين ماء. ورغم ذلك استطاع أن ينازلهم وأن يقتل منهم خلقا كثيرا ففروا مجددا. ولما طلب من صحبه مـن بكر وتغلب السير معه مجـددا لملاحقة الأسديين رفضوا بحـجة أنه أصاب ثأره منهم ولا مبرر لمطلبه وكرهوا الاستمرار في الحرب[1].

وبذلك قتلـت «بني أسد» ، «حجـر» والد امرئ القـيس بعد أن انهزمت كنـدة وغنمت أسد أموالهم، حيث يقول عبيد بن الأبرص[2]:

هلا سألت جموع كندة يوم ولوا هاربينا

فلما يـئس من نصرتهم أخـذ يتنقل بين قبـائل اليمن طالبـا النصر منهـا على خصـومه دونما جدوى. ويبدو أن بني أسد طلبا حماية المنذر بن ماء الـسماء فمنحهم إياها، وأخذ المنذر زمام المبادرة في هذه المشكلة فأخـذ يسرح الجيـوش في طلب امرئ القيس، فـانفض عنه من كان معـه من رجال واضطر هو للانتقال بين قبائل العـرب طالبا الحمايه الشخصية لشخصـه وأصحابه. وكان آخر من نزل به وطلب، حمايته السمـوأل بن عادياه صاحب تيماء. وقد أكرم السموأل امـرئ القيس ومنحه الحماية والرعاية. ويبـدو أن امرئ القيس طلب من السمـوأل أن يكتب له إلى الحارث بن أبي شمر الـغساني ليكون وسيلته إلى الإمبراطور البيزنطي جستـنيان، علّ هذا الأخير يساعده على الفوز بثاره. وبعد أن انتهت المراسلات قرر امرؤ القيس السفر، وأودع السمول دروعه وأهله، وسار قاصدًا القسطنطينية. لما وصل حاضرة البيزنطيين أكرمه الإمبراطور جستنيان وأدخله مقره. ويقول ابن قتيبة أنه كان للإمبراطور ابنة نظرت إلى امرئ القـيس فعشقـت فكان يأتيها وتأتيـه. فبلغ ذلك بني أسد، فأضـمروها وانتظروا نتيجـة مساعيه مع الإمبـراطور، فلما عرفوا أن الإمبراطور مـوفد معه جيشًـا لنصرته عليهم، أرسلوا شخصا منهم كان امـرئ القيس قد قتل أباه، إلى الإمبراطور وحدثه بالعلاقـة المريبة بين امرئ القيس وابنته، وأنه يقول الشعر الغزلي بها ويفضحها بين أحياء العرب. فامتلأت نفس الإمبراطور غيظا وعزم على الانتقام من امـرئ القيس فبعث إليـه بحلة شي منسوجة بالذهب ولكنها مـسمومة. فلما لبـسها أسرع السم في جســمه وسقط جلده ولذلك سمي بذي القـروح. ولما وصل إلى أنقرة من بلاد الروم وهو في طريق عودته إلى بلاده مات متأثرا بقروحه ودفن هناك[3].

ومن شعر امرئ القيس[4]:

---

(١) د. نبيه عاقل - نفس المرجع ص٢٢١

(٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة - ١/ ١٢١.

(٣) د. نبيه عاقل - المرجع السابق ص٢٢٢.

(٤) ديوان امرئ القيس - ص٦٦.

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه وأيقن أنا لاحقان بقيصر

فقلت له لا تبك عينك وإنما نحاول ملكا أو نموت فنعذرا

لما مات امرئ القيس سار الحارث بن أبي شمر الغساني إلى السموأل طالبه بأدراع امرئ القيس، وكان مائة درع وبما له عنده، فرفض السموأل أن يسلمها إلى الحارث. عند ذاك أخذ الحارث ابنا للسموأل وهدده إذا لم يسلمه الأدراع فإنه سيقتل ابنه. وأبى السموأل تسليم ما بعهدته، فنفذ الحارث تهديده وقتل ابن السموأل. ويعتبر هذا الحادث خير مثال على الوفاء بالعهد. هكذا انتهت دولة كندة، ولم يبق من الكنديين سوى جيل من أحفاد آكل المرار من آل معاوية الجون أخي عمرو المقصور ظلوا يحتفظون بالرئاسة في البحرين ونجد وحضرموت، وقد قاتلا المسلمين في حروب الردة، ثم ما لبثوا أن انضووا تحت لواء الإسلام. أما اليمن فقد خضعت للنفوذ الحبشي منذ عام ٥٢٥، وتركتها بعض قبائلها وهاجرت إلى نجد والعراق ودخلت تحت سيطرة اللخميين.

لم يكن الكنديون أصحاب حضارة راقية تشبه حضارة المناذرة أو الغساسنة، فقد حافظوا على النظم والحياة البدوية، ولم يقيموا في حاضرة ثابتة، بل كانوا يتنقلون بين الجنوب والشمال، واستعملوا الخيام كمساكن ولم يعرف عنهم بناء المدن والقصور. وكان ملوكهم يقضون أوقاتهم في الحرب والصيد، وظهر منهم شعراء عظام من أمثال امرئ القيس بن حجر ومعد يكرب بن الحارث وغيرهما. أما ديانتهم فكانت وثنية ومن أصنامهم المشهورة ذو الخلصة الذي انتقلت عبادته إلى عرب الحجار فيما بعد وقد تسربت الديانة اليهودية إليهم فاعتنقها بعضهم، ويبدو أنها جاءتهم بسبب مجاورة اليهود لبني كنانة في يثرب وخيبر، وبسبب اتصال الكنديين بالتبابعة الحميريين في عهودهم الأخيرة وتبعيتهم لهم. أما المسيحية، فكانت أكثر انتشارا في نجد من اليهودية، واعتنقها بنو تغلب وجماعة من بني أسد، وقد انتقلت إليهم عن طريق الغساسنة وعباد البحيرة وأحباش اليمن. ولعل أهم ما يجب أن نذكره عن الكنديين أنهم كانوا زعماء اتحاد قبلي يضم قبائل مختلفة تعترف بزعامتهم وتدين بالولاء لهم. وقد ساعد وجود هذا الاتحاد القبلي الذي يدين بالزعامة لكندة إلى استقرار شؤون القبائل في الجزيرة العربية ونشر الأمن والنظام فيها. ولما ضعفت كندة حلت محلها في السيادة على القبائل دولة المناذرة، ولكن لفترة قصيرة، فلما سقطت دولة المناذرة تفككت عرى الحدة القبلية في الجزيرة واستقل كل منها في شؤونه وأموره الداخلية، حتى جاء الإسلام فأعاد الوحدة لهذه القبائل وضمها تحت جناحيه وسار بها ليقيم دولة الإسلام[1].

أسواق العرب:

العرب يقيمون أسواقًا في أوقات محددة من كل عام، وقد اشتهر منها عكاظ. يقول سعيد الأفغاني:

---

(١) د. نبيه عاقل - نفس المرجع ص٢٢٢ .

«ينزل السوق قريش وهوازن، وطوائف من العرب يؤمونها من العراق والبحرين واليمامة وعُمان والشحر واليمن وسائر أطراف الجزيرة. وهي عامة حتى أنه ليس فيها مكاس ولا عشار، لأنه لم تكن في ملك أحد من الأمراء. وقربها من مكة ومشاعر الحج ألبسها حرمة تتقصف دونها مطامع الكبراء. ولعل من أهم ميزاتها صفتها العامة هذه.

«هي إذن معرض عام للجزيرة العربية: فيها عرض لتجارات جميع الأقطار، وعرض للبيوع، وعرض للعادات والأديان، واللغات والآداب، وللسياسة، وفيها لجان رسمية، على نحو ما نألف في معارضنا اليوم. تحكم للمتفوق بتفوقه، وتزيد عن معارضنا بميزة جميلة وهي صهرها لعادات القبائل ولغاتها ومواصفاتها لتنتقي منها أصلحها، وأخلقها بالبقاء.

أطلق القرآن على العهد الذي سبق ظهور الرسول اسم «الجاهلية» أو العصر المظلم، وهو اسم يُجمل في لفظة واحدة ما قد يحتاج التبسط فيه إلى مجلدات. والصورة التي ترسمها إنما تمثل حالة الانحطاط التي تردى فيها الوثنيون العرب، واليهود، والنصارى على حد سواء. لا، بل إنها تثبت أن الفساد كان متفشيا في طول العالم وعرضه، وكانت الحروب أبرز ظاهرة يتميز بها العصر الجاهلي «ولو تساءلنا عن دافع هذه الحروب والغزوات أو الغارات القبلية لوجدنا بأن أسبابها التنافس على المراعي أو الماء كما حصل في يوم «سفوان» عندما التقت قبيلة بني مازن وقبيلة بني «شيبان» على منطقة صغيرة في الجنوب الغربي من البصرة إلى الشمال من حدود الكويت الحالية يسمى «سفوان» فزعمت كل قبيلة أنه ملكها مما أدى ذلك إلى حرب كبيرة بينهما[1]. بيد أن هذا لا يفترض ضرورة أن العالم لم يشهد قط من قبل وضعًا أفضل، ولكنه يعني أن أيما حضارة وحياة أخلاقية قدر لهما أن ينشآ في أيما مكان بفضل الأنبياء الذين بعثهم الله إلى مختلف الشعوب بين فترة وأخرى كانت قد تلاشيتا بالكلية بسبب تطاول الأحقاب والزمان. لقد كانت جميع شعوب الأرض محرومة، لذلك العهد، من حالة الحضارة الحقيقية. وإنما انبعثت هذه الكلمات من فم رجل كان، من غير ريب، أميا بكل ما في الكلمة من معنى. وهذا الرجل لم تتح له أية فرصة للضرب في أرجاء العالم لكي يدرس أحوال البلدان المختلفة، لا ولم يكن في ميسوره أن يفيد من مثل نظام الإعلام العصري الذي كان خليقًا به، لو عرف في تلك الأيام أن يعرفه إلى حال العالم في ذلك الزمان. ومع ذلك، فإن نظرة إلى صفحات التاريخ تعزز صدق ذلك التوكيد على نحو رائع. فباستثناء هذه الواقعة التي تقول بأن أوربا عرفت إمبراطورية جبارة في الجزء الجنوبي الشرقي منها ـ إمبراطورية روما النصرانية ـ كانت الديار الأوربية غارقة في حال من البربرية بالمعنى الحرفي للكلمة. وكانت آسيا، من بين القارات جميعًا، هي مهد الحضارة في عهد ما. ولكن أيما دراسة لمختلف البلدان التي تؤلف مهد الفلسفات والديانات هذا لتظهر أن الفسوق المحض كان ههنا، شأنه في أي مكان آخر، هو القاعدة الغالبة.

---

(١) المصدر السابق - ص٢٠٩

والهند، التي كانت ذات يوم مركز الثقافة الشرقية القديمة، تبدو هنا بالصورة الرهيبة نفسها. كانت أشياء شنيعة، وضيعة، شائنة تعزى حتى إلى ما كان الناس يعتبرونهم أنصاف آلهتهم. كان الشر قد استبد بهم إلى درجة جعلتهم يصورون، حتى الأطهار الأعفة، في ألوان قاتمة[1].

وكانت فارس والصين، أيضًا، تترديان في الحمأة نفسها. نجد أن العرب عبدوا الأصنام وآمنوا بالدهرية التي تدعي أن الطبع هو المحيي وأن الدهر هو المفني والذي قال عنه القرآن الكريم: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ... ﴿٢٤﴾﴾ [الجاثية]. وبذلك كانت الأشياء المادية محط أنظارهم وعبادتهم كالحجارة والأشجار والجبال مما جعلت البدوي يعتقد أن ثمة روحانية تتواجد في هذه الأشياء وتعطيها فائدة حيوية[2]. ولعل مرد ذلك إلى أن قرونًا مستطاولة تقضت على ظهور آخر الأشخاص الأطهار الصالحين، وأن الإصلاح والحضارة القديمين ـ إذا وجدا ـ كانا قد ضعفا تدريجيا، وانتهيا آخر الأمر إلى الزوال. يقول القرآن الكريم: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الحديد].

وكان في المدينة عدد كبير من اليهود. بينما اعتنقت قبائل غسان وتغلب وقضاعة النصرانية بحكم مخالفتهم للرومان ومجاورتهم لبلاد الشام، حيث كانت تسود النصرانية. وكذلك فقد كان في اليمن بعض اليهود وعدد من النصارى بحكم قربهم من الحبشة. ولكن بعضهم عبد الكواكب. وأما في البحرين والعراق فقد كان الناس يعتنقون المجوسية التي تقوم على تقديس النار، لقربهم من بلاد فارس حيث كان يسود ذلك المعتقد. ولكن وثنية العرب لم تكن كالوثنية المعروفة عند الشعوب الوثنية، فهم لم يكونوا ينكرون وجود الله، والقرآن الكريم نفسه يشهد بذلك: ﴿قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [المؤمنون]. ويعتبرون أصنامهم وسيلة تقربهم إلى الله: ﴿... وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ... ﴿٣﴾﴾ [الزمر]، ﴿... وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ... ﴿١٨﴾﴾ [يونس]. كذلك كانوا يعتقدون أن الملائكة والنفوس الإنسانية المقدسة والسيارات السماوية (الكواكب) لها دخل في تدبير نظام الكون، ولذلك كان العرب يعبدون الأجرام والكواكب مثل الشمس والقمر لأنها تعطي النمو كما أن البعض يخاف منها لأنها تحرق العشب وتدمر المراعي[3]. ولذلك كانوا يرجعون في

---

(١) مولانا محمد علي ـ المرجع السابق ص١٩ .

(٢) علي إبراهيم حسن - التاريخ الإسلامي - ص١٥٤.

(٣) لطفي عبد الوهاب يحيى - العرب في العصور القديمة ص٨٥.

أمورهم إلى آلهتهم المصنوعة لا إلى الله عز وجل، مع أن إبراهيم بنى الكعبة في مكة رمزًا للتوحيد وبقي في الجزيرة بعض الموحدين لحين ظهور الإسلام. ونستنتج من ذلك أن الضلال والانحراف الذي أصاب العرب لا يختلف كثيرا عن الانحرافات التي أصابت الديانات التي سبقت الإسلام من إشراك مع الله وتقديس للمغيبات، وغير ذلك[1].

لا يعرف بالتحديد مصدر الوثنية ولا كيف دخلت الجزيرة العربية. ويقال إن أصل عبادة الأصنام حدثت عندما كثر أبناء إسماعيل عليه السلام، واضطروا إلى أن يخرجوا من مكة طلبًا للعيش فكانوا يحملون عند خروجهم شيئًا من تراب الحرم الذي يحمل ذكر الكعبة، أثر أبيهم إسماعيل، ثم جملوا هذا التراب للحفاظ عليه، وتطورت الذكرى إلى تقديس وعبادة. وكان العرب في جاهليتهم يحجون إلى مكة، ولم يكن من الممكن الحج في ظروفهم القائمة على الغزو والقتل والسلب والنهب. فاتفقت مختلف القبائل على وقف القتال أربعة أشهر هي الأشهر الحرم، وهي ثلاث متتالية: ذو القعدة، وذو الحجة، ومحرم. وفيها يمتنعون عن القتال؛ لأن مناسك الحج تؤدى في ذي الحجة وكان يلزمهم شهر قبلها للحضور إلى مكة وشهر بعدها ليعودوا فيه إلى مواطنهم. أما رجب فقد حرم وهو في وسط السنة لأجل زيارة البيت والاعتمار[2].

نلاحظ أن بروز النصوص والآراء والمواقف في مكة وفي الحجاز عموما اقترن بازدهار نسبي لما أطلق عليه تعبير الحنيفية، أما على صعيد هذه الأخيرة فلعل الاحتمال كبير بأننا لن نكون قادرين على تقصي سماتها وآفاقها إن نظرنا إليها منفصلة عن الديانة المسيحية واليهودية اللذين سنلاحظ حضورهما في مكة والمدينة خصوصًا وفي الحجاز عمومًا[3]. ونشير إلى الاستحالة المذكورة في تكوين صورة أولية حول الحنيفية وغيرها كالدهرية عندما نهمل البحث في احتمالات وجود علاقات بينهما من طرف وبين بعض الاتجاهات الدينية والفلسفية المتحدرة من بلاد الروم والفرس في حينه من طرف آخر، مما تتمثل في العمل على تفكيك البنية الدينية والفكرية العامة التي تواجهها عشية الإعلان عن الوليد الجديد الإسلام في الحجاز مما يساهم في تحديد وضبط العناصر الدينية والفكرية التي واجهها رسول الله محمد ﷺ وانطلق منها باتجاه تأسيس دين الإسلام[4].

نجد أن النبي عيسى عليه السلام أقرب الأنبياء إلى الرسول محمد ﷺ من وجهة النظر الزمنية. وطبيعي أن يتوقع المرء أن يجد في الديار المسيحية، على الأقل، بعض آثار من الفضيلة والأخلاق. ولكن كيف كانت حال المسيحية في ذلك العهد؟ فلنرجع إلى شهادات الكتاب المسيحيين أنفسهم في هذا الموضوع. فقد رسم أحد الأساقفة صورة لتلك الأيام فقال إن المملكة الإلهية كانت

---

(١) احمد راتب عرموش - المرجع السابق ص١.
(٢) احمد راتب عرموش ـ نفس المرجع ص١ .
(٣) د. طيب تيزيني - مقدمات أولية في الإسلام المحمدي الباكر - جـ٤ - ص٥٦.
(٤) د. طيب تيزيني - نفس المرجع جـ٤ ص٥٩.

في اضطراب كلي، بل إن حالة جهنية حقيقية كانت قد أقيمت على سطح الأرض، نتيجة للفساد الداخلي. وقد عالج السير وليم ميووير هذا الموضوع فانتهى إلى النتيجة نفسها. قال: «وفق هذا فقد كانت مسيحية القرن السابع نفسها متداعية فاسدة. كانت معطلة بعدد من الهرطقات المتنازعة، وكانت قد استبدلت بإيمان العصور الأولى السمح صغارات الخرافة صبيانياتها». تلك صورة للنصرانية تمثل وضعها العام آنذاك. كانت وحدة الذات الإلهية قد احتجبت منذ عهد بعيد. وكانت عقيدة التثليث قد زادت إلى نشوء تعقيدات متعددة. وتنافست الفرق والهرطقات المختلفة في قدح زناد الفكر لتفسير هذه العقيدة. وأدى ذلك إلى إنشاء جمهرة من المؤلفات أبعدت الإنسان عن هدف الدين الحقيقي. والمؤرخ جيبون Gibbon في تعليقه على حادثة حرق مكتبة الإسكندرية الشهيرة من قبل المتعصبين من المسيحيين يبدي هذه الملاحظة الهامة: «ولكن إذا صح أن ركام الجدل الآريوسي والقائل بطبيعة المسيح الواحدة قد أحرق فعلا في الحمامات العمومية فإن في ميسور الفيلسوف أن يذهب إلى القول، في ابتسامة، بأن ذلك كان في مصلحة الجنس البشري». وكانت الشرور التي سادت العالم المسيحي، كالخمر والميسر والفسوق، غالبة حتى في تلك الأيام. ويروي دوزي Dozy عن الخليفة علي قوله في حق تغلب، وهي قبيلة نصرانية، «إن كل ما اقتبسته عن تلك الكنيسة هو معاقرة الخمر». وبكلمة مختصرة، فإن المسيحية - وهي آخر ديانات العالم المنزلة - كانت في ذلك الحين في حكم المفقودة. كانت قد فقدت كل قدرتها الدافعة التي تمكنها من إحداث إصلاح أخلاقي. وإلى هذا، فإن الدرك الذي تردى فيه المجتمع الإنساني كله، في طول العالم وعرضه، ليقيم الدليل على صحة التوكيد القرآني[1].

وكانت هناك عند العرب فئة لم تطمئن للوثنية أو المسيحية واليهودية وتركوا عبادة الأصنام وشرب الخمر واتخذوا حياة فطرية قامت على الأخلاق الفاضلة وإيثار المعروف وحب الخير واعتزلوا الحروب الجاهلية وزهدوا في متاع الدنيا وساح بعضهم في البلاد ترفعا وتنسكا[2]. وكان من ضمن هؤلاء ورقة بن نوفل والذي رآه الرسول محمد ﷺ في منامه وعليه ثياب بيض وقال عنه أظن لو أنه من أهل النار لم أر عليه البياض[3].

ولكن كيف كانت حال بلاد العرب نفسها؟ صحيح أن الشعر العربي كان في ذروة مجده، وأن الشعر الجاهلي يتكشف عن درجة كبيرة من المقدرة والبراعة. وصحيح أيضًا أن الكتابة لم تكن مجهولة عند العرب، ولكنهم نادرا ما أفادوا منها أو سخروها لأيما غرض نافع. وحتى شعرهم نفسه لم يدون تدوينا. والواقع أن قصائد العصر الجاهلي كلها تحدرت إلينا من طريق الرواية الشفهية ما عدا القصائد المعروفة بـ «المعلقات» التي دونت على ورق، وعلقت على جدران الكعبة. وفيما يتصل بكون

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص٢١.
(٢) عمر فروخ - العرب في حضارتهم وثقافتهم ص٨٣.
(٣) الأصفهاني - الأغاني جـ٣ ص١٤.

العرب قد طوروا فن الشعر بحسبنا أن نقول أن مجرد الشعر، بما هو شعر، لا يقدم لنا محكا ثابتا للمنزلة التي بلغها الشعب في سلم الحضارة.فالولوع بالشعر ملاحظ في جميع المجتمعات تقريبا، بالغًا ما بلغ إمعانها في الفجاجة والبداية. وتعليل ذلك ليس بالأمر العسير. فالأمة في مثل هذه المرحلة تنعم بقلة قليلة من الأشياء التي تثير شوقها ـ وهي أشياء لا تتضاعف إلا بنمو الحضارة واستبحارها، ومن هنا فإن عنايتها البالغة تنصب على الشكل الوحيد الذي في متناولها من أشكال الفن الجميل، وليس ذلك الشكل غير الشعر. ولكن حتى الشعر العربي خلو من رحابة الرؤيا وسمو الفكر اللذين لا يتيسران إلا بفضل الثقافة. إن كل ما يستطيع ذلك الشعر أن يعتز به هو جمال اللغة. كانت ثمة، من غير ريب، بعض السمات النبيلة في الخلق العربي، فقرى الضيف، وحب الحرية، والجراءة، والرجولة، والولاء القبلي، والكرم[1]، كانت بعض الصفات التي تفوق بها العربي على أقرانه جميعًا. وكانت الضيافة والكرم واجبة عند العربي على الفقير والغني ربما كان العربي يأخذ ناقة جاره كرها أو طوعا لإطعام ضيوفه وإن بعض الضيوف كانوا يطلبون الطعام الذي يشتهونه والغطاء الذي يحبونه[2]. وتعارف العرب بأن الضيافة ثلاثة أيام ولياليها وافتخروا بالجود والكرم أثناء القحط والجدب وأيام الشتاء الباردة[3].

لخص القرآن الكريم هذا التفسخ الكلي، أحسن تلخيص، في جملة واحدة: ﴿... وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ... ﴿١٠٣﴾﴾ [آل عمران]. حتى إذا نشبت المنازعات بينهم، مرة، استمرت أجيالا. وكثيرا ما أدت بعض السفاسف، ككلمة ازدراء توجه إلى بعضهم، أو إجحاف في الحكم في سباق للخيل، إلى مقتل آلاف وآلاف. واسوأ ما في الأمر أن المنتصرين في هذه الحروب كانوا يستعبدون المغلوبين والأسرى استعبادًا سرمديًا. تلك كانت هي الجماعة البشرية المنحطة التي رفعها الرسول إلى صعيد من الحياة الأخلاقية يغري بالحسد. لقد صهر العناصر المتنافرة في إخوة متناغمة لا نعرف لها في تاريخ العالم نظيرًا ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ... ﴿١٠٣﴾﴾ [آل عمران]. يا له من تحول خير جبار! . واحتلت المرأة مركزا وضيعا في المجتمع العربي. فباستثناء قصائد الغزل المنظومة في إطراء المحبوبات، وهي قصائد كانت ثمرة شهوة جسدية، كانت المرأة تعامل معاملة الحيوانات الدنيا. وكان تعدد الأزواج Polyandry، وهو من خصائص المجتمعات البشرية في مراحلها البدائية الأولى، شائعًا بينهم أيضًا. وإلى هذا، لم يكن ثمة أي حد لعدد الزوجات اللاتي يستطيع الرجل أن يقترن بهن. كان ذلك كله رهنا برغبته أو شهوته الخاصة. وبالإضافة إلى تعدد الزوجات كان في استطاعته أن ينشئ علاقات غير شرعية مع عدد من المعشوقات. وكانت الأسيرات يكرهن، بعد أن يجعلن

---

(١) مولانا محمد علي - نفس المرجع ص٢١ .

(٢) بولس سيور البولس - عوائد العرب - بيروت ١٩٨٣ - ط١١ .

(٣) حسن الحاج حسين - الحضارة في العصر الجاهلي - ط٩١ .

خادمات، على اكتساب المال لأسيادهن من هذه الطريق الوضيعة. وكان الرجال يجيزون لزوجاتهم أن يتصلن بالآخرين من أجل إنجـاب الأولاد. وكان ذلك الصنيع يدعى «الاستبـزاء» وهو شيء مشابه لما يُعرف بـ«نيوغا» Niyoga التي لا تزال سائدة بين الهندوس[1].

لم تكن المرأة الغـربيـة أو الأوربية أفـضل من العـربية فـقد كـانت عند اليـونان أحقـر أنواع المخلوقات وأنهـا رجس من الشيطان وتبـاع وتشترى وعند الرومـان ليس لها حـقوق مدنيـة حتى في العيش وأن المرأة التي لا تضع ولدًا قـويا يصلح للجيش تقتل وأن المرأة الولود تؤخذ مـن زوجها لتلد للوطن أولادا من رجل آخر[2].

وفوق هذا، فقد كـان العرب ينظرون إلى المرأة وكأنها متاع. وكانوا يحـرمونها أيما نصيب من إرث زوجها المتوفى، أو من إرث أبيها أو أي نسيب آخر من أنسبائها. بل إنها هي نفسها كانت تورث كجزء لا يتجزأ من تركة الميت. وكان من حق الوريث أن يتصرف بها كيف شاء. وكان في إمكانه أن يتزوجها هو، أو أن يزوجها من أيما امرئ يختاره. ليس هذا فحسب، بل إن الولد كان يستطيع، عند وفاة أبيه، أن يتـزوج حتى من زوجة ذلك الأب، بوصفهـا جزء من الإرث. ولم يكن الطلاق الشائع عندهم أقل بربرية. ذلك بأنه كان في ميسور الرجل أن يطلق زوجته ألف مرة وأن يستردها خلال مدة معينة تعرف بـ «العدة». وفي بعض الأحيان كان يقسم أن لا يقربها، وفي بعضها الآخر كان يعلن أنه سوف ينظر إليـها نظرته إلى أمه، تاركـا إياها في حال معلقـة، فلا هي بالمتزوجـة ولا هي بالمطلقة. وهذه الطرائق إنما كانت تُصطنع لمجرد إغـاظتها ومكايدتها. ولم يكن لها، ويا لبؤسـها، أي مفر من هذا المأزق المثيـر للإشفاق. وكانت أسـوأ ضروب اللغة الفـاحشة تُصطنع في التـعبير عن العـلاقات الجنسية. وكانت قصص الحب والاتصال المحرم تروى في غير مـا حياء وبكثير من الاعتزاز في قصائد ليس أكثر منها إمعـانًا في الإقذاع. وكان الخطاب يوجه في القصائد الغزلية توجيـهًا صريحًا إلى نساء الأسر النبيلة. والواقع أننا إذا نظرنا إلى الأحوال السائدة بين العرب في ما يتصل بوضع المرأة لم يكن من العسير علـينا أن نقدر أي عظيم يُثقل اعناق الجنس الناعم لمحمد ﷺ الذي انتشـلها من حضيض الضعة وأحلهـا مقاما عليـا. وحتى الحضارة الأوربية الحـديثة التي لا تحترم الجنس الناعم إلا احـتراما سطحـيا تقصـر عن منح المرأة هذه الحـقوق. إن احتـرام المرأة الحقـيقي يكمن فـي الإقرار بطهـارتها وبمساواتها الكاملة في الحقوق مع الرجل، وهما أمران لا نقع عليهما ـ مع الأسف ـ في الثقافة الغربية البتة[3].

في حين لقيت المرأة عند الـعرب في الجاهلية عطـفا من قبل الرجل واستـحسانًا في تصـرفاته وتفهما لوضعها الوظيفي والاجتماعي حتى في العصر الجاهلي[4].

(١) مولانا محمد علي – المرجع السابق ص٢٢.
(٢) غوستاف لوبون – حضارة العرب ص٤٩٢.
(٣) مولانا محمد علي – المرجع السابق ص٢٨.
(٤) د. عبد العزيز سالم – دراسات في تاريخ العرب – ص٦١٢.

وعلى سبيل المقارنة فلنلق نظرة على ما أدخله الإسلام على وضع المرأة من تحسين بالغ. وكانت الوصية القرآنية، ﴿ ... وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ... ﴿٢٢٨﴾ ﴾ [البقرة] هي «الوثيقة العظمى» Magna Charta، إذا جاز التعبير، التي أعلنت تحرير المرأة. وعلى الغرار نفسه أعلن الرسول الكريم: «خيركم خيركم لنسائه». ذلك كان هو التغير الذي أحدثه الإسلام في الجو كله، المشبع بالازدراء للمرأة. وليس من ريب في أن إرساء قواعد الإجلال للمرأة في أرض اعتبر فيها وأد المولود الأنثى أمارة من أمارات النبل هو خدمة للإنسانية غير يسيرة بأية حال. كان الرجل الجاهلي إذا ما «بشر بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب». وهكذا كان يحمل ابنته إلى الصحراء، ويوقفها على شفا حفرة أعدت قبيل ذلك، ويلقي بالطفلة المعولة بيديه الاثنين ويدفنها حية تحت ركام من التراب. ولقد أنبئ الرسول الكريم ذات مرة بحادثة من هذا الضرب، فاغرورقت عيناه بالدمع حزنا وإشفاقا[1].

نلاحظ أن من يلقي نظرة شاملة فاحصة على العالم قبل بعثة محمد ﷺ يجده عالما يمور بالفساد، عالمًا سيطر فيه الظلم، وانغمس في الظلمات. ظلم سياسي: حيث احتكر الحكم جماعة معينة من الناس، وفرضوا سلطانهم على الشعوب، دون أن يكون لأحد حق إبداء الرأي في منهج الحاكم أو تصرفه، فما بالك بحقه في التطلع إلى احتلال مركز القيادة السياسية في البلاد. كان هذا هو الحال في دولة الروم، وفي دولة الفرس، وفي الدول التابعة لهما كالغساسنة والمناذرة، وتدمر، وغيرها من الدول القائمة آنذاك. وظلم اجتماعي: حيث كانت الطبقية هي التي تسود المجتمعات، فالرومان يقسمون مجتمعهم إلى طبقتين، سادة وعبيد، أو رومان وشعوب، وكان لدى الدولة الرومانية قانونان، قانون تحكم به روما ويطبق على الرومان وهو القانون الروماني، وقانون تحكم به المستعمرات، وتحكم به الشعوب وهو القانون البروتوري، وبين القانونين مفارقات كبيرة، مع أن الدولة الرومانية كانت في وقتها أكثر دول الأرض عناية بالتشريع. فما بالك بدولة فارس التي كانت قوانينها مستمدة من وثنيتها، وما بالك بالعرب الذين لا قانون لهم ولا شريعة، وإنما هي مجموعة من الأعراف التي تختلف من قبيلة إلى قبيلة؛ هذا إضافة إلى أن المجتمعات قبل البعثة النبوية قد فقدت الرابطة بين أفرادها، إلا رابطة القبيلة التي كانت تقوم على أساس من العصبية الجاهلية. ظلم اقتصادي: إذ لم يفكر مجتمع من المجتمعات ولا دولة من الدول في إيجاد نظام يعني بالتوزيع العادل للثروة بين الناس، ولذلك وجدت طبقة متخمة بالمال، وأخرى لا تملك شيئا، ومن الطبيعي أن يكون الحكم للطبقة الغنية، ولذلك فإنها كانت تبتدع من السبل ما تظن أنه يروي نهمها، ولكن ذلك لا يزيدها إلا نهما، ومن هنا كان التعامل بالربا منتشرا، بل كان الإقراض بالربا، أضعافا مضاعفا، عرفا لا ينكره منكر[2].

---

(١) مولانا محمد علي - نفس المرجع ص٢٩ .

(٢) د. محمد رواس قلعه جي - قراءة سياسية للسيرة النبوية ص١٢.

ظلمات في العقيدة: لا يستثنى منها دين ولا مجتمع، فالرومان النصارى كانوا يعتقدون أن الله ثالث ثلاثة، وأن عيسى هو ابن الله، وأن هناك لاهوتا وناسوتا، والفرس يعتقدون بوجود إلهين اثنين أحدهما للخير والآخر للشر، والعرب يعتقدون بالله الخالق كل شيء ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ... ﴿٢٥﴾﴾ [لقمان]، وإلى جانبه آلهة متعددة، وإذا سألتهم فما بال هذه الأصنام قالوا: تقربنا إلى الذي في السماء، وكان يستتبع هذه الظلمات في العقيدة انحراف في العبادة وصل في كثير من الأحيان إلى حد يثير الضحك، فصلاة العرب الوثنيين مكاء وتصدية، خاليان من المعنى، ومجردان من الهدف، وحجهم يفرقون به بين أهل مكة والقادمين من الافاق، فالمكي يطوف بالكعبة بثيابه، والأفقي يطوف عاريا، والمكي يدخل خلال موسم الحج البيوت من أبوابها، والآفاقي يدخلها من ظهورها.

وكان رسول الله محمد ﷺ ينفر أصحابه من رواسب وظلم الجاهلية فيبتعدون عن مفاخرها وضغائنها: «فقد كان الرجل حين يدخل في الإسلام يخلع على عتبته كل ماضيه في الجاهلية. كان يشعر في اللحظة التي يجيء فيها إلى الإسلام أنه يبدأ عهدًا جديدًا منفصلا كل الانفصال عن حياته التي عاشها في الجاهلية. وبهذا الإحساس كان يتلقى هدي الإسلام الجديد»[1].

ظلمات في الفكر: حيث كبلت العقول بالأغلال، ووضعت عليها البراقع السوداء فلم تعد قادرة على الرؤيا الواضحة، ولا التفريق الدقيق بين الألوان، وأصبح الفكر عاجزًا عن إدراك أن أحجارًا لا تقرب إلى الله، ولكن الإخلاص والعمل الصالح هو الذي يقرب إلى الله، بل وصل الفكر إلى درجة فهم الحقائق معكوسة، فأصبح يفهم أن الظلم هو الوسيلة المثلى لحماية الحق. إذا كان العلم هو الأداة التي تزال بها تلك البراقع السوداء، فإن الحكام كانوا يحصرونه في الطبقة الموالية لهم، ولذلك ساد الجهل، وواكبته الخرافة. وظلمات في النفس: لم تكن المجتمعات مبنية على أساس من الإخاء، وهذا ما أفقد نفوسهم الصفاء، بل كانت مبنية على أساسين اثنين: الأول: هو القهر، فالقوي يقهر الضعيف، وهذا ما شحن النفوس بالحقد الذي أظلمت به النفوس. الثاني: الانتفاع، وهذا ما نمى الأنا في النفس، وأضعف الغيرية، وقد بدا ذلك واضحًا في المجتمعين الفارسي والروماني، حتى كان للدائن الروماني أن يتقاضى دينه من جسد مدينه، وخفف من هذا في بعض المجتمعات ـ كالمجتمعات القبلية في الجزيرة العربية ـ عيشها على نمط معين، جعلها مضطرة للتخلق بالغيرية في كثير من الأحوال، فأوجد فيها النجدة والكرم ونحوهما، ولم يكن ذلك النمط من العيش ليؤثر في بعض الأحوال الأخرى، حيث نمت فيها الأنا إلى حد يبعث على الإشفاق، وقد كان الدائن يطالب مدينه المعسر بدينه، فإن لم يكن قادرا على وفائه، أجله الدائن على أن يقضيه مضاعفا[2].

---

(١) سيد قطب - معالم في الطريق - ص١٩ - ٢٠.

(٢) د. محمد رواس قلعة جي ـ المرجع السابق ص١٢ .

وجاء الإسلام بمفهوم التوحيد وبدأ يتغلغل في حنايا نفس المسلم ويتحول إلى واقع حي يتحرك بعيدًا عن المفاهيم الذهنية المجردة والمعرفة العقلية البحتة «فالمعرفة النظرية الذهنية الباردة الميتة شيء والمعرفة الحية التي تنبع من الوجدان فتنفعل بها النفس كلها وتعطي تأثيرا معينا في السلوك الواقعي شيء آخر هي ما يطلبه الإسلام بالذات ويستبته في قلوب المسلمين ليصبحوا مسلمين»[1]. والحادث الآن في الأجيال القادمة هو هذه الجهالة بالمعنى الحقيقي بلا إله إلا الله، وصلتها الوثيقة التي لا تنفصم بالحكم بما أنزل الله وعندما تستقر هذه الحقيقة في الأذهان ينبغي أن تعمل على تحويل حياتنا كلها لتستقيم على منهج الله في كل شيء، في سياسة الحكم، وفي سياسة المال، وفي سياسة المجتمع»[2].

إن هذا الوضع العالمي كان يصرخ في ضمير الإنسانية مطالبا بالمنقذ، المنقذ الذي يرسل النور فتنجاب به الظلمات ولكن هذه الظلمات تحميها عروش ظالمة، فلابد لهذا المنقذ من السيف الذي يحطم به تلك العروش الباغية الظالمة، ويرفع الظلم عن العباد، لئلا يرتطم النور بالحواجز العاتية التي تمنع انتشاره. فكان محمد رسول الله ﷺ مؤسس دولة الإسلام، حمل السيف فأزاح عن الحكم السلطة الظالمة، ورفع الكابوس عن الناس وأزال الحواجز التي تقف في وجه النور ـ الإسلام ـ الذي جاء به من عند الله لينقذ الناس من الظلمات[3].

بعث الله بالرسل إلى الناس في مختلف أجزاء بلاد العرب قبل بعثة النبي إبراهيم وبعدها على حد سواء. وفي القرآن الكريم أيضًا إشارة إلى بعض هؤلاء الرسل. فقد بُعث هود لهداية قبيلة عاد، التي استقرت في جزء من اليمن يعرف بالأحقاف، وبعث صالح لهداية ثمود الذين سكنوا الجزء المسمى «حجر»، إلى الشمال من المدينة المنورة. وكلا المصلحين أقدم من إبراهيم عهدًا، على حين أن إسماعيل وشعيب، وهما مصلحان بُعثا في اليمن والمدائن على الترتيب، جاءا من بعده. وتظهر الروايات والنقوش أن «عادًا» كانوا شعبًا أولي بأس شديد. لقد أسسوا إمبراطورية ضخمة امتدت رقعتها إلى مواطن قصية جدا خارج بلاد العرب. ويبدو أن الرسل بعثوا فيهم حتي قبل مجيء هود، الذي ظهر في فترة غرقت فيها الأمة في أحط دركات التكالب على الدنيا. ولكنهم أعاروا هذا النبي أذنا صماء، فعاقبهم الله عقابا قاسيا؛ لقد أهلكهم بعاصفة رملية هبت عليهم من الصحراء، التي تقع شمالي الأحقاف والتي تدعى «الربع الخالي»، أي الربع الجديب. وهكذا شخصت ثمود إلى الجبال فنحتت بيوتها في الصخور ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [الشعراء]. حتى إذا حانت ساعة هلاكهم عجزت معاقلهم عن إنجائهم. لقد لقوا حتفهم بزلزال أهلكهم. ونظرة إلى خريطة بلاد العرب ترينا أن الله بعث هودا وإسماعيل لأهل الجنوب، وبعث صالحًا وشعيبًا لأهل الشام. أما الجزء

(١) محمد قطب - منهج التربية الإسلامية - الجزء الثاني ص٢٨.
(٢) محمد قطب - نفس المرجع - الجزء الثاني ص٢٨.
(٣) د. محمد رواس قلعة جي ـ المرجع السابق ص١٤ .

الأوسط، المعروف بالحجاز فظل من غير نبي. ولكن زيارة إبراهيم لمكة، وتركه إسماعيل هناك، وبناءه الكعبة بعد ذلك، كل أولئك قد ربط اسم إبراهيم ببعض مواطن الحجاز حتى يوم الناس هذا[1].

خلال بعثات الرسل الإسرائيليين بلغت عبادة الأوثان في بلاد العرب أوجها. ووفق سليمان إلى إقناع ملكة اليمن بلقيس بوحدانية الله، وأتبع ذلك بتموج واهن اعترى مياه الحياة الدينية في بلاد العرب. فقد هاجر اليهود واستقروا هناك، ربما حوالي القرن الخامس قبل الميلاد، عندما طردهم نبوخذ نصر من ديارهم. وكانت النبوءات المتحدثة عن ظهور خاتم النبيين من أرض بلاد العرب منتشرة بينهم أيضًا. من أجل ذلك اتخذوا من هذه البلاد مفزعا لهم، وأمست خيبر مستعمرة يهودية خالصة. حتى إذا توطدت أقدامهم هناك شرعوا يدعون الناس إلى الدخول في دينهم. وحوالي القرن الثالث قبل الميلاد اعتنق ملك اليمن، ذو نواس، اليهودية. فكان في هذا ما أعطى حركة التهود زخما جديدا؛ ومع مرور الأيام اكتسبت اليهودية سلطانا كبيرا في الجزيرة العربية. ولكن الأمة العربية، ككل، ظلت متعلقة بأهداب الديانة الوثنية الموروثة عن الآباء والأجداد، وما هي إلا فترة يسيرة حتى ماتت الحركة الدينية اليهودية ميتة طبيعية، مخلفة العرب كما كانوا من قبل. وأعقبت ذلك موجة إصلاح أخرى. فقد شرع المبشرون النصارى يتدفقون على بلاد العرب في القرن الثالث للميلاد، واستقروا في نجران. وإنما عززت نشاطاتهم التبشيرية تعزيزًا كبيرًا بالسلطان الزمني الذي كان للدولتين المسيحيتين المجاورتين لبلاد العرب: الدولة الحبشية في الغرب، والإمبراطورية الرومانية في الشمال. ومن ثم اعتنقت مقاطعة نجران اليمنية في شمال اليمن كلها، الواقعة بين عسير وصنعاء، الديانة المسيحية. ولكن المسيحية لم توفق إلى التقدم إلى أبعد من ذلك. فباستثناء قلة قليلة من المسيحيين المنتشرين هنا وهناك لم تحدث المسيحية غير أثر ضئيل في بلاد العرب نفسها. وهكذا انتهت إلى إخفاق كلي هذه المحاولة الثانية لإصلاح الجزيرة العربية[2].

أما الموجة الإصلاحية الثالثة التي انطلقت في بلاد العرب فكانت حركة داخلية. فقبيل بزوغ الإسلام مباشرة، انبثقت «مدرسة فكرية» عرف أصحابها بـ «الحنفاء». لقد ازدرت هذه العصبة الصغيرة الوثنية، ولكنها لم تكن أكثر ميلا إلى اليهودية أو المسيحية. لقد عبد أفرادها إلها واحدا، بيد أنهم لم يجشموا أنفسهم عناء العمل على إصلاح الحياة الاجتماعية في بلادهم. وليس من ريب في أن كراهية «الحنفاء» لعبادة الأوثان حملت بعضهم على الدخول في حظيرة المسيحية، من مثل ورقة بن نوفل، ابن عم خديجة، وعبد الله بن جحش، ابن أخي حمزة، ولكن عدد هؤلاء كان صغيرًا لا يستحق الذكر وكان هؤلاء قد نزهوا أنفسهم من أوضار الوثنية ورفضوا عبادة الأوثان ووأد البنات[3].

---

(١) د. محمد رواس قلعة جي ـ المرجع السابق ص٥ .

(٢) مولانا محمد علي ـ نفس المرجع ص٥ .

(٣) عمر فروخ - المرجع السابق ص٨٣.

إن كثرة الحنفاء الكاثرة لم تجد ما يرضي نفوسها في النصرانية واليهودية على السواء. وأبرز هؤلاء زيد بن عمرو بن نفيل، عم عـمر، وأمية بن أبي الصلت الشاعر الشهـير وزعيم الطائف. ولم تكن لدى أي منهم حماسة شديدة لنشر معتقداتهـم الجديدة، ومع ذلك فإنهم لم يكتموا مقتهم للوثنية، وأعلنوا التوحـيد عقيـدة لهم، ذاهبين إلى أن هذه العقـيدة هي الدين الذي جاء به إبراهيم. صـحيح أن هذه الحركة كانت واهنة ضعيفة، ولكنها كانت هناك من غير ريب. إنها لم تلق بالا إلى آفات بلاد العرب الاجتماعـية. ولقد كان مجرد الإقـرار بوحدانية الله بدلا من عبادة الأصنام هي غـاية غاياتها. ولكن هذه الحركة الداخلية عجزت، مثل سابقتيها، عن النفاذ إلى أبعد من السطح الظاهري، تاركة المجتمع العربي شبه ممتنع على التـأثر كعهده من قبل. والواقع أنها كانت أوهى من أي من الحـركتين اليهودية والمسيحـية، وكان قيس بن سـاعدة الذي آمن بالإله الواحد واعتـقد بيوم الحساب وقـال في مواعظه: «كلا ورب الكعبة، ليعودنّ ما باد ولئن ذهب ليعودن يوما»[1].

إنه لمما يلفت النظر أن تنطلق، قبيل ظهور الرسول الكريم مباشرة، ثلاث حركات مختلفات، هدفت كلها إلى إصـلاح بلاد العرب. وبرغم أن هذه الحركـات واصلت العمل طوال قرون، مـعززة بجمـيع العوامل المساعـدة التي يستطيع السلطان الزمني أن يقـدمها، فقـد تلاشت كلها كمـا يتلاشى الدخان. ولكـن ما إن تنقضي فـترة حـتى ينهض رجل فرد، لا عـون له ولا نصيـر، وفي حال من الضعف المحض، فيحـرز في رسالته نجاحًا عجيـبًا. وما هي غير سنوات معـدودة حتى يحدث تحولا خيـرا لا يضارعـه في تاريخ العالم أيمـا تحول خيـر. فهـو لم يجتث دين البـلاد الوضيع ـ الوثـنية ـ فحسب، بل أصلح البنية الاجتماعية كلها وحررها من فساد العهد عميق الجذور. وكانت لليهود صلة نسب تربطهم بالعرب. فكلا الشعبين يتـحدر من أصل عرقي واحد. وكانت بين لغتيهمـا وأخلاقهما وعاداتهما مشابه كـثيرة. ليس هذا فحسب، بل لقد كان كلاهما يوقران إبراهيم ويرفـعانه مقاما عليا. وكان ملك اليـمن، وهي أخصب أقاليم الجزيرة، قـد دخل في الديانة اليهودية. وهكذا، وتبـعا لكل تقدير وتخمين بشـريين، كان لهذه القوى المختلفة العـاملة في مصلحة اليهودية أثر تراكـمي فعال إلى درجة خليق بها أن تكفل تهود الجزيرة العربية كلها ومع ذلك، فقد أثبتت بلاد العرب استعصاءها على جميع هذه المؤثرات الخارجية[2].

يبدو أن انتشار الطائفة اليهودية في الحجـار لم يؤثر في حياة العرب ولم يغير من نمط عاداتهم ونهج حياتهم بل على العكس فقد امتعض العربي من اليهودية وهذا ما جعل أثر اليهودية عند العرب ضعيفا سواء مـن الناحية النظرية العقيدية، حيث لم ينجحوا في نشـر دعوتهم وذيوع تعاليمهم أو من

---

(١) الشهرستاني - الملل والنحل ج٢ ص٢٤٢.

(٢) مولانا محمد علي ـ المرجع السابق ص٧ .

الناحية العمليـة حيث انصرفوا إلى الثراء غير المشـروع عن طريق الربا الفاحش وأثرتهم التي لا تعرف نبلا وتضحية[1].

جاءت المسـيحية بـرسالة جديدة بالكليـة. فقد أشبـهت «وحدانيتـها» المفهـوم العربي للذات الإلهية. وكانت الوثنية السـائدة بين العرب مماثلة للوثنية الإغريقية التي ولدت عقيدة التـثليث المسيحية تحت تأثيرها. وكان القديس بولس، المؤسس الحقيقي للكنيسة المسيحـية كما نعرفها، قد أضفى مسحة «وثنية» على عقيدة الأنبياء الإسرائيليين الوحدانية لكي يجعلها فاتنة في أعين الأمم الوثنية في عصره. ومن هنا اكتسبت المسيحية أعدادًا ضخمة من الداخلين فيها من أبناء تلك الأمم. وفوق هذا كله، فقد انطوت المسيـحية على سمـة أخرى جذابة للعرب بخـاصة. فقد أعـفت أتباعها من ضـرورة الالتزام المتزمت للـقانون، وهو تُرخص يتسـاوق تساوقـا كاملا وأسلـوب الحياة عند العـرب. فقـد كان أبناء الصحـراء المتهورون هؤلاء ـ الذين لا تضـبط مسالكهـم أية قوانين دينية أو زمنيـة ـ قد انغمـسوا في ملذات الحياة على نحو غير مكبوح. وكانت المسيحـية تتيح لهم مجالا واسعا لإرضاء نزعاتهم تلك. فهي، بهذا الوصف، عقيـدة لا تكلفهم غير قدر قليل من مقاومة تلك النـزعات، ومن ثم كان خليقا بهم أن يجدوا في اعتناقها أعظم اليسر. وبالإضافة إلى هذه المغريات الملازمة، تمتعت المسيحية بسلطان زمني يزينها في أعـين العرب. فالإمبـراطورية الرومانيـة الكبرى في الشمـال، والمملكة الحبشـية في الغرب، وتنصر إحدى مقـاطعات اليمن، والسيطرة التي كانت للمسيحيـة على دولتي الحيرة وغسان ـ تلك هي المؤثرات المتعددة التي كانت تعمل لمصلحـة المسيحية. وفي ظل هذه الظروف والملابسات بدأ دخول الجزيرة العـربية كلها في حظيرة الدين المسيـحي مسألة أيام ليس غير. ومع ذلك فقـد عجزت الكنيسة عن أن تخلف أي أثر محسوس في المجتمـع العربي، ما خلا تعزيزها لنزوع العرب إلى الخمر والميـسر وحب النســاء[2]. وانتشرت المسيـحية في بعض المناطق العربية جنبا إلـى جنب مع المعتقدات الوثنية في الشام واليمن «وخاصة في نجران» و«الحيـرة» وتعد «نجران» من أشهر المدن النصرانية خاصة بعد بناء كنيستهـا التي عرفت بكعبة «نجران»[3]. وكانت الحركة الثالثة، حـركة الحنفاء، داخلية صرفا في أصلها، ولم تكن لتعني إلا قليلا بالإصلاح الاجتماعي في بلاد العرب، قاصرة أهدافها وأغراضها على نقطة واحدة، هي إحلال التوحيد محل الوثنيـة. ولكنها، برغم هذا البرنامج غير الطموح الذي التزمته، لم تجد في بلاد الـعرب تربة صالحة للنمو أكثر من تلك التي وجدتهـا الحركتان الأولتان. بل لقد أثبتت الأيام أنها كانت أضعف الحركات الإصلاحـية جميعًا، ومن يدري فقد يكون مرد ذلك إلى أنها لم تكن تتـمتع بأيما سند من سلطان دنيوي. وعلى ضوء هذا كله لا تسـتطيع العين الناقدة إلا أن تلمح أن يد الله الجبارة هي التي ساعدت، من وراء سـتار، الرسول العربي الكريم على إحداث ذلك

---

(١) د. منذر معاليقي - صفحات مطوية من تاريخ عرب الجاهلية ص١٣٢.

(٢) مولانا محمد علي ـ المرجع السابق ص٣٨.

(٣) د. منذر معاليقي - المرجع السابق ص١٣٣.

التحول الجذري الخير في حياة الجزيرة العربية الدينية والاجتماعية والأخلاقية خلال مدة يسيرة لا تكاد تبلغ العشرين عامًا، وهو تحول لا يوجد نظيره في تاريخ العالم. ومن هنا تعين على السير وليم ميووير أن يقر بهذا التجديد الأعجوبي لوجه الحياة العربية، في الكلمات التالية[1]:

«كانت سمة المحافظة الشديدة هي الغالبة على شبه الجزيرة العربية إبان شباب محمد. ولعل الإصلاح لم يكن متعذرا في أيما فترة من فترات تاريخها أكثر مما كان متعذرا في تلك الفترة. وتُلتمس الأسباب أحيانًا لتعليل بعض النتائج التي أحدثها عامل يبدو غير كاف لأحداثها. وظهر محمد، وبذلك أوقظ العرب وفتحت أعينهم على إيمان روحي جديد. ومن هنا الاستنتاج القائل بأن بلاد العرب كانت تختمر للتغير، ومستعدة لقبوله، أما نحن فيتبدى لنا، ونحن نراجع الماضي في أناة، أن تاريخ العرب قبل الإسلام يكذب هذا الإدعاء. فبعد خمسة قرون من التبشير بالمسيحية لا تقع إلا على قلة قليلة من الداخلين في دين المسيح متناثرين هنا وهناك.

وبكلمة موجزة، فإننا إذا ما نظرنا إلى سطح بلاد العرب على هذا النحو من زاوية دينية، وجدنا أنه تموج بين الفينة والفينة تموجًا رفيقًا بفضل الجهود الواهنة التي بذلتها المسيحية. أما نفوذ اليهودية الأشد فكان ملحوظًا حينًا بعد حين في تيار أعمق وأكثر عكرا. ولكن مد الوثنية الأهلية والخرافة الإسماعيلية، المنطلق من كل مكان في قوة وعنف نحو الكعبة ينهض دليلا قاطعا على أن الإيمان المكي والعبادة المكية أبقيا العقل العربي في حال من العبودية القاسية غير المنازعة».

ثم يمضي ميووير فيقل:

«إن أوضاع بلاد العرب العامة، قبل ظهور محمد، لم تكن تؤذن بإمكان القيام بإصلاح ديني ناجح، بقدر ما كانت غير مؤذنة بإمكان الاتحاد السياسي أو الإحياء القومي. فقد كان أساس الإيمان العربي وثنية عميقة الجذور، استطاعت أن تصمد طوال قرون ـ من غير أن يبدو عليها أي عرض واضح من أعراض الفساد ـ في وجه كل محاولة من محاولات التبشير من مصر وسوريا».

يتبين من ذلك كله أن عرب الجاهلية عرفوا الديانات السماوية والمعتقدات الوثنية ومارسوا المناسك الجاهلية والطقوس القديمة وأدرك بعضهم الحقيقة الربانية وعملوا بمقتضى أحكام تعاليمها ومهدوا الطريق للرسالة النبوية الشريفة التي انبعثت من الجزيرة العربية من قلب «الحجاز» المقدسة وأرض الحرمين الشريفين لنشر رسالة السماء وهداية البشر كافة[2].

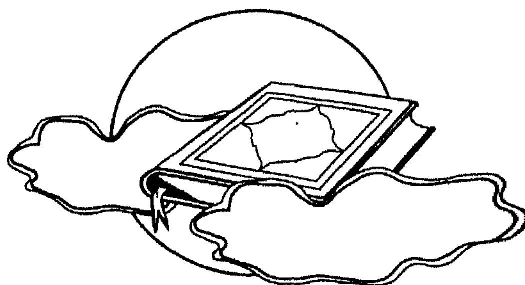
وهكذا بعث النبي محمد منذرا لشعب كان مستعصيا على كل إنذار، إذا جار التعبير، شعب كان قد أحبط جميع المحاولات السابقة للإصلاح.

---

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص٣٨ .

(٢) د. منذر معاليقي - المرجع السابق ص١٣٣.

الفصل الثاني



المولد النبوي الشريف لرسول الله محمد ﷺ وسيرته حتى البعثة

علامات النبوة قبل المولد النبوي الشريف لرسول الله محمد ﷺ

وردت في الكتب المقدسة السالفة نبوءات تتصل بظهور الرسول محمد ﷺ، وكانت بعيدة الذيوع بين الأمم. ولعل هذه النبوءات نفسها هي التي أغرت اليهود والمسيحيين بالاستقرار في بلاد العرب، ذلك بأن أرض النبي الموعود كانت قد عينت في الكتب المقدسة باسمها تعيينا لا يحتمل اللبس.

يؤكد القرآن أن ظهور الرسول الكريم قد تنبأ به جميع الأنبياء السالفين الذين أخذوا على شعوبهم ميثاقًا بأن يؤمنوا به وينصروه. والسمة المميزة للرسول الموعود، كما بشروا، هي أنه سوف يجيئ مصدقا لجميع أنبياء العالم ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عمران]. ويذهب القرآن الكريم أيضًا إلى أن الكتب السماوية كلها تشتمل على نبوءات عن مجيء الرسول ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ [الشعراء]. وهذه التوكيدات القرآنية مؤيدة تأييدا كافيا برواية مماثلة نقع عليها في صفحات «العهد الجديد» [أعمال الرسل ٣: ٢١]. والذي يبدو أن العناية الإلهية قد رأت أنه من المناسب أن تبعث رسولاً مستقلاً لإصلاح كل أمة، في العصور الخالية، عندما كانت الأمم المختلفة القاطنة هذا الكوكب في عزلة مطلقة إحداها عن الأخرى، وعندما لم تكن وسائل المواصلات الحديثة قد وجدت بعد. ثم إنها لكي تصهر الإنسانية في أخوة كونية، بعث نبيا يحمل رسالة إلى الجنس البشري كله. وهكذا فيما أبلغ نبأ هذا النبي الكوني كلا من الرسل السابقين من ناحية، أمر الرسول الموعود، من ناحية ثانية، بأن يشهد بصدق رسالات الأنبياء السابقين جميعًا حينما بُعثوا وفي أيما وقت بعثوا، في أرجاء العالم كله. والرسول الكريم، محمد ﷺ هو النبي الذي ينطبق عليه هذا الوصف. فقد جعل من أركان الإسلام الأساسية أن يعلن المسلم إيمانه بجميع أنبياء العالم الآخرين بالإضافة إلى إيمانه به هو. ففي مستهل القرآن الكريم بالذات قوله تعالى: ﴿الم ﴿١﴾ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾﴾ [البقرة] وفي ما يتصل ببعث مصلح لكل أمة يطلق القرآن الكريم هذا الحكم العام: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [فاطر] وفي مناسبة أخرى يقول إنه يشير إلى بعض الأنبياء، على حين أن ثمة آخرين لم يتحدث عنهم صراحة. إن نبوءات جميع الرسل الذين سبقوه تجد مصداقها في شخصه، من ناحية، على حين أنه كان هو وحده بين جميع الأنبياء الرسول الذي فرض على اتباعه، في صلب العقيدة الإسلامية، أن يؤمنوا بجميع أنبياء العالم، من ناحية ثانية. وعلى هذا النحو يكون هو آخر عُصبة الأنبياء النبيلة، كما تنبأ جميع الرسل من قبله. وواضح

أن الكتب الدينية القديمة قد أضيفت إليها إضافات كثيرة ليست منها. بيد أن «العهد القديم» و«العهد الجديد» سلما من ذلك، نسبيا، بوصفهما أقل إمعانا في القدم. ولقد احتفظ هذان الكتابان المقدسان، على نحو سليم، بعدد من النبوءات عن مجيء الرسول محمد[1]، وقد قال الله تعالى حاكيا ما جاء على لسان عيسى عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾ [الصف] وبشرت بنبوته التوراة والإنجيل، كما تنبأ الرهبان والكهان بقرب بعثته وكثرت بذلكم الأخبار حتى سمى بعض العرب أولادهم باسم محمد عسى أن يكون هو النبي المنتظر[2].

تلك النبوءات التي يلفت القرآن الكريم النظر إليها أيضا. ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف].

تحدر اليهود والإسماعيليون من جد أعلى واحد: إبراهيم الخليل، وعلى الرغم من أن الكتاب المقدس الذي أنزل على إبراهيم لم يصلنا، فإن سفر التكوين من «العهد القديم» يلقي ضوءا كثيرا على وعود الله له في ما يتصل بمستقبل ولديه، إسحاق وإسماعيل. والقرآن الكريم نفسه يُلمح إلى الوعود نفسها حين يقول: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [البقرة]. وهكذا وعد إبراهيم بأن تكرم ذريته ببهجة النبوة. ولكنها لابد أن تنتزع منهم إذا ما ظلموا. وصلاة إبراهيم وإسماعيل المشتركة في الكعبة تشير إلى المفاد نفسه أيضًا: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة]. وفي «العهد القديم» وعد إلهي بالمعنى ذاته فاز به إبراهيم، حتى قبل مولد إسحاق وإسماعيل: «فأجعلك أمة عظيمة، وأباركك وأعظم اسمك. وتكون بركة، وأبارك مباركيك ولاعنك ألعنه. وتتبارك فيك جميع قبائل الأرض» [سفر التكوين ١٢ : ٢ - ٣]. إن قليلا من إمعان الفكر ليظهر في وضوح أن هاتين الآيتين تشيران بما لا يحتمل اللبس إلى ذرية إسماعيل، يعني إلى المسلمين. ذلك بأن المسلمين هم وحدهم، بين أقوام العالم كله، الذين يصلون على إبراهيم خمس مرات كل يوم[3]. والكلمات التالية تؤلف جزءا لا يتجزأ من صلاة المسلم اليومية: «اللهم صل على محمد، وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم، وعلى آل إبراهيم» وقد أجمع المؤرخون وأصحاب السير على أن

---

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص٤٤ .

(٢) د. حسن إبراهيم حسن - تاريخ الإسلام السياسي ج١ - ص٧٧.

(٣) مولانا محمد علي - المرجع السابق.

رسول الله محمد ﷺ لم يكن يأنس للديانات المنتشرة والتي كان يدين بها العرب فقد كان يخلو بنفسه ويفكر في ذلك كثيرا واستمر كذلك حتى أخذ بالحنيفية وهي دين سيدنا إبراهيم عليه السلام الذي كان يدين به بعض العرب[1].

يشير سفر التكوين نفسه إلى إسماعيل باسمه فيقول:

«وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه. ها أنا أباركه وأثمره وأكثره كثيرا جدا. اثني عشر رئيسا يلد، وأجعله أمة كبيرة» (سفر التكوين ١٧ : ٢٠)

وهنا أعطي الوعد الخاص بإسماعيل وذريته بالطريقة نفسها التي أعطي بها الوعد الخاص بإبراهيم وذريته. والوعد الإلهي في «سفر التكوين» ذو شقين. الأول: «هذا هو عهدي الذي تحفظونه بيني وبينكم وبين نسلك من بعدك. يختن منكم كل ذكر. فتختنون في لحم غرلتكم، فيكون علامة عهد بيني وبينكم» [سفر التكوين ١٧ : ١٠ – ١١].

وهذا الختان كان، طوال مدة من الزمن، شائعا بين اليهود والإسماعيلين في آن معا. ولكن هذا الميثاق الإلهي لا يوفي به اليوم إلا مليار مسلم، على اعتبار أن عدد اليهود الذي لما تمت عندهم هذه العادة بعد لا يكاد يذكر، نسبيا. وهكذا يمسي واضحًا أن المسلمين هم الآن ورثة الميثاق الإلهي مع إبراهيم، إذ فيهم نقع على علامة الختان المنظورة. أما الجزء الثاني من الميثاق فيجري على هذا النحو:

«وأقيم عهدي بيني وبينك وبين نسلك من بعدك في أجيالهم عهدا أبديا. لأكون إلها لك ولنسلك من بعدك. وأعطي لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك كل أرض كنعان ملكا أبديا. وأكون إلههم» [سفر التكوين ١٧ : ٧-٨].

وهذه علامة أخرى منظورة ترينا من هم الآن الورثة الحقيقيون للوعد الإلهي لإبراهيم. ومن الحقائق التاريخية الثابتة أنه ما إن جاء الرسول محمد حتى انتزعت أرض الميعاد من أتباع الأنبياء الإسرائيليين ونقلت ملكيتها إلى المسلمين الذين بسطوا سلطانهم عليها طوال القرون الثلاثة عشرة الماضية. وإنما كان الغرض الأساسي من الحروب الصليبية هو انتزاع أرض الميعاد هذه من أيدي المسلمين. ولا ريب في أنها ضاعت من أيدي المسلمين مؤقتا ولكنها سرعان ما أعيدت إليه بعد فترة يسيرة، وفاء بالوعد نفسه الذي وعد الله إبراهيم. ولو قدر لها بعد أن تضيع من أيدي المسلمين فلن يستمر ذلك غير برهة قصيرة. إن السيطرة السرمدية عليها سوف تكون دائما للمسلمين. مما يؤسف له أن هذا الاحتمال قد حدث يوم قيام «إسرائيل» على أرض فلسطين العربية في ١٥ نوار عام ١٩٤٨. إن وعي الأجيال العربية الطالعة سوف يجعل أيام هذه الدولة الباغية معدودة، كما كانت أيام

---

(١) د. حسن إبراهيم حسن – المرجع السابق ص٧٨.

الممالك الصليبية في فلسطين معدودة. وباختصار، فكلا مظهري هذا الميثاق الإلهي مع إبراهيم، أعني الختان وملكية أرض الميعاد، ينهض دليلا قاطعًا على الحقيقة القائلة بأن رسول الله محمدا ﷺ هو من غير ريب النبي الموعود. أما النبوءة الثانية المعلنة مجيء الرسول الكريم محمد فقد وردت على لسان موسى: «أقيم لهم نبيا من وسط إخوتهم مثلك وأجعل كلامي في فمه، فيكلمهم بكل ما أوصيه به» [سفر تثنية الاشتراع ١٨ : ١٨]. وهذا واضح وضوح الشمس في رابعة النهار. إن أيا من الأنبياء الإسرائيليين الذين جاءوا بعد موسى في تعاقب متطاول، حتى ظهور يسوع، لم يدع أنه النبي الموعود به في هذه النبوءة. ولأسباب جلية لم يكن في ميسور خلفاء موسى، الذين جاءوا لتنفيذ شريعته ليس غير، أن يكونوا مثله. وكان أمر النبوءة معروفا لدى الخاصة والعامة من اليهود، الذين انتظروا، جيلا بعد جيل، ظهور نبي مثل موسى. يؤيد هذا تأييدا كافيا ذلك الحديث الذي دار بين يوحنا المعمدان وأولئك الذين وفدوا عليه ليسألوه: «من أنت؟ فاعترف ولم ينكر وأقر أني لست أنا المسيح. فسألوه إذ ماذا؟ أيليا أنت؟ فقال لست أنا. ذلك النبي أنت؟ فأجاب لا» [سفر يوحنا ١ : ١٩ - ٢١][1].

وهذا يظهر على نحو يقيني أن اليهود كانوا يترقبون ظهور ثلاثة أنبياء مختلفين. أولهم إيليا الذي اعتقدوا أنه سوف يظهر بشخصه مرة أخرى على هذه الأرض، وثانيهم المسيح، وثالثهم نبي ذو شهرة كلية إلى درجة رأوا معها أن من غير الضروري نعته بأي وصف مميز - كان قولهم «ذلك النبي» كافيا للدلالة على من يعنون. ذلك كان مدى الشيوع والانتشار اللذين حظيت بهما بين اليهود نبوءة موسى في ما يتصل بظهور نبي مثله. ومن هنا يتضح أن اليهود كانوا، قبيل ظهور يسوع مباشرة، يرتقبون ثلاثة أنبياء، وفقا لما تنبأ به كتابهم المقدس: المسيح، وإيليا للمرة الثانية، والنبي الذي هو مثل موسى. ولقد تحققت اثنتان من هذه النبوءات في شخصي يسوع ويوحنا، وقد أعلن الأول أنه المسيح، وأعلن الثاني أنه بعث في روح إيليا. ولكن أيا منهما لم يدع أنه النبي الموعود، المماثل لموسى. لا، لم يعتبرهما أحد من الذين آمنوا بهما ذلك النبي الموعود. وبظهور يسوع انقطعت سلسلة النبوة بين اليهود. وهكذا ظلت نبوءة «سفر تثنية الاشتراع» حول نبي مثل موسى غير محققة بقدر ما يتعلق الأمر بالإسرائيليين. فإذا قلبنا صفحات تاريخ العالم لم نجد أيما نبي غير محمد عليه السلام أعلن أنه النبي الذي تنبأ موسى بظهوره، ولم نجد أيما كتاب مقدس غير القرآن الكريم أشار إلى تحقق النبوءة في شخص امرئ ما. والوقائع أيضا تؤيد هذا الاستنتاج نفسه. فقد كان موسى صاحب شريعة، وكذلك محمد صلوات الله وسلامه عليهما. وليس بين الأنبياء الإسرائيليين الذين خلفوا موسى أيما نبي جاء قومه بشريعة جديدة[2].

ومن هنا كان الرسول الكريم محمد، بوصفه النبي الوحيد الذي أعطى الناس شريعة، هو وحده النبي الذي هو مثل موسى. قال تعالى في القرآن الكريم: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ

---

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص٤٤ .

(٢) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص٤٩ .

كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ [المزمل]. إن كلمات النبوءة، «من وسط إخوتهم» لتلقي ضوءا إضافيا على هذه الحقيقة، وهي أن النبي الموعود كان مقدرا له أن يطلع لا من بين الإسرائيليين أنفسهم، ولكن من بين إخوتهم، الإسماعيليين. وهكذا فإن نبوءة «تثنية التشريع» تشير بما لا يحتمل اللبس إلى الرسول محمد الذي وجدت فيه، في الواقع، مصداقها.

تعترف التوراة بأن إسماعيل هو ابن إبراهيم البكر ورغم أن التوراة تجعل العهد دائما للابن البكر إلا أنها في هذا الموضع تنكر أهمية البكورية التي تتمسك بها وتجعل العهد من الله لإسحاق دائما أبديا وتبدأ قصة إسماعيل في سفر التكوين الإصحاح ١٦ بأن تقوم «سارة» العاقر» بتقديم هاجر جاريتها لإبراهيم حتى تلد له[1]: «وأما ساراي امرأة إبرام فلم تلد له. وكانت لها جارية مصرية اسمها «هاجر» فقالت ساراي لإبرام: هوذا الرب قد أمسكني عن الولادة ادخل على جاريتي. لعلي أرزق منها بنين فسمع إبرام لقول ساراي. . . فدخل على هاجر فحبلت. . . فولدت هاجر لإبرام ابنا ودعاه إبرام إسماعيل وكان إبرام ابن ست وثمانين سنة لما ولدت هاجر إسماعيل» [سفر التكوين الإصحاح ١٦ : ١ ـ ١٦][2].

وثمة نبوءة ثالثة نقع عليها، في تعابير لا تقل وضوحا وجلاء، في السفر نفسه، سفر «تثنية الاشتراع». وهذه النبوءة تقول: «جاء الرب من سيناء، وأشرق لهم من سعير، وتلألأ من جبل فاران، وأتى من ربوات القدس وعن يمينه نار شريعة لهم» [تثنية الاشتراع ٣ : ١]. و«المجيء من سيناء» يشير إلى ظهور موسى، و«الإتيان من ربوات القدس» يشير إلى ظهور يسوع، لأن هذين النبيين تلقيا النداء الإلهي في هذين الموضعين. أما «فاران» فمن المسلم به أنه الاسم القديم لأرض الحجاز حيث ظهر محمد، عليه السلام، من بين حفدة إسماعيل. فالرسول الكريم محمد هو من بين جميع الأبطال العالميين الشخصية التاريخية الوحيدة التي تسامع الخاص والعام بنبأ دخولها الظافر إلى مكة. والشريعة التي قدمها إلى العالم تعرف حتى يوم الناس هذا بـ «الغراء»، أو المشرقة، لأنها تلقي فيضا من الضياء على مختلف ضروب المسائل المتصلة بمصالح الإنسان الدينية والأخلاقية والاجتماعية. وإلى ذلك تلمع كلمات الآية: «وعن يمينه نار شريعة لهم». ليس هذا فحسب، بل إن ثمة نبوءة رابعة تنص صراحة على أن أرض النبي الموعود هي بلاد العرب: «وحي من جهة بلاد العرب. في الوعر من بلاد العرب تبيتن يا قوافل الددانيين. هاتوا ماء لملاقاة العطشان يا سكان أرض تيماء. وافوا الهارب بخبزه. فإنهم من أمام السيوف قد هربوا. من أمام السيف المسلول ومن أمام القوس المشدودة ومن أمام شدة الحرب» [أشعيا ٢١ : ١٣ – ١٥][3].

---

(١) د. محمد علي البار – المرجع السابق – ص١٠١.

(٢) د. محمد علي البار – نفس المرجع – ص١٠٢.

(٣) مولانا محمد علي ـ نفس المرجع ص٥٠.

نجد أنه رغم أن إبراهيم ختن إسماعيل إلا أن هذا الختان لم يعط إسماعيل الحق في العهد ومع هذا قام إبراهيم بطرد هاجر وابنها إسماعيل حسب أوامر «سارة» بعد أن أعطاها قربة ماء وخبزاً فتاهت هاجر في برية «فاران» مكة[1] وكبر إسماعيل ونما هناك وتصور القصة في التوراة أن إسماعيل كان طفلا صغيرا وأن الماء نفد من هاجر وضعت هاجر إسماعيل تحت الشجرة وجلست مقابله وبكت ويقول سفر التكوين: «وسمع الله صوت الغلام ونادى ملاك الله هاجر من السماء وقال لها: ما لك يا هاجر؟ لا تخافي لأن الله قد سمع لصوت الغلام حيث هو. قومي احملي الغلام وشدي يدك به لأني سأجعله أمة عظيمة وفتح الله عينيها فأبصرت بئر ماء فذهبت وملأت القربة ماء وسقت الغلام»[2]. يتضح من ذلك الماء الذي انفجر في عين «زمزم» وكيف أن الله بشر أمة عظيمة من إسماعيل وحفيده فيما بعد رسول الله محمد ﷺ وأن أمة الإسلام اليوم هي من أعظم الأمم في العالم.

لفظة «بلاد العرب»، قبل كل شيء، هي في ذات نفسها ذات مغزى كاف. ثم إن الإشارة إلى «من هاجر» تلقي ضوءا إضافيا على من المقصود بالنبوءة. فتاريخ العالم لم يدون غير هجرة واحدة قدر لها أن تكتسب أهمية الحدث الحاسم - هي هجرة الرسول محمد ﷺ من مكة إلى المدينة. ومن ذلك اليوم بالذات يبدأ التقويم الإسلامي، ذلك بأنه كان في الواقع مستهل فصل جديد في تاريخ الإسلام، أو على الأصح في حضارة العالم كله. بيد أن في الكلمات التالية «من أمام السيوف قد هربوا» لشهادة أبلغ. فالتاريخ يثبت أن محمداً الرسول الكريم هاجر من مكة بينما كان بيته محاطا بأعدائه المتعطشين للدماء، الشاهرين سيوفهم فعلا، المستعدين أتم استعداد للانقضاض عليه مجتمعين حالما يغادر بيته ذاك. وعبثا تقلب صفحات التاريخ التماسا لهجرة أخرى تمخضت عن نتائج في مثل هذه الخطورة وبعد الأثر، أو التماسا لنبي آخر هاجر إبقاء على حياته بعد أن سلت في وجهه السيوف. وهاتان الواقعتان التاريخيتان اللتان لا يأتيهما الريب من بين يديهما ولا من خلفهما، مردفتين بنص صريح على بلاد العرب بوصفها مسقطا لرأس النبي الموعود، تشكلان دليلا لا نزاع فيه على أن النبوءة تشير إلى الرسول محمد ﷺ[3]. وهناك نبوءات كثيرة مماثلة أطلقها الأنبياء اليهود، من مثل داود، وسليمان، وحبقوق، وحقاي وغيرهم. ولكننا سنجتزئ، رغبة في الاختصار، بأن نشير إلى واحدة منها، هي تلك التي أطلقها آخر أنبياء الإسرائيليين، أعني يسوع، والتي تقول: «إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي. وأنا أطلب من الآب فيعطيكم معزيا آخر ليمكث معكم إلى الأبد. روح الحق الذي لا يستطيع العالم أن يقبله لأنه لا يراه ولا يعرفه» [سفر يوحنا ١٤ : ١٥ - ١٧]. وتقول: «وأما المعزى، الروح القدس، الذي سيرسله الآب باسمي فهو يعلمكم كل شيء ويذكركم بكل ما قلته لكم» [سفر يوحنا ١٤ : ٢٦].

---

(١) د. محمد علي البار - المرجع السابق - ص١٠٤.

(٢) د. محمد علي البار - نفس المرجع - ص١٠٤.

(٣) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص٥١.

وتذكر التوراة أن إسماعيل شب راميًا بالقوس وهذا أمر تذكره الأحاديث النبوية الصحيحة، حيث كان النبي يحث أصحابه على الرمي ويقول لهم: «ارموا بني إسماعيل فإن أباكم كان راميًا»[1].

وتقول: «لكني أقول لكم إنه خير لكم أن أنطلق، لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزى. ولكن إن ذهبت أرسله إليكم» [سفر يوحنا ١٦ : ٧]. وتقول فوق ذلك: «إن لي أمورًا كثيرة أيضا لأقول لكم، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن. وأما متى جاء ذاك، روح الحق، فهو يرشدكم إلى جميع الحق» [سفر يوحنا ١٦ : ١٢ - ١٣].

هذه الكلمات النبوئية كلها تعلن بتعابير صريحة عن مجيء نبي آخر بعد يسوع. ومع ذلك فقد أرهق اللاهوتيون النصارى أنفسهم، وما يزالون، ابتغوا العدول بها عن قصدها بحيث تنطبق على الروح القدس. والواقع أن صياغة النبوءة لا تجيز هذا الاستنتاج. فقوله: «إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزى» كلام هو من الوضوح بحيث يستغني عن كل تعليق. و«العهد الجديد» يذكر أن يوحنا كان مفعما بالروح القدس حتى قبل أن يرى النور. ثم يتكلم عن يسوع نفسه فيقول إنه تلقى الروح القدس على شكل حمامة. وهكذا فقد كان من دأب الروح القدس أن يلم بالناس قبل يسوع كما ألم بهم في أيامه. وإذن فإلى من تشير هذه الكلمات: «إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزى»؟ لا ريب في أنها لا تشير إلى الروح القدس، لأن من التخريف، أو يكاد، أن نفكر أن يسوع لم يكن مزودًا بروح قدس. فالإجلال الحقيقي ليسوع يقتضينا أن نؤمن بأن حوارييه أنفسهم، الذين طهرت نفوسهم بيد معلمهم العظيم، كانوا من النقاء بحيث يستحقون أن يكونوا مفعمين بالروح القدس. والقرآن الكريم، على الأقل، ينسب إلى أصحاب الرسول محمد مثل هذا النقاء في تعابير واضحة، حيث يقول: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المجادلة][2].

قال عبد الله بن عمرو بن العاص، رضي الله عنهما، عن الآية التي في القرآن: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾﴾ [الفتح]، قال في التوراة: «ياأيها النبي إنا أرسلناك»[3].

لا ريب في أن كلمتي «الروح القدس» اللتين وردتا في النبوءة أيضًا، إنما أريد بهما أن تشيرا إلى أن النبي الموعود سوف يكون متحدا بالروح القدس اتحادا غير منفصم بحيث يجعل مجيئه، مجاريا طبعا، كمجيء الروح القدس نفسه. وفي النبوءة كلمات أخرى لا تنطبق إلا على النبي محمد. فالسمات المميزة التي تبينها النبوءة مجتمعة فيه برمتها. وقول النبوءة «ليمكث معكم إلى

---

(١) د. محمد علي الباز - المرجع السابق - ص١٠٤.

(٢) مولانا محمد علي - نفس المرجع ص٥٢ .

(٣) الحديث أخرجه البخاري في فتح الباري - ٨/ ٥٥٨ حديث رقم ٤٨٣٨.

الأبد» يدل على أنه لن يكون بعد النبي الموعود أيما نبي جـديد. وهذا هو عين ما يقوله القرآن الكريم عن الرسول محمد ﷺ: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [الأحزاب]. وتقول النبوءة: «فهـو يعلمكم كل شيء». وهذا أيضا عين ما يقوله القرآن الكريم عن رسـالة النبي محـمد ﷺ: ﴿... الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ... ﴿٣﴾﴾ [المائدة]. ثم إن النبي الموعود يـدعى في النبوءة «روح الحق»، وهو أمر يزكـيه القرآن الكريم أيضا بهـذه الكلمات: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ [الإسراء]. وهكذا فإن دعـوات إبراهيم وإسماعـيل، ونبوءات موسى وعـيسى وغيـرهما، تحققت في شخص الرسول الكريم محمد ﷺ إلى أبد الآبدين[1].

سيـرة رسـول الله محـمـد ﷺ قبل البعـثـة: ألقى الله تعالى بتـدبيره المحكم أضواء كاشـفة على شخص رسول الله محـمد ﷺ في أيامه الأولى؛ حتى ليخيل للبـاحث أنه لم يبق ذو شأن في العرب إلا وقد وصله شيء عن رسول الله محمد ﷺ يقول: إن محمدًا هو الرجل الذي يمكن أن تناط به في المستقبل مهمة قيادة هذه الأمة إلى شاطئ الأمان. كان إسماعيل أكبر أولاد إبراهيم. وكان له اثنا عشر ولدا، كما يؤكد «العهد القديم»، منهم قيدار الذي انتشرت ذريته في أرض الحجاز العربية. وليس من ريب، استنادا إلى «العـهد القديم» أيـضًا، أن العرب هم أبناء قـيدار. وإلى هذا فإن العـرب جميـعا يسلمون بأن عدنان، الذي يرجع إلـيه نسب الرسول الكريم محمد ﷺ عـلى نحو لا يأتيه الريب من بين يديه ولا من خلفه، كان أيضًـا من أولاد إسماعيل في الجيل الأربعين من سـلالته. ولـم يكن ثمة في أيما يوم من الأيام خلاف على تحدر النبي مـحمد ﷺ من عدنان مباشـرة. وفي الجيل التاسع من سلالة عدنان يبرز الـنضر بن كنانة، مؤسس البيت القرشي. وبعد اسم آخـر في شجرة النسب يجيء في المقـام التاسع قُـصي الذي أسندت إليـه سدانة الكعـبة ـ وهي مـن أعظم المناصب شرفـا في بلاد العرب. وكان قـصي جد عبد المطلب، جد الرسول الكـريم. ومن هنا نرى أن أسرة النبي تحتل، من حيث نبالة المحتد، المقام الأعلى.

وكانت أم عبد المطلب من بنـي النجار، فهم أخوال النبي[2]. وكان قد ظل عـبد المطلب في رعاية أخواله في «يثـرب» حتى غدا غلاما ثم خـرج إليه عمه فأعـاده إلى أهله في مكة على كره من أمه[3]. وأنجب عبـد المطلب عشـرة أولاد، أبرزهم أبو لهب الذي كان زعـيم المعارضـة الأكبـر ضد الرسول، وأبو طالب الذي كفله ونشأه، وحمزة الذي كـان من أول الناس إسلاما والذي استشهد في وقعة أحد، والعباس الذي كان شديد الحب للرسول برغم بقائه فترة طويلة خارج الحظيرة الإسلامية.

---

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص٥٢.

(٢) د. محمد رواس قلعه جي - المرجع السابق ص١٥.

(٣) ابن سعد - حديث المطلب وسلمى زوج هاشم - ج١ - ص٨١ - ٨٢.

هو محمد بن عبد الله – واسم عبد الله: شيبة الحمد – بن عبد المطلب بن هاشم – واسم هاشم: عمرو العلي – بن عبد مناف – واسم عبد مناف: المغيرة – ابن قصي – واسم قصي: زيد – بن كلاب بن مرة بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد ابن عدنان. فأمه ﷺ آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر. فوالدا رسول الله محمد ﷺ أشرف ولد آدم حسبا، وأفضلهم نسبا. هذا النسب الكريم كان له أثره فيمن يبلغهم رسول الله شريعة الله. أما أثره في رسول الله: فقد شب ﷺ مرفوع الرأس رغم يتمه، لا يعرف الذل ولا الخنوع، جريئا في إعلان رأيه، تملأ الثقة نفسه. أما أثره فيمن دعاهم رسول الله إلى الإيمان والانضواء تحت راية الإسلام: فإن أكبر شخصية في العرب لا تجد مطعنا على رسول الله في نسبه، ولا تجد غضاضة في الانضواء تحت رايته، وقبوله حاكما، لأنه من أكبر بيوتات قريش وأعلاها نسبا، ولذلك فإنهم لما اختلفوا معه في أمر العقيدة عرضوا عليه الملك عليهم، فأبى إلا أن تكون العقيدة قبل الملك، فهي إذن لا تنكر عليه الرئاسة ولا الملك. وكذلك الحاكم في نظر الإسلام يجب أن يكون من أسرة عريقة جمعت أطراف الشرف ليساهم ذلك في صنع اطمئنان الناس إليه والتفافهم حوله، فلا يأنف الشريف من التعاون معه بله الوضيع، وبذلك يشارك الجميع في إعلاء راية الدولة، وتنعدم المعارضة، ومن هنا قال رسول الله ﷺ: «الخلافة في قريش» وكتب عمر بن الخطاب إلى بعض عماله «لا تستقضين إلا ذا مال وحسب، فإن ذا المال لا يرغب في أموال الناس، وإن ذا الحسب لا يخشى العواقب بين الناس». بل اعتبر الرسول ارتقاء الصعاليك سدة الحكم من أمارات الساعة. فقال: «أن تلد الأمة ربتها». وقد رأينا بأم أعيننا كيف تنهب أموال الناس، وتتمزق الأمة، وتوقع الشقة بين الحاكم والمحكوم عندما يسود الصعاليك كما هو حاليا في الدول العربية والإسلامية[1].

ابن الذبيحين: نزل الأمر من الله لإبراهيم عليه السلام بأن يذبح ولده إسماعيل، فسعى عليه السلام لتنفيذ أمر الله، ففداه الله بذبح عظيم، وإسماعيل هو الجد الذي ينحدر منه نسب رسول الله ﷺ. ولما أراد جد رسول الله عبد المطلب أن يكشف عن زمزم عارضته قريش في ذلك أشد المعارضة فنذر لئن ولد له عشرة نفر، ثم بلغوا معه لينحرن أحدهم لله عند الكعبة، فلما توافى بنوه عشرة وعرف أنهم سيمنعونه، جمعهم ثم أخبرهم بنذره، ودعاهم إلى الوفاء لله بذلك، فأطاعوه وقالوا: كيف نصنع؟ قال: ليأخذ كل رجل منكم قدحا ثم يكتب فيه اسمه، ثم ائتوني. ففعلوا ثم أتوه فدخل بهم على «هبل»، وكان هبل على بئر في جوف الكعبة. وكانت تلك البئر هي التي يجمع فيها ما يهدى للكعبة. فقال عبد المطلب لصاحب القداح: اضرب على بني هؤلاء بقداحهم هذه. وأخبره بنذره الذي نذر، فأعطاه كل رجل منهم قدحه الذي فيه اسمه، وكان عبد الله بن عبد المطلب آنئذ

---

(١) د. محمد رواس قلعه جي – المرجع السابق ص١٥.

أصغر بني أبيه. وكان أحب ولد عبد المطلب إليه فكان عبد المطلب يرى أن السهم إذا أخطأه فقد أخطأ. فلما أخذ صاحب القداح القداح ليضرب قام عبد المطلب عند هبل يدعو الله، ثم ضرب صاحب القداح فخرج القدح على عبد الله.

فأخذه عبد المطلب بيده، وأخذ الشفرة ثم أقبل به إلى إساف ونائلة ليذبحه، فقامت إليه قريش من أنديتها فقالوا: ماذا تريد يا عبد المطلب؟ قال: أذبحه، فقالت له قريش وبنوه: والله لا تذبحه أبدا حتى تعذر فيه، لئن فعلت هذا لا يزال الرجل يأتي بابنه حتى يذبحه، فما بقاء الناس على هذا! وقال له المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، وكان ابن أخت القوم: والله لا تذبحه أبدا حتى تعذر فيه، فإن كان فداؤه بأموالنا فديناه! وقالت له قريش وبنوه: لا تفعل وانطلق به إلى المدينة، فإن به عرافة لها تابع، فسلها ثم أنت على رأس قومك، إن أمرتك بذبحه ذبحته، وإن أمرتك بأمر لك وله فيه فرج قبلته. فانطلقوا حتى قدموا المدينة فوجدوها بخيبر، فركبوا حتى جاؤوا إليها فسألوها، وقص عليها عبد المطلب خبره وخبر ابنه، وما أراد به، ونذره فيه، فقالت لهم: ارجعوا عني اليوم حتى يأتيني تابعي فأسأله، فرجعوا من عندها، فلما خرجوا من عندها قام عبد المطلب يدعو الله، ثم غدوا عليها فقالت لهم: قد جاءني الخبر، كم الدية فيكم؟ قالوا عشرة من الإبل، قالت: فارجعوا إلى بلادكم ثم قربوا صاحبكم وقربوا عشراً من الإبل، ثم اضربوا عليها وعليه بالقداح، فإن خرجت على صاحبكم فزيدوا من الإبل حتى يرضى ربكم، وإن خرجت على الإبل فانحروها عنه فقد رضي ربكم ونجا صاحبكم[1].

فخرجوا حتى قدموا مكة، فلما أجمعوا على ذلك من الأمر قام عبد المطلب يدعو الله، ثم قربوا عبد الله وعشراً من الإبل، وعبد المطلب قائم عند هُبل يدعو الله عز وجل، ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله، فزادوا عشراً من الإبل فبلغت الإبل عشرين، وقام عبد المطلب يدعو الله عز وجل، وجعلوا - هكذا - كلما ضربوا خرج القدح على عبد الله فيزيدون ثم يضربون ثم يزيدون حتى بلغت الإبل مائة، فقام عبد المطلب يدعو الله، ثم ضربوا فخرج القدح على الإبل، فقالت قريش ومن حضر: قد انتهى، رضي ربك يا عبد المطلب، فقال عبد المطلب: لا والله حتى أضرب عليه ثلاث مرات فضربوا على عبد الله ثلاث مرات وعلى الإبل، وقام عبد المطلب يدعو، فخرج القدح على الإبل في المرات الثلاث، فنحرت ثم تركت لا يُصد عنها إنسان ولا يمنع، وبذلك طبق عبد المطلب وصية الكاهنة وظل يضرب بالقداح على ابنه عبد الله وعلى الإبل ويزيدها حتى بلغت المئة فرضيت الآلهة وقبلت الفداء وأنقذ عبد الله من موت محقق[2]. وحفظت قريش ذلك لعبد الله والد محمد - رسول الله فيما بعد - فكان هذا تمهيداً لقطع الحجة على الذين سيعارضون دعوة رسول الله

---

(١) د. محمد رواس قلعه جي - نفس المرجع ص١٦.

(٢) الطبري - جـ٢ ص٢٤٠ - ٢٤٣ وانظر أيضا - ابن هشام - القسم الأول ص١٥١ - ١٥٥.

وحقه في الرياسة والقيادة. لقد نجى الله والد محمد من الذبح، فكان منه محمد، وكانت تلك النجاة مفخرة لرسول الله وتدعيمًا لموقفه تجاه العرب. وكانت الغاية من هذه الحادثة بكل ما فيها هي تسليط الأضواء على شخص رسول الله محمد ﷺ في وقت مبكر، واستنفار أبيه من الذبح وليدا بعد أن شب وترعرع وآتى ثماره يانعة طيبة. نجا عبد الله من الذبح، فترعرع وشب، فكان أجمل رجل رئي في قريش، حتى تمنته كثير من نسائها أن يكون لهن الزوج المنتظر، حتى إن بعض النساء لم يتوانين في عرض أنفسهن عليه، ولكنه لم يقبل، فخطب له أبوه آمنة بنت وهب ابن عبد مناف بن زهرة وهي يومئذ سيدة بني زهرة سنا وشرفا فزوجه إياها، وكان عمره حين زواجه ثمانية عشر عاما. وكان عبد الله زوجًا لآمنة بنت وهب. والواقع أن الزوجين احتلا في قومهما مقاما عليا لا بسبب من كرم محتد فحسب، بل بسبب شي آخر كان أرجح في ميزان القيمة في عصر الظلمة والفساد ذلك، لقد كانت لكل منهما نفس طاهرة[1].

وحملت آمنة برسول الله فلم تجد له ثقلا، ولم يطرأ عليها ما يطرأ على النساء من الوحم. إن آمنة بنت وهب أم رسول الله ﷺ كانت تحدث: أنها أتيت حين حملت برسول الله ﷺ فقيل لها: إنك قد حملت بسيد هذه الأمة، فإذا وقع إلى الأرض فقولي: أعيذه بالواحد، من شر كل حاسد! ثم سميه محمدًا، ورأت حين حملت به أنه خرج منها نور رأت به قصور بُصرى من أرض الشام. وسافر عبد الله مع تجارة قريش إلى بلاد الشام، وذلك كبقية أفراد أسرته التي كانت تعمل بالتجارة مع بلاد الشام في الصيف واليمن في الشتاء[2]. وفيما هو قافل إلى مكة أدركته منيته في المدينة المنورة فتوفى فيها، وذلك بعد عودته من تجارة له في «غزة» فقد مات في سن مبكرة[3]. ودفن هناك عند أخواله من بني عدي بن النجار، توفى عبد الله وترك محمدًا حملا في بطن أمه لم يمض على حمله سوى شهرين. ولد رسول الله يوم الإثنين، لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول، عام الفيل الذي يصادف عام ٥٧٠م تقريبا. فلما وضعته أمه ﷺ أرسلت إلى جده عبد المطلب: أنه قد ولد لك غلام فأته فانظر إليه، فأتاه فنظر إليه، وحدثته بما رأت حين حملت به، وما قيل لها فيه، وما أمرت به أن تسميه، فسماه «محمدًا». وقد حمى الله هذا الاسم من الشيوع والانتشار فلم يسمَّ به أحد حتى قرب مبعث النبي، فسمي به ستة هم: محمد بن أصبحة، ومحمد بن مسلمة، ومحمد ابن براء، ومحمد بن سفيان، ومحمد بن حمران، ومحمد بن خزاعة، ولا سابع لهم، لأن الكتب السماوية قد بشرت بأن النبي المنتظر سيكون اسمه «محمد»، فسمى آباء هؤلاء أبناءهم به رجاء أن يكون ابنه ذاك النبي، وقد حمى الله كل من سمي به أن يدعي النبوة أو يدعيها أحد له. وقد كان لهذا الاسم النادر

(١) د. محمد رواس قلعه جي - نفس المرجع ص١٧.
(٢) الأزرقي - جـ١ - ص٧١.
(٣) الأزرقي - جـ١ ـ ص٧١.

«محمـد» الذي سمي به مساهمة في إلقـاء الأضواء وتوجيه الأنظار في وقت مـبكر نحو هذا الإنسان الذي سيـختاره الله تعالـى لقيادة هذه الأمة، وإقـامة صرح المثل الإنسـانية الموحاة إليـه من الله تعالى فيها[1].

أخذ عبد المطلب الوليد الجديد فدخل به الكعبة، فقام يدعو الله ويشكر له ما أعطاه، ثم خرج به إلي أمه فدفـعه إليها والتمس له المراضع فاسـترضع له امرأة من بني سعد بن بكر يقال لهـا حليمة بنت أبي ذؤيب. وهكذا ولد الرسول الكـريم يتيم الأب، ثم ماتت أمه وهو لا يزال في السـادسة من العمـر. وبذلك حرم حب الأبوين وعنايتـهما، ومع هذا فـإنه لم ينشأ على أسـمى الفضائل الخلقـية فحسب، بل كـان أعظم معلم للأخلاق أيضًا. ولم تشـأ الأقدار له أن يفيد من المنافع الـتي تعود بها الثقافة الكتبية على أصحابها، ومع هذا فقد ترك للعالم تراثا غنيا من الحكمة البالغة لا يزال حتى يوم الناس هذا ينتزع الاحترام والإعجاب الكليين.

وقد نشأ مـحمد يتيـما فكفله جده عبـد المطلب وظل في رعاية جده حتى توفـى هذا الأخير وذلك في السنة الثامنة بعـد الفيل[2]. وكذلك كـانت وفاة والدته وله من العمـر ثماني سنين أو ست على روايات أخرى[3]. ويوم الإثنين، الثاني عـشر من ربيع الأول، هو يوم ميـلاد الرسول الكريم. وهو يوافق اليوم العـشرين من نيسان (أبريل) عام ٥٧١ من التـقويم المسيحي. وقـبل مولد الرسول، تلقت أمه النبأ السعـيد في رؤيا. ويرشح من بعض أحاديث الرسول أن جده سماه مـحمدًا، وأن أمه سمتـه أحمد، وقد فـعل كل منهما ذلك تبـعًا لرؤية رآها. ولقد تحدث القـرآن الكريم عنه بالاسمين جميعًا. ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ۝٨ ﴾ [الصف]. و﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ۝١٤٤ ﴾ [آل عمران]. و﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۝٤٠ ﴾ [الأحزاب]. و﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ۝٢٩ ﴾ [الفتح].

يروي أحد الثقـات أن الرسول نفسه قال: «أنا مـحمد وأحمد في آن مـعا» وهو يخاطب في المنظومات الشـعرية بكلا الاسمين أيضا. في نفس العـام الذي ولد فيه الرسـول شيد زعيم مسـيحي كنيسـة فخـمة في اليمن أطـلق عليها اسم «القـليس» وهذا الاسم مشتق مـن كلمة Ecclesia بمعنى كنيسـة، وعندما وصلت أخبارهـا إلى مكة فغضب سكانها وخـرج أحدهم من مكة حتى قـدم اليمن

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص٥٦.
(٢) الطبري - جـ٢ - ص٢٧٧.
(٣) ابن هشام - القسم الأول ص١٦٨، المنجد ص٩.

ولطخ «القليس» بالأقذار وعاد إلى بلده فحلف أبرهة حين علم بالحادث أنه سيسير إلى الحجاز ويهدم الكعبة[١]. رجاة أن يحولها إلى ملاذ عام لشعبه، زمني وروحي، بدلا عن الكعبة التي كان قد عقد العزم على هدمها. ولقد كان ذلك، في الواقع، صراع حياة أو موت بين التثليث والتوحيد. وهكذا سار ذلك الزعيم، أبرهة الأشرم على رأس جيش عظيم قاصداً مكة لكي يدكها دكا. وعسكر على مبعدة ثلاثة مراحل من مكة، وبعث إلى المكيين رسولا يبلغهم الغرض الذي من أجله جاء. وفي غضون ذلك احتجز رجال أبرهة مئة بعير لعبد المطلب. فلم يكن من عبد المطلب إلا أن وفد بنفسه على الزعيم ليسأله رد إبله. وتأثر أبرهة تأثرا عظيما بمظهره المهيب، فسأله ما الذي دعاه إلى الوفود عليه، معتقداً من غير ريب أنه أقبل ليلتمس منه الإبقاء على البيت المقدس. فأجابه عبد المطلب أنه إنما أقبل ليسأله رد إبله. فعجب أبرهة لهذا الجواب غير المتوقع وأبدى استغرابه لقلق عبد المطلب البالغ على إبله وعدم قلقه على الكعبة قائلا لترجمانه: «قل له لقد كنت أعجبتني حتى رأيتك ثم زهدت فيك حين كلمتني. أتكلمني في مئة بعير أصبتها لك وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك قد جئت لأهدمه لا تكلمني فيه؟»، فقال له عبد المطلب: «إني أنا رب الإبل، وإن للبيت ربا سيمنعه»[٢]. إذ وجد القرشيون أنفسهم أضعف من أن يقاوموا أبرهة فأخلوا مكة ونصبوا خيامهم في الكثبان المجاورة. وفيما هم يغادرون مكة أخذ عبد المطلب بستار من أستار الكعبة، وراح يستنصر الله قائلا: «اللهم هذا بيتك. إننا نشعر أننا أضعف من أن نحميه، فتول أنت حمايته بنفسك». ويقول المؤرخون أن الجدري تفشى، في غضون ذلك، بجيش أبرهة تفشيا ليس أقوى منه ولا أعنف، محدثا في صفوفه ذعرا رهيبا، مهلكا القسم الأعظم من رجاله. أما سائره فلاذ بالفرار في اختلاط كامل وفوضى مطلقة. وإليك وصف القرآن الكريم لهلاك جيش أبرهة. ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾ [الفيل]. وهذا يظهر أن الجيش ولى الأدبار في ارتباك شديد إلى درجة جعلته لا يتريث لحظة حتى يدفن جثث القتلى، فأمست طعامًا للنسور وغيرها من جوارح الطير. وقد وقعت هذه الحادثة الأعجوبية في آن واحد مع مولد الرسول الكريم. وتقول بعض الروايات أن هزيمة أبرهة تمت يوم مولد محمد بالذات[٣].

بركة رضاع رسول الله في بني سعد: من عادة المجتمع العربي أن ترسل أولادها مسترضعة في البادية ليكتسبوا فصاحة اللسان من أهلها وسلامة النطق ويعيش في الهواء الطلق النقي فقد أرضع رسول الله محمد ﷺ بعد ولادته مباشرة مولاة أبي لهب «ثويبة» وذلك قبل قدوم حليمة وثويبة كانت

(١) ابن هشام - القسم الأول ص٥٠.
(٢) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص٥٧ .
(٣) ابن سعد - جـ١ - ص١٠٨.

قد أرضعت قبله حمزة بن عبد المطلب وأرضعت بعده أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي فكانا أخويه من الرضاعة ولهذا رفض الرسول الزواج من ابنة عمته حمزة لأنها ابنة أخيه من الرضاعة(١).

كانت حليمة تحدث أنها خرجت من بلدها مع زوجها وابن لها صغير اسمه عبد الله بن الحارث ترضعه، في نسوة من بني سعد، تلتمس الرضعاء، وذلك في سنة مجدبة لم تبق لهم شيئًا تقول: فخرجت على أتان لي قمراء معنا شارف لنا. والله ما تبضُّ بقطرة، وما ننام ليلنا أجمع من صبينا الذي معنا من بكائه من الجوع، ما في ثديي ما يغنيه، وما في شارفنا ما يغذيه، ولكنا كنا نرجو الغيث والفرج، فخرجت على أتاني، فلقد أدمْتُ بالركب حتى شق عليهم ضعفا وعجفا حتى قدمنا مكة نلتمس الرضعاء، فما معنا امرأة إلا وقد عُرض عليها رسول الله ﷺ فتأباه إذا قيل لها إنه يتيم، وذلك أنَّا إنما كنا نرجو المعروف من أبي الصبي، فكنا نقول: يتيم! وما عسى أن تصنع أمه وجده! فكنا نكرهه لذلك. فما بقيت امرأة كانت معي إلا أخذت رضيعًا، غيري. فلما أجمعنا الانطلاق قلت لصاحبي: والله إني لأكره أن أرجع من بين صواحبي ولم آخذ رضيعًا، والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلآخذنه! قال: لا عليك أن تفعلي، عسى الله آن يجعل لنا فيه بركة، وذلك عندما لم تحظ حليمة بطفل غيره وكرهت أن تعود دون رضيع فقبلته(٢).

قالت: فذهبت إليه فأخذته، وما حملني على أخذه إلا أني لم أجد غيره. فلما أخذته رجعت به إلى رحلي، فلما وضعته في حجري أقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن، فشرب حتى روي، وشرب معه أخوه حتى روي ثم ناما، وما كنا ننام معه قبل ذلك. وقام زوجي إلى شارفنا تلك فإذا هي حافل، فحلب منها ما شرب وشربت معه حتى انتهينا ريا وشبعا، فبتنا بخير ليلة!.

قالت: يقول صاحبي حين أصبحنا: تعلمي والله يا حليمة، لقد أخذت نسمة مباركة! فقلت: والله إني لأرجو ذلك. ثم خرجنا وركبت أنا أتاني، وحملته عليها معي فوالله لقطعت بالركب ما يقدر عليها شيء من حمرهم، حتى إن صواحبي ليقلن لي: يا ابنة أبي ذؤيب. ويحك اربعي علينا أليست هذه أتانك التي كنت خرجت عليها؟! فأقول لهن: بلى والله، إنها لهي! فيقلن والله إن لها لشأنا!. ثم قدمنا منازلنا من بلاد بني سعد، وما أعلم أرضا من أرض الله أجدب منها، فكانت غنمي تروح عليٌّ حين قدمنا به معنا شباعا لبنا فنحلب ونشرب وما يحلب إنسان قطرة لبن، ولا يجدها في ضرع، حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم: ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعي بنت أبي ذؤيب. فتروح أغنامهم جياعا ما تبض بقطرة لبن، وتروح غنمي شباعا لبنا.

فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير حتى مضت سنتاه وفصلته، وكان يشب شبابا لا يشبه الغلمان، فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلاما جفرا (الغليظ الشديد)، فقدمنا به على أمه ونحن أحرص

---

(١) ابن سعد - جـ١ - ص١٠٩.

(٢) ابن هشام - القسم الأول - ص١٦٢.

شيء على مكثه فينا، لما كنا نرى من بركته، فكلمنا أمه وقلت لها: لو تركت بني عندي حتى يغلظ، فإني أخاف عليه وباء مكة. فلم نزل بها حتى ردته معنا. تتحدث معظم المصادر عن الخير الذي فاض على حليمة السعدية وأسرتها بعد قدوم الطفل محمد إلى ربوعهم[1]. لا نشك في أن خبر محمد ﷺ وخبر ما حل في البيت الذي هو فيه من البركة قد انتشر في أنحاء البادية، وسارت به الركبان، ويؤكد لنا شيوع هذا الخبر أن الناس يقولون لغلمانهم: ارعوا أنعامكم حيث ترعى أنعام حليمة، ولما تعود أنعامهم كما ذهبت وتعود أنعام حليمة وقد امتلأت، لابد من أن يثور في نفوسهم ألف سؤال بحثا عن السر، ولا تغيير في أمر حليمة إلا دخول هذا الطفل «محمد» بيتها. كل هذا كان له أثره في توجيه أنظار أهل البادية إلى محمد ﷺ في وقت مبكر، ليكون مهوى القلوب، ومجمع الزنود المفتولة عندما يتسلم قيادة هذه الأمة، فيقول الناس: هذا الذي عرفنا بركته صغيرا، فما الذي يمنعنا أن نكون معه كبيراً، لعله يحقق لنا الخير الذي عجزنا عن تحقيقه[2].

لنترك الحديث عن شق صدر «محمد» إلى حليمة السعدية لتحدثنا به، وهي أعلم الناس بذلك، تقول حليمة: بعد أن رددت محمداً معي إلى البادية بعدة أشهر كان محمد مع أخيه - تعني ابنها - مع بهم (الصغار من الغنم) لنا خلف بيوتنا إذ أتانا أخوه يشتد، فقال لي ولأبيه: ذاك أخي القرشي قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض، فأضجعاه فشقا بطنه، فهما يسوطانه. فخرجت أنا وأبوه، فوجدته قائما منتقعا وجهه، فالتزمته والتزمه أبوه، فقلنا: ما لك يا بني؟ قال: جاءني رجلان عليهما ثياب بيض. ، فأضجعاني وشقا بطني فالتمسا فيه شيئًا لا أدري ما هو.

فرجعنا به إلى خبائنا وقال لي أبوه: يا حليمة، لقد خشيت أن يكون هذا الغلام قد أصيب، فألحقيه بأهله قبل أن يظهر ذلك به. فاحتملنا فقدمنا به على أمه فقالت: ما أقدمك به يا حليمة وقد كنت حريصة عليه وعلى مكثه عندك؟ فقلت: قد بلغ الله بابني وقضيت الذي علي، وتخوفت الأحداث عليه، فأديته إليك كما تحبين. قالت: ما هذا شأنك فاصدقيني خبرك، فلم تدعني حتى أخبرتها، قالت: أفتخوفت عليه الشيطان؟ قلت: نعم. قالت: كلا، والله ما للشيطان عليه من سبيل، وإن لبني لشأنا، أفلا أخبرك خبره؟ قلت: بلى. قالت: رأيت حين حملت به أنه خرج مني نور أضاء قصور بصرى من أرض الشام، ثم حملت به فوالله ما رأيت من حمل قط أخف عليّ ولا أيسر منه، ووقع حين ولدته وإنه لواضع يديه بالأرض، رافع رأسه إلى السماء. دعيه عنك وانطلقي راشدة، وبذلك يكون قد أقام رسول الله عند حليمة ثم عاد بعدها إلى أمه في مكة. إن هذه الحادثة هي نوع من أنواع الإعداد الذي أعد الله تعالى به رسول الله محمداً ﷺ ليكون نبيا وقائدا. وقال عتبة بن عبد السلمي أنه سأل رسول الله ﷺ كيف كان بدء أمرك؟ فذكر القصة في ارتضاعه في بني سعد

---

(١) ابن سعد - جـ١ ص١١٠.

(٢) د. محمد رواس قلعه جي - المرجع السابق ص٢٠ .

فيه أن الملكيين لما شقا صدره قال أحدهما للآخر خطه، فخاطه وختم عليه بخاتم النبوة[1]. وكان «خاتم النبوة» من علاماته التي كان أهل الكتاب يعرفونه بها[2].

لقد كان محمد معصوما عن المعاصي ظاهرًا وباطنًا، فعصمته ظاهرا بأن لا يأتيها وعصمته باطنا بتطهيره من الحقد والحسد من أمراض القلب، وعملية شق الصدر واستخراج القلب، كانت، لاستخراج السوء منه، وهو أمر ضروري لتحقق العصمة الداخلية. ولكن ألا يمكن أن يتحقق ذلك كله من غير شق الصدر؟! ألم يكن بالإمكان بأن يأمر الله الغل والحقد والحسد والسوء كله بالخروج من قلب محمد بغير شق صدره؟! فلماذا كان شق الصدر. وهنا نقول: إن شق الصدر كان أيضًا لتسليط الأضواء على شخص رسول الله محمد ﷺ تمهيدًا لتسلمه القيادة ليحفظ الناس أن رسول الله محمد ﷺ ليس كبقية الناس، وهم يعرفون ذلك عنه منذ نعومة أظفاره، منذ أن كان مسترضعًا عند حليمة[3]، استمر محمد مع حليمة حتى بلغ الخامسة من عمره حين أعاذته حليمة وسلمته إلى جده[4] ويقول رسول الله محمد ﷺ عن حياته وطفولته بما كان من فضل في تقويم لسانه وإيضاح بيانه: «انا أعربكم، أنا من قريش، ولساني لسانُ بني سعد بن بكر»[5].

وكان رسول الله ﷺ مع أمه آمنة بنت وهب وجده عبد المطلب بن هاشم في كلاءة الله وحفظه، ينبته نباتا حسنا، لما يريد به من كرامته. فلما بلغ رسول الله ﷺ ست سنين توفيت أمه بالأبواء بين مكة والمدينة، كانت قد قدمت به على أخواله من بني عدي بن النجار تُزيره إياهم، فماتت وهي راجعة به إلى مكة[6]. وكان موت أبوي رسول الله - وهو عليه الصلاة والسلام ما زال صغيرًا - أضواءًا أخرى سلطها رب العزة على شخص رسول الله قبل استلامه دفة القيادة. وبوفاة أم رسول الله، انضم عليه الصلاة والسلام إلى أسرة جده عبد المطلب، ولقى في بيت جده كل تكريم أثناء إقامته فيه، حتى إنه كان يوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه، لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالا له. فكان رسول الله ﷺ يأتي وهو غلام جفر حتى يجلس عليه، فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه، فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك منهم: دعوا ابني، فوالله إن له لشأنا! ثم يجلسه معه على الفراش ويمسح ظهره بيده، ويسره ما يراه يصنع. فلما بلغ رسول الله ﷺ ثماني سنين توفى عبد المطلب ـ وذلك بعد عام الفيل بثماني سنين ـ وانتقل الطفل محمد إلى بيت عمه أبي طالب، فلقي فيه كل تكريم أيضًا، وبذلك توالت المصائب على الطفل محمد عندما توفيت والدته ولم يكن عمه أبو طالب على جانب كبير من الغنى ولكنه كان

---

(١) الطبراني - المعجم الكبير ١٧ / ١٣١ - الحديث ٣٢٣. وانظر المسند لأحمد ٦/ ٥٦١.

(٢) فتح الباري - ٦/ ٥٦١ وانظر ايضًا - عمدة القارئ: ١٣/ ٦١.

(٣) د. محمد رواس قلعه جي - المرجع السابق ص٢٠ .

(٤) ابن سعد - جـ١ ص١١٣.

(٥) ابن سعد - جـ١، ص١١٣.

(٦) ابن هشام - القسم الأول ص١٦٨.

يخصه بعناية وحب كبيرين استمر طيلة حياته قبل بعثته وبعدها كما رافق محمد عمه أبا طالب في رحلة إلى الشام(١). وهنا لابد لنا أن نلاحظ أمرين ملفتين للنظر(٢):

أولهما: تكامل يتم رسول الله ﷺ بموت أبويه، ثم موت جده، وهذا أمر ملفت للأنظار لهذا اليتيم، مثير للشفقة عليه، فالناس في مكة لا يفتأون يذكرونه لا لأنه يتيم الأبوين فحسب، بل لأنه جمع إلى اليتم الذكاء الوقاد، وحسن التصرف، وكريم الأخلاق، والمظهر الموحي بالعظمة، وقوة الشخصية. كل هذا مما ينبه الناس ويلفت أنظارهم إلى هذا الطفل.. ثانيهما: مبالغة جده عبد المطلب في إكرامه، حتى إنه ليلعب على فراشه الممدود في ظل الكعبة، وفي حضرة كبار رجالات العرب وزعمائها، مع أن المعروف عن عبد المطلب أنه كان لا يسمح لأحد، ولا حتى لأحد من أولاده بالجلوس على فراشه. إن هذا أمر ملفت للنظر، يرافق جده يجلس معه على فراشه في ظل الكعبة، وهو ما زال حدثا، على مرأى من رجال العرب الذين يقصدون مكة من كل حدب وصوب ويجلسون مع زعيمها عبد المطلب. ولابد من أن يتحدث هؤلاء القادمون والمقيمون معا عن هذا الطفل الذي يجلس على فراش عبد المطلب في ظل الكعبة، وتلوك الحديث عنه ألسنتهم، وفي ذلك نشر لذكر محمد بن عبد الله في وقت مبكر يساعده في المستقبل على قيادة العرب. لقد كان التكوين الجسمي والنفسي لرسول الله ﷺ موحيا بالعظمة، ولذلك فإنه ما رآه أحد إلا تنبأ له بالشأن العظيم، وقد جرى ذلك على لسان جده عبد المطلب كما تقدم. وعلى لسان عمه أبي طالب، وعلى لسان العائفين الخبراء بدراسة الشخصية، فابن إسحاق يحدثنا أن رجلا من بني لهب عائفا كان إذا قدم مكة أتاه رجال قريش بغلمانهم ينظر إليهم يعتاف لهم فيهم، فأتاه أبو طالب بمحمد - وهو غلام - لينظر إليه، فنظر اللهبي إلى رسول الله ثم شغله عنه شيء، فلما فرغ قال: عليّ بالغلام - محمد - فلما رأى أبو طالب حرصه عليه غيبه عنه فجعل ذلك العائف اللهبي يقول: ويلكم ردوا عليّ الغلام الذي رأيت آنفًا، فوالله ليكونن له شأن.

واتفقت الروايات على تنزيه رسول الله محمد ﷺ في نطقه من عيوب في الحروف ومخارجها وقدرته على إيقاعها في أحسن مواقعها فهو صاحب كلام سليم في منطق سليم، وكانت له مع الفصاحة صباحة ودماثة تحببانه إلى كل من رآه وتجمعان إليه قلوب من عاشروه وهي صفة لم يختلف فيها صديق ولا عدو ولم ينقل عن أحد من أقطاب الدنيا أنه بلغ بهذه الصفة مثل ما بلغه الرسول محمد ﷺ بين الضعفاء والأقوياء على السواء(٣).

نجد أيضا أن رسول الله محمد ﷺ كان جامعا للمحبة والثقة كأفضل ما تجتمعان وكان مشهورًا

(١) ابن هشام - القسم الاول ص١٨٠.
(٢) د. محمد رواس قلعه جي - المرجع السابق ص٢٧.
(٣) عباس محمود العقاد - عبقرية محمد - ص٢٢.

بصدقه وأمانته كاشتهاره بوسامته وحنانه وشهد له بالصدق والأمانة أعداؤه ومخالفوه كما شهد بهما أحبابه وموافقوه وامتلأ هو من العلم بمنزلته من ثقة القوم[1].

سفره مع عمه إلى الشام، وقصة بحيرا: ولما كان سن رسول الله اثنتا عشرة سنة خرج أبو طالب في ركب تاجرًا إلى الشام، فلما تهيأ للرحيل وأجمع المسير تعلق به رسول الله ﷺ فرق له أبو طالب وقال والله لاخرجن به معي ولا يفارقني ولا أفارقه أبدًا، فخرج به معه، ونزل الركب مدينة بُصرى[2]، وكان في بصرى صومعة لا تخلو من راهب يصير إليه علم المسيحية من كتاب فيها يتوارثونه كابرًا عن كابر ـ فيما يزعمون ـ وكان راهبها في تلك الآونة هو «بحيرا» ـ وكانوا كثيرا ما يمرون به قبل ذلك فلا يكلمهم ولا يعرض لهم، حتى كان ذلك العام، فلما نزلوا به قريبا من صومعته صنع لهم طعامًا كثيرًا. وذلك لشيء رآه وهو في صومعته، ذلك الشيء هو أنه رأى رسول الله ﷺ وهو في الركب حين أقبلوا، وغمامة تظله من بين القوم، ولما نزلوا في ظل شجرة قريبا منه، وجد الغمامة قد أظلت الشجرة، وتدلت أغصان الشجرة على رسول الله ﷺ حتى استظل تحتها فلما رأى ذلك بحيرا نزل من صومعته ثم أرسل إليهم فقال: إني قد صنعت لكم طعامًا يا معشر قريش، فأنا أحب أن تحضروا كلكم، صغيركم وكبيركم، وعبدكم وحركم.

فقال له رجل منهم: والله يا بحيرا إن لك لشأنًا اليوم؟ فما كنت تصنع هذا بنا وقد كنا نمر بك كثيرًا! فما شأنك اليوم؟ قال له بحيرا: صدقت، قد كان ما تقول، ولكنكم ضيف، وقد أحببت أن أكرمكم وأصنع لكم طعاما فتأكلوا منه كلكم. فاجتمعوا إليه وتخلف رسول الله ﷺ من بين القوم، لحداثة سنه، في رحال القوم تحت الشجرة، فلما نظر بحيرا في القوم لم ير الصفة التي يعرفها ويجدها عنده، فقال: يا معشر قريش، لا يتخلف أحد منكم عن طعامي. قالوا له: يا بحيرا، ما تخلف عنك أحد ينبغي له أن يأتيك إلا غلام، وهو أحدث القوم سنًا فتخلف في رحالنا. فقال: لا تفعلوا، ادعوه فليحضر هذا الطعام معكم. فقال رجل من قريش مع القوم: واللات والعزى، إن كان للؤم بنا أن يتخلف ابن عبد الله بن عبد المطلب عن طعام من بيننا! ثم قام فاحتضنه وأجلسه مع القوم، فلما رآه بحيرا جعل يلحظه لحظا شديدا وينظر إلى أشياء من جسده قد كان يجدها عنده من صفته، حتى إذا فرغ القوم من طعامهم وتفرقوا قام إليه بحيرا فقال له: يا غلام، أسألك بحق اللات والعزى إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه ـ وإنما قال له بحيرا ذلك لأنه سمع قومه يحلفون بها ـ فزعموا أن رسول الله ﷺ قال له: «لا تسألني باللات والعزى، فوالله ما أبغضت شيئًا قط بغضهما» فقال له بحيرا: فبالله إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه. فقال له: سلني ما بدا لك. فجعل يسأله عن أشياء من حاله في نومه وهيئته وأموره، فجعل رسول الله ﷺ يخبره فيوافق ذلك ما عند بحيرا من

---

(١) عباس محمود العقاد - نفس المرجع - ص٢٢.

(٢) ابن هشام - القسم الأول - ص ١٨٠ وابن سعد جـ١ ص١١٩.

صفته. ثم نظر إلى ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه على موضعه من صفته التي عنده. فلما فرغ أقبل على عمه أبي طالب فقال له: ما هذا الغلام منك؟ قال: ابني، قال له بحيرا: ما هو بابنك، وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حيا. قال: فإنه ابن أخي. قال: فما فعل أبوه؟ قال: مات وأمه حبلى به. قال: صدقت، فارجع بابن أخيك إلى بلده، واحذر عليه يهود، فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبغُنه شرًا، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم. فأسرع به إلى بلاده. ومهما يكن من أمر قصة بحيرا فإنها لم تترك أثرًا في نفس رسول الله، ولم يذكرها في يوم من الأيام، ولم يطمح أن يكون زعيمًا في قومه حتى نزل عليه الوحي فأسلمه دفة القيادة، ولكنها وجهت الأنظار إليه، في بلاد الشام وألقت الأضواء عليه، فالناس يذكرونها ولا ينسونها أبدًا[1].

كانت خديجة بنت خويلد الأسدية امرأة تاجرة ذات شرف ومال تستأجر الرجال ليخرجوا بتجارتها إلى البلاد البعيدة وتعطيهم على ذلك نسبة معينة من الربح، فلما بلغها عن رسول الله ﷺ ما بلغها من صدق حديثه، وعظم أمانته، وكرم أخلاقه، بعثت إليه، فعرضت عليه أن يخرج مع غلامها «ميسرة» في مال لها إلى الشام تاجرًا، وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من التجار، فقبل رسول الله ﷺ منها وخرج في مالها ذلك، وخرج معه غلامها «ميسرة» حتى قدم الشام. فنزل رسول الله ﷺ في ظل شجرة قريبًا من صومعة راهب يقال له «نسطورا» فأطل الراهب على ميسرة فقال: من هذا الرجل الذي نزل تحت هذه الشجرة؟ قال له ميسرة: هذا رجل من قريش من أهل الحرم. فقال له الراهب: ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي! لا نشك بأن نسطورا هذا لن يكتم هذا الخبر بعد أن كشفه، سيذيعه، ومن سمعه منه سيذيعه أيضًا. وباع رسول الله ﷺ سلعته التي خرج بها، واشترى ما أراد أن يشتري، ثم أقبل قافلاً إلى مكة، فكان ميسرة إذا كانت الهاجرة واشتد الحر يرى ملكين يظلانه من الشمس وهو يسير على بعيره، فلما قدم مكة على خديجة بمالها باعت ما جاء به فربح المال ضعفه أو قريبا، وأخبر ميسرة خديجة بما رآه من خلق محمد ونظافة مسلكه، وبما رآه أيضا من إظلال الملائكة له، وبما سمعه من قول الراهب «نسطورا» فوقع ذلك في نفس خديجة موقعًا، كما قال «ميسرة» لخديجة ما رآه من أخلاقه ومكرماته ويقص أخبارا عن محمد ﷺ ما جعله يثلج صدر سيدته وحببته إلى نفسها سيما وأن تجارتها ربحت ضعف ما كانت تربح تجارتها في السابق[2]. وحملت خديجة إلى ورقة بن نوفل - وكان ابن عمها. وكان نصرانيا قد تتبع الكتب وعلم من علم الناس - ما ذكر لها غلامها ميسرة من قول الراهب نسطور، وما كان يرى منه إذ كان الملكان يظلانه، فقال ورقة: لئن كان هذا حقا يا خديجة إن محمدا لنبي هذه الأمة، وقد عرفت أنه كائن لهذه الأمة نبي يُنتظر، هذا زمانه. وهذا ضوء جديد يسلط على الرسول محمد ﷺ الذي سيتولى قيادة هذه الأمة عما قريب[3].

---

(١) د. محمد رواس قلعه جي - المرجع السابق ص٢٥.

(٢) ابن سعد - جـ١ ص١٢٩ - ١٣١.

(٣) د. محمد رواس قلعه جي - المرجع السابق ص٢٥.

وقع حديث ميسرة ونبـوءة ورقة في نفس خديجة موقعه، وكانت خديجـة امرأة عاقلة حازمة لبيبة شـريفة فطمحت أن تكون الزوجة المخلصة لذلك الرجل العظيم، تشـاطره شرف حمل الرسالة، وتعينه عليهـا، فاستدعته فـقالت له: يا ابن عم، إني قد رغبت فيـك لقرابتك وسطتك (الشرف) في قومك، وأمانتك وحسن خلقك، وصدق حديثك. ثم عرضت عليه نفسها، وتختلف المصادر في أمر هذا العرض فبعضهم يذكر أنه كـان بوساطة نفيسة بنت منية[1] والبعض يقول إنهـا عرضت عليه من غـير وسـاطة[2]، وكانت خديجة يومـئذ أشرف نساء قريش نسبا، وأعظمهن شـرفا، وأكثرهن مالا، وكان كل رجل من قومها حريصا على الزواج منها لو يقدر عليه.

ولم يكن عيبا عند العرب قبل الإسلام، ولا في الإسـلام، أن تعرض المرأة نفسها أو يعرضها وليها على الرجل الكفء الصالح ليكون لها زوجا، فهذه خديجة وكثيرات من النساء عرضن أنفسهن على رسول الله، وعرض عمـر ابنته حفصة على أبي بكر ثم على عثمان. وتلك عـادة حسنة يا حبذا لو أخذ الناس بهـا اليوم، بل نقول: لو عقل الناس اليـوم لجدّوا في خطبة الرجال الصـالحين الأكفاء لبناتهم أكثر من جـدهم في خطبة المرأة المناسبة لبنيهم؛ لأن القـوامة في البيت للرجل، يلزم أن يكون القيم كفـئا صالحا ليكون البيت سعـيدا. ولما عرضت خديجة على رسـول الله ما عرضت من الزواج منها ذكر رسول الله ذلك لأعمامه، فخرج معه عـمه «حمزة» حتى دخل على خويلد بن أسد فخطبها إليه، فتزوجها رسـول الله ﷺ، وكانت أول امرأة تزوجها، وجعل صداقها عشـرين ناقة، وكان عمر خديجة آنذاك أربعين سنة، وعمر رسول الله خمـسًا وعشرين سنة، فولدت لرسول الله أولاده كلهم. ذكورهـم وإناثهم إلا إبراهيم فإنه من مـاريا القبطيـة. ولو أمعـنا النظر في حكمة الله تعـالى في هذا الزواج لوجدنا أن رجلا سيخـوض غمار حرب نفسية وجسدية شـرسة ضد أعدائه لابد من أن تكون بجانبه زوجـة تشد أزره وتقوي عزيمته وتفسح الأمل بالمـستقبل أمام ناظريه، لا زوجة تشـيع في نفسه الخور والضعف. ولم يتزوج رسول الله في حياة خديجة امرأة غيرها لأمرين اثنين[3]:

الأول: تقديرا منه صلوات الله وسلامه عليـه لجهاد خديجة، ونفثها روح الصـمود في نفسه.
الثاني: لم تكن هناك أية حاجة للدعوة الإسلامية لأن يعـدد رسول الله الزوجات. فالمرحلة التشريعية التي تقتضي تعلـيمها للناس والتي كان قـسط كبير منها يطبـقه رسول الله في بيته، وأحـسن مبلغ لها وناقل هم الزوجات اللاتي يعشن مع رسول الله في بيتـه ويعلمن أحوالها، هذه المرحلة لم تبدأ بعد، والعداء بين رسول الله وخصومـه هو محصور في قريش لم يخرج عنها إلى غيـرها من قبائل العرب بعد.

رُزق النبي من خديجـة أربع بنات، وابنين اثنين، وعن جعـفر عن أبيه قـال: ولد لرسول الله

(١) ابن سعد - جـ١ ص١٢٩ - ١٣١.
(٢) ابن هشام - القسم الاول ص١٨٩.
(٣) د. محمد رواس قلعه جي - المرجع السابق ص٢٦.

محمد ﷺ من خديجة القاسم والطاهر وأم كلثوم ورقية وفاطمة وزينب[1]. وكان أكبر أولاده جميعًا القاسم، ومن أجل ذلك كُني الرسول بـ «أبي القاسم»، ولكنه توفى طفلا في الثانية من العمر. وكانت بنته الكبرى هي زينب، التي تزوجت بعد من أبي العاص بن الربيع بن عبد شمس. تليها رقية، وقد تزوجت من عثمان بن عفان، وتوفيت يوم انتصار المسلمين في معركة بدر. وكانت ابنته الثالثة هي أم كلثوم التي تزوجت أيضا من عثمان بعد وفاة أختها رقية. أما صغرى بناته جميعا فكانت فاطمة، وقد أنجبت تلك الذرية التي عرف كل فرد من أفرادها بلقب «السيد». لقد زوجت من الإمام علي عليه السلام. وكان أصغر أولاد خديجة غلاما توفي وهو بعد طفل. والواقع أن الرسول احتسب وهو على قيد الحياة جميع أولاده من خديجة ما عدا فاطمة التي لم تعش بعده إلا ستة أشهر. ولم يرزق الرسول غير ولد واحد - إبراهيم - من زوجة أخرى، وقد توفى هذا الولد أيضًا وهو طفل وكان الرسول شديد الحب لخديجة، وكثيرا ما كان يتذكرها بتعابير تفيض حنانا، حتى بعد وفاتها. وذات يوم أطرى سجاياها، فطرحت عليه عائشة سؤالا محرجا جدا: ألم يعوضه الله، في شخصها، زوجا خيرا من خديجة؟ فأجابها الرسول: «لا، لقد آمنت بي حين تخلى عني الناس جميعًا». لقد وهب خديجة قلبه كله ونفسه كلها بسبب من فضائلها الخلقية. وكان ينفق من مالها، بحرية، في سبيل الله. ولم تعترض هي قط على إنفاقه ثروتها في أغراض الخير. ولقد اشترت من مالها الخاص عبدًا للرسول، ولكنها سُرت عندما أعتقه. وكان زيد، صاحب الرسول المشهور، عبدًا رقيقًا ذات يوم أيضًا، وهكذا نعم بحريته بفضل كرم خديجة[2].

وحين هبط عليه الوحي ناء الرسول تحت عبء المسئولية الثقيلة، وتهيب النهوض بالمهمة التي كُلف أداءها. في تلك اللحظة بالذات طيبت نفسه المكروبة بهذه الكلمات المشجعة: «أبشر يا ابن عم واثبت، فوالذي نفس خديجة بيده إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة، ووالله لا يخزيك الله أبدا. إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق». وهذا يظهر إلى أي مدى تأثرت خديجة تأثرًا عميقًا بأخلاق الرسول وعطفه الإنساني. وهذا كان، في الحق، هو مبعث الحب العميق بين الزوج وزوجه. كان كل منهما مفعما بحس العطف الإنساني. وليس في استطاعة امرئ أن يكون أكثر اطلاعًا على عادات رجل ما من زوجته، التي تكون في مركز يمكنها من النفاذ، في حرية، إلى أعمق أعماق قلبه. وإذن، فكون خديجة قد آمنت هذا الإيمان الثابت الذي لا يتزعزع ينهض دليلا لا يحتمل الجدل على كمال خلقه. وأشد النقاد عداوة لا يجرؤ، أمام هذا الدليل، على الارتياب في صدق الرسول وإخلاصه. ذلك بأن الدجال أعجز من أن يوفق إلى انتزاع كامل الولاء والاحترام القلبيين من مخلوقة مطلعة على أسراره هذا الاطلاع كله[3].

---

(١) الكامل لابن الأثير - ٢/ ٤٠.

(٢) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص٦٣.

(٣) مولانا محمد علي - نفس المرجع ص٢٨.

الحكمة من تعدد زوجاته: ولكن بعد وفاة خديجة وهجرة رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة، بدأت مرحلة جديدة في حياة الدعوة، هذه المرحلة تطلبت أن يكون للرسول العديد من الزوجات، وبذلك يمكننا حصر الحكمة من تعداد رسول الله الزوجات ـ مع أنه عبء ثقيل على كل رجل لصعوبة التوفيق بينهن، وعلى رسول الله خاصة لما عرف عنه من الفقر وضيق ذات اليد ـ يمكننا حصر الحكمة من ذلك في ثلاثة أمور[1]:

الأول: طالما أن حياة رسول الله الخاصة والعامة كلها مثال يجب على كل مسلم أن يحتذيه، فهي سنة لا يجوز التفريط بها عملا بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ... ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب] ولما كان أعلم الناس بحياة الرجل الخاصة هم زوجاته، تطلب هذا أن يكون لرسول الله من الزوجات ما يؤمن مصلحة نقل وتبليغ حياة رسول الله الخاصة للناس، والإشراف على تنظيم الدعوة بين صفوف النساء. الثاني: إن المستقرئ لأوضاع زوجات رسول الله يجد أن كل واحدة منهن تفترق عن باقي الزوجات فمنهن الصغيرة التي لا تزال تعكف على ألعابها، والعجوزة الكبيرة، ومنهن ابنة أعدى أعدائه، ومنهن ابنة أصدق أصدقائه، ومنهن من كانت هوايتها تربية الأيتام و... إنهن نماذج لأفراد الإنسانية، ومع ذلك فإن رسول الله قدم لأصحابه وللمسلمين تشريعًا رائعًا يعلمهم كيف يتم التعامل الناجح مع كل نموذج من النماذج البشرية. الثالث: إنه ما إن أعلن رسول الله إقامة الدولة الإسلامية في المدينة المنورة حتى ناصبته قبائل العرب العداء، ولم يعد أمر هذا العداء قاصراً على قريش كما كان الحال في مكة، بل أصبح عاما أو شبه عام بين قبائل العرب، فرأى رسول الله أن من الحكمة أن يجمد بعض أطراف العداء، ولما كان العرب يعتبرون أنفسهم مسؤولين عن حماية من يتزوج منهم، كما تفيد ذلك لغتهم إذ يسمون أنفسهم بالأحماء ـ من الحماية ـ فقد سعى رسول الله ﷺ للزواج من قبائل شتى لتجميد أو تخفيف عدائها.

فزواج رسول الله ﷺ كان لمصلحة عليا تقتضيها مسيرة الدعوة وتوطيد أركان الدولة. وهكذا برهن رسول الله ﷺ أنه السياسي المحنك كما هو النبي الموحى إليه. ولكن لما كانت هذه المصلحة يمكن أن تستغل أسوأ استغلال نظرا لأن الأمور الجنسية تتبعها النفوس لاهثة، فقد جعل ذلك خاصا برسول الله ﷺ، وحدَّ عدد الزوجات لغيره بأربع يجوز أن ينقصهن ولا يجوز أن يزدن على ذلك إذا اجتمعن. ويحلو لبعض المتآمرين على الإسلام أو الجهلة المغفلين الطعن على الإسلام لإباحته تعدد الزوجات. ونحن إجلاء للحقيقة نقول: إن الطعن على الإسلام لإباحته تعدد الزوجات هو جزء من مؤامرة طويلة عريضة التقت للتعاون على تنفيذها دولتان كبيرتان هما أمريكا وبريطانيا وأنشئت لذلك الجامعات، منها: الجامعة الأمريكية في بيروت وفي القاهرة، وأرسلت البعثات التعليمية التي لا تعد ولا تحصى تفتح المدارس في طول البلاد الإسلامية وعرضها، وتمر هذه المؤامرة بثلاثة مراحل[2]:

---

(١) د. محمد رواس قلعه جي – المرجع السابق ص٢٨ .

(٢) د. محمد رواس قلعه جي – المرجع السابق ص٢٩.

المرحلة الأولى: مرحلة التشكيك بصلاحية مبادئ الإسلام وقيمه، ومن ذلك نظام تعدد الزوجات، والطلاق، وتحريم الربا و... المرحلة الثانية: مرحلة النبذ لهذه القيم والمبادئ بعد أن يرسخ الإيمان بعدم صلاحيتها. المرحلة الثالثة: مرحلة الطرح، حيث يطرح هؤلا المتآمرون المبادئ والقيم البديلة عن قيم الإسلام ومبادئه.

سبب هذه المؤامرة أنه تأكد لدى هذه الدول أنه لا يمكنها السيطرة على بلاد المسلمين وخيراتها ما دام المسلمون متمسكون بدينهم الذي يغرس فيهم العزة ورفض كل ولاية غربية عنهم. يقول عليه الصلاة السلام: «لا ولاية لكافر على مسلم». ولإحكام السيطرة على هذه البلاد لابد من ردم قيم الإسلام وغرس قيم تخدم مصالحها مكانها. وتسهيلا للوصول إلى هذا الهدف لابد من تحقيق أمرين اثنين[1]:

الأول: نشر الرذيلة بين صفوف المسلمين وعلى رأسها الجري وراء النساء ومعاقرة الخمرة، وفي ذلك يقول قائلهم: «كأس وغانية يفعلان في الأمة المحمدية ما لا يفعله ألف مدفع». ويسهم في انتشار الرذيلة إلى حد كبير وجود كثير من النساء اللاتي لا يجدن من يحصنهن بالحلال، ولما كان عدد النساء في العالم يفوق عدد الرجال فإن إقصاء نظام تعدد الزوجات من الساحة سينتج عنه جيش من النساء اللاتي لا يجدن من يحصنهن وبذلك تنتشر الرذيلة وتتحقق أهداف المتآمرين. الثاني: وضع حد لهذا الانفجار السكاني في العالم الإسلامي، إذ أن سكان العالم الإسلامي يزدادون بنسبة مقلقة، بينما يعاني الغرب عمومًا من نقص السكان، وازدياد السكان يعني تفجير طاقات أكبر في المجتمع، وهذا أمر مخيف لهم، فإذا ما جمد عدد من النساء عن الإنتاج - أعني عن الإنجاب - لأنهن لا رجال لهن، أمكن التخفيف من حدة هذا الانفجار، وإقصاء نظام تعدد الزوجات عن الساحة يحقق ذلك.

نجد أن رسول الله محمد ﷺ أوجب على المسلمين عامة في معاملاتهم لزوجاتهم دون ما أوجبه على نفسه فكان يشفق إن رأينه غير باسم في وجوههن ويزورهن جميعًا في الصباح والمساء وإذا خلا بهن كان ألين الناس ضحاكًا بسامًا» ولم يجعل من هيبة النبوة سدًا رادعًا بينه وبين نسائه بل أنساهن برفقه وإيناسه أنهن يخاطبن رسول الله في بعض الأحايين، ومن تراجعه أو تغاضبه سحابة نهارها ومن تبلغ في الاجتراء عليه. وقد كان يتولى خدمة البيت معهن أو كما قال: «خدمتك زوجتك صدقة»[2]. تتسامى الحضارة الحديثة ما تتسامى فلا نخالها تحلم بخصال وبمعاملة أطيب ولا أكرم من المعاملة التي أثرت عن رسول الله محمد ﷺ مع زوجاته ونجد موقف الرسول من قصة «الإفك» مع عائشة وكيف أن النبي أراد لها البراءة أما الخلق عامة وأمام نفسه المحبة حذرا أن تكون تبرئته إياها عن محبة وضعف لا عن تبين واستيثاق فلما قضى كل حق وانتهى به الاستيثاق إلى الثقة

---

(١) د. محمد رواس قلعه جي - المرجع السابق ص٣٠.

(٢) عباس محمود العقاد - المرجع السابق ص٩٨.

كان قد وفى الكرم والحمية والإنصاف والرحمة أجمعين وما أحد أرحم ممن يرحم المفترين على سمعة أهله وهناءة بيته وأمان سربه ولا يعذر الناس أحدًا كما يعذرون نبيا مطاعا ينال في عرضه فينال بالعقاب العدل من استحقوه[1].

بروز رسول الله في بناء الكعبة: كانت الكعبة حجارة منضودة من غير ملاط بينها، وكانت العرب تهاب هدمها لإعادة بنائها، وبقيت كذلك إلى أن حدث سيل عظيم أتى فوق الردم الذي صنعوا، فخرب به، وخافوا أن يدخلها الماء، فعزموا على هدمها، وبنائها من جديد. وحدث ذلك في تلك الآونة أن البحر قد رمى بسفينة لرجل من تجار الروم إلى جدة، فتحطمت فأخذوا خشبها فأعدوه لتسقيفها، وكان بمكة رجل قبطي نجار، وبذلك تهيأت الأسباب لبنائها. فلما أجمعوا أمرهم لهدمها وبنائها قام «أبو وهب بن عمرو بن عائذ بن عبد بن عمران بن مخزوم» فتناول من الكعبة حجرا زعموا أنه وثب من يده حتى رجع إلى موضعه، فقال: يا معشر قريش، لا تدخلوا في بنائها من كسبكم إلا طيبًا، ولا يدخل فيها مهر بغي، ولا بيع ربا، ولا مظلمة أحد من الناس. ومهما يكن من أمر ذلك فإن في هذه القصة رواسب تصرخ بالإنسان: إن الفضيلة هي ملاذك فلذ بها قبل فوات الآوان، لما كان بناء الكعبة شرفا ما بعده شرف، فإن قريشا أحبت الا يستأثر بهذا الشرف أحد دون أحد، ولذلك فإنها وزعت العمل في بناء الكعبة على الشكل التالي:

أن يكون بناء شق الباب لبني عبد مناف وبني زهرة، وما بين الركن الأسود والركن اليماني لبني مخزوم وقبائل من قريش انضموا إليهم، وكان ظهر الكعبة لبني جمح وسهم، وشق الحجر لبني عبد الدار بن قصي ولبني أسد بن عبد العزى، ولبني عدي بن كعب. ثم إن الناس هابوا هدمها وفرقوا منه، فقال الوليد بن المغيرة: أنا أبدؤكم في هدمها. فأخذ المعول ثم قام عليها وهو يقول: «اللهم لم نزغ! اللهم لا نريد إلا الخير» ثم هدم من ناحية الركنين، فتربص الناس تلك الليلة وقالوا: ننظر، فإن أصيب لم نهدم منها شيئًا ورددناها كما كانت، وإن لم يصبه شيء فقد رضي الله صنعنا، فهدمنا. فأصبح الوليد من ليلته غاديا على عمله، فهدم وهدم الناس معه حتى إذا انتهى الهدم بهم إلي الأساس، أساس إبراهيم عليه السلام، أفضوا إلى حجارة خضر كالأسنمة آخذ بعضها بعضا. ثم إن القبائل من قريش جمعت الحجارة لبنائها، كل قبيلة تجمع على حدة، ثم بنوها حتى بلغ البنيان موضع الحجر الأسود، فاختصموا فيه، كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الاخرى، حتى تحاوروا وتحالفوا وأعدوا للقتال، ولكنهم لم يلبثوا أن تصالحوا على تحكيم أول من يدخل من باب هذا المسجد، فكان أول داخل عليهم رسول الله ﷺ، فلما رأواه قالوا: هذا الأمين، رضينا، هذا محمد، فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر قال ﷺ: «هلم إلي ثوبا» فأتي به، فأخذ الحجر فوضعه فيه بيده ثم

(1) عباس محمود العقاد - نفس المرجع ص١٠٢

قال: «لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم ارفعوه جميعًا»، ففعلوا حتى إذا بلغوا به موضعه، وضعه هو بيده ثم بنى عليه[1].

قال الإمام علي[2] في قصة بناء إبراهيم البيت: «فمر عليه الدهر فانهدم، فبنته العمالقة، فمر عليه الدهر فانهدم فبنته جرهم فانهدم فبنته قريش ورسول الله ﷺ يومئذ شاب، فلما أرادوا أن يضعوا الحجر الأسود اختصموا فيه فقالوا: نحكم أول من يخرج من هذه السكة فكان النبي ﷺ أول من خرج منها فحكم بينهم أن يجعلوه في ثوب ثم يرفعه من كل قبيلة رجل»[3]. فتوجهت الأنظار إلى رسول الله محمد ﷺ، ولهج الناس بذكره، واعتبروا ذلك دليلا على سعة مداركه وسرعة تصرفه بحكمة في الأزمات، وهو ميدان أولي العقول الراجحة. فكان ذلك رصيدًا له يفيده في المستقبل عندما يدعو الناس إلى الله ويتسلم عصا القيادة في دولة الإسلام. والجدير بالذكر أن قريشا قصرت همتها عن بناء الكعبة على قواعد إبراهيم، فقصروها من جهة حجر إسماعيل، ولذلك فإن الطائف بالكعبة اليوم عليه أن يُدخل حجر إسماعيل في طوافه لأنه من الكعبة. ولم يجد رسول الله ضرورة لهدم الكعبة من جديد ـ بعد أن تم له الأمر في مكة ـ لأن الكعبة لم تعد حسب التعاليم الإسلامية حجرا وطينا، بل أصبحت رمزا لوحدة المسلمين صقعا وهدفا. كانت الأحبار من يهود، والرهبان من النصارى، والكهان من العرب، قد تحدثوا بأمر رسول الله ﷺ قبل مبعثه نظرا لقرب زمان مبعث نبي، أما أخبار الأحبار من اليهود والرهبان من النصارى فسندها ما ورد في كتبهم المقدسة وشروحها من بيان اسم النبي المنتظر وصفته وزمان بعثته ومكان مبعثه، وقد تم هذا البيان لأن الله تعالى أخذ العهد على الأنبياء وأتباعهم أنهم إذا ما بُعث النبي المنتظر «محمد» ليؤمنن به ولينصرنه قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ ... ﴿٨١﴾﴾ [آل عمران]، ولذلك كان لابد من هذا البيان حتى لا يقصر أتباع الأنبياء بواجبهم تجاه هذا النبي المنتظر. أما أخبار كهان العرب فسندها ما ردده أحبار اليهود ورهبان النصارى، إضافة إلى ما حكوه من انقطاع الشياطين عن إمدادهم بالمعلومات بسبب رجمهم بالنجوم كلما حاولوا استراق السمع. ولقد قوَّى ذلك ودعمه ما جرى لرسول الله من الحوادث التي أتينا على ذكر طائفة منها، والتي كانت بشارات بنبوته عليه الصلاة والسلام[4].

إن لشهادة خديجة على سمو خلق الرسول أعظم الوزن من غير ريب. ولكن الآخرين الذين اتصلوا به لم يكونوا أقل تعلقا به. فلم يكد والد زيد، رقيق الرسول المعتق، يسمع بفوز ابنه بحريته،

---

(١) د. محمد رواس قلعه جي - المرجع السابق - ص٣٠.

(٢) حديث الإمام علي أخرجه الحاكم مطولا وصححه ووافقه الذهبي، المستدرك مع التلخيص - ١/ ٤٥٩ - ٤٥٨، البيهقي دلائل النبوة ٢/ ٥٥ - ٥٦.

(٣) فتح الباري: ٧/ ١٤٦.

(٤) د. محمد رواس قلعه جي - المرجع السابق - ص٣٠.

حتى وفد على مكة ليعود به. ولم يكن في ميسور الرسول، وهو الرقيق القلب، أن يحول دون اجتماع شمل الوالد وولده. كان بالغ السعادة بأن يرى الابن يعاد إلى كنف أبيه المحب. ومع ذلك، فإنه لم يستطع أن ينفصل عن زيد برغم هذا الأخير. وهكذا ترك لزيد، حين سأله والده أن يقول له كلمة الوداع، حرية اتخاذ القرار الذي يشاء. وهل يطمع والد في أكثر من ذلك؟ والواقع أنه لم يخطر بباله قط أن يغلب حب ابنه للرسول حبه البنوي له. كان زيد قد أمسى ـ على الرغم من تحرره من عبوديته المادية تحررًا كاملاً ـ مفتونا بشخصية الرسول الفاتنة. ومن هنا آثر ـ ويا لخيبة أمل الوالد! ـ أن يبقى في كنف الرسول. وكذلك فإن تعلق أبي بكر بالرسول على نحو راسخ حقيقة يعرفها الخاص والعام. ولم يكن أبو طالب أقل إعجابا بنبل خلق الرسول. فعلى الرغم من تمسكه بدين آبائه وأجداده، فقد نصر الرسول في السراء والضراء، ودافع عنه، معرضا شخصه لخطر عظيم، حين استبد الغيظ ببيوتات قريش مجتمعة. إلى ذلك الحد كان الانطباع الذي تركه سحر أخلاق محمد في نفسه عميقا. لقد اعتبر أن من الخسة التي ما بعدها خسة أن يتخلى عن رجل يتمتع بمثل هذا الخلق السامي. فهو يؤثر أن يتعرض من أجله لمختلف ضروب المخاطر، مواجها أحوالا قاسية. وحين سألته قريش أن يتخلى عن محمد عنفهم وردهم ردا جميلا[1].

نقل عن ابن بطال قوله: كانت السفرة لقريش قدموها للنبي ﷺ فأبى أن يأكل منها فقدمها النبي ﷺ لزيد بن عمرو فأبى أن يأكل منها وقال مخاطبا لقريش الذين قدموها أولا: (إنا لا نأكل ما ذبح على أنصابكم)[2] ونقل عن الخطابي قوله:كان النبي ﷺ لا يأكل مما يذبحون عليها للأصنام ويأكل ما عدا ذلك[3]. انتزع محمد إعجاب كل من قدر له أن يتصل به. وأهم من ذلك وأحفل بالمغزى أن جميع الذين اتصلوا به كانوا رجالا ذوي صفات خلقية ممتازة إلى أبعد الحدود. وإلى جانبه أصحابه المخلصين، المشهورين في تاريخ الإسلام بسمو أخلاقهم، كان ثمة بين أصدقائه الأولين آخرون لا يقلون عن هؤلاء نبل نفس وخلق، من مثل حكيم بن حزام، وهو زعيم قرشي محترم لم ينضو تحت لواء الإسلام إلا بعد سقوط مكة، وزيد بن ثعلبة. وكانا صديقين حميمين، ورجلين ذوي خلق متين. وهذا يحمل على الاعتقاد ـ كشأن اللمسة الذهبية في القصة المعروفة ـ أن كل من قدر له أن يحتك بشخصية الرسول المغناطيسية، حتى في هذه المرحلة المبكرة من حياته، كان يُكهرب بسمو أخلاقه ونبلها.

ومن أنفس الجواهر في شخصية الرسول عطفه العظيم على الفقراء، والمساكين، والأيتام، والأرامل. فكان يبذل قصاراه لتزويدهم بما يحتاجون إليه. وقد أقر له بهذه الفضيلة أعداؤه وأصدقاؤه

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص٤٦ .
(٢) نقله العيني في عمدة القارئ: ١٣/ ٣٦٥.
(٣) الخطابي - اعلام الحديث ٣/ ١٦٥٧ - ١٦٥٩.

على السواء وأعجبوا به من أجلها. وكلمات خديجة التي سرت بها عن نفسه تقوم دليلا على هذا الجانب من شخصيته. وقد أشار أبو طالب إلى ذلك في شرحه السبب الذي يوجب عليه أن ينصره على أعدائه. واشتراكه في «حلف الفضول» ـ وهو حلف وضع ابتغاء الدفاع عن المظلوم ليس غير ـ يفيد المعنى نفسه. وتعاليم القرآن الكريم تجعل العناية بأمر اليتيم والمسكين جوهر الدين نفسه. وأسمى قمم الشرف الإنساني، كما يقول القرآن الكريم، هي رعاية اليتيم والمعوز. وهو يتوعد كل من لا يحترم اليتيم بالإذلال. وينص على أن السقوط القومي لابد أن يكون هو النتيجة الطبيعية التي ينتهي إليها كل مجتمع يهمل اليتيم ولا يعطف على الفقير. وبكلمة مختصرة، فإن القرآن مليئ بأمثال هذه التعاليم التي تؤكد ضرورة الاهتمام بأمر اليتيم والفقير. نستفيد نحن من سيرة الرسول في سني حياته الأولى أنه كان، منذ طفولته نفسها، يتمتع بأسمى مراتب الحياء والعفة. إنه لم يكن نزاعا إلى الأخذ بأسباب الطيش الصبياني الذي يغلب على الفتيان في مثل سنه. وإنما يشهد أبو طالب على هذا المعنى نفسه في حديث له عنه وجهه إلى العباس، قال: «أنا لم أره يكذب، أو يعمد إلى المزاح، أو يصطنع لغة السوقة، أو يخالط صبيان الشوارع». وكانت الحرب هي الوسيلة المفضلة للّهو وإضاعة الوقت في بلاد العرب، على أيامه، ولكن الرسول استشعر، بفطرته ذاتها، عزوفا عن ذلك ونفرة. وفي حرب الفجار لم يذهب إلى أبعد من دفع السهام وغيرها من أدوات القتال إلى أعمامه. وكانت الخرافات على اختلافها، الخرافات الشائعة في البلاد، بغيضة إلى نفسه. لقد مقت عبادة الأوثان منذ صباه الأول. وفي إحدى المناسبات تشعب الحديث حتى انتهى إلى الصنمين العربيين الرئيسيين، اللات والعزى، فأعلن أنه لا يبغض أيما شيء كبغضه الوثنية. ولقد أبى أن يشارك في أداء شعائر عصره الإشراكية. ورفض أن يطعم من ذبيحة قصد بها أن تكون قربانا لأحد الأوثان. وتفطر قلبه حزنا لما تردت فيه الإنسانية من انحطاط. واضطرمت في صدره رغبة موقدة في النهوض بإخوانه من بني البشر من هوة السقوط، ودفعهم في طريق الصلاح. وكان كثيرا ما يعتزل الناس متحنثا في غار حراء. ويسأل الله ـ بعينين تسفحان الدموع ـ إحياء الجنس البشري وإقالته من عثاره(١).

وكان رسول الله محمد ﷺ قبل البعثة محظوظا في التجارة وقد بين ابن حجر أن رسول الله محمد ﷺ كان مع إفادته للمال يجود به في الوجوه التي ذكرت في المكرمات(٢).

تكفل الله تعالى بنشر اسم محمد ﷺ وإلقاء الأضواء عليه منذ سن الطفولة كشخصية مؤهلة للقيادة، ففي مكة: ألقى الله تعالى عليه من الأضواء ما جعل الأنظار كلها تتوجه إليه وكان من هذه الأضواء: سهولة حمله وسهولة ولادته، وكونه ابن الذبيح عبد الله الذي فدته قريش بمائة من إبلها، ويتمه، وتصرفه الرشيد في تفادي الصدام بين قبائل العرب حينما اختلفوا في أي القبائل سيضع

---

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص٦٦ .

(٢) فتح الباري - ١/ ٢٥ - وهذا هو الذي ذكره النووي في شرح صحيح مسلم ٢/ ٢٠١.

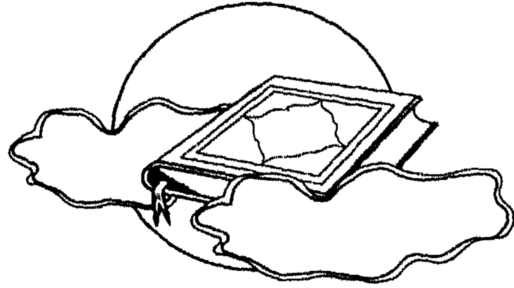
الحجـر الأسود مكانه في جـدار الكعبة. وغـيرها. وفي البادية: حـينما صـار حديث ظهور البـركة والرخاء في بيت حليمة السعدية على كل لسان، وما كان من حادثة شق صدره عليه الصلاة والسلام.

وفي بلاد الشـام: عندما صرح الراهـب بحيرا والراهب نـسطورا بما صرحا بـه. وفي العرب قاطبة: بتسميته بهذا الاسم النادر «محـمد» وبجلوسه على فراش جده عبد المطلب ـ سيد قريش ـ في ظل الكعبـة بحضرة رجالات العـرب وزعمائهـا، وبما توسم به ناظروه من الخير، كـعائف بني لهب وغيره[1].

---

(1) د. محمد رواس قلعه جي - المرجع السابق ص٣٣.

الفصل الثالث



الدعوة الإسلامية لرسول الله محمد ﷺ وعداء كفار قريش

البعثة النبوية الشريفة لرسول الله محمد ﷺ

كان لابد من إعداد رسول الله محمد ﷺ إعدادا خاصا - فضلا عما فطره الله عليه فى أمور منها.

رعيه الغنم: لقد عمل رسول الله ﷺ - عندما اشتد عوده - برعى الغنم، فكان يخرج بأغنامه إلى المرعى ويعيش فى أحضان الطبيعة الجميلة الهادئة الموحية، فلا يقع بصره إلا على بديع خلق الله الذى لا أثر ليد الإنسان فيه، فيتأمل ويفكر فيكون مردود تأمله وتفكيره صفاء فى النفس، وشفافية بالروح، وسعة صادقة من الإيمان يعيش طيلة يومه مع أغنامه، فيرد الشارد منها إلى الجماعة، وليحملها برفق الطاعة، ويحرسها من الذئب الطاغى الظالم يرتحل بها عن مواقع الجدب، ويوردها موارد الخير والرخاء تماما كما يفعل القائد البار بشعبه.

توسيع آفاقه بالسفر: لقد سافر رسول الله محمد ﷺ إلى بلاد الشام مع أبى طالب، ثم سافر بتجارة خديجة إلى بلاد الشام أيضا، وأقام فى كل مرة مدة فى تلك البلاد، اطلع فيها على أحوال العباد والبلاد، ورأى نماذج من الناس يختلفون عن الناس الذين يراهم فى الحجاز. وكان هذا التعرف أمرا لابد منه، لأن محمدًا لن يكون قائدا لأهل الحجاز وحدهم، بل سيكون قائدا لجميع الأمم، فكان لابد من أن يتعرف على نماذج منهم[1].

الرؤيا الصادقة: وعندما قرب عهد تسلم محمد القيادة - البعثة - بدىء بمحمد بالرؤيا الصادقة، فكان لا يرى فى نومه رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح. والرؤيا الصادقة تزيده ثقة بنفسه، خاصة فى الوقت الذى كانت الرؤى فيه تلعب دورا خطيرا فى حياة الناس وتصرفاتهم، فنحن لا نزال نذكر أن جد رسول الله لما رأى فى منامه أن يحفر زمزم أقبل على تنفيذ ما رآه فى منامه دون تردد. قالت عائشة إن النبي ﷺ «كان أول شأنه يرى في المنام»[2].

تسليم الشجر والحجر عليه: يذكر لنا ابن إسحاق أنه لما قرب عهد البعثة النبوية كان رسول الله إذا خرج إلى الفضاء أو إلى شعاب مكة وبطون أوديتها لايمر بحجر ولا شجر إلا قال: السلام عليك يا رسول الله، فيلتفت الرسول حوله وعن يمينه وعن شماله وخلفه فلا يرى أحدا، وروى الإمام مسلم فى صحيحه والترمذى فى سننه عن جابر بن سمرة أن رسول الله ﷺ قال: «إن بمكة حجرا كان يسلم على ليالى بعثت، إنى لأعرفه الآن».

الخلوة بنفسه: كانت عبادة الحنيفيين من العرب خلوة بالنفس وتأملاً بآلاء الله، ولما قرب عهد تسلم رسول الله القيادة، حبب لرسول الله الخلوة بنفسه، فكان يخرج إلى غار حراء - ذلك المكان

(١) د. محمد رواس قلعه جى - نفس المرجع ص٥ .

(٢) حديث عروة عن عائشة من طريق عبد الله بن لهيعة أخرجه بتمامه البيهقي في الدلائل: ٢/ ٣٦٨.

المرتفع المشرف المنقطع عن الناس، حيث الهدوء المساعد على التأمل، والإشراف على الجبال والوديان، فيخلو فيه في كل سنة من كل غل وحقد وحسد وضغينة، ويسمو بروحه بعيدا عن الأصنام وجوها الخانق، وبعيدا عن صخب المدينة بكل مافيها من تسلط الأقوياء على الضعفاء، واحتيال الأذكياء على الأغبياء، ونصب الشراك ليسقط فيها كل سليم القلب، فإذا ما انتهت خلوته نزل من غار حراء إلى الكعبة المشرفة، فطاف فيها ما شاء الله له أن يطوف، ثم ينصرف إلى بيته[1].

إن هذه الخلوة كان لابد منها لرسول الله الذى سيتسلم القيادة عما قليل، حيث تصبح القوة والسلطان بيده، قوله هو الفصل، وكلمته هى النافذة، ورجل هذا شأنه، كان تطهير قلبه من كل غل وحقد وضغينة أمرًا لابد منه، ليكون أبعد ما يكون عن الحقد، وليعامله بالرحمة أكثر من معاملته بالسلطان، ليقبل من المحسن منهم إحسانه، وليتجاوز عن المسيئ، ولذلك أرشد الله رسوله إلى ممارسة هذه الرياضة الروحية قبل توليه القيادة، ليكون بالناس رؤوفا رحيما من اليوم الأول الذى يستلم فيه القيادة فهل يدرب حكام اليوم فى الكليات الملكية بمثل هذه الرياضة، أم يعلمون كيف تلبس مسوح الحملان لقلوب الذئاب؟؟ وما إن تم إعداد رسول الله محمد ﷺ لتسلم القيادة حتى سلمت إليه هذه القيادة، وكان المعد له، والمسلم إليه القيادة هو رب العزة جل جلاله، وهو سبحانه أعلم بالناس وبقدراتهم التى أوجدها فيهم ﴿ ... اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ... ﴿١٢٤﴾ ﴾ [الأنعام]. ويتفق جميع الرواة أن رسول الله محمد ﷺ كان قبل أن يوحى إليه يتحنث في غار حراء فيبقى فيه فترة طويلة للعبادة والتأمل وفي القول «فيتحنث» إشارة إلى أنها بمعنى يتحنف أى تبع «الحنفية» وهي دين إبراهيم[2] وأن الفاء تبدل ثاء في كثير من كلامهم[3] وقد وقع في رواية ابن هشام في السيرة (يتحنف) بالفاء[4]. ولم يكن تسليم رسول الله محمد القيادة فى حفل من الناس، بل كان فى رأس جبل منعزل، لأن هذه القيادة لا يراد بها الجاه فى الأرض بقدر ما يراد بها الرضوان من الله، ولاينبغى بها السيادة على الناس بقدر ما ينبغى بها العبودية لله تعالى، لا يلحظ فيها جانب الإشهار بقدر ما يلحظ فيها جانب الإخلاص. ويمكننا أن نجمل الروايات التى وردت فى كيفية تسلم رسول الله محمد ﷺ القيادة بما يلى:

وقبيل بلوغ رسول الله محمد، صلوات الله عليه، سن الأربعين تزايد انقطاعه للتحنث والتأمل، فكان يخلو إلى نفسه فى غار حراء ويفرغ للتفكر الروحى أياما متوالية. وفى غضون ذلك رأى فى نومه رؤى عديدة صدقت كلها بالحرف الواحد. وفيما هو مستغرق على هذا النحو فى عبادة

---

(١) د. محمد رواس قلعه جي - المرجع السابق ص٣٥.

(٢) هذا القول نقله ابن كثير عن ابن الأعرابي - البداية والنهاية ٣/ ٦، ونقله العيني عن ابن عمر التيمي عن ابن عمرو الشيباني - عمدة القارئ: ١/ ٥٥.

(٣) نقله ابن كثير عن ابن هشام - البداية والنهاية: ٣/ ٦.

(٤) ابن هشام - السيرة النبوية: ١/ ٨٢٣٥.

الله فى حراء جاءه الملك جبريل ذات ليلة من ليالى رمضان وكان فى السنة التاسعة بعد الستمائة للميلاد بينما كان رسول الله ﷺ بين النائم واليقظان فى غار حراء إذ حضر عليه رجل معه كتاب ملفوف بقطعة من الديباج ففتحه وقال له: اقرأ فقال رسول الله: ما أقرأ، فضمه إليه ضمة شديدة ثم تركه وقال له: اقرأ، فقال الرسول ﷺ: ما اقرأ، فضمه إليه ضمة شديدة ثم تركه فقال له: إقرأ، فقال له رسول الله ﷺ: ماذا اقرأ؟ فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝﴾ [العلق]، نلاحظ أن فى هذه الآيات ـ وهى أول آيات نزلت ـ تنويها بالعلم وهنا لابد لنا من أن نطرح على أنفسنا هذا السؤال: لماذا كان الإعداد النفسى والوحى لرسول الله ﷺ سابقا لإعلان الشعار الأول للعلم «اقرأ...»؟ أليس فى ذلك إشعار بأن التربية يجب أن تسبق العلم؟ وأن العلم ما لم تسر معه الأخلاق جنبا إلى جنب من أول خطوة انقلب أداة تدمير وبلاء مستطير على الإنسانية كلها؟، وها نحن نشاهد آثار ذلك فى عصرنا عندما خطت العلوم خطوة أوسع من خطوة الأخلاق ففارقتها، فحمل العلم طائراته بالقنابل المدمرة لتلقى على شعب آمن لا أثر للعدوان فى قلبه، لا شئ إلا أن فى أرضه خيرات. ولذلك اقتضت حكمة الله أن تصفى نفس رسول الله برياضة روحية موجهة قبل أن تنزل عليه ﴿اقرأ﴾ وليكون هو ولتكون أمته من بعده العالم البنى الحانى، لا العالم المدمر. كان ذلك صوتا يصرخ فى المسؤولين عن وزارات التعليم: ليكن اهتمامكم بالأخلاق أكبر من اهتمامكم بالعلم، لأنه لا تحمل رسالته الإنسانية إلا بالأخلاق.

فقرأها رسول الله؛ وانصرف عنه جبريل، وهب رسول الله ﷺ وكأنما نقضت فى قلبه. وخرج رسول الله إلى خارج الغار فسمع صوتا من السماء يقول: يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل، فرفع بصره إلى السماء فإذا جبريل فى صورة رجل.

تقول رواية ابن سعد أن رسول الله محمد ﷺ قال لخديجة: «يا خديجة إني أرى ضوءًا وأسمع صوتًا، لقد خشيت أن أكون كاهنا، فقالت: إن الله لا يفعل بك ذلك يا ابن عبد الله إنك تصدق الحديث وتؤدي الأمانة وتصل الرحم»[1] ورواية الطبري تقول بأن رسول الله محمد ﷺ قال: «جاورت في حراء، فلما قضيت جواري فاستبطنت الوادي فنوديت، فنظرت عن يميني وعن شمالي، وخلفي وقدامي، فلم أر شيئًا، فنظرتُ فوق رأسي، فإذا هو جالس على عرش بين السماء والأرض، فخشيت منه، فلقيت خديجة، فقلت: دثروني، فدثروني، وصبوا عليّ ماءًا، وأنزل عليّ، ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ ۝﴾ [المدثر]»[2].

أكد للرسول أنه برغم عجزه عن القراءة فإن محاولته ذلك خليق بها ـ إذا ما تمت باسم الله ـ

(١) رواية ابن سعد عن هشام بن عروة عن عروة - ابن سعد - جـ١ ص١٩٥.
(٢) رواية الطبري عن يحيى بن أبي كثير عن جابر بن عبد الله - الطبري جـ٢ ج ص٣٠٣ - ٣٠٤.

أن تقترن بالنجاح. وقد انطوى هذا على درس عام يتلخص فى أن ما من شيء يظنه أعسر من ان يقوم به نفسه لا بد ان يمسى هينا يسيرا بعون من الله. هذا أولا. واشتملت الآيات. ثانيا، على إلماع إلى الثقافة العريضة التي قدر لهـا ان ترى النور بفضل النبى. وكان هذا هو اليوم الذى ألقيت فيه، تبعات النبوة الثقيلة. وهكذا انكشف له، آخر الأمر، السبيل القويم الذى طالما بحث هو عنه فى كثير من الحيرة والارتباك. وأومض له النور الذى طالما سعى إليه فى توق عظيم. بيد أنه أعلم فى الوقت نفسه أن مهمة الاصلاح الانسانى الضخمة سوف تقع على عاتقه. ولقد كان خليقا به، وهو الذى يشارك كل الناس ضعف الانسان الفطرى، أن يستشعر ثقل المسؤولية حتى ولو كانت عادية. إن اصلاح الجنس البشرى مهمة تثير فى نفس المرء أعظم القلق وأبهظه. فقد كلف موسى اصلاح أمة مفردة، ومع ذلك فقد وجد نفسه أعجز من أن يقوم بذلك من غير مساعدة، وهكذا صرخ طالبا العون الإلهى: ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾﴾ [طه] أما الرسول الكريم، محمد ﷺ، فقد كلف بإحياء الجنس البشرى كله، الغارق فى الدرك الاسفل من الانحطاط. ومع ذلك فإن قلبه الجرىء لم يتكشف لحظة واحدة عن أضأل قدر من الجزع، برغم ثقل المسؤولية القاصم للظهر أو يكاد. لقد نهض بالعبء كله، منفردا، غير معتمد إلا على عون الله وحده. إنه لم يسأله أى مساعد. ولكن الوحى الإلهى ظاهرة استثنائية، وهو مرصد فى وجه الخبرة الانسانية العادية. إنه يقتضى انفصال الفرد، بالكلية، عن بيته. وفى أثناء هذه الخبرة يكون الهيكل الجسمانى كله المتلقى الوحى خاضعا للسلطان الإلهى. وحتى عندما ألف الرسول هذه الخبرة كان جسده يتفصد عرقا، وكان يمسى بالغ الثقل[1].

ويروى أحد أصحابه أن فخذ الرسول اتفق ان كانت ـ فى إحدى هذه المناسبات ـ على ركبته، فاذا بها تمسى ثقيلة جدا حتى لقد خشى على ركبته ان تسحق سحقا. والحق أن أول خبرة من خبرات الوحى كانت أشد ثقلا على جسده من سائرها، فأوقعت فيه الرعدة. وهكذا مضى إلى بيته وهو يرتجف؛ لقد دب إلى يديه وقدميه، فسأل خديجة أن تزمله. وبعد فترة قصيرة، حين زايله ما لا بد أن يصاحب الرعدة من شعور بالخوف، قص على خديجة الحكاية كلها. حتى إذا سمعت بالخبرة الجديدة التى تمت له، شجعته وثبتته بكلمات موحية قائلة له ان الله لن يتخلى عنه، وانه لا بد سيوفق إلى أداء رسالته. ثم راحت تعدد بعض فضائله العديدة، وصلته للرحم، وإغاثته الفقير، والمسكين، واليتيم، والأرملة، وإكرامه للضيف، ودفاعه عن الحق فى أشد الظروف قسوة، وأكدت له أن من يتمتع بهذه الفضائل كلها لا يمكن أن يخاف أبدا[2] حيث قالت خديجة: «أبشر يا ابن عم واثبت، فوالذى نفس خديجة بيده إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة، ووالله لا يخزيك الله ابدا. إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل ـ بفتح الكاف ـ وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق».

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص٦٩ .

(٢) مولانا محمد علي - نفس المرجع ص٦٩ .

وكان ورقة بن نوفل، ابن عم خديجة. كان قد سئم الوثنية، وأنشأ يبحث عن دين صحيح، حتى اعتنق آخر الأمر الديانة النصرانية. وكانت خديجة تدرك إدراكا حسنا ما يعتلج فى صدر نسيبها من ألم مبرح لعدم اهتدائه إلى دين يوقع اليقين فى قلبه التائق إلى الحق. ولعلها ان تكون قد سمعته يتحدث عن ظهور النبى الموعود، «المعزى» الذى كان يسوع قد تنبأ بمجيئه. فما إن وجدت محمدا يعى إلى أداء هذه الرسالة حتى مضت معه إلى ابن عمها، شعورا منها مع هذا الأخير الذى كان قد فقد بصره وأمسى عاجزا عن الحركة بعد ان بلغ سنا عالية. ولم يكد ورقة يسمع ما نزل على محمد من الوحى وكيف نزل حتى هتف: «قدوس، قدوس! والذى نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتى يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى وإنه لنبي هذه الأمة، فقولي له فليثبت[1]» مشيرا بذلك كما هو واضح إلى النبوءة التى أطلقها موسى، فكان ورقة يقول تارة ناموس موسى، فعند إخبار خديجة له بالقصة قال لها ناموس موسى ليس بحسب ما هو فيه من النصرانية وعند إخبار رسول الله محمد ﷺ له قال له: ناموس موسى للمناسبة التي سبق ذكرها، وكل صحيح[2]. ثم أضاف: «ولتكذبن، ولتؤذين، ولتخرجن، ولتقاتلن ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصرا يعلمه» فسأله النبى، فى دهش، أتكون هذه هى المعاملة التى سيلقاها كل نبي من أهله وعشيرته. فأجابه ورقة قائلا: «نعم، هذه هى المعاملة التى يلقاها كل نبى» وما هى إلا فترة يسيرة، حتى توفى ورقة. وبسبب من هذا التوكيد الذى صدر عنه لصدق رسالة محمد اعتبره المسلمون واحدا من صحابة الرسول. وبعد هذا الوحى الأول الذى نزل عليه فى غار حراء انقطع جبريل عن زيارة محمد فترة من الزمان. وهذه هى المدة المعروفة بـ«فترة انقطاع الوحى». ولقد روى ابن عباس من أنها لم تدم غير برهة قصيرة، فهذا أجدر بالاعتماد، وهو معزز بالبينة التاريخية[3].

انقطع الوحى عن رسول الله ﷺ حتى شق ذلك على رسول الله وأحزنه. وفيما هو يسير فى الطريق رفع بصره إلى السماء وإذا جبريل على خلقته التى خلقه الله عليها على كرسى بين السماء والأرض، فخاف رسول الله وهرع إلى أهله، قائلا: زملونى. دثرونى، وما هى إلا برهة حتى أنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾ [المدثر]. ثم انزل تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ۝٢١٤﴾ [الشعراء]، فكانت هذه الآيات أمرا لرسول الله ﷺ بتجميع القوى وإعداد القواعد الشعبية المؤمنة لإقامة دولة الإسلام.

وقد أبطأ جبريل في النزول أربعين يوما فقال له رسول الله محمد ﷺ: يا جبريل ما نزلت

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص٧٢ .
(٢) ابن هشام - القسم الاول ص٢٣٧ - ٢٣٨.
(٣) فتح البارى - ١/ ٢٦.

حتى اشتقت إليك، قال: أنا كنت أشوق إليك، ولكني مأمور، وأوحى الله ﷺ إلى جبريل: قل له[1]: ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ... ﴿٦٤﴾ ﴾ [مريم].

والواقع ان انقطاع الوحى كان لحكمة الهية. فقد كان الإرهاق الذى لازمه قد أثر فى صحة الرسول تأثيرا سيئا. وكان من الجائز أن لا يقوى جسمه على احتمال تكرار له سريع. وهكذا كانت الفترة أمرا ضروريا حفاظا على عافيته الجسمانية. وحتى بعد انصرام مدة من الزمن لا يمكن ان تتجاوز بأية حال ستة أشهر، ظل الوحى مصحوبا بالشعور نفسه، وإن تكن وطأته قد خفت بعض الشيء. ومرة أخرى: سأل خديجة، من غير أن يستبد به الروع بقدر ما استبد به من قبل، أن تدثره. وكانت هذه أول مرة كلف فيها أن يؤدى رسالته تكليفا جديا: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ ﴾ [المدثر] وهذا ما قاد إلى مرحلة أخرى فى حياة الرسول، مرحلة إعلان كلمة الله، وإبلاغ رسالته إبلاغا للناس أجمعين. تلك سنة الله تعالى فى أنبيائه والدعاة إليه، يسلط عليهم الأذى حتى لا يقتحم ميدان الدعوة دعى ولا كاذب، ولايحمل لواءها إلا مخلص، ولو ترك الناس لدعاواهم لادعى النبوة، وحمل رسالة الأنبياء أناس ليسوا بمؤمنين، ولكنهم إن عرفوا أن طريق الدعوة محفوف بالمكاره لابتعدوا عنه، ولم يركبه إلا مخلص صادق.

الدعوة الإسلامية لرسول الله محمد ﷺ: ما إن نزل قول الله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾ [الشعراء] حتى انطلق رسول الله ﷺ إلى أقرب الناس إليه والصقهم به يدعوهم إلى الله بسرية تامة يكون القاعدة الشعبية المؤمنة للدولة الإسلامية المرتقبة، ويرسى فى صدور هذه القاعدة الإيمان بالمبادئ والأهداف التى ستقوم من أجلها هذه الدولة. وتعتبر هذه السرية فى التحرك بين الأفراد الذى فرضته هذه الآية فريضة أخرى لئلا يقهر الداعى والمدعوون قبل إدخالهم مبادئ الدعوة إلى الصدور، ولتعلن الدعوة يوم تعلن ومعها عشرات الأصوات مؤيدة لها ومنافحة عنها، فهى تعلن وقد سارت فى مدرج القوة ومستقبلها ـ وقد سارت فى مدارج القوة ـ خير الف مرة من أن تعلن وهى فى مهد الضعف. جعل رسول الله يصطفى من يدعوهم إلى الإيمان، فما كانت الدعوة ومبادؤها تمس أسماع هؤلاء الذين اصطفاهم رسول الله حتى يقبلا عليها، ويأخذوا بها، وتصبح لهم أما وأبا. أعلم الناس بالرجل أهل بيته، وهو إن استطاع أن يخفى عنهم الكثير فلن يستطيع أن يخفى عنهم سلوكه الشخصى والدينى خاصة إذا كان حامل دعوة. وأكثر الناس عونا للرجل وتثبيتا هم أهله، فإذا ما كانوا معه سار بثبات واطمئنان. ولذلك كان أول من اختاره رسول الله ـ بأمر من الله ـ للدعوة هم أهل بيته[2].

---

(١) نقل ما رواه عبد بن حميد وابن أبي حاتم من طريق عكرمة نقلها عنه ابن كثير في التفسير: ٣/ ١٣٠ - كما نقل السيوطي رواية عكرمة وأنه قد أخرجها عبد بن حميد وابن أبي حاتم الدر المنثور: ٥/ ٥٣٠.

(٢) د. محمد رواس قلعه جي - المرجع السابق ص٤٠.

فدعا رسول الله ﷺ زوجته خـديجة فكانت أول من آمن به وآزره، وهونت عليه أمر الناس، واعظمت له عمله فى اقتلاع الأشواك من المجتمع الذى يمور بالفساد ليزرع مكانها الورود والرياحين، فما أصـابه أمر من أمر الدعـوة فدخل إليها إلا خـرج من عندها مطمئنا، وهو أمضى عزيـمة وأقوى شكيمة، وبذلك كان أول من أقر بصدق رسـالة النبى زوجته خديجة. وإنها لم تشك أقل شك، ولو لحظة واحدة، فى صدق نبوءته. بل لقد أثبتت أنهـا كانت، فى لحظات الكآبة والغم، مصدر عزاء له لا يخطئ البتة. قبل ذلك بخمسة عشر عـاما، حين لم تكن صلتها به هى صلة الزوجة ببعلها، رأت فيه ـ بعين المرء المجرد عن الغاية ـ صفات نبيلة تركت فى نفسها انطباعة عميقة. ولكن هذه الانطباعة الأولى ازدادت عمقا بتوثـق معرفتها به، عن طريق حميمـية العلاقة التى نشأت بعد بينهمـا بوصفهما زوجـة وبعلا. حـين تلقى الرسول الوحـى الإلهى أول مرة، ولم يدر كـيف يؤدى رسالة الإصـلاح الثقيلة، ثبتته هذ السيدة الفاضلة بشهادة فؤادها الخالصة.

وكان على بن أبى طالـب يعيش مع رسول الله فى بيـته، وذلك أن قريشـا كان قد أصـابتهم شدة، وكـان ابو طالب ـ والد الإمـام علي بن أبى طالب عليه الـسلام وعم رسـول الله ﷺ ـ كـثير العيال، فـقال رسول الله لعمه العـباس ـ وكان رجلا ميـسور الحال ـ يا عم إن أخاك أبا طالب كـثير العيال وقد أصـاب الناس ما ترى من الشدة فانطلق بنا فلنخفف عنه من عيـاله، فآخذ أنا وتأخذ أنت رجلا فنكفهـما عنه، فقال العباس: نعم، فـانطلقا إليه، فأخذ عليا فـضمه إليه وأخذ العبـاس جعفرا فضمه إليـه، وهكذا عاش الإمام علي عليه السلام فى بيت رسـول الله، ولما بعث رسول الله بالرسالة وأمره الله أن ينذر عشـيرته الأقربين، عرض رسول الله الإسلام علـى الإمام علي بن أبى طالب عليه السلام فآمن به وصدقه. وكان زيد بن حارثة يعيش مع رسول الله فى بيته، وذلك أن حكيم بن حزام قدم من الشام برقـيق، فيهم زيد بن حارثة، فدخلت عليـه عمته خديجة زوجـة رسول الله ﷺ فقال لها: اختارى ـ يا عمة ـ أى هؤلاء الغلمان شئت، فـهو لك، فاختارت زيدا، فأخذته فرآه رسول الله عندها، فاستوهبـه إياه،فأعتقه وتبناه، فلما بعث رسول الله بالرسـالة دعاه إلى الإسلام، فآمن به زيد وصدقـه. وكانت الصلاة أول فـريضة عمليـة فرضت على رسول الله ﷺ، فكان رسـول الله يخرج ويخرج معه الإمـام علي بن أبى طالب عليه السلام فيصليسا، خفية، فابصر أبو طالب بـهما ـ يوما ـ وهما يصليان، فـقال لرسول الله: ما هذا الدين الذى تدين به يا ابن أخى؟ فـقال رسول الله: أى عم هذا دين الله ودين ملائكتـه ودين رسله ودين أبينا إبراهيم، بعثنى به الله رسولا إلى العـباد، وأنت يا عم أحق من بذلت له النصيحة، ودعوته إلى الهدى، وأحق من أجـابنى إليه وأعاننى عليه، فقال أبو طالب: أى ابن أخى إنى لا أستطيع أن أفارق دين آبائى ومـا كانوا عليه، ولكن والله لا يخلص إليك بشىء تكرهه ما بقيت[1].

---

(١) د. محمد رواس قلعه جي - المرجع السابق ص٤١ .

يقول الطبـري أن خديجة أول من أسلمت من المسلمين عـامة ومن النساء خاصـة وأن الإمام علي أول من أسلم من الذكور وكان عمره بين التسع والعشر سنين وبالتالي كان أول المسلمين باعتباره من أسرة الرسول ثم أسلم فيما بعد كل من أبو بكر وزيد بن حارثة[1]. نجد في مناقب الإمام علي بن أبي طالب أنه ابن عبد المطلب القرشي الهاشمي أبو الحسن وهو ابن عم رسول الله محمد ﷺ شقيق أبيه عبد مناف على الصحيح ولد قبل البعثة بعشر سنين على الراجح وكان قد رباه رسول الله محمد ﷺ من صغره لقصة مذكورة في السيرة النبوية[2]، فلازمه من صغره فلم يفارقه إلى أن مات، وأمه فاطمـة بنت أسد بن هاشم وكـانت ابنة عمـة أبيه وهي أول هاشـميـة ولدت لهاشمي وقـد أسلمت وصحبت ومـاتت في حياة رسول الله مـحمد ﷺ[3]، ويقول ابن حجـر: «أسلم علي وهو ابن ثمان سنين»[4]. أما ابن إسحاق فيقول عشر سنين[5].

كان أبو بكر الصديق من أخلص أصـدقاء رسول الله ﷺ، وكان رجلا وجيها مـؤلفا لقومه، محببا، سـهلا، كريم الخلق والمعشر، وكان أعلم قريش بتاريخ قريش وأحـوالها، وكان تاجرا، وكان قومـه يأتونه ويجلسون إليه لـعلمه وتجارته وحـسن مجلسه. فـدعاه رسول الله إلى الإسـلام فآمن به وصدقه.

وفى عهد جـد مبكر، دخل فى الاسلام من طريق حـماسته رجال ذوو مكانة علـية من مثل عثمان بن عفان، والزبير ابن العوام، وعبد الرحـمن ابن عوف وسعد بن أبى وقاص وطلحة بن عبيد الله، قدر لهم بعـد أن يلعبوا دورا بارزا لا فى تاريخ الاسـلام فحسب بل فى التاريخ العـالمى أيضا. وانضم إلى جماعة المؤمنين فى الفترة المبكرة أيضا نفر ينتـسبون إلى طبقة اجتماعية أدنى، ومن هؤلاء بلال الحبشى، ويسار غلام خديجـة وزوجته سمية وابنه عمار. وكان عبـد الله بن مسعود وخباب من السابقـين إلى الاسلام، وكذلك كان الأرقم بن أبـى الأرقم المخزومى الذى جعلت داره مركـز نشاط الرسول، حوالى السنة الرابعـة بعد البعثة. وخلال السـنوات الثلاث الأولى بلغ عدد الذين دخلوا فى الدين أربعين رجلا وامرأة. والحق أن هذا النمو المـطرد الذى عرفه الإسلام هو الذى روع المكيين وأثر معـارضتهم الـشرسة. ومن اجل هذا تعـين على الرسول أن يشـخص إلى موطن ناء عن المضـايقات العدوانيـة لكى يتمكن من أداء رسالته على نحـو أحفل بالأمن. ووقع الاختيـار على دار الأرقم لهذا الغرض.

---

(١) الطبري - جـ٢ ص٣١٢.

(٢) القصة ذكرها ابن إسحاق ونقلها عنه ابن هشام - ١/ ٢٤٦.

(٣) فتح الباري: ٧/ ٧١ هذه المعلومات عن الإمام علي ونشأته وإسلامه وإسلام أمه وهجرتها ذكرها الطبراني في المعجم الكبير: ١/ ٩٢ - ٩٣ - رقم ١٥١. ونقلها عنه الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/ ١٠٣.

(٤) الرواية اخرجها الطبراني عن أبي الأسود عن عروة - المعجم الكبير: ١/ ٩٥ رقم ١٦٢ - أسد الغابة ٣/ ٥٩٢.

(٥) ابن هشام - السيرة النبوية ١/ ٢٤٥ ونقله ابن الأثير عن ابن إسحاق ٣/ ٥٨٩.

تواصل دخول الناس فى الدين، وكـان فى إسلام بعض البارزين من رجال قـريش ما زاد فى قوة الجمـاعة الصغيـرة. وإنما كان ابرز هؤلاء حمزة، عم الـرسول وأخوه من الرضاعـة. وكان رجلا عسكرى الروح ذا ولع بالصـيد. ولقد تمتع، بشىء من خلقـه الرفيع، باعتـبار واحترام عظيـمين بين مواطنيه. وكان يستشـعر نحو رسول الله محمد ﷺ حبا خاصـا. وكان عمر هو الرجل العظيم الثانى الذى اثبتت الأيام أن انضواءه تحت لواء الرسـول كان نصرا للإسلام وقوة له. ولقد سـبق له، بوصفه رجلا حاد الطبع، أن كـان شديدا، على نحو متكافىء، فى مقاومـته للإسلام. والواقع انه ذهب إلى حد عـقد النية على قـتل الرسول، مصـدر الحركة الجـديدة، ووضع حد للبلاء كـله. وهكذا انتضى سيفه، ذات يوم، وانطلق إلى بيت الرسول. ومع ذلك فإنه لم يكن قد علم ان اخته فاطمة، وزوجها سعيد بن زيد قد أسلما[1].

واتفق أن التقاه فى بعض الطريق رجل من المسلمين هو نعيم بن عبد الله، وإذ لاحظ الشر فى عينيه سأله ما الذى يعتزم ان يفعله، فأجابه عمر بقوله: «أريد أن أقتل محمدا»، فقال له المسلم أن من الخير له ان يرجع إلى أهل بيـته ويقيم أمرهم ثم يفكر بعد ذلك بقتل الرسـول، ذلك بأن اخته وبعلها كانا كلاهما قد اعتنقا الإسلام. ولم يكد عمر يسمع نبأ إسلامهما حتى استبد به أعظم الغيظ، واتخذ سبيلـه نحو بيتهمـا، أولا، لكى يصفى حسابه مـعهما. واتفق ان كـان خباب يتلو عليهـما آيات من القرآن الكريم عندما دخل عمر بيتهما. فسارعا، بسبب من خوفهما، إلى إخفاء الصحيفة التى خطت الآيات عليها. سـمعهما يتلوان القرآن. فـما أن اجتاز عتبـة البيت حتى تساءل ما هذه الهمـهمة التى سمعت؟ فلما أنكرا صـاح بهما: لقد علمت أنكما تابعتـما محمدا على دينه، وامسك بسـعيد وأنشأ يوسعه ضربا. وتدخلت أخته محاولة أن تنقذ زوجها من غائلة غـضبه، فضربها، فشجها، فسال الدم منها. وأخيرا صاحت فى نبرة متحـدية: «نعم! أسلمنا، فاقض ما أنت قاض!» وكان لهذه الجرأة التى تكشفت عنها أخت عمر بـرغم تعنيفه إياهما أثر عظيم فيه، فهدأ غيظـه. فإذا به يكف عن ضربهما، ويسألهما أن يرياه الصحـيفة التى كانا يتلوان القرآن منها. وترددت أخته فـى ذلك خشية أن تبدر منه إهانة ما للكتـاب الكريم، حتى إذا أكد لها أنه لن يؤذي مـشاعرهما الدينـية أكثر مما فعل قـدمت إليه الصحيفة التى اشتملت على سورة طه الآية ١ ـ ٤. وإليك مستهلها: ﴿طه ﴿١﴾ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى ﴿٤﴾﴾ [طه].

فما أن سمع جـزءا من السورة حتى عجز عن مقاومـة سلطان الحقيقة القرآنيـة الذى استحوذ عليه اسـتحواذا. ومـن ثم راح يتدبر حمـاقة عدائه لما أظهـرت له الروية أنه تعاليم فـاتنة. ولم يتلكأ خباب، الذى ألجأه الخوف إلى الاختباء طوال تلك الفـترة، عن اقتناص اللحظة السيكولوجية والإفادة منها. فغادر مخبأه وأنشأ يدعوه إلى الدخول فى الدين. وسرعان ما أذعن عمـر الجبار لقوة الإسلام

(١) مولانا محمد علي – المرجع السابق ص٧٧ .

الروحية. وبعد أن سأل خباب أين يستطيع أن يلقى الرسول، مضى مباشرة إلى دار الأرقم التى كانت فى تلك اللحظة تظل الرسول وأربعين من صحابته، رجالا ونساء. وقرع عمر الباب، فاختلس أحد المسلمين النظر ليرى من القادم. حتى إذا بصر بعمر متقلدا سيفه، استبد به الرعب، بعد أن توهم أن عمر أقبل إلى هناك لأمر مريب. بيد أن الرسول سأله ان يفتح الباب ويدخله. ولم يكد عمر يمثل بين يديه ويوجه إليه رسول الله محمد ﷺ جملة واحدة ليس غير حتى أعلن قائلا: «يا رسول الله، اشهد ان لا إله إلا الله وأنك رسول الله» فغمر الجماعة الإسلامية كلها فرح بالغ، وهللوا وكبروا حتى لقد رددت الهضاب المجاورة صيحاتهم: «الله اكبر! الله اكبر!»[1].

لَمّح البخاري عن دخول عمر إلى الإسلام بما جاء عن طلحة[2] عن عمر من أن تلك القصة كانت سبب إسلامه فروى أبو نعيم في «الدلائل» أن أبا جهل جعل لمن يقتل رسول الله محمد مائة ناقة. قال عمر: فقلت له: يا أبا الحكم ءالضمان صحيح؟ قال: نعم، قال: فتقلدت سيفي أريده، فمررت على عجل وهم يريدون أن يذبحوه، فقمت أنظر إليهم فإذا صائح يصيح من جوف العجل: يا آل ذريح، أمر نجيح، رجل يصيح، بلسان فصيح، قال عمر: فقلت في نفسي إن هذا الأمر ما يراد به إلا أنا، قال: فدخلت على أختي فإذا عندها سعيد بن زيد...[3]، فذكر القصة في سبب إسلامه بطولها. وإن إسلام عمر كان بعد هجرة الحبشة[4].

وكان فى إسلام عمر منع للجماعة الإسلامية الفتية التى كان عودها ما يزال أطرى من أن يواجه عاصفة المعارضة. وإنما أعز الله الإسلام بحمزة وعمر فى السنة السادسة من رسالة محمد. فحتى ذلك الحين لم يجرؤ المسلمون على ممارسة شعائرهم علنا. وكانوا قد حصروا نشاطهم الدينى ضمن جدران دار الأرقم الأربعة. حتى إذا أعلن عمر إسلامه استشعروا أنهم أمسوا من القوة بحيث يخرجون من نطاق السرية، فأنشأوا يقيمون صلاتهم على نحو علنى فى البيت الحرام (الكعبة). وفى غضون ذلك دخل فى كنف الإسلام كثير من أبناء الطبقات الدنيا. وكان أبناء الأسر النبيلة يوفقون فى بعض الأحيان إلى اجتناب مساءات المساكين واضطهاداتهم، ولكن المهتدين من العبيد المساكين كانوا فى وضع بائس. لقد أنزلت بهم فى غير ما رحمة ضروب التعذيب على اختلافها من غير أن يجدوا من يحميهم من غضب ساداتهم. والواقع أن من مآثر أبى بكر التي يقوم عليها سمو خلقه أنه أنفق ثروته، بسخاء، فى شراء العبيد. إن هذا الإسلام قد جاء للناس كافة، صغيرهم وكبيرهم، وذكرهم وأنثاهم، وسيدهم ومولاهم، وإن المجتمع مدعو لحمل رسالة الإسلام وإبلاغها الناس، وأن الدولة الإسلامية المرتقبة ستظل جميع الفئات بظل واحد ينعمون فيه بالعدل السماوى فى الأرض. نشط هذا

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص٧٩ .

(٢) فتح الباري ٧/ ١٨١.

(٣) السيرة الصحيحة: ١/ ٥١ حيث يذكر أن المطبوع مختصر من الأصل الكبير.

(٤) سيرة ابن إسحاق بتحقيق سهيل: جـ١٨ وكذلك عند ابن هشام ١/ ٣٦٢.

الرعيل الأول من المسلمين بالدعوة إلى الله، وتجميع الناس على كلمة التوحيد ليكونوا البناة الأول لدولة الإسلام[1]، ثم دخل فى الإسلام جماعات من الرجال والنساء حتى فشا ذكر الإسلام بمكة، وتحدث بأمر محمد وبالمبادىء التى أدت بها الناس. فكانت هذه القاعدة الشعبية هى التى تشد أزر رسول الله محمد ﷺ، تؤمن بما جاء به، وتصدقه بما يقول، وتجادل عنه المشركين. لما اجتمع الناس على رسول الله يصدقونه ويشدون أزره، وتكونت لديه القاعدة الصلبة بما وقر فى صدورها من الإيمان وبما أضاء فى عقولها من نور الحق، أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يدعو الناس جميعا إلى الإيمان به والانضواء تحت لوائه، وأنزل عليه قوله جل شأنه: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [الحجر]. فخرج رسول الله إلى الناس يدعوهم إلى التوحيد، ويبين لهم فساد عقائدهم وفساد ما هم عليه من الأعراف والنظم. وما كان لرسول الله ﷺ أن يسكت على انحرافهم، لأنه لا يجتمع فى قلب واحد عقيدتان، فالمرء إما أن يكون مسلما يدين بكل جزئية من جزئيات وينكر ما سواها، وإما أنه كافر حين يؤمن ببعض الإسلام ويكفر ببعضه، أو يؤمن به عقيدة وبغيره نظاما. وموقف رسول الله هذا يعطينا درسا فى الدعوة هو: أنه لا يجوز أن يكتفى بعرض عقيدة الإسلام ونظامه فحسب بل لابد من بيان زيف العقائد والأنظمة المغايرة له. ويعطينا درسا آخر أيضا وهو: أن علينا أن نبدأ بالهجوم على العقائد والأنظمة الفاسدة، ولا يجوز لنا أن ننتظر حتى تهاجمنا لنرد عليها، وهنا قد بدأ رسول الله ﷺ - وهو المعلم الأول - بالهجوم على عقائد الجاهلية غير منتظر حتى تهاجمه ليرد عليها، إذ علينا أن نعلم أن الهجوم يمنع الهجوم. وقد نجح رسول الله ﷺ بهذا، إذ أخذ عدد المسلمين يزداد يوما بعد يوم رغم ما يتعرضون له من الأذى والاضطهاد[2].

أمر الله تعالى رسوله محمد ﷺ وكان قد مضى على مبعثه ثلاث سنين[3] أن يدعو الناس إلى الإسلام بعلانية الدعوة، عن ابن عباس قال: صعد النبي ﷺ الصفا ذات يوم فقال: يا صاحباه...[4]، وقد أوضح الحافظ أن هذا طرف من حديث ابن عباس نزل في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء][5] وقد ورد شرحه مستوفيا في سورة الشعراء، ولما نزلت هذه الآية صعد رسول الله محمد ﷺ على الصفا فجعل ينادي[6]... يا معشر قريش[7].

نجد من السمات الرائعة جدا لانتشار الإسلام فى أيامه الأولى أنه كان مقصورا فى الأعم الأغلب على الفقراء. أما الأرستوقراطية فقد أعارت الرسالة المحمدية أذنا تكاد أن تكون صماء. وفى

---

(١) د. محمد رواس قلعه جي - المرجع السابق ص٤٢.
(٢) د. محمد رواس قلعة جي - المرجع السابق ص٤٣ .
(٣) الطبري - جـ٢ ص٣١٧.
(٤) الحديث أنزله البخاري مع فتح الباري: ٨/ ٥٣٩ - حديث رقم ٤٨٠١ عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما.
(٥) فتح الباري ٨/ ٥٠١ - ٥٠٣ شرح حديث رقم ٤٧٧٠
(٦) صحيح البخاري مع فتح الباري: ٨/ ٥٠١.
(٧) صحيح البخاري مع فتح الباري: ٨/ ٥٠١ - ٥٠٢ حديث رقم ٤٧٧١.

القرآن الكريم حادثة تلقى ضوءا كافيا على الغرض الإلهى من بقاء الطبقات العليا محروسة فى طفولة الإسلام من نعـمه وبركاته. فـقد كان الرسـول منشغلا ذات يـوم فى دعوة نفر من نبـلاء قريش إلى الدخـول فى الدين عندما جـاءه رجل أعمى يدعى ابـن أم مكتوم. وإذ لم يكن يعلم أن الرسـول فى شغله شاغل فقـد طرح بضعة أسئلة متوقعـا من وراء ذلك أن يلفت نظر النبى إليه. ولم يرتح النبى، وهو المنهمـك فى ذلك الحديث الهام، لهـذه المقاطعـة إنه لم يعنف الأعمى ولم ينطق بأيـة كلمة من كلمات الاستياء، ولكن شيئا من العـبوس، ليس غير، تبدى على جبينه. بيد أن الله الذى أراد له أن يبلغ للذروة العليا فى الخلق والأدب لم يدع هذه الحادثة تمر من غير تعليق.

ومن ثم نزل عليه الوحى الإلهى مـحـذرا: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ۝١ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ۝٢﴾ [عبس]، ثم تمضى الآيات الكريمة فتقول أنه كان من الجائز جدا أن ينشرح صدر ذلك الأعمى نفسه للدعوة المحمدية؛ ذلك بأن القرآن كان ناموس حـياة يستطيع البسطاء من الناس أن يرتفعوا بفضله إلى الصعيد الأعلى. ولقد نصحت الرسول أيضا بأن لا يعلق أهمـية كبيرة على العظماء من الرجال. فقد كان رسوخ الإسلام مرهونا بالفقراء والضعفاء الذين سوف يتحققون هم أنفسهم بالمجد بفضل نضالهم من أجل نصره قـضيتـه. والواقع أن هذه كانت هى الحكمـة الإلهية الكامنة وراء الحـقيقـة القائلة بأن العنصر الأضعف من أهل مكة هم الذين رحبوا أكثـر من غيرهم بالهدى الإسلامى. لقد أريد بهم أن يكونوا دليلا ملموسا على أن فى استطاعة الـعاديين من الناس، تؤديهم روح الله، أن ينجزوا ما يعجز عن فعله أشد الناس قوة وأعزهم نفراً. ونحن نعـلم اليقين، فى ضوء التاريخ، أن الإسلام لم يمكن طبقة الضـعفاء هذه نفسـها من تقلد صولجان الملكيـة فحسب، بل تعدى ذلك إلى رفـعهم فى الوقت نفسه إلى أسمى مراتب الأخلاق، والفن، والعلم، والفلسفـة، وإلى جعلهم حملة مشعال المعرفة فى عصر كـان العالم غارقا خـلاله فى ظلمات الجهـالة. أليس فى هذا أعظم شاهد على مقدرة التـعاليم الإسلامية على النهوض بالناس ورفعهم من درك المذلة إلى قمة المجد؟[1].

وحادثة الرجل الأعمى، على تفـاهتها، تلقى فيضـا من النور على مشكلة ذات خطر عظيم. إنها تزودنا بما نستطيـع أن نقرر على ضوئه أمرا فى قضـية طالما اختلف فيهـا العلماء وتنازعوا، أعنى طبيعـة الوحى الإلهى الذى قدر للرسول أن يتلقـاه. هل كان صوتا نابعا من قلب الرسـول نفسه، أم كان رسالة مستقبلية من مصـدر خارجى؟ إن الآيات التى نزلت بعيد لامبالاة الرسول بالرجل الكفيف تنهض دليلا على انه لا يمكن بأية حال أن يكون ثمرة عمل باطنى قام به عقل الرسول نفسه. فقوامها لوم إلهى للرسول لإعراضه عن الأعمى. وليس يطيق أيما امرىء أن تعرض أخطاؤه على أنظار الخاص والعام، إذا استطاع اجتناب ذلك، مهـما استشعر الندم والتوبة. وليس ثمة مـا يدعو إلى الاعتقاد بأن الرسول، برغم كبير قلبه وشهامته، كان إنما نزوع ملح إلى التشهير بنفسه، لهذا الإعراض، مهما يكن

---

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص٨١.

تافها، على رؤوس الأشهاد. وذلك يظهر أن الوحى جاء من مصدر خارجى ما ـ هو الذات الالهية نفسها. ولقد أذاعها فى الناس، على الرغم من علمه بأنها استنكار إلهى لعمله سوف يظل خالدا يتردد فى آذان الناس إلى أبد الآبدين. والحق أن الإذعان البهيج لإرادة الله العليا كان هو المبدأ الرئيسى فى حياته كلها. وبالاضافة إلى إثبات مصدر الوحى الخارجى على نحو قاطع، فإن تلك الحادثة تغنى عن تحبير مجلدات لتوكيد فناء الرسول الكلى فى الخضوع لمشيئة الله[1].

محاربة كفار قريش للدعوة الإسلامية لرسول الله محمد ﷺ وأتباعه المسلمين: كلما قضت الإرادة الإلهية بأن توحى إلى عصبة من الأبرار أن يكونوا حملة مشاعل الحق لهداية الإنسانية المتفسخة برزت بالضرورة عصبة من أولئك الذين يعقدون العزم على مقاومتهم حتى الموت، وإنزال ضروب البلاء والتعذيب فيهم. والواقع أن عاصفة المعارضة الحقود أمر لا غنية عنه البتة فى هذا المجال. والاضطهادات التى تخضع لها حملة مشاعل الحق إنما تكون بمثابة امتحان حاسم لصدق دوافعهم. وإنهم يصبزون على الإهانات، ويتحملون المحن وضروب البلاء فى ابتهاج وبشر، ولكنهم لا يتخلون لحظة واحدة عن الحق الذى يمثلون، والواقع أنهم يعيشون ـ إذا استطاعوا ـ للحق، ويموتون ـ إذا تعين عليهم ذلك ـ فى سبيل الحق. وإلى هذا، فالمحن هى حقل الاختبار الوحيد لتنمية فضائل الثبات والمثابرة التى بدونها يستحيل بلوغ الكمال الخلقى. فما لم تحدق بالمرء من أقطاره جميعا عقبات غامرة، وما لم يبتل بضروب الشدائد المبرحة، فإنه لن يقوى على التخلق بهاتين السجيتين. ومن هنا، فإن البلايا التى تصيب أمثال هؤلاء الناس هى، فى الواقع، نعم مقنعة، مقصود بها أن تقضى إلى تهذيبهم الخلقى. وهناك، فوق هذا وذاك، هدف ثالث مراد. ذلك بأن الله العلى القدرة يريد أن يوقع فى نفوس البشر أن النبتة التى تتعهدها اليد الإلهية، مهما بدت هزيلة، قادرة على أن تصمد فى وجه أشرس هبات الريح المعادية. ووفقا لهذا الناموس الإلهى، تعين على الرسول وصحابته أن يقاسوا على أيدى المكيين محنا لا تعد ولا تحصى[2].

نقل عن ابن عباس كان رسول الله محمد ﷺ إذا جهر بالقرآن وهو يصلي تفرق عنه أصحابه، وإذا خفض صوته لم يسمعه من يريد أن يسمع قراءته[3] فنزلت الآية ﴿... وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا... ﴿١١٠﴾﴾ [الإسراء]. نزلت هذه الآية والرسول محمد ﷺ مختف بمكة[4]. وعن سعيد بن جبير: فقالوا له لا تجهر فتؤذى آلهتنا فنهجو إلهك[5].

---

(١) مولانا محمد علي - نفس المرجع ص٨٢ .

(٢) مولانا محمد علي - نفس المرجع ص٨٤.

(٣) الطبري - جامع البيان: ١٥/ ١٨٥ - وكذلك رواها ابن كثير في البداية والنهاية ٣/ ٦٣ - ٦٤، وقد نقل السيوطي عن ابن إسحاق وابن مردويه - الدر المنثور ٥/ ٣٤٩.

(٤) صحيح البخاري مع فتح الباري: ٨/ ٤٠٤ - ٤٠٥ عن ابن عباس رضي الله عنه.

(٥) الطبري - جامع البيان ٥/ ١٨٦ - فتح الباري ٨/ ٤٠٥.

اتخذت فى البدء معارضة المكيين لرسالة الإسلام شكل السخرية من الرسول والاستهزاء به. إنهم لم يقيموا للحركة كبير وزن، متوهمين انها سوف تموت، فى الوقت المناسب، ميتة طبيعية. لقد وقفوا منها موقف اللامبالاة والازدراء، وكأنها غير جديرة بأى اهتمام جدى. إن كل ما لقيه المؤمنون من إساءات المكيين، فى تلك الأيام، لم يعد السخرية المزرية. كان اللجوء إلى العنف لا يزال، فى اعتقادهم، أمرا لا ضرورة له. فكانوا إذا مروا بالمؤمنين ضحكوا وتغامزوا، استهزاءً وسخرية. ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [المطففين] وفى بعض الأحيان كانوا يزعمون أنه حالم متبطل، نزاع إلى نظم الشعر الركيك المضطرب، ولا بد أن يهلك عما قريب. ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴿٣٠﴾﴾ [الطور].

وكان من دأبهم ان يقولوا إنه مخالط فى عقله. ولكن ما إن اتبعه، تدريجيا، رجال أولو علم ووجاهه حتى استشعر المكيون الخطر المحدق بهم. إنهم ما عادوا يقنعون بالهزء اللامبالى، بل عمدوا إلى العنف، وذات يوم، كان الرسول فى الكعبة ساجدا يصلى، فطرح أبو جهل على عنقه. وإذ كان من مألوف عادته أن يغادر بيته لإقامة الصلاة مع الفجر، فقد اصطنعوا لمناكدته طريقة جديدة: كانوا يلقون فى طريقه أغصان نباتات شائكة لكى يتعثر بها فى الظلام. لقد اخذوا يقذفونه بالأقذار حينا، ويرشقونه بالحجارة حينا. وذات يوم انقضّ عليه جمع من أشراف قريش. فطرح احدهم، عقبة بن أبى مغيط، رداءه حول عنقه وفتله حتى أن مر ابو بكر، آنذاك، بالمكان، فتدخل وأنقذ الرسول، قائلا: «أتريدون أن تقتلوا رجلا لا لشىء إلا لأنه يقول ربى الله؟» ولكن المؤمنين غير المنتسبين إلى بيت من بيوتات قريش النبيلة، وبخاصة العبيد منهم رجالا كانوا أم نساء، هم الذين قدر عليهم أن يحملوا العبء الأكبر من اضطهاد المكيين. فقد أخضعوا لشتى أشكال التعذيب. وبلال الحبشى، اخضعه سيده ـ لكى يحمله على الارتداد عن الإسلام ـ لأقسى أنواع الألم الجسدى وأبعده عن الرحمة. ولكن التعاليم الإسلامية كانت تتمتع بسحر يجعل معتنقيها أقوى من أن يتأثروا بهذه المحن كلها. كانوا يؤثرون الموت نفسه على التنكر للاسلام الذى رسخ فى أعماق قلوبهم[1].

راع فريقا ذلك المد الإسلامى النشط، فقد كان الإسلام يمتد بين الناس سرعة امتداد النار فى الهشيم، يحرق كفرهم ويزرع فى رماده الإيمان، فعملوا جاهدين وبكل وسيلة لإيقاف هذا المد.

ولم تقتصر المحاولات لوضع حد لانتشار الإسلام على ضروب التعذيب التى أنزل بالرسول وأصحابه. فقد كانت الطرق التى اصطنعها الكفار لإطفاء نور الله كثيرة متنوعة. كانت الدعوة فى بادىء الأمر سرية. ولكن النبى سرعان ما تلقى الوحى الإلهى بأن يعلن دعوته على رؤوس الأشهاد

(١) مولانا محمد علي – المرجع السابق ص٨٥ .

وأن ينذر عشيرته الأقربين. ﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [الحجر]. ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾﴾ [الشعراء] ومنذ ذلك الحين جهر بالرسالة الإلهية. لقد صعد الصفا يوما ونادى: «يا معشر قريش!» قالت قريش: «محمد على الصفا يهتف» واقبلوا عليه ما لـه؟ فسألهم الرسول: «هل سمعتمونى ذات يوم أقـول كذبا؟» فأجابوه بصوت واحد أنهم لم يعرفوا منه غير الصدق والأمانة[1].

فسألهم الرسـول: «ارأيتم لو أخبرتكم ان خيـلا بسفح هذا الجبل أكنتم تصدقـونى؟» فأجابوه مجمعين: «نعم! أنت عندنا غير متهم، وما جربنا عليك كذبا قط». قال:« فانى نذير لكم بين يدى عذاب شديد. يا بنى عبد المطلب، يا بنى عبد مناف، يا بنى زهرة، يا بنى تيم، يا بنى مخزوم، يا بنى أسد، إن الله امرنى أن أنذر عشرتى الأقربين. وإنى لا أملك لكم من الدنيا منفعة ولا فى الآخرة نصيبا إلا أن تقـولوا: لا إله إلا الله ودعاهم إلى نبـذ الوثنية، واجـتناب الفواحش كلهـا، والإيمان بوحدانيـة الله، وانتهاج سـبيل الفضـيلة. وعندئذ استبـد الغضب بهم جـميعـا، ولكن أبا لهب كان اقساهم عليه وأشـدهم وطأة. لقد نهض أبو لهب فصاح: «تبا لك سائر هذا اليوم، ألهـذا جمعتنا؟» وارتج على محمد فنظر إلى عمه، ثم ما لبث ان جاءه الوحى بقوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾﴾ [المسد] وشيئا من دأبه ودأب زوجـته أن يعذباه. وفى أيام الحج، حين يجتمع الناس من كل حدب وصوب فى بلاد العرب، كان الرسول يطوف بينهم يدعوهـم إلى الدخول فى دين الله. وحيثمـا اتجه كان أبو لهب يمضى على آثاره، ويحرض الناس أن لا يسـتمعوا له، لأنه مخالط فى عقله[2].

يبدو أن أشـد المعارضين اسـتهزاءًا وسـخرية من رسول الله مـحمد ﷺ والمسـلمين كانوا من القرشيين: (١) الأسـود بن المطلب بن أسد (٢) أبو جهل واسـمه عمرو بن هشام بن المغـيرة من بني مخزوم (٣) الوليد بن المغيرة مـن بني مخزوم (٤) والعاص بن وائل بمن بني سهم (٥) ومن بني زهرة الأسود بن عبد يغوث (٦) ونبيه ومنبه ابناء الحجاج بن عامر[3].

وحين رأت قريش أن أيا من الاضطهاد وإقامة العقـبات لم يوفق إلى كبت الحركة الإسلامية، وأن أتباع هذه الحركة لم يبالوا بـتحمل أيما قدر من العنت، من مثل مفارقة ربوعـهم الجميلة مؤثرين

---

(١) د. محمد رواس قلعه جي - المرجع السابق ص٤٣.
(٢) د. محمد رواس قلعه جي - نفس المرجع ص٤٤.
(٣) ابن هشام - القسم الأول ص٢٦٤ - ٢٦٥.

ذلك على التنكر للإسلام، عقدوا العزم، سرا، على التخلص من الرسول، مصدر «البلاء» كله. وهكذا بذلت كل جهد مستطاع للقضاء على حياته عن طريق المكر والحيلة، حتى إذا أخفقت هذه الخطة وطنت قريش النفس على اغتياله فى وضح النهار. ولكن القانون الاجتماعى فى بلاد العرب كان يلزم كل قبيلة، يمثل عهد الشرف، أن تمنع كل فرد من أبنائها، فخشى القرشيون أن تفضى محاولة اغتيال الرسول إلى حرب أهلية.

وهكذا لم يكن بد من الفوز بموافقة أبى طالب، عم الرسول وحاميه، قبل الإقدام على تلك الخطوة الدموية. من أجل ذلك مشى رجال من أشرافهم، كان بينهم أبو جهل، إلى أبى طالب، لكى يقنعوه بصواب خطتهم الشريرة على النحو التالى: «يا أبا طالب، إن ابن أخيك قد سبَّ آلهتنا، وعاب ديننا، وسفة أحلامنا، وضلل آباءنا، فإما أن تكفه عنا، وإما أن تخلى بيننا وبينه، فإنك على مثل ما أنت عليه من خلاف فستكفيكه» بيد أن أبا طالب ردهم ردا جميلا. وواضح أن التهم التي ساقوها ضد الرسول مبالغ فيها كثيرا. فهو لم يسبب آلهتهم فى يوم ما، ذلك بأن القرآن الكريم محرم هذا الصنيع تحريم قاطعا: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾ [الأنعام] وفى إمكان المرء أن يراجع القرآن الكريم من الدفة إلى الدفة، وهو الكتاب الذى احتفظ حتى اليوم بصفائه الأصيل كله سليما لم يمس، ليستيقن أنه لا يشتمل على كلمة واحدة تهين آلهة الكفار. كل ما يقوله القرآن الكريم عن تلك الآلهة أنها لا تستطيع أن تعود عليهم بأى نفع، أو ان تدفع عنهم أيما ضر، وأن تعدد الآلهة والوثنية سبيلان وخيمان. ويعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم، وكان الكافر على ربه ظهيرا. وإنما عمدت قريش إلى تشويه هذا النص، وأمثاله، وإلباسه صورة السب لآلهتها، ابتغاء إهاجة أبى طالب وإيغار صدره على محمد[1].

لا نشك فى أن رسول الله محمد ﷺ قد علم بتوسيط قريش عمه أبا طالب ليسكت صوته المدوى بالحق، ولكن متى كان الحق يخضع للوساطة خاصة إذا كان حامله شخصا كمحمد ﷺ؟!! لقد مضى محمد فى دعوته يجمع الناس على مبادئ السماء، ويقودهم إلى العزة قيادة الحكيم البصير، مما زاد التوتر فى صفوف قريش حتى فكر بعضهم بالنيل من رسول الله محمد ﷺ، ولكن عقلاءهم رأوا من الحكمة أن يسعوا إلى أبى طالب مرة اخرى، ولكنهم سيحملون فى ألسنتهم، فى هذه المرة، من الحزم ما هو أشد وأقوى مما حملوه فى المرة الماضية، لقد حملوا فى المرة الماضية الرجاء، أما الآن فلا بد من التهديد[2].

بيد أن الرسول أدى رسالته، كالمعتاد ويوما بعد يوم استحوذت حقيقة الإسلام على عدد من قلوب العرب غير يسير. حتى إذا وجدت قريش أن تحذيرها السابق لأبى طالب لم يلق منه غير

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص٩٦ .

(٢) د. محمد رواس قلعه جي - المرجع السابق ص٤٥

التجاهل عقدت النية على معاودة الكرة والإلحاح فى ذلك حتى يحسم الأمر بالكلية. فمشى أشرافها إلى أبى طالب، من جديد، وذكروه باحتياجهم الأول لديه قائلين: «يا أبا طالب، إن لك سنا وشرفا ومنزلة فينا، وقد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه علينا، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا، حتى تكفه عنا أو نناله وإياك حتى يهلك أحد الفريقين» وهذا، إذا جاز التعبير، إنذار لأبى طالب بالحرب. وكان الموقف، من غير ريب، بالغ الدقة. أبو طالب نفسه فى مأزق حرج، كان أمامه سبيلان: إمكانية الحرب ضد أهله وعشيرته من ناحية وحبه العميق لابن أخيه من ناحية، فلم يكن من اليسير عليه أن يقرر أى سبيل يختار. وفى هذه الحال من القلق والارتباك استدعى رسول الله محمد ﷺ وشرح له الموقف من نواحيه جميعا، وقال له أن قومك قد جاؤوني فقالوا لي كذا وكذا، للذي كانوا قالوا له[1]: «أبق على، وعلى نفسك، ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق. إنه لا قبل لى بمقاومة قريش كلها مجتمعه» فظن رسول الله ﷺ أنه قد بدا لعمه فيه بدء وأنه خاذله ومسلمه، وأنه قد ضعف عن نصرته، وضع حرج حقا؛ القبيلة كلها ظمأى للدم، ولولا تدخل أبى طالب إذن لقضت على حياته فى وضح النهار. ولكن واأسفا! إن باب أبى طالب أيضا ليوشك ان يوصد فى وجهه. ولم يبق ثمة أية حماية أرضية تقيه غضب عدوه. ثم إن صحابته الخليق بهم ان يفتدوه بأرواحهم العزيزة عليهم كانوا فى بلد قصى من قارة أفريقية. أفيعنى هذا شيئا غير الهلاك المؤكد الوشيك؟ ولو قد غار قلب الرسول فى صدره اذن لكان ذلك متفقا والسجية البشرية، ولو قد حسنت له غريزة حفظ الذات ان يعقد مع خصومه تسوية، وبذلك ينقذ حياته ويشخص إلى مكان آخر يدعو فيه إلى الإيمان بدينه، اذن لكان ذلك جد طبيعى[2].

ولكن هل يتطرق مثل هذا النزوع، المبرر بكل ما فى الكلمة من معنى فى ظل ملابسات حرجة بهذا المقدار، إلى فؤاد الرسول؟ لا، لم يتطرق اليه طيف من ذلك. فقد كان يعمر نفسه ايمان بالرعاية الإلهية لا يتزعزع، فهو لا يتراجع بوصة واحدة عن اداء رسالته التى هى، فى الحق، غاية حياته كلها وكينونته كلها. فما ان انطقت الكلمات المذكورة آنفا من شفتى ابى طالب حتى أعلن فى غير ما جمجمة البتة: «يا عم، والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على ان أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته»[3] كلمات انطلقت من فم رسول الله ..بل هى بركان تفجر، فإذا الجبال الشماء كثبان رمال، وإذا الإنسان المتعالى المتعاظم يتلاشى فى صفحة الوجود، فالنفس المؤمنة الكبيرة لا تقبل المساومة على المبدأ، إنها به تعيش، ومن أجله تموت، تلك هى نفس رسول الله محمد ﷺ. ما كان هدف رسول الله محمد ﷺ مالا ولا متاعا ولا ملكا، ولكن تبليغ دعوة، وبناء دولة تحمل العدل والإنصاف للإنسان على أجنحة الإيمان، لقد أوضح رسول الله محمد

(١) ابن هشام - القسم الأول - ص٢٦٤.
(٢) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص٩٧.
(٣) ابن هشام - جـ١ ص٢٦٦.

ﷺ الطريق، وأبان الهدف ولكن عيناه ما لبثتا ان اغرورقتا بالدمع - بعد ان رأى إلى الخيبة التى أوقعها موقفه فى نفس عمه الذى نشأه فى حنان بالغ وبسط عليه حمايته مخاطرا بكل شىء، وانصرف بقلب محزون. ولم يكن أبو طالب قد تخلى عن شكل الديانة الموروثة عن الآباء والأجداد، ولكن خلق الرسول الرفيع كان قد فتنه كثيرا. فبعث فى طلب الرسول على التو[1]، وقال له مؤكدا: «اذهب يا ابن اخى فقل ما أحببت، فوالله لا أسلمك لشىء تكرهه أبدا !»، تظهر هذه الحادثة بوضوح أن قريشا كانت تقيم أكبر الوزن في علاقاتها مع رسول الله محمد ﷺ لقضية التضامن القبلي سيما وأن أبا طالب زعيم آل المطلب وهاشم لم يكن قد انحاز إلى صف الإسلام وظلت علاقته بهذا الدين نابعة من كون صاحبه يمت له بصلة القرابة والنسب وبالتالي له عليه حق الحماية والدفاع[2].

،لم يشك القرشيون، إلا قليلا، فى أن أبا طالب سوف ينزل عند مطلبهم الموحد. من أجل ذلك دهشوا دهشا بالغا عندما سمعوا عزمه على أن يمنع الرسول الكريم بأى ثمن. وبدا لهم أن نشوب حرب ضروس فى ما بينهم خليق به أن يكون مفعما بخطر عظيم. إن ذلك قد يقضى على سلطان قبيلتهم وسيادتها إلى الأبد. وهكذا قاموا هذه المرة بمحاولة أخرى لحمل ابى طالب على الإذعان عن طريق الإغراء بدلا من حمله على ذلك عن طريق الوعيد. لقد مشوا إلى أبى طالب، مصطحبين عمارة بن الوليد بن المغيرة وكان فتى وسيما، عرضوا عليه أن يتخذه ولدا ويسلمهم رسول الله محمد ﷺ قائلين: «إن هذا الفتى أنهد فتى فى قريش وأجمله فخذه فلك عقله ونصره واتخذه ولدا فهو لك، وأسلم الينا ابن أخيك هذا الذى خالف دين آبائك وفرق جماعة قومه وسفه أحلامهم، فنقتله فإنما هو رجل برجل!» فأجابهم أبو طالب: «لبئس ما تسوموننى! أتعطونى ابنكم اغذوه لكم وأعطيكم ابنى تقتلونه!؟ إن ذلك لن يكون أبدا» فقال المطعم بن عدى: والله يا أبا طالب لقد أنصفك قومك، وجهدوا على التخلص مما تكرهه، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئا! فقال أبو طالب للمطعم: والله ما أنصفونى، ولكنك قد أجمعت خذلانى ومظاهرة القوم على، فاصنع ما بدا لك. فحقب الأمر وحميت الحرب، وتنابذ القوم، وعادى بعضهم بعضا. وهكذا خاب سعى القرشيين مرة أخرى. وخشى أبو طالب أن يتخذوا إجراءات عنيفة ضد أسرته، بنى هاشم، فدعا اليه أعضاء الأسرة كلهم ليحذرهم من الخطر المرتقب. فأجمعت آراؤهم على أن الرسول الكريم لن يسلم إلى قريش أيا ما كانت الإجراءات التى قد تتخذها ضد بنى هاشم. وباستثناء أبى لهب وحده، الذى قد انضم إلى قريش ضدهم، أعلنت الأسرة كلها استعدادها للدفاع عن النبى الكريم بقوة السلاح. إلى هذا الحد كانت شعبية الرسول قوية عند بنى هاشم كلهم. لقد بجلوه جميعا وأخلصوا

(١) مولانا محمد علي - نفس المرجع ص٩٩.
(٢) د. نبيه عاقل - المرجع السابق ص٣٩٨.

الود له، قلبا وروحا، لخلقه العظيم. ولقد كانوا، برغم خلافاتهم الدينية معه، مستعدين لأن يمنعوه من قريش ولو هلكوا فى ذلك[١].

نجد في كتب السيرة والتاريخ أنواع كثيرة من العذاب والأذى ضد رسول الله محمد ﷺ وأصحابه المسلمين وقد تآمروا به أكثر من مرة وهموا بقتله عدة مرات[٢].

لما رات قريش أن جميع مساعيها الكلامية من رجاء وتهديد ووعود قد فشلت لجأت إلى أسلوب التعذيب البدنى، فاتفق زعماؤها فيما بينهم على أن يثب كل الجماعة منهم على من أسلم منهم وانضوى تحت لواء رسول الله محمد ﷺ فيوسعوه تعذيبا وتنكيلا، حتى يعود عن موالاة رسول الله محمد ﷺ إلى موالاة المشركين وبدأت عمليات التعذيب الوحشى للمسلمين، والمسلمون صابرون صامدون وهكذا كلما أفلس أصحاب الدعوات الباطلة من الحجة والبرهان وزلزلت الأرض من تحت أقدامه بالمنطق السليم والحجة الساطعة لجأوا إلى البطش والإرهاب ليخرسوا الألسن الناطقة بالحق، ظانين بغباء أسود قاتم أنهم يستطيعون إطفاء نور الحق بحبسه، وما علموا أن ذلك يزيد نار الحق أوارا، ونوره فى القلوب ضياء. إن هذا التعذيب الوحشى الذى أنزله المشركون بأصحاب رسول الله محمد ﷺ أحل الرعب فى قلب أبى طالب عم رسول الله، فوجد أنه لا بد من التحرك لجمع كلمة بنى هاشم وبنى المطلب على حماية رسول الله محمد ﷺ، ونجح أبو طالب فى مساعيه، واتفق بنو هاشم وبنو المطلب على حماية رسول الله من بطش قريش إلا ما كان من عم رسول الله أبى لهب الذى أبى أن يضم يديه لغاية خبيثة فى نفسه[٣].

وظل رسول الله محمد ﷺ يدعو قريش في مكة إلى الله ولا تلين له في ذلك قناة صابرا على أذاهم ورفضهم وتعذيبهم واستهزائهم[٤] وزاد هذا الصبر والجلد على المكاره في حنق قريش وغضبها من رسول الله محمد ﷺ فعمدت إلى جميع الطرق الممكنة للضغط على المسلمين ومنها الناحية الاقتصادية والذي ينص على إكساد تجارة وإهلاك مال كل من يسلم[٥].

لم تستطع قريش أن تمد يدها بالتعذيب إلى رسول الله محمد ﷺ بعد هذا الاتفاق من بنى هاشم وبنى المطلب على حمايته، ولكن ماذا يفعلون ورسول الله محمد ﷺ لا يسكت، وموسم الحج قد اقترب، وموسم الحج فرصة لابد وأن ينتهزها رسول الله محمد ﷺ لنشر دعوته بين القادمين من العرب، إنه لا بد من توجيه حكيم، فيما يظنون، لما يقوله رسول الله محمد ﷺ. ومن أجل هذه الغاية اجتمع نفر من أولى الشؤون من قريش إلى الوليد بن المغيرة حين حضر الموسم، وكان ذا سن

---

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص٩٩.
(٢) الطبري - جـ٢ ص٣٢٥ - ٣٣٣ وابن سعد جـ١ ص٢٠٢.
(٣) د. محمد رواس قلعه جي - المرجع السابق ص٤٧.
(٤) ابن هشام - القسم الأول ص٣٥٤ - ٣٦٤.
(٥) ابن هشام - القسم الأول ص٣٢٠.

فيهم، فقال لهم: يا معشر قريش، إنه قد حضر هذا الموسم، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأيا واحدا، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضا، ويرد قولكم بعضه بعضا. فقالوا: فأنت يا أبا عبد الشمس فقل وأقم لنا رأيا نقول به. قال: بل أنتم فقولوا أسمع. قالوا: نقول: كاهن، قال: لا والله ما هو بكاهن، لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة (كلام خفي لا يسمع) الكاهن ولا سجعه. فنقول: مجنون، قال: ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون وعرفناه، فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته. وقالوا: فنقول: شاعر، قال : ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه، ومقبوضه ومبسوطه، فما هو بالشعر. قالوا: فنقول: ساحر. قال: ما هو بساحر، لقد رأينا السحار وسحرهم فما هو بنفثهم ولا عقدهم. قالوا: فما تقول أنت يا أبا عبد شمس. قال: والله وإن لقوله لحلاوة. وإن أصله لغدق (النخلة)، وإن فرعه لجناه. وما أنتم بقائلين من هذا شيئا إلا عرف أنه باطل، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا: ساحر، جاء بقول هو سحر يفرق بين المرء وأخيه، بين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته فوافقوه على رأيه وتفرقوا عنه بذلك. فجعلوا يجلسون بسبل الناس حين قدموا الموسم لا يمر بهم أحد إلا حزروه إياه، وذكروا لهم أمره.

فانزل الله تعالى فى الوليد بن المغيرة: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾﴾ [المدثر]. فجعل أولئك النفر يقولون ذلك فى رسول الله ﷺ لمن لقوا من الناس، وصدرت العرب من ذلك الموسم بأمر رسول الله ﷺ فانتشر ذكره فى بلاد العرب كلها، وخاصة بين الأوس والخزرج. وبعد: لم يكن سكوت رسول الله وتحمله أذى المشركين فى هذه المرحلة من الدعوة عن خنوع أو ذل، ولكنه سكوت خاضع لتخطيط دقيق وضعه قائد المسيرة رسول الله محمد ﷺ، أنه سيبقى متحملا للأذى، لا يبدى أية مقاومة حتى يصلب عوده، ويستكمل قوته، ويقيم دولته، وعندئذ يبدأ الصدام بقوة تمكنه من انتزاع النصر، بفضل الله: وقد تم تنفيذ هذا المخطط بكثير من الحرص، ولو أن أية مقاومة قد بدت من الرسول فى فجر الدعوة، لكانت هذه المقاومة الشرارة التى تقع فى برميل البارود، ولتفجر الموقف تفجرا عنيفا، ولن يكون ذلك فى صالح رسول الله محمد ﷺ ولا صالح الدعوة، نظرا لقلة أصحابه وضعفهم، وكثرة عدوه وقوته. وتحمل رسول الله، وتحمل، وما أن حان التوقيت الذى وضعه هو للمعركة حتى شهر السيف، ونزل إلى الساحة يبادل عدوه ضربة بضربة. . وكان له النصر بإذن الله. وبفضل هذا المخطط بنيت دولة الإسلام، وخفقت راياته فوق الآفاق. رأى المشركون أن أصحاب رسول الله يزيدون يوما بعد يوم، وأن المفاوضات غير المباشرة وما رافقها من بطش وتعذيب لم تصد الناس عن الإيمان، فقرروا اللجوء إلى المفاوضات المباشرة، والمفاوضات المباشرة تعنى الاعتراف الرسمى برسول الله محمد ﷺ وبكيان الدعوة الإسلامية، لعلهم

يستطيعون بهذه المفاوضات إقناع الرسول بترك ما يدعو إليه من وجوب الكفر بالعقائد الزائفة المخالفة لعقيدة الإسلام والأخذ بما جاء من عند الله، وخاصة أن إسلام حمزة بن عبد المطلب قد شد من أزر الرسول ودعم موقفه[1].

استمرار دعوة رسول الله محمد ﷺ وقوته وصلابته في موقفه لنشر الدين الإسلامي الجديد جعل كفار مكة يخشون القضاء على عبادة أصنامهم التي ورثوها عن الآباء والأجداد وأن انتصار الدين الجديد معناه تحطيم دين الأجداد وبالتالي ضياع ما كان يتمتع به سدنة الكعبة من ثروة[2]. فأجمعوا أعيان قريش للوقوف ضد رسول الله محمد ﷺ وضد الدين الجديد الإسلام بشتى الطرق لمنع انتشاره.

اختار المشركون لمهمة مفاوضة الرسول رجلا ذا قوة الحجة وحسن العرض، هو عتبة بن ربيعة، فأتى عتبة رسول الله، وكلمه بمعسول الكلام وقال له: «يا ابن أخى، إنك منا حيث قد علمت من السطة (الشرف) فى العشيرة، والمكان فى النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم، وعتبت به من مضى من آبائهم، فاسمع منى أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها». فقال له رسول الله ﷺ: «قل يا أبا الوليد، أسمع». قال: «يا ابن أخى، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت تريد به شرفا سودناك علينا حتى لا نقطع أمرا دونك، وإن كنت تريد ملكا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذى يأتيك رئيا (ما يراه من الجن) تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع (الصاحب من الجن) على الرجل حتى يداوى منه».

إن عتبة بن ربيعة لم يكن جادا فيما يعرض على رسول الله من المال والملك وإنما هو عرض سياسى ذكى، حتى إذا ما رضى الرسول بواحد من بنود هذا العرض كانت الفضيحة بأن رسول الله محمد ﷺ يبتغى فيما يدعو إليه الدنيا، ويكون بذلك القضاء على رسول الله محمد ﷺ وعلى ما يدعو إليه، وإن رفض تأكد لديه أن رسول الله محمد ﷺ رجل دعوة وليس برجل دنيا. وقد كان رسول الله أذكى من أن يقع فى هذه المصيدة السياسية، بل كان عليه الصلاة والسلام أنبل هدفا وأسمى مقصدا، إنه ماض لتنفيذ أمر ربه فى تبليغ ما عهد إليه بتبليغه، ولذلك فإنه ما إن فرغ عتبة من كلامه حتى قال له: أقد فرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم. قال: فاسمع منى. قال: أفعل. قال: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حم ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ ... ﴿٥﴾﴾ [فصلت]. ثم مضى رسول الله ﷺ فيها يقرؤها عليه، فلما سمعها منه عتبة أنصت لها،

---

(١) د. محمد رواس قلعه جي - المرجع السابق ص٤٩ .

(٢) أرنولد - الدعوة إلى الإسلام - ص٣٧.

والقى يديه خلف ظهره معتـمدا عليهما يسمع منه، ثم انتهى رسـول الله ﷺ إلى السجدة منها وهى قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [فصلت]. فسجد رسول الله، ثم قال: قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك.. وعندما أيقن عـتبة بن ربيعة أن محمدًا رسول اللـه للناس يحمل أعباء رسالة ويقوم بتـبليغهـا، وماهو بطالب دنيا كـغيره من الزعـماء، رأى أن واجبه أن يبلغ قـومه قناعتـه بهذا الرجل، وينصحهم ما وسعه النصح(١).

فقام إلى أصحابه وقـد انعكس باطنه على ظاهره فبدا ذلك فى محياه، فقـال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به، فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائى أنى سمـعت قولا والله ما سمعت بمثله قط، والله ماهو بالشـعر ولا بالسحر ولا بالكهانة. يامعشر قريش، أطيعونى واجعلوها بى، وخلوا بين هذا الرجل وبين ماهو فيه فاعتزلوه، فو الله ليكونن لقوله الذى سـمعت منه نبأ عظيم، فإن تصـبه العرب كفـيتموه بغيـركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به! قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه. قال: هذا رأى فيه فاصنعوا ما بدا لكم. والحق أن هذا الكلام هو كلام إنسان ذكى يحفظ خط الرجعة لنفسه، لأنه لو نصحهم بالإيمان بمحمد لثاروا عليه، وجهروا بعداوتهم له، فأحب أن يشعرهـم بأنه ما زال فى صفـهم، وأنه لهم ناصح. ظن زعماء قـريش أن عتبة بن ربيـعة لم يوفق فى قوة الحـجة بما يستـطيع به إقناع محـمد بالتـوقف عن بث أفكاره وجمع الناس إليـه، ولذلك عاد من عنده بـخفى حنين، وأمر رسول الله محمد ﷺ لا يحتـمل السكوت عليه، فالإسلام يزداد انتشارًا فى بيوت مكة، وأتباع رسـول الله محـمد ﷺ يزدادون فى كل يوم، وقريش لا تمـلك من الإمكانيات ما يمـكنها من ملاحـقة جميع أصـحاب رسول الله مـحمد ﷺ والبطش بهم، هذا إن أفلح البطش، فـما بالك إذا أظهرت الأيام أن الـبطش لا يزيدهم إلا صلابة وصـمودًا؟!. ولذلك اجتـمع رأيهم على أن يجتـمع بمحمد عليه الصلاة والسلام أشراف قريش من كل قبيلة(٢).

فاجتمعوا وبعثوا إلى محمد من يخبره ويقول له: إن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك فأتهم. فـجاءهم رسـول الله ﷺ سريعـًا، وهو يظن أنه بدا لهم بما كلمهم فـيه بداء، وكـان عليهم حريصًا، يـحب رشدهم، ويعز عليه عنتـهم، حتى جلس إليهم، فقـالوا له: يا محمد، إنا قـد بعثنا إليك لنكلمك، وإنا والله ما نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك، لقد شتمت الآباء، وعبت الدين، وشتمت الآلهة، وسفهت الأحلام، وفرقت الجماعة، فما بقى أمر قبيح إلا قد جئته فـيما بيننا وبينك، فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مـالا جمعنا لك من أموالنا

(١) د. محمد رواس قلعه چي - نفس المرجع ص٥٠ .

(٢) د. محمد رواس قلعه چي - نفس المرجع ص٥١.

حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا فنحن نسودك علينا، وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذى يأتيك رئيا تراه قد غلب عليك بذلنا لك أموالنا فى طلب الطب لك حتى نبرئك منه أن نعذر فيك. فقال لهم رسول الله ﷺ: ما بى ما تقولون، ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثنى إليكم رسولا، وأنزل إلى كتابًا وامرنى أن أكون لكم بشيرًا ونذيرًا، فبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم، فإن تقبلوا منى ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة، وإن تردوه على أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم وهذا شأن أصحاب المبادئ والدعوات، لا يقبلون المساومة فيها، ولا يبيعونها بعرض زائل من أعراض الدنيا، ومغريات لا سبيل إلى مقاومتها من غير ريب فما أكبرها نقلة أن ينقلب المرء بين عشية وضحاها من رجل معوز بائس مضطهد إلى عاهل ذي قوة وسلطان، ولكن قلب رسول الله كان مبرءا من زيف الوصولية براءة كاملة، فكان في هذا ما أحبط آخر محاولة من محاولات قريش للوصول إلى تسوية، لقد أخفق الإغراء وأخفق الاضطهاد وكان الاضطهاد ثقيلا لا يطاق ولكن الإغراء كان أقوى من أن يقاوم ولولا روح الثبات التي نفخها الله في صدر رسول الله محمد ﷺ لكان خليقا بصنوف التعذيب التي أنزلت به وصنوف الإغراء التي اغدقت عليه أن تزحزحه عن موقفه ولكنه لزم ذلك الموقف مثل الجبل الصامد محبطا جميع المحاولات الرامية إلى تثنيته عن أداء رسالته[1]. وإلى هذا يشير القرآن الكريم: ﴿وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً ﴿٧٤﴾﴾ [الإسراء].

ولقائل أن يقول: لقد بعث الله محمدًا ﷺ لتبليغ الرسالة وإقامة الدولة التى تطبق مبادئ هذه الرسالة وتسيير السير الحثيث نحو أهدافها، وها إن قريشا تعرض الملك ورئاسة الدولة على محمد، فلماذا لم يقبلها؟ وهنا لا بد لنا من إيضاح عدة نقاط سياسية هى على غاية من الأهمية: أولها: إن أية دولة لا تقوم على قاعدة شعبية مؤمنة بها ومخلصة لها تنتهى حيث تبدأ ولن تتمكن من الوقوف منتصبة القامة، وهذه القاعدة لم تتوفر بعد للدولة التى يبتغيها الرسول صلوات الله وسلامه عليه، ولذلك رفض رسول الله الملك. ثانيها: إن الدولة بحاجة إلى أجهزة بشرية هى أشد ما تكون إيمانًا وأكثر ما تكون إخلاصا، وفى الوقت الذى عرض على رسول الله الملك لم يكن رسول الله قد أعد الأجهزة الكافية التى يطمئن إليها لإدارة هذه الدولة وتولى أمرها، ولا تقوم دولة بسواعد من لا يؤمن بها ولا يخلص لها. ثالثها: إن قيام الدولة فى وسط أعدائها وهى عاجزة عن بسط سلطانها عليهم هى مجازفة بسمعة هذه الدولة، وطالما أن رسول الله غير قادر فى هذه المرحلة من بسط سلطانه على قريش فمن الخير أن يؤخر قيام الدولة حتى يصبح قادرًا على ذلك. رابعها: ثم إن رسول الله يريدها دولة من صنعه هو، من صنع أبناء الإسلام، لا دولة صنيعة لأعداء الإسلام، ويريدها رئاسة بصنع

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص١٠١ .

المسلمون له عرشها بأيديهم لا رئاسة يكون فيها أجيرًا لأعداء الله ومحاربي مبادئه، لأن دولة هذا شأنها لا تستطيع ممارسة سيادتها على الوجه الأكمل، وإقامة مبادئها على الوجه الذى تحب. ومن أجل هذا كله رفض رسول ﷺ الملك الذى عرضه عليه المشركون[1].

نتائج هذه المفاوضات: انصبت محاولات قريش بعد فشلها في سحب حماية أبي طالب لابن أخيه على العمل على تفريق صف بني هاشم وجعلهم لا يقفون وقفة موحدة في الدفاع عن رسول الله محمد ﷺ ولجحت خطتهم في جذب أبي لهب إلى صفهم وفصله عن الصف الهاشمي إلى صف بني أمية المعادي للإسلام ولرسول الله محمد ﷺ، وأبو لهب هو الأخ الأصغر لأبي طالب وكان قد تزوج إحدى أخوات أبي سفيان زعيم بني أمية ووقف ضد ابن أخيه وأسرف في عدائه له حتى أنه فسخ خطبة أولاده لبنات رسول الله ﷺ الاثنتين رقية وأم كلثوم ولا شك أن العامل القوي في موقفه المنحاز مع بني أمية ضد بني هاشم كانت مصالحه المادية التجارية التي كانت مع بني أمية[2].

أدى فشل محاولات قريش للفصل بين رسول الله محمد ﷺ وعشيرته وآله من بني هاشم والمطلب إلى قيام تجمع قريش بضم جميع بطون هذه القبيلة ما عدا هاشم والمطلب وكان الهدف من هذا التجمع القيام بعمل قرشي موحد ضد محمد وحماته من أسرته وبالتالي وضع حد لانتشار الدين الإسلامي الجديد[3]. فانحازت بذلك بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبي طالب فكانوا معه كلهم إلا أبا لهب فكان مع بني أمية وقريش[4].

لما رأى المؤتمرون من المشركين ما رأوه من صمود رسول الله على المبدأ، ورفضه جميع ما عرضوه عليه من المغريات لأنها لا تنسجم مع مخططه المرسوم لإقامة الدولة الإسلامية، قرروا العودة إلى شن الحرب النفسية، لعلهم يتوصلون بذلك إلى تحطيمه نفسيًا، وذلك بطرح بعض المطالب بأسلوب الساخر المستهزئ المشعر بضعف رسول الله ﷺ وعجزه عن تحقيق أى شىء، و يتمثل ذلك بما يلى:

قالوا: يا محمد، إن كنت غير عاقل منا شيئا مما عرضناه عليك، فإنك قد علمت أنه ليس من الناس أحد أضيق بلدًا، ولا أقل ماءًا، ولا أشد عَيشًا منا، فسل لنا ربك الذى بعثك بما بعثك به فليسير عنا هذه الجبال التى قد ضيقت علينا، وليبسط لنا بلادنا، وليفجر لنا فيها أنهارًا كأنهار الشام والعراق، وليبعث لنا من مضى من آبائنا، وليكن فيمن يبعث لنا منهم قصى بن كلاب، فإنه كان شيخ صدق، فنسألهم عما تقول: أحق أم باطل، فإن صدقوك وصنعت ما سألناك صدقناك وعرفنا به

---

(١) د. محمد رواس قلعه جي - نفس المرجع ص٥٢.
(٢) د. محمد رواس قلعه جي - المرجع السابق ص٤١٦.
(٣) د. نبيه عاقل - نفس المرجع ص٤١٦.
(٤) سيرة ابن إسحاق ص١٥٩ - البداية والنهاية ٣/ ٨٥.

منزلتك من الله، وإنه بعثك رسولا كما تقول. فقال لهم رسول الله: ما بهذا بعثت إليكم، إنما جئتكم من الله بما بعثنى به، وقد بلغت ما أرسلت به إليكم، فإن تقبلوه فهو حظكم فى الدنيا والآخرة، وإن تردوه على أصبر لأمر الله تعالى حتى يحكم الله بينى وبينكم.

قالوا: فإذا لم تفعل هذا لنا فسل لنفسك، ما نعرف به فضلك، سل ربك أن يبعث معك ملكا يصدقك بما تقول، ويراجعنا عنا، وسله فليجعل لك جناحا وقصورا وكنوزًا من ذهب وفضة، يغنيك بها عما نراك تبتغى. فإنك تقوم بالأسواق كما نقوم، وتلتمس المعاش كما نلتمسه، حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولا فيما تزعم. فقال لهم رسول الله ﷺ: ما أنا بفاعل، وما أنا بالذى يسأل ربه هذا، وما بعثت إليكم بهذا، ولكن الله بعثنى بشيرًا ونذيرًا، فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة، وإن تردوه على أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم. تأمل المستوى الفكرى الذى يناقش به الرسول ﷺ. والمستوى الفكرى الذى يناقش به المشركون. إن رسول الله محمد ﷺ عرض عليهم المبادئ المنزلة عليه من الله، وبين لهم وجه سموها على كل المبادئ التى عرفوها، فكان من المفروض أن يناقشوه فى صلاحية تلك المبادئ، أو وجه صحتها، ولكنهم لم يفعلوا، بل طلبوا منه الإتيان بالمعجزات، وهذا اعتراف ضمنى منهم أنهم عاجزون عن إيجاد ثغرة ينفذون منها إلى هذه المبادئ إن هم ناقشوها بل هو اعتراف منهم بانهزامهم فكريًا أمام رسول الله. أما المعجزات، فإنها لا تكون لأولى العقول الكبيرة، ولكن لمن دونهم من الناس، لأن أصحاب العقول الكبيرة يناقشون على مستوى المبادئ، وهذا ما لم يتوفر فى المناقشين للرسول ﷺ[1].

قالوا: فأسقط السماء علينا كسفا كما زعمت أن ربك إن شاء فعل، فإنا لا نؤمن لك إلا أن تفعل. فقال رسول الله ﷺ: «ذلك إلى الله، إن شاء أن يفعله بكم فعل». ثم توج هؤلاء المؤتمرون من المشركين حربهم النفسية بإنذار الرسول بالتصفية الجسدية إن أصر على موقفه فقالوا: يا محمد، أفما علم ربك أنا سنجلس معك ونسألك عما سألناك عنه، ونطلب منك ما نطلب، فيتقدم إليك فيعلمك ما تراجعنا به، ويخبرك ما هو صانع فى ذلك بنا، إذا لم نقبل منك ما جئتنا به؟ إنه قد بلغنا أنه إنما يعلمك هذا رجل باليمامة يقال له «الرحمن» وإنا والله لا نؤمن بالرحمن أبدًا، فقد أعذرنا إليك يا محمد، وإنا والله لانتركك وما بلغت منا حتى نهلكك أو تهلكنا! فلما قالوا ذلك لرسول الله ﷺ قام عنهم، وقام معه عبدالله بن أبى أمية بن المغيرة، وهو ابن عمته وكان كافرًا فقال له: يا محمد، عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم، ثم سألوك لأنفسهم أمورًا ليعرفوا بها منزلتك من الله كما تقول، ويصدقوك ويتبعوك فلم تفعل، ثم سألوك أن تأخذ لنفسك ما يعرفون به فضلك عليهم ومنزلتك من الله كما تقول، ويصدقوك ويتبعوك فلم تفعل، ثم سألوك أن تأخذ لنفسك ما يعرفون به فضلك عليهم ومنزلتك من الله فلم تفعل، فوالله لا أؤمن بك أبدًا حتى تتخذ إلى السماء

---

(١) د. محمد رواس قلعه جي - المرجع السابق ص٥٣.

سلما ثم ترقى فيه وأنا أنظر إليك حتى تأتيها، ثم تأتى معك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول، وأيم الله لو فعلت ذلك ما ظننت أنى أصدقك!. ثم انصرف عن رسول الله ﷺ وانصرف عنه رسول الله إلى أهله حزينا آسفًا، لما فاته مما كان يطمع به من قومه حين دعوه، ولما رأى من مباعدتهم إياه[1].

لم يكن محمد بالرجل العادى الذى تؤثر فيه وسائل الإضعاف النفسى فتحرفه عما قرر المضى فيه، لأن الله تعالى أعده إعدادًا خاصا لائقًا بحمل الرسالة التى أنزلها عليه. وهو قادر على مواجهة الصعاب التى تواجهه دون أن تنال منه. وقد علم أعداء رسول الله محمد ﷺ هذا عندما جلس إليهم وناقشهم، لذلك وجدوا أن لا وسيلة للخلاص منه غير قتله، حيث قال أبو جهل لزعماء قريش: يا معشر قريش إن محمدا قد أبى إلا ما ترون من عيب ديننا، وشتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وشتم آلهتنا، وإنى أعاهد الله لأجلسن له غدًا بحجر ما أطيق حمله، فإذا سجد فى صلاته فضخت به راسه، فأسلمونى عند ذلك أو امنعونى، فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم!. قالوا! والله لا نسلمك لشىء أبدًا، فامض لما تريد!. . فلما أصبح أبوجهل أخذ حجرًا كما وصف ثم جلس لرسول الله ﷺ ينتظره، وغدا رسول الله ﷺ كما كان يغدو، وكان بمكة، وكانت القبلة إلى بيت المقدس بالشام، فكان إذا صلى، صلى بين الركنين اليماني والأسود، وجعل الكعبة بينه وبين الشام. فقام يصلى، وقد غدت قريش فجلسوا فى أنديتهم ينتظرون ما أبو جهل فاعل، فلما سجد رسول الله ﷺ احتمل أبو جهل الحجر، ثم أقبل نحوه حتى إذا دنا منه رجع منهزما منتقعا لونه مرعوبا، قد يبست يداه على حجره، حتى قذف الحجر من يده. وقامت إليه رجال قريش فقالوا له: ما لك يا أبا الحكم؟ فقال: قمت إليه لأفعل به ما قلت لكم البارحة، فلما دنوت منه عرض لى دونه فحل من الإبل لا والله ما رأيت مثل هامته، ولا مثل قصرته (أصل العنق) ولا أنيابه لفحل قط، فهم بى أن ياكلنى[2]!

ما ذكر في إسلام حمزة بن عبد المطلب عم الرسول يوضح مقدار الأهمية التي كانت تعلقها التقاليد القبلية أو العشائرية على هذه القضية من الحمية والتآزر والتكاتف. فقد لقي رسول الله محمد ﷺ مرة من المرات وهو جالس عند «الصفا» إهانة شديدة وشتما مقذعا من أبي جهل وسمعت هذه الإهانات وشاهدت الحادث مولاة لعبد الله بن جدعان كان منزلها قريبا من «الصفا». وصادف بعد قليل أن مرة حمزة عم رسول الله محمد ﷺ قرب منزل المولاة وهو عائد من صيد ومعه قوسه وسلاحه فحدثته المولاة بحديث ابن أخيه وما وقع له على يد أبي جهل، فاستشاط حمزة غضبا وأسرع إلى حيث كان أبو جهل ومعه رجالات قريش وضربه بالقوس ضربة شجب رأسه وأعلن للجميع أنه مسلم منذ الساعة وأنه لن يسكت على إهانة توجه لابن أخيه أو لغيره من المسلمين[3].

(١) د. محمد رواس قلعه جي - نفس المرجع ص٥٤.
(٢) د. محمد رواس قلعه جي - نفس المرجع ص٥٥.
(٣) الطبري - جـ٢ ص٣٣٣ - ٣٣٤.

لما أيقن المؤتمرون من المشركين أن رسول الله محمد ﷺ لن تلين له قناة، ولن ينزع عما يدعو إليه، وأنهم مع ذلك غير قادرين على اغتياله، وتجربة أبى جهل أكبر شاهد على ذلك، فكروا مليًا فوجدوا أن فى تحويل أنظار الناس عن رسول الله محمد ﷺ ودعوته ما يحقق هدفهم، وتوجهت أنظارهم نحو القرآن الذى كان يفعل فى النفوس فعل السحر وقرروا أن يطرحوا للناس بديلا عن القرآن ليحولوا أنظارهم عنه، وهذا ما حدث، إذ قال النضر بن الحارث، أحد أعضاء المؤتمر: يا معشر قريش إنه والله قد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة بعد، قد كان محمد فيكم غلامًا حدثًا، أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثًا، وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم فى صدغيه الشيب، وجاءكم بما جاء به قلتم «ساحر» لا، والله ما هو بساحر، لقد رأينا السحرة ونفثهم وعقدهم. وقلتم «كاهن» لا والله ما هو بكاهن، قد رأينا الكهنة وتخالجهم، وسمعنا سجعهم. وقلتم «شاعر» لاوالله ما هو بشعر، قد رأينا الشعر وسمعنا أصنافه كلها: هزجه ورجزه. وقلتم «مجنون» لا والله ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون، فما هو بخنقه، ولا وسوسته، ولا تخليطه. يا معشر قريش، فانظروا فى شأنكم، فإنه والله لقد نزل بكم أمر عظيم! وكان النضر بن الحارث من أذكياء قريش وعلمائها، وممن كان يؤذى رسول الله ﷺ، وينصب له العداوة، وكان قد قدم الحيرة وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس، وأحاديث رستم واسفنديار، فكان إذا جلس رسول الله ﷺ مجلسًا فذكر فيه بالله، وحذر قومه ما أصاب من قبلهم من الأمم من نقمة الله، خلفه فى مجلسه إذا قام، ثم قال: أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثا منه، فهلم إلى فأنا أحدثكم أحسن من حديثه. ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم واسفنديار ثم يقول: بماذا هو أحسن حديثا منى. وفشلت محاولة المؤتمرين من المشتركين بطرح هذا البديل الرخيص، لأنه فشل فى تفريق الناس عن القرآن واجتذابهم إليه[1].

غاب عن هؤلاء أنه مهما تعددت وسائل الصد والإيذاء فإن ذلك لا يزيد المؤمن إلا ثباتا، ولا صاحب الدعوة إلا مضيًا، لأن ذلك الأذى بالنسبة إليه كالمسن الذى يأكل الحديد، ليعود به السيف أكثر مضاء. ولما فشلت هذه المحاولة أيضًا عاد المؤتمرون إلى قرار استئناف وسائل القمع المادية من قتل وتعذيب، فوثبت كل قبيلة على من استضعفوا فيها من المسلمين، فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش وبرمضاء مكة إذا اشتد الحر، يفتنونهم عن دينهم، فمنهم من يفتن من شدة البلاء الذى يصيبه، ومنهم من يصلب لهم ويعصمه الله منهم. وكان من هؤلاء الذين نالهم التعذيب بلال من رباح الحبشى، كان عبدًا لبعض بنى جمح، وكان أمية بن خلف الجمحى يخرجه فى حر الظهيرة إلى بطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ويقول له: والله لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى، فلا يزيد بلال، وهو فى هذا البلاء، على أن يقول: أحد أحد، فمر به أبو بكر الصديق وهو على هذه الحال، فقال لأمية بن خلف، ألا تتقى الله فى هذا

---

(١) د. محمد رواس قلعه جي - نفس المرجع ص٥٥.

المسكين.. حتى متى هذا التعذيب؟ فقال أمية: أنت الذى أفسدته، فانقذه إن شئت، فقال أبو بكر: افعل، عندى غلام أسود أقوى منه وأجلد، على دينك، أعطيكه به، فقال أمية: قد قبلت، فقال أبو بكر: هو لك، وأخذ أبو بكر بلالا فأعتقه. وكان من هؤلاء الذين نابهم التعذيب زنيرة التى ذهب بصرها من كثرة ما نالها من الضرب على رأسها، وجارية بنى مؤمل التى تولى تعذيبها عمر بن الخطاب قبل أن يجد الإيمان إلى قلبه طريقًا، حتى إذا تعب من تعذيبها قال لها مستهزئًا: إنى أعتذر إليك، إنى لن أترك تعذيبك إلا ملالة[1].

وعمار بن ياسر وأمه وأبوه، فقد كان يخرج بهم إلى رمضاء مكة ويعرضون على النار فيمر بهم رسول الله ﷺ وهم على هذه الحال فيقول: «صبرًا آل ياسر، إن موعدكم الجنة» فيصبرون ويصبرون حتى ماتت سمية أم عمار بتعذيب المشركين. تعذيب وحشى تنوء بحمله الجبال الراسيات، كان يتحمله أولو القوة، وكان يضعف عن احتماله البعض، لا لنقص فيهم أو لضعف فى إيمانهم، ولكن لأنهم ما زالوا بشرًا والبشر محدود الاحتمال، فكانوا إذا ما ضعف أحدهم عن احتمال التعذيب جارى معذبيه على ما يريدون وقلبه مطمئن بالإيمان، ليخفف عن جسده العذاب، حتى كان أحدهم ليتفوه بكلمة الكفر مضطرًا وقلبه مطمئن بالإيمان، فعن سعيد بن جبير قال: لعبد الله بن عباس: أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله ﷺ من العذاب ما يعذرون به فى ترك دينهم؟ قال: نعم والله، إن كانوا ليضربون أحدهم ويجيعونه ويعطشونه حتى ما يقدر أن يستوى جالسًا من شدة الضرب الذى نزل به، حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنة، حتى يقولوا له: اللات والعزى إلهك من دون الله، فيقول: نعم. حتى إن الجعل (دابة سوداء كالخنفساء من دواب الأرض) ليمر بهم فيقولون له: هذا الجعل إلهك من دون الله؟ فيقول: نعم، افتداء منهم مما يبلغون من جهده. ياالله، قوم تحملوا كل هذا ليبقى لهم إيمانهم فى صدورهم، وليوصلوا هذا الإيمان الحار إلى أمم الأرض، ولما وصل الإيمان إلى مسلمى اليوم مرويًا بدماء الأبرار باعوه للشيطان بأبخس الأثمان باعوه بالمنصب الزائل، والكلمة الجوفاء، والمال الحقير، تبا لها من صفقة!![2].

وعذب والد عمار، ياسر، وأمه سمية، تعذيبا موغلا فى البربرية. الواقع إن قصة تعذيبهما تقشعر لهولها الأبدان. لقد شدت رجلا ياسر إلى بعيرين. ثم عمد مضطهدوه إلى سوق البهيمتين فى اتجاهين معاكسين، وهكذا مزق جسده تمزيقًا وحشيًا، وقتلت سمية بطريقة لا تقل عن هذه وحشية ولكنها أدعى إلى الخزى. وكانت لبينى جارية عمر بن الخطاب، فكان قبل إسلامه يوسعها ضربًا حتى يكل وكان من دأبه بعد ذلك ان يقول: «سوف اتركك الآن. لا إشفاقًا عليك، ولكن لأنى تعبت من ضربك» وحتى المؤمنون من ذوى المحتد النبيل لم ينجوا من التعذيب. كان أهلهم وعشيرتهم هم الذين ينزلون بهم ضروب الأذى. فعثمان بن عفان كان ينتسب إلى بيت كريم ويحتل منزلة اجتماعية

---

(١) د. محمد رواس قلعه جي - نفس المرجع ص٥٦.

(٢) د. محمد رواس قلعه جي - نفس المرجع ص٥٦ .

رفيعة. ومع ذلك، فقد أوثقه عمه بحبل وضربه ضربًا مبرحًا. أما معاملة عمر لأخته وصهره فقد سبقت منا الإشارة إليها. والزبير لف في حصيره وأكره على استنشاق الدخان. وابو بكر نفسه لم ينج من الاذى. لقد أخضع المسلمون جميعًا، من غير تمييز، لكل ضرب من ضروب القسوة يستطيع المرء ان يتخيله، ولكن أيما محنة مهما تكن لم تقو على تجريد قلوبهم من حب الإسلام. وذهل المكيون انفسهم لهذا الولاء العنيد الذى تكشفوا عنه. ولكن ثباتهم هذا ورث غيظ معذبيهم فلجأوا إلى اضطهادهم على نحو أقسى من ذى قبل واعنف[1].

كان على رسول الله ﷺ أن يتخذ تدبيرًا لإنقاذ جنود الدعوة بعد ان اشتد عليهم الطلب، واستبد بهم البطش، فأمرهم رسول الله ﷺ بالهجرة إلى الحبشة، وقال لهم: لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن لها ملكًا لا يظلم عنده أحد، وهى أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجًا مما أنتم فيه. واستجاب رسول الله لأمر الرسل فخرجوا إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة.

الوجه الأول: لأن فى هجرة المسلمين إلى الحبشة إنقاذا للدعوة من أن تجهض فى أيامها الأولى، لأن هؤلاء المسلمين إن بقوا فى مكة وهم يتزايدون يومًا بعد يوم فستشعر قريش بخطرهم عليها، وليس ببعيد أن تقوم بحرب استئصال لهم باسم حماية الآلهة، وسيؤيدها العرب كلهم فى ذلك، ولكنهم إذا هاجروا فسيبقى رسول الله محمد ﷺ فى مكة ضعيفًا لا يؤبه له، فى نظرهم، وسترافق هذه النظرة الاستهانة به وبدعوته. الوجه الثانى: انطلاق صوت الإسلام على أيدى دعاة مؤمنين إلى خارج الجزيرة العربية وهذا كسب لايستهان به. وفى اختيار رسول الله محمد ﷺ الحبشة بالذات لتكون مهجر أصحابه على أن رسول الله قد درس الموقف جيدًا، وعرف أحوال دول العالم آنذاك، وتبين له من دراسة الموقف أن انسب مكان للهجرة حاليا هى الحبشة لأن فيها ملكًا لا يظلم عنده احد. وبذلك يظهر لنا أن رسول كان يفكر على مستوى دولة، ويعمل على مستوى دولة قبل أن تكون دولة، بينما يظهر للناس مجرد محدث أفراد. وإذا كانت كتب السيرة قد أطلقت على السنوات الثلاث الأول من فجر الدعوة الإسلامية اسم «الدعوة السرية» فإن لنا أن نطلق على العهد المكى كلة: دور التخطيط السرى أو العمل السرى لقيام الدولة الإسلامية[2].

أطل العام الخامس للدعوة المحمدية وقد جمع الرسول حوله عصبة مؤلفة من خمسين صحابيًا متفانيًا فى ولائه له. كان إيمانهم المشترك قد جعل منهم جماعة صغيرة متراصة لم تزدها اضطهادات المكيين إلا تماسكًا وإلى هذا، فقد نمت قوتهم العددية يومًا بعد يوم. وكان أهل الحبشة وملكهم الملقب بالنجاشى نصارى. وهكذا استعد أول فريق من المهاجرين، وعدتهم أحد عشر، للإبحار إلى الحبشة، وقد اصطحب أربعة منهم زوجاتهم، وفى جملتهم عثمان وزوجه رقية، بنت الرسول، وفى

---

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص٨٦ .

(٢) د. محمد رواس قلعه جي - نفس المرجع ص٥٧ .

شهر رجب من السنة الخامسة للدعوة، فصل القوم من مكة، وبعضهم راكب وبعضهم راجل، حتى إذا بلغوا الثغر أبحروا على عجل، مغادرين شواطئ وطنهم الجميل التماسًا للسلامة فى أرض أخرى[1].

ولكن لم يستقر بهم المقام طويلا فى الحبشة حتى وردتهم أنباء تفيد أن أهل مكة قد أسلموا وانضووا تحت قيادة رسول الله محمد ﷺ، مما جعل هؤلاء المهاجرين يسرعون إلى العودة لمكة ليكونوا عونًا لرسول الله ﷺ فى المرحلة المقبلة، ولكن ما إن عادوا حتى وجدوا أهل مكة ما زالوا على كفرهم، وأن بطشهم للمسلمين لم يتوقف لحظة، فأمرهم رسول الله ﷺ بالعودة إلى الحبشة وأمر عليهم جعفر بن أبى طالب، لأنه لا يجوز أن يبقى المسلمون فى أرض لا أمير لهم يجمع كلمتهم، ويوحد مساعيهم. خرجوا من مكة وخرج معهم جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه. وتتابع المسلمون حتى اجتمعوا بأرض الحبشة، فكانوا بها، منهم من خرج بأهله معه، ومنهم من خرج بنفسه لا أهل له معه. فكان جميع من لحق بأرض الحبشة وهاجر إليها من المسلمين سوى أبنائهم الذين خرجوا بهم معهم صغارًا أو ولدوا بها ثلاثة وثمانين رجلا. فأقاموا فى الحبشة آمنين، يدعون إلى الله تعالى بلسان حالهم لتشهد الدنيا كلها أن الإسلام صنع منهم خلقًا آخر. أرايت يا أخى المسلم كيف هجر هؤلاء الأهل والأوطان، وتركوا المال والمتاع لتسلم العقيدة لأنها التعبير الصادق عن إنسانية هذا الإنسان، إنهم علموا الدنيا بأسرها أن هناك ما هو أسمى من المال ومن الزوجة، ومن المتاع، إنها العقيدة التى تعمر الصدر باليقين الذى لا أحلى منه ولا أجمل. فروا من مكة دار الكفر التى تفننت فى تعذيبهم إلى الحبشة دار الكفر التى أملوا أن يجدوا فيها من الأمن والسلام ما يمكنهم من إقامة شعائر دينهم[2].

فلما رأى المؤتمرون من قريش أن أصحاب رسول الله ﷺ قد أمنوا واطمانوا بأرض الحبشة، وأنهم قد أصابوا دارًا وقرارًا، قرروا أن يبعثوا منهم رجلين من قريش إلى النجاشى، ليخرج المسلمين من بلاده التى وجدوا فيها الأمن، ويردهم إليهم ليفتنوهم عن دينهم وما ان تسامعت قريش بارتحالهم حتى وجهت رجالها على جناح السرعة ابتغاء صدهم عن سبيلهم. بيد أن المراكب، ويا لخيبة قريش!، كانت قد أقلعت، فتعين على مطارديهم أن يرجعوا بخفى حنين. ولكن هذا لم يزد القرشيين إلا غيظًا. لقد كانوا يحرصون على ان لا يجد الإسلام موطئ قدم فى أيما موطن آخر. فعقدوا العزم، آخر الأمر، على ان يوجهوا إلى النجاشى وفدًا يساله أن لا يسبغ على المسلمين حمايته وأن يسلمهم إلى المكيين. واختير عبدالله بن أبى ربيعة وعمرو بن العاص لهذه السفارة، فمضيا إلى الحبشة ومعهما هدايا نفيسة. فكانت أولى الخطوات التى قاما بها لدن بلوغهما أرض الأحباش أن عمدا إلى التأثير فى مشاعر الطبقة الاكليركية. لقد قالا لهم ان المسلمين ابتدعوا دينا معاديًا للنصرانية

---

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص٨٨ .

(٢) د. محمد رواس قلعه جي - نفس المرجع ص٥٨ .

أيضًا، وعزوا استثارتهـما لأحقاد تلك الطبقة الدينية بإغداق الهدايا الثمـينة على رجالها. وهكذا وفقا إلى إقناع رجال الدين بأن يصطنعوا نفوذهم لدى الملك لتيسير مهـمتهما، ثم اتخذا سبيلهما إلى بلاط النجاشى. شرحا وجهة نظرهما القائلة بوجـوب رد المهاجرين المسلمين إلى قومهم، أولئك المهاجرين الذين زعم السفيران أنهم ابتدعوا دينًا يتعارض مع ديانة العرب التقليدية ومع المسيحية سواء بسواء[1].

لندع أم سلمة بنت أبى أمية بن المغيرة زوج رسول الله ﷺ تحدثنا عن تفصيل ما جرى[2].

قالت أم سلمة: لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا بها خير جار، النجاشى، أمنا على ديننا، وعبدنا الله تعالى لا نؤذى ولا نسمع شيئا نكرهه. فلما بلغ ذلك قـريشًا ائتمروا بينهم أن يبعثوا إلى النجاشى فينا رجلين منهم جلدين، وأن يهـدوا للنجاشى هدايا مما يستطرف من متاع مكة، وكـان من أعجب ما يأتيه منها الأدم. فجمـعوا له أدما كثيرًا، ولم يتركوا من بطارقتـه بطريقا إلا أهدوا له هدية، ثم بعثوا بذلك عبـد الله بن أبى ربيعة، وعمـرو بن العاص، وأمروهما بأمـرهم، وقالوا لهما: ادفـعا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلما النجاشى فيهم، ثم قـدما إلى النجاشى هداياه، أن يسلمهم إليكما قبل أن يكلمهم، فخرجـا حتى قدما على النجاشى ونحن عنده بخير دار، وخيـر جار، فلم يبق من بطارقته بطريق إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلمـا النجاشى، وقالا لكل بطريق منهم: إنه قد لجأ إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا فى دينكم، وجاؤوا بدين مبتدع، لا نعرفه نحن ولا أنتم، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم لنردهم إليـهم، فإذا كلمنا الملك فيهم فأشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا ولا يكلمهم، فـإن قومهم أعلى بهم عينا (أى أبصر به) وأعلم بما عابـوا عليهم. فقالوا لهما: نعم. ثم إنهما قدما هداياهما إلى النجاشى فقبلها منهما، ثم كلماه فقالا له: أيها الملك إنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سـفهاء، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا فى ديـنك، وجاؤوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومـهم من آبائهم وأعمامهم وعشيرتهم لتردهم إليهم، فهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم، وعـاتبوهم فيه. ولم يكن شىء أبغض إلى عبدالله بن أبى ربيعة وعمرو بن العاص من أن يسمع كلامهم النجاشى.

فقـالت بطارقته حـوله: صدقًا أيهـا الملك، قومـهم أعلى بهم عينًا وأعلم بما عـابوا عليهم، فأسلمهم إليهـما فليردوهم إلى بلادهم وقومهم، فغـضب النجاشى ثم قال: لاها الله (أى لا والله)، إذا لا أسلمـهم إليهمـا، ولا يكاد قوم جـاورونى، ونزلوا بلادى واختـارونى على من سـواى، حتى أدعوهم وأسألهم عما يقـول هذان فى أمرهم، فإن كانوا كما يقولان أسلمتـهم إليهما. ورددتهم إلى قومـهم، وإن كانوا على غـير ذلك منعـتهم منهـما وأحسـنت جوارهم ما جـاورونى. ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ فـدعاهم، فلما جاءهم رسوله اجتـمعوا ثم قال بعضهم لبـعض: ما تقولون

---

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص٨٦.

(٢) د. محمد رواس قلعه جي - المرجع السابق ص٥٩.

للرجل إذا جئتموه؟ قالوا: نقول والله ما علمنا، وما أمرنا به نبينا ﷺ كائنًا فى ذلك ما هو كائن، فلما جاؤوا، وقد دعا النجاشى أساقفته فنشروا مصاحفهم حوله، سألهم فقال لهم: ما هذا الدين الذى فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا به فى دينى ولا فى دين أحد من هذه الملل؟.

فكان الذى كلمه جعفر بن أبى طالب، فقال له: أيها الملك، كنا قومًا أهل جاهلية، نعبد الاصنام، ونأكل الميتة، ونأتى الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسىء الجوار، ويأكل القوى منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا، نعرف نسبه وصدقه، وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه، من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام ـ قالت فعدد عليه أمور الإسلام ـ فصدقناه وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئا، وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا، عدا علينا قومنا فعذبونا، وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك، ورغبنا فى جوارك، ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك!. فقال له النجاشى: هل معك مما جاء به عن الله من شىء؟، فقال له جعفر: نعم. فقال له النجاشى: فاقرأه على. فقرأ عليه صدرًا من «كهيعص». قالت: فبكى والله النجاشى حتى اخضلت لحيته. وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم! ثم قال لهم النجاشى: إن هذا والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة! انطلقا. فلا والله ولا أسلمهم إليكما ولا يكادون!

فلما خرجا من عنده قال عمرو بن العاص: والله لآتينه غدًا بما أستأصل به خضراءهم! فقال له عبدالله بن أبى ربيعة ـ وكان أتقى الرجلين فينا ـ : لا تفعل، فإن لهم أرحامًا وإن كانوا قد خالفونا. قال: والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبدًا. ثم غدا عليه من الغد فقال له: أيها الملك، إنهم يقولون فى عيسى ابن مريم قولا عظيمًا، فارسل إليهم فسلهم عما يقولون فيه. فأرسل إليهم ليسألهم عنه. قالت: ولم ينزل بنا مثلها قط. فاجتمع القوم ثم قال بعضهم لبعض: ماذا تقولون فى عيسى بن مريم إذا سألكم عنه؟ قالوا: نقول والله ما قال الله، وما جاء به نبينا، كائنًا فى ذلك ما هو كائن!. فلما دخلوا عليه قال لهم: ماذا تقولون فى عيسى بن مريم؟ فقال جعفر بن أبى طالب: نقول فيه الذى جاءنا به نبينا ﷺ، يقول: هو عبد الله ورسول وروحه وكلمته القاها إلى مريم العذراء البتول. فضرب النجاشى بيده إلى الأرض فأخذ منها عودًا، ثم قال: والله ما عدا عيسى بن مريم مما قلت هذا العود فتناخرت بطارقته حوله حين قال ما قال، فقال: وإن نخرتم والله، اذهبوا فأنتم شيوم بأرضى (أى أنتم أحرار)، من سبكم غرم، من سبكم غرم! ما أحب ان لى دبرًا (الجبل)

من ذهب وإنى آذيت رجلا منكم! ردوا عليهما هداياهما فلا حـاجة لى بها. قالت أم سلمة: فخرجا من عنده مقبوحين، مـردودًا عليهما ما جاءا به، وأقمنا عنده بخير دار مع خـير جار حتى قدمنا على رسول الله ﷺ.

بين أن المراد من هجرة المسلمين من مكة إلى الحبشة[1] قول رسول الله محمد ﷺ لأصحابه لما رأى المشركين يؤذونهم ولا يستطيع أن يكفهم عنهم «إن بالحبـشة ملكا لا يظلم عنده أحد فلو خرجتم إليه حتى يجـعل الله لكم فرجا»[2]. وإذا كان مهـاجرة الحبشـة قد فروا بدينهم إلى الله امتـثالا لأمر رسول الله ﷺ، فإنهم لم يتـوانوا هناك عن شرح مبادئ الإسلام بما تسـمح لهم به ظروفهم مما جعل أهل الحبشة يرسلون وفـدا لرسول الله للتأكد مما يقوله هؤلاء. قال ابن إسـحاق: ثم قدم على رسول الله وهو بمكة عشرون رجلا أو قـريب من ذلك من النصارى حين بلغهم خبره من الحبـشة، فوجدوه فى المسجد، فجلسوا إليه، وكلموه وسألوه، ورجال من قـريش فى أنديتهم حول الكعبة، فلما فرغوا من مسألة رسول الله عما أرادوا دعاهم رسول الله وتلا عليهم القرآن، فلما سمعوه فاضت أعينهم من الدمع، ثم استجابوا له، وآمنوا به وصدقوه وعرفـوا منه ما كان يوصف لهم فى كتابهم من أمر، فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل بن هشام فى نفر من قريش فقال لهم: خيبكم الله من ركب، بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم بخـبر الرجل، فلم تطمئن مجالسكم عنده حـتى فارقتم دينكم وصدقتمـوه بما قال، ما نعلم ركبًا أخرق منكم، فقالوا لـهم: سلام عليكم لا نجاهلكم، لنا ما نحن عليه، ولكم ما أنتم عليه، لم نال من أنفـسنا خيرًا. وجدير بالذكر أن القرشيين اسـتشعروا قلقًا بالغًا بسبب من هجرة المسلمين إلى الحبشة. لقد تعقبوهم بادئ الأمر حتى الثغر الذى أبحروا منه لكى يلقوا القـبض عليهم، حـتى إذا أخفقـوا تبعوهم إلى بلاد النجـاشى. فما الذى هـاج قلقهم إلى هذا الحد؟ أتكون دعاية المسلمـين المناهضة للوثنية هى التى أثارت حفـيظة قريش هذه الاثارة كلها؟ ولكن المهاجـرين كانوا الآن أبعد من أن يؤذوا مشـاعرهم من طريق الطعن على آلهتـهم. والواقع أن العداء الذى أثارته الخلافات الدينية كان قد أمسى الآن شخصيـا. فلم يستطع القرشيون أن يطيقوا التفكير فى إمكان نجاح المسلمين فى ما وراء البحار وهم الذين أخـرجوهم من منازلهم وديارهم. كانوا قد عقدوا العزم على إهلاكهم، ومن أجل ذلك اجتازوا الطريق كلها إلى بلاط النجاشى للإيقاع بهم هناك. ومن أجل هذا السـبب نفسه لم يـدعوا النبى وأصحـابه يرتاحون، حـتى فى المدينة، دار هجرتـهم فى ما بعد[3].

---

(١) صحيح البخاري مع فتح الباري - ٧/ ١٨٦.

(٢) الطبري في تاريخ الأمم - ٢/ ٢٢١ وأخرجهـا عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عـن عروة - المصنف - ٥/ ٣٨٤ - رقم ٩٧٤٣ ونقلها ابن كثير عن الواقدي - البداية والنهاية ٣/ ٦٤.

(٣) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص٩٠.

ولم يكن فى المدينة أيما سلطة تحمى المسلمين من أعدائهم القرشين المتعطشين للدم. وأما ما جرأهم على التفكير بإبادتهم بحد السيف. فإذا بغريزة حفظ الذات تدفع المسلمين إلى الرد على القوة بالقوة دفعا عن أنفسهم. ومن هنا حدثت تلك المعارك التى خاض المسلمون غمارها كتدبير دفاعى محض. إن قريشًا لم تدعهم وشأنهم، حتى بعد أن فصلتهم عن أهلهم وأخرجتهم من ديارهم. وهكذا لم يكن للمسلمين مناص من الدفاع عن أنفسهم ومواجهة مطارديهم على نحو يليق بالرجال. ومع ذلك فهناك نقاد يتعامون عن هذه الحقائق التاريخية الثابتة، فيزعمون أن النبى كان هو البادئ فى شن هذه الحرب، ومن أجل ذلك يصمون الإسلام بأنه دين قام بالسيف والواقع ان أيما شىء لا يمكن ان يكون أبعد من ذلك عن الحقيقة فالأحداث المتصلة بالهجرة إلى الحبشة، تلقى ضوءًا كافيًا على هذه المراقبة الراجحة، وهى أن القرشيين، أيًا ما كانت التعاليم الإسلامية، وسواء أمثلت فى نظرهم هرطقة أم لم تمثل، كانوا مصممين على إبادة الجماعة الإسلامية عن بكرة أبيها، بأى ثمن[1]. علما بأن أهل السير ذكروا أن الهجرة الأولى كانت في شهر رجب من سنة خمس من المبعث[2] وأن أول من هاجر منهم أحد عشر رجلا وأربع نسوة وقيل وامرأتان وأنهم خرجوا مشاة إلى البحر فاستأجروا سفينة بنصف دينار[3].

وحين عاد الوفد القرشى من الحبشة بخفى حنين تخطى غيظهم كل حد. لقد واصلوا اضطهادهم للمسلمين فى اهتياج مضاعف. كانوا حتى ذلك الحين يشهدون صبر المسلمين على هذه المحن القاسية فى دهش عظيم. ولكن الهجرة إلى الحبشة أعطتهم برهانًا قاطعًا على أن المسلمين مستعدون لمختلف ضروب المخاطر، ولتحمل كل لون من الوان التعذيب من أجل عقيدتهم، وعلى انهم لن يحجموا عن خوض غمار المخاطر كلها فى سبيل الله. وفوق هذا، فعندما تسامع سائر المسلمين فى مكة بالرعاية الكريمة التى أسبغها النجاشى على إخوانهم شخص عدد منهم فى العام الذى تلا إلى الحبشة. وتعرف هذه الهجرة بالهجرة الثانية إلى الحبشة. وبذل القرشيون قصارى جهدهم لكبح جماح هذه الهجرة، ولكن على غير طائل. وباستثناء الأطفال علا الحبشة مئة مسلم ومسلمة، رجالا ونساء. ولقد استقروا هناك، جميعًا، ما عدا عثمان وزوجته الذين عادا إلى مكة بعيد ذلك. ولم يلتحق المهاجرون بإخوانهم المسلمين فى المدينة إلا بعد انقضاء سبع سنوات على هجرة الرسول من مكة. فقد نص صلح الحديبية فى العام السادس للهجرة على عقد هدنة بين المسلمين والقرشيين مدتها عشر سنوات، فأتاح ذلك للمسلمين قدرًا من السلامة فى أرض العرب، ويسر للمهاجرين إلى الحبشة سبيل العودة إلى أهلهم وعشيرتهم. وإن فيه كذلك لدليلا على الحقيقة القائلة

---

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص٩١.

(٢) صحيح البخاري مع فتح الباري - ٧/ ١٨٦.

(٣) سيرة ابن إسحاق بتحقيق سهيل - ص١٧٤ - البداية والنهاية ٣/ ٦٤

بأن المسلمين، حتى فى المدينة، لم ينعموا بالأمن حتى السنة السابعة للهجرة، عندما زودهم صلح الحديبية بفترة من الراحة قصير. ولم ينس المسلمون عطف النجاشى عليهم فبادلوه إحسانًا بإحسان، وتفضيل ذلك أن نزاعًا نشب بين النجاشى، خلال إقامتهم فى مملكته، وبين إحدى الدول المعادية، فلم يكن منهم إلا ان وضعوا أنفسهم تحت تصرف جيشه. ليس هذا فحسب، بل لقد دعوا الله ان ينصره على عدوه. وهذا يظهر أى قوم معترفين بالجميل كانوا. إن شعارهم كان، منذ تلك الفترة المبكرة، هو الآية القرآنية التى تقول: ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ ﴿٦٠﴾﴾ [الرحمن]. ومن الأحداث المتصلة بالهجرة الأولى إلى الحبشة حادثة يجمل بنا أن نقف عندها. فبعيد هذه الهجرة بقليل نزلت على الرسول سورة «النجم» السورة ٥٣ التى وردت فى خاتمتها الآية التى تأمر بالسجود لله وكانت هذه أول مرة اصطنع فيها المسلمون «سجدة التلاوة» خلال تلاوة القرآن الكريم، تلك السجدة الشائعة اليوم بين المسلمين. ففيما كان الرسول يتلو هذه السورة سجد حالما انتهى إلى الآية التى تقول: ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ﴿٦٢﴾﴾ [النجم] وتذهب بعض الروايات الموثوقة إلى أن وثنيى المكيين الذى شهدوا مجلس النبى ذلك اليوم شاركوا فى السجود، ذلك بأنهم آمنوا بالله برغم عبادتهم الأوثان(١).

مقاطعة الرسول ومناصريه من قومه: لما رأت قريش أن أصحاب رسول الله ﷺ قد أصابوا أمنا واطمئنانًا فى الحبشة، وأن مساعيهم فى إعادتهم إلى مكة قد فشلت، وأنهم لا يستطيعون إمعان الأذى برسول الله ﷺ بسبب حماية أهله من بنى هاشم وبنى المطلب له، اتفق كافة زعمائها على مقاطعة رسول الله ومن يناصره من بنى هاشم وبنى المطلب لا يبيعوهم ولا يشترون منهم، لا يزوجوهم ولا يتزوجون منهم، وكتبوا بذلك كتابًا فى صحيفة علقوها فى جوف الكعبة، تأكيدا للعزم على الالتزام بها. وكان كاتب الصحيفة منصور بن عكرمة، فدعا عليه رسول الله فشلت بعض أصابعه. ونفذت قريش المقاطعة، والتزمت بما فى الصحيفة، وانضم إلى قريش أبو لهب عم رسول الله ﷺ. واستمرت المقاطعة ثلاث سنوات، أصاب الجهد فيها رسول الله وقومه إذ كان لا يصل إليهم من ضرورات الحياة غير ما يرسله إليهم بعض الأصحاب سرًا. ولكن الناس دائمًا يتعاطفون مع المظلوم حتى ولو كانت مصالحهم تملى عليهم الوقوف فى صف الظالم، فترى أيديهم فى واد وقلوبهم فى واد آخر. كان ذلك فى السنة السابعة للدعوة، وكانت كثرة المسلمين قد وفقت إلى الفرار بأنفسها إلى الحبشة. وكان حمزة وعمر قد اعتنقا الإسلام، وكان أبو طالب قد رفض، صراحة، ان يخذل الرسول نزولا عند مطلب قريش. وباستثناء أبى لهب كان بنو هاشم كلهم قد عقدوا العزم على أن ينصروه ويقاتلوا دفاعًا عنه حتى الرجل الأخير. وفوق هذا، فقد راح نور الإسلام ينتشر من قبيلة إلى قبيلة.

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص٩٣ .

ومن أجل ذلك قرر القرشيون أن يفرضوا حرمانا اجتماعيا على بنى هاشم[1]، فلا يتزوجون منهم ولا يزوجونهم ولا يبيعونهم شيئًا ولا يبتاعون منهم شيئًا، وبذلك قطعت قريش عن بني هاشم كل أنواع المؤن وكانوا لا يخرجون إلا في موسم الحج وبلغ بهم الجهد حدا لا يطاق وكان الناس في مكة يسمعون أصوات صبيانهم الجائعين[2]. وكان ابتداء حصرهم في المحرم سنة سبع من المبعث[3] فأقاموا على ذلك سنتين[4] أو ثلاثا في حين جزم موسى بن عقبة بأنها كانت ثلاث سنين[5].

فلما سمع بنو هاشم بهذا شخصوا إلى موطن منعزل من مكة يعرف بالشعب. ولكن أبا جهل لم يدخر جهدًا للتثبت من تنفيذ المقاطعة تنفيذًا دقيقًا. فحين حاول حكيم ابن حزام، مثلا أن يحمل بعض الزاد إلى خديجة، وكانت من أقربائه الأدنين، اعترضه أبو جهل وصده عن سبيله. ولكن عزم بنى هاشم لم يتزعزع البتة طوال تلك المحنة القاسية. لقد احتملوا ذلك كله فى بشر وابتهاج كُرمة للرسول، وهو شيء ما كان خليقًا بهم أن يفعلوه لو لم يكنوا له احترامًا عميق الجذور. وخلال فترة المقاطعة لم يتعد نشاط الرسول التبشيرى جدران الشعب الأربعة. أما فى موسم الحج، وليس يحل فيه سفك الدم عند العرب، فكان من دأبه أن يمضى إلى الكعبة ويدعو الناس المجتمعين ثمة من كل حدب وصوب إلى الدخول فى دين الله. فكان أبو لهب يتبعة مثل ظله، ويحذر الناس من قبول رسالته. كان يقول لهم ان محمدًا كذاب. وان عليهم أن لا يصدقوه. وهكذا كان الناس ينتهرون الرسول، حيثما مضى لأداء رسالته، متسائلين لم نبذه أهله أنفسهم إذا كان صادقًا فى دعواه؟ وعلى الجملة، فقد كانت هذه الفترة محنة كبرى لبنى هاشم وتعطيل لكل نشاط دعوى. وفى غضون ذلك نشأت بين القرشيين معارضة للبأساء التى فرضت على بنى هاشم. كان أصحاب القلوب الرقيقة من القرشيين قد شعروا بقسوة المقاطعة وفدحها، وما هى إلا فترة حتى شجبها بعضهم صراحة. وهكذا أجمع خمسة منهم أمرهم هشام بن عمرو، وزهير ابن أبى أمية، والمطعم بن عدى، وابو البخترى بن هشام، وزمعة بن الأسود وتعاهدوا على رفع الحرم وتمزيق الصحيفة إربا إربًا. وفى غضون ذلك تجلت علامة من العلامات الإلهية[6].

والضيق الذى أصاب بنى هاشم وبنى المطلب من جراء تلك المقاطعة الظالمة التى فرضها مؤتمر المشركين، والأذى الذى أصاب رسول الله وقومه خلال السنوات الثلاث حرك بعض الضمائر فجعلها تتعاطف مع المظلومين رغم أنها لم تؤمن بما يدعو إليه رسول الله ﷺ.

---

(١) مولانا محمد علي – المرجع السابق ص١٠١ .

(٢) ابن سعد – جـ١ ص٢٠٩.

(٣) فتح الباري – ٧/ ١٩٢.

(٤) نقل الذهبي وابن كثير رواية ابن إسحاق ص١٥٩، البداية والنهاية ٣/ ٨٥.

(٥) رواية موسى بن عقبة عن الزهري أخرجها البيهقي في الدلائل ٢/ ٣١٢ وابن عبد البر في الدرر ص٣٩ والذهبي في السيرة النبوية ص٢٢١.

(٦) مولانا محمد علي – المرجع السابق ص١٠١.

وسارع أولئك الذين استشعروا قسوة المقاطعة وفدحها. فتقلدوا سلاحهم ومشوا مجتمعين إلى باب الشعب وأعلنوا على رؤوس الأشهاد معارضتهم لعهد المقاطعة. ثم انهم أخرجوا المسلمين من الشعب وأرسلوهم إلى بيتهم. فلم يؤانس أيما امرئ فى نفسه الجرأة على إبداء أيما مقاومة، وكانت المقاطعة قد استمرت ثلاث سنوات، وبعيد مغادرة الشعب مباشرة، لحق عم النبى أبوطالب، الذى كان حتى تلك اللحظة دعامته وسناده، بالرفيق الأعلى. صحيح انه لم يعتنق الإسلام، ولكن الرسول الكريم كان يكن له حبًا عميقًا. وهكذا كانت خسارته إياه صدمة قوية له. وقال رسول الله محمد ﷺ: «ما نالت مني قريش شيئًا أكرهه حتى مات أبو طالب»[١]. وعن ابن عباس قال رسول الله محمد ﷺ: «ما اغنيت عن عمك»[٢] عن عمرو بن دينار قال قال النبي ﷺ: «استغفر إبراهيم لأبيه وهو مشرك، فلا أزال أستغفر لأبي طالب حتى ينهاني عنه ربي»[٣]. وقد ثبت أن النبي ﷺ أتى قبر أمه لما اعتمر فاستأذن ربه أن يستغفر لها فنزلت الآية[٤] ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ﴾، ونقل ما أخرجه الحاكم[٥] وابن أبي حاتم[٦] من طريق أيوب بن هانئ عن مسروق عن ابن مسعود قال: «خرج رسول الله محمد ﷺ يوما إلى المقابر فاتبعناه، فجاء حتى جلس إلى قبر منها فناجاه طويلا ثم بكى، فبكينا لبكائه فقال: إن القبر الذي جلست عنده قبر أمي، واستأذنت ربي في الدعاء لها فلم يأذن لي، فأنزل علي: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ... ﴿١١٣﴾﴾ [التوبة][٧]. ولكن المصائب، كما يقولون، نادرًا ما تأتى فرادى. فما هى غير فترة يسيرة حتى توفيت أيضًا السيدة خديجة، زوجته الأمينة وصديقته الأكثر وفاء وإخلاصًا. كانت طوال عهده بها قد خدمته من صميم فؤادها، وكانت أبدًا مصدر سلوان له لا ينضب، فى لحظات الحزن والأسى. ولقد منى بوفاتها بخسارة لا تعوض. وإنما أصيب الرسول بكلتا هاتين الصدمتين فى العام العاشر للدعوة، ذلك العام الذى عرف بسبب من ذلك، فى التاريخ الإسلامى، بـ «عام الحزن» وبفقدان هذين المعزيين والنصيرين الكبيرين تعين على الرسول الكريم أن يواجه مصاعب أدهى وأمر. لقد آذنت وفاتهما باستهلال عهد من البلاء جديد[٨].

عجبًا لتلك الأحداث كيف تنقلب ضد رغبة صانعيها.. ولا عجب.. إنه صنع العزيز الحكيم: ﴿... وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال]. صحيح أن المقاطعة التى فرضتها قريش بتلك الصحيفة الظالمة قد ألحقت أذى كبيرًا برسول الله وبقومه، ولكنها جلبت للدعوة

---

(١) ابن هشام - القسم الأول - ص٤١٦.
(٢) صحيح البخاري مع فتح الباري - ٧/ ١٩٣ - حديث رقم ٣٨٨٣.
(٣) الطبري - جامع البيان - ١١/ ٤١ - ٤٢.
(٤) فتح الباري ٨/ ٥٠٨ - جامع البيان للطبري - ١١/ ٤٢.
(٥) الحاكم المستدرك مع التلخيص - ٢/ ٣٣٦.
(٦) ابي حاتم - تفسير القرآن ٢/ غ رقم ٢٨٤ ورقة ١٠٢ - الدرر المنثور ٤/ ٣٠٢ - ٣٠٣.
(٧) شرح النووي ٧/ ٤٥.
(٨) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص١٠٣ .

خيرًا كثيـرًا، وإن الله ليؤيد هذا الدين بالكافر عن غير قصد منه. فـهى منعت ذوى الأغراض الدنيئة من الانتسـاب لهذا الدين، إذ ليس فيـه مطمع دنيوي لطامع، فلم يقـبل عليه إلا من كوى قلبـه حر الإيمـان فلم يطق صبـرًا على فـراقه، ولو كـان فى فراقـه الأمن والسـلام، وكل دعوة يتـاح لذوى الأغراض الاندساس بين صفوفها فإن مالهـا إلى البوار لا محالة، لأنهم لا يلبثون ان ينحرفوا بها عن اغراضها جـريًا وراء مصالحهم، وتحقـيقًا لأغراضهم، ضاربين بأهدافـها الأرض. وهذا العذاب الذى كان ينال رسول الله وأصحابه المؤمـنين به كان الضمان الأكيد لنظافة المنتسـبين للإسلام. إن كثيرًا من المشركين ـ وهـم الأعداء التقليديون للرسول محمد ﷺ ولدينه عندما رأوا ما أحاط بالرسول وبمن معه من الضيق والشدة فـى الشعب قد انقلبوا إلى صفـه، وأصبحوا من المدافعـين عنه، وهذا ما أدى إلى تمزيق الصحيفة الظالمة، وبذلك وجدت الخلخلة فى صفوف المشركين، فلم تعد كلمتهم واحدة، وظهر لأول مرة من يرفـع صوته معـترضًـا على مضايقـة رسول الله مـحمد ﷺ وأصـحابه وقـومه، وهذا سيستتبع حتمًـا نقاشًا يمتد، ويمتد، حتى يتناول أمر العقيدة، وكل نقاش حـول العقيدة ستخرج منه العقيدة الإسلامـية ظافرة منتصرة ولابد هذه هى النتائج التى تمخضت عنها المقاطعـة، فتأمل. شعرت قريش بضعف مـوقفها بعد أن ظهرت الخلخلة فى صـفوفها، وتعاطف بعض زعمـائها مع رسول الله محمد ﷺ، وهذا نذير شؤم بالنسـبة إليها، لأنها طلائع الفشل، خاصة وأن جـهود هؤلاء المتعاطفين قد أثمرت ما يريدون من إنهاء المقاطعة وتمزيق الصحيفة. خاصة وأن اثنين من كبار رجالاتها وأقواهم وأشدهم شكيمة قـد آمنوا بمحمد وأعلنوا ولاءهم له، هما حمزة بن عـبد المطلب وعمر بن الخطاب. وخاصة أيضًـا أن أمر محمـد قد فشا فى القـبائل كلها، ولم يعد بالإمكان التـحكم بالمارد ومنعه من الانطلاق[1].

ولذلك رأى زعماء قريش أن من الحكمة مهادنة رسول الله محمد ﷺ، فيكف عنهم ويكفون عنه، يعبد ربه بكل حرية، ويعبدون أصنامهم، لا يعيب عبادتهم ولا يعيبون عليه عبادته. مشى القوم إلى أبى طالب ـ وكان مريضًا ـ فكلموه فى الأمر الذى اجـتمعوا عليه وقالوا له: يا أبا طالب إنك منا حيث عـلمت، وقد حضـرك ما ترى من المرض، وتخـوفنا عليك، وقـد علمت الذى بيننا وبين ابن أخيك، فـادعه، فخذ له منـا، وخذ لنا منه، ليكفـ عنا ونكف عنه، وليدعـنا وديننا، وندعه ودينه، فبعث أبوطالب إلى رسـول الله فجاءه، فقال: يـا ابن أخى، هؤلاء أشراف قومك، قد اجتـمعوا لك ليعطوك وليأخذوا منك. فقال رسول الله ﷺ: نعم كلمـة واحدة تعطونيها تملكون بها العرب، وتدين لكم بها العجم. فقال أبوجهل: نعم. وأبيك وعشر كلمات، قال: «تقولون لا إله إلا الله، وتخلعون ما تعبدون من دونه». فصفقوا بأيديهم ثم قالوا: أتريد يا محمد أن تجعل الآلهة إلهًا واحدًا، إن أمرك لعجيب، ثم قال بعضهم لبعض: إنه والله ما هذا الرجل بمـعطيكم شيئا مما تريدون، فانطلقوا وامضوا

(١) د. محمد رواس قلعه جي - المرجع السابق ص٦٥.

على دين آبائكم، حتى يحكم الله بينكم وبينه، ثم تفرقوا[1]، وأنزل الله سبحانه في ذلك: ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ۝١ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۝٣ وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ۝٤ أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝٥ وَانطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ۝٦ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلاَّ اخْتِلاقٌ ۝٧﴾ [ص].

ولكن أبا طالب لم يلبث أن توفى بعد مدة يسيرة، ثم توفيت خديجة زوج رسول الله ﷺ بعده بأيام، واشتد الحزن برسول الله ﷺ. واستطالت الأيدى والألسن عليه بعد ذهاب ناصره وحاميه أبى طالب، ونال المشركون من رسول الله ما لم يكونوا يستطيعونه فى حياة عمه. كان أبوطالب شخصية فذة، استطاعت أن تجمع كلمة بنى هاشم والمطلب وتقف بهم سدًا منيعًا يحمى رسول الله محمد ﷺ من ان يناله المشركون بأذى يذكر، ولكن بعد وفاة أبى طالب تهدم ذلك الحاجز الذى أقامه لحماية رسول الله محمد، وأصبح فى مواجهة مباشرة مع كفار قريش، ولذلك نالوا رسول الله بألوان من العذاب منها:

كان على الرسول الآن ان يواجه، فى أداء رسالته، عقبات أعظم من تلك التى واجهها فى ما مضى. فقد انحسر الآن بعد وفاة أبى طالب وخديجة كل كبح قدر لهما أن يفرضاه على خبث قريش ونزوعها إلى الشر، ذلك بأن أيدى القرشيين أمست منذ اليوم طليقة، فهم يستطيعون أن يخاشنوا الرسول ما شاء لهم حقدهم وضغينتهم. ولكن إيمان الرسول بالنصر المطلق لم يتزعزع، برغم الوضع المظلم، البتة. وفيما كان فى بعض الطريق، ذات يوم، رمى أحد سفهاء قريش على رأسه ترابًا، حتى إذا انقلب إلى داره انشأت ابنته فاطمة تغسل رأسه وتذرف الدمع، فى الوقت نفسه، جزعًا على أبيها الحبيب من هذا البلاء. فواساها الرسول قائلا: «لا تبكى يا بنية، فإن الله مانع أباك!» إلى هذا الحد كان إيمانه بنجاح رسالته النهائى راسخ الجذور، فى وجه هذه المعارضة العنيدة! ولم تراوده فى أيما لحظة فكرة الشخوص، مثل سائر صحابته، إلى الحبشة حيث كان خليقًا به ان يجد مفزعًا آمنًا. ولم يخامره اليأس، لحظة، من اخراج الأرض التى ولد عليها من الظلمات إلى النور[2].

وكان أبو لهب ـ عم رسول الله ـ وامرأته أم جميل بنت حرب بن أمية، أخت أبي سفيان من اشد الناس اذى لرسول الله، فكانت أم جميل تحمل الأشواك وتطرحها في طريق رسول الله، بل وباعت عقدها الثمين لتنفق ثمنه فى أذى رسول الله محمد ﷺ، فأنزل الله تعالى فيها وفى زوجها: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥﴾ [المسد]. ولما سمعت ام جميل ما نزل من القرآن

---

(١) د. محمد رواس قلعه جي - المرجع السابق ص٦٦.

(٢) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص١٠٦.

فيهـا وفى زوجها، أتت رسول الله ﷺ وهو جالس فى المسـجد عند الكعبة ومـعه أبو بكر الصديق، وفى يدها حجر ملء الكف، فلما وقفت عليهـما أخذ الله ببصرها عن رسول الله ﷺ، فلا ترى إلا أبا بكر، فقالت: يا أبا بكر أين صاحبك فقد بلغنى أنه يهـجونى! والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه! ثم انصرفت، فقال أبو بكر: يارسول الله، أما تراها رأتك؟ فقال: مارأتنى، لقد أخذ الله ببصرها عنى. أما أمية بن خلف، كان إذا رأى رسول الله ﷺ همزة ولمزة، فأنزل الله تعالى فيه: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ (١) الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ (٢) يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ (٣) كَلاَّ لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ (٤) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ (٥) نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ (٦) الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ (٧) إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ (٨) فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ (٩)﴾ [الهمزة]. ولقى أبوجهل بن هشـام وسول الله ﷺ فقال له: والله يا مـحمد لتتركن سب آلهتنا أو لنسبن إلهك الذى تعبد! فأنزل الله تعالى فيه: ﴿وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ... (١٠٨)﴾ [الأنعام]. فكف رسول الله ﷺ عن سبب آلهـتهم وجعل يدعوا إلى الله. ولما أنزل الله تعالى قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ (٥١) لآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ (٥٢)﴾ [الواقعة]، قال أبوجهل: يا معشر قريش، هل تدرون ما شجر الزقوم التى يخوفكم بها محمـد؟، قالوا: لا، قال: عجوة يـثرب بالزبد، والله لئن استمسكنـا بها لنتزقمنها - أى لنبـتلعنها - ترقمـًا، فأنزل الله تعـالى قوله: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ (٤٣) طَعَامُ الأَثِيمِ (٤٤) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (٤٥) كَغَلْيِ الْحَمِيمِ (٤٦)﴾ [الدخان]، أى إن شجرة الزقوم ليست كما يقول ذلك الطاغى، وإنما هى شأن آخر[1]. أما الأخنس بن شريق الثقفى فإنه كان من أشراف القوم وممن يستمع منه، فكان يصيب من رسول الله ﷺ ويرد عليه فـأنزل الله تعالى فيه: ﴿وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَّهِينٍ (١٠) هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ (١١) مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ (١٣)﴾ [القلم]. أما الوليد بن المغـيرة فإنه قال: أينزل الوحى على محـمد وأترك، وأنا كبيـر قريش وسيدها! ويتـرك أبو مسعود سيـد ثقيف، ونحن عظيما القريتين (مكة والطائف) فأنزل الله تعالى فيه: ﴿وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٣٢)﴾ [الزخرف]. وكـان أبى بن خلف، وعقبة بن أبى معـيط، متصافيين، حسنا ما بينهما، فكان عـقبة قد جلس إلى رسول الله ﷺ وسمع منه، فـبلغ ذلك أبيًا، فأتى عـقبة فـقال له: ألم يبلغنى أنك جالست مـحمدًا وسـمعت منه، وجهى من وجهك حـرام أن أكلمك، واستغلظ من اليمين، إن أنت جلست إليـه أو سمعت منه، أو لم تأته فتـتفل فى وجهـه! ففعل ذلك عـدو الله عقبـة بن أبى معيط لعنه الله تعـالى ونزلت فيهـما: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً (٢٧) يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً (٢٨) لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً (٢٩)﴾ [الفرقان]. ووضع

---

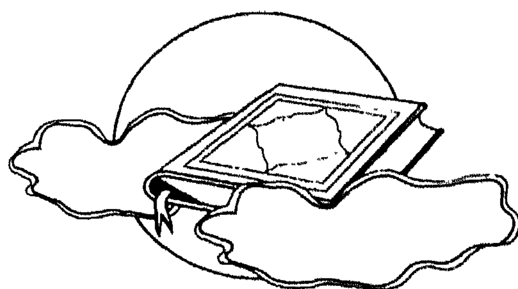
(١) د. محمد رواس قلعه جي - المرجع السابق ص٦٨ .

على رأسه مرة أمعاء جزور وهو ساجد. ومشى أبى بن خلف إلى رسول الله ﷺ بعظم بال قد بلى وتكسر فقال: يا محمد، أنت تزعم أن الله يبعث هذا بعد ما أرم ثم فته فى يده ثم نفخه فى الريح نحو رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: نعم، أنا أقول ذلك، يبعثه الله وإياك بعدما تكونان هكذا، ثم يدخلك الله النار، فأنزل الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [يس]. كان جيران رسول الله ﷺ من المشركين، أبو لهب والحكم بن أبى العاص، كانوا لا يتوانون أن يوقعوا الأذى برسول الله ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا كان أحدهم إذا رآه يصلى طرح عليه ما تصل إليه يده من النجاسات، وإذا ما أوقد نارا تحت قدر ليطبخ ما يأكله طرحوا له فى القدر الأقذار والنجاسات فى داره عليه الصلاة والسلام، وكان كثيرا ما يخرج تلك الأقذار من بيته، فيقف بها على بابه ويقول: يابنى عبد مناف، أى جوار هذا؟! ثم يليقه فى الطريق جانبًا[1].

---

(١) د. محمد رواس قلعه جي - المرجع السابق ص٦٩ .

الفصل الرابع



من الخروج إلى الطائف حتى الهجرة الشريفة إلى المدينة المنورة

الخروج إلى الطائف: لقد ضاقت الدنيا برسول الله ﷺ بعد وفاة أبى طالب وزوجته خديجة، إذ كان للأول فضل دفع الأذى الجسمانى عن رسول الله، وللثانية فضل تطييب نفس رسول الله وتفريج كروبه بما تبذله له من نور الكلام، وما تدخله في قلبه من يقين الطمأنينة، وما تغرسه فى ثنايا إرادته من روح التصميم. فأصحابه قسم منهم هجر الأهل والوطن إلى بلاد الحبشة، والقسم الآخر يناله ما يناله من التنكيل على أيدى عتاة قريش، حتى هو عليه الصلاة والسلام لم يسلم من قاذع الكلام وسيىء التصرفات، لا لشيء إلا لأنهم عبدوا إلها واحدًا وكفروا بما عداه من الآلهة المزيفة. لقد كانت قريش تقبض على السلطة، وكان رسول الله يقبض على الإيمان، وبدا الرسول حتى الآن أنه لا ينفع فى الدنيا إيمان ولا حق ما لم تدعمه السلطة. وفكر رسول الله ﷺ أنه لو استطاع أن يجد الأرض الآمنة التى تمكنه من جمع أصحابه وإقامة السلطة فيها لاستطاع أن يجد للعقيدة المناخ المناسب فى ظل السلطة، وفيه تستطيع أن تنمو وتترعرع. استعرض رسول الله فى مخيلته المناطق التى يمكنه أن يقيم سلطته فيها، فوجد أن الطائف هى أحسن مكان لذلك، لأسباب منها[1]:

إن فى الطائف ثقيفًا وفيها بعض أخواله عليه الصلاة والسلام وهم أقرب لأن يبذلوا له الحماية، ويحيطوه بالرعاية؛ ولأن هناك مصاهرة بين أحد زعماء الطائف وقريش، ومن عادة العرب رعاية هذه الصلة. فظن رسول الله أنه إذا ما خرج إلى الطائف ودعا أهلها إلى الإيمان به ونصرته على أساس الإسلام والقيام معه للوقوف فى وجه من خالفه من قومه، فإن أهلها لن يترددوا فى قبول ما جاءهم به، لأنه الحق، ويجب أن يكون الحق رائد الإنسان، ونصرته مطلبًا من مطالبه. وأيضا الطائف بلد زراعى، كثير الخيرات، ولو قدر الله له أن يحتضن الدعوة الإسلامية ويأوى أهلها، لوجد رسول الله وأصحابه بحبوحة من العيش تساعدهم على نشر الدعوة، وإقامة الدولة التى ستحتاج إلى كثير من المال لتسليح جندها وإقامة مرافقها، وكانت الطائف أصغر من مكة وهي مثلها مركز تجاري له أوثق الصلات بتجارة اليمن وتعمل بالتجارة وبالتعاون مع قريش أحيانا وذات مناخ ألطف من مناخ مكة وكانت مشهودة بخصبها وجودة محصولاتها، وكان بعض ثراة قريش يمتلكون الأراضي فيه ويمضون فيها فصل الصيف[2]. والطائف بلد فى أعالى الجبال، والجبال تؤمن الحماية لمن يأوى إليها بما فيها من التضاريس، ولذلك رأينا الثورات كلها تلجأ إلى الجبال تحتمى بها إلى أن يصلب عودها. والطريق إلى الطائف طريق جبلى أيضا كثير الالتواءات والتضاريس، يؤمن الحماية لسالكه، لأنه يستطيع أن يختفى بسهولة بين تضاريسه، وهذا مفيد لأصحاب رسول الله عندما يريدون الانسحاب من مكة إلى الطائف. والطائف بلد ذو حصون، ولذلك استخدم رسول الله عند حصاره المنجنيقات

(١) د. محمد رواس قلعه جي - المرجع السابق ص٧٠ .
(٢) د. نبيه عاقل - المرجع السابق ص٤١٩ .

لتهديم حصونه، ولو قدر للدولة الإسلامية أن تقام فى الطائف لما استطاع أعداؤها النيل منها، لما فى مدينة الطائف من حصون ولما تمتاز به من موقع استراتيجى دفاعى يجعل من العسير إذلالها وقهرها. لهذه الأسباب توجهت أنظار رسول الله إلى الطائف دون غيرها. فقد كان رسول الله ﷺ على مثل اليقين من ان الجزيرة سوف تدرك، ذات يوم، حقيقة الإسلام. إن عينه استطاعت، برغم ما اكتنفه من ضباب الأحداث الموئسة، أن تلمح شعاع أمل. كان الإيمان بأن أعداءه الألداء سوف يصبحون، ذات يوم، أصدقاءه المتفانين، عميق الجذور فى فؤاده. بيد أن قسوة قلوب المكيين اكرهته على الالتفات نحو الطائف، حيث رجا أن يعيره القوم أذنا واعية. مضى إلى هناك، يصحبه زيد[1]. خرج رسول الله ﷺ إلى الطائف بنفسه ليكلم سادة ثقيف، ولما انتهى إليها، عمد عليه الصلاة والسلام إلى ثلاثة أخوة هم يؤمئذ سادة ثقيف وأشرافها: عبد ياليل بن عمرو بن عمير، ومسعود بن عمرو بن عمير، وحبيب بن عمرو بن عمير، وعند أحدهم امرأة من قريش من بنى جمح، فجلس إليهم رسول الله ﷺ فدعاهم إلى الله وكلمهم بما جاءهم له من نصرته على الإسلام، والقيام معه على من خالفه من قومه، فقال له أحدهم: هو يمزق ثياب الكعبة إن كان الله ارسلك، وقال الآخر: أما وجد الله أحدًا يرسله غيرك! وقال الثالث: والله لا أكلمك أبدًا، لئن كنت رسولا من الله كما تقول! لانت أعظم خطرًا من اذ أرد عليك الكلام، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغى لى أن أكلمك!. فقام رسول الله ﷺ من عندهم، وقد قال لهم: إذا فعلتم ما فعلتم فاكتموا عنى. وكره رسول الله ﷺ أن يبلغ قومه عنه ذلك عنه لئلا تزداد جرأتهم عليه وأذاهم له.

ذكر موسى بن عقبة أنه لما مات أبو طالب توجه النبي ﷺ إلى الطائف رجاء أن يجيبوه فعمد إلى ثلاثة نفر من ثقيف وهم سادتهم وهم أخوة عد ياليل وحبيب ومسعود بن عمرو فعرض عليهم نفسه وشكى إليهم ما انتهك منه قومه فردوا عليه أقبح رد[2]. كما أشار إلى ذلك ابن إسحاق[3].

فلم يفعلوا، ولكن الأخوة الثلاثة أعاروه، ويا لخيبته المريرة، أذنا صماء. ولبث ثمة نحوًا من عشرة أيام بلغ خلالها رسالته أناسًا كثيرين، ولكنهم ردوه، واحدًا بعد آخر، ردًا قبيحًا. لقد سخروا منه، فى كل مكان، قائلين أن عليه، إذا كان صادقًا فى دعواه، أن يقنع عشيرته الأقربين أولا. واخيرًا سألوه أن يفارقهم، حتى إذا غادر البلدة أغروا به سفهاءهم فتبعوه ساخرين صائحين. لقد اصطفوا على الطريق من جانبيها حتى مسافة بعيدة، ورشقوه بالحصى على رجليه. وحين سال الدم منه وعجز عن مواصلة السير، حاول أن يجلس فأقبل عليه أحد السفهاء فرفعه من يده وصاح به:

---

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص١٠٥.

(٢) رواية موسى بن عقبة في «المغازي» عن ابن شهاب أخرجها بتمامها البيهقي - الدلائل: ٢/ ٤١٤ - ٤١٦ وكذلك أخرجها الذهبي في السيرة النبوية ص٢٨٢ - ٢٨٣.

(٣) رواية ابن إسحاق نقلها عنه ابن هشام ١/ ٤١٩ - ٤٢١ وكذلك ابن عبد البر - في الدرر ص٥٠ - ٥١.

«تابع سيرك، فليس لك حق فى الاستراحة هنا» وظل على هذه الحال، حتى اجتاز ثلاثة أميال كاملة، وأمطر بوابل من الحجارة إثر وابل، إلى أن تلطخت نعلاه نفساهما بالدم وأخيرًا، بعد أن تركه معذبوه وشأنه، جلس إلى ظل شجرة فى حديقة التماسا لشيء من الراحة. ورثا لحاله صاحب تلك الجنينة، عتبة ابن ربيعة، برغم أنه كان كافرًا، فبعث له بقطف من عنب الحائط مع مولاه المسيحي عداس. فبسط الرسول يده إلى قطف العنب ونطق بهاتين الكلمتين: «باسم الله»، وهما كلمتان يفترض فى كل مسلم أن يرددهما كلما باشر عملا من الأعمال. ودهش العبد المسيحي لدن سماعه هاتين الكلمتين، وقال: «هذا الكلام لا يقوله أهل هذه البلاد!» فسأله الرسول عن بلده ودينه، فلما علم أنه مسيحي من نينوى قال له: «أمن بلدة الرجل الصالح يونس بن متى؟» فسأله عداس: «وما يدريك ما يونس بن متى؟» فقال الرسول: «ذاك أخى كان نبيًا وأنا نبى» فأكب عداس على محمد يقبل رأسه ويديه وقدميه، وبلغه رسول الله محمد ﷺ رسالة، فشرح الله صدره للحق، على التو. وإذا ألفى الرسول ان البشر يردونه فى كل بقعة، توجه إلى الله العلى القدرة يلتمس منه العون فى غمرة عجزه المطلق ذاك. ولكن صلاته لم تكن تعبيرًا عن مشاعر القنوط والفجيعة، فقد كانت هذه المشاعر غريبة عليه بالكلية. كانْ قلبه أحفل بالإيمان فى العون الآلهى من ان يجأر قائلا: «إلهى! إلهى! لم خذلتنى؟» لا، لقد خاطب الله على النحو التالى[1].

«اللهم إليك أشكو ضعف قوتى، وقلة حيلتى، وهوانى على الناس، يا أرحم الراحمين. انت رب المستضعفين، وأنت ربى. إلى من تكلنى؟ إلى بعيد يتجهمنى، أو إلى عدو ملكته أمرى؟ إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى، ولكن عافيتك أوسع لى. أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه امر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك أو تحل على سخطك. لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك!» الا ليت كان ثمة فى بعض الصدور البشرية قلب رقيق لكى يدرك صفاء الروح التى اطلقت العنان لمشاعر فى مثل هذا السمو كله، وسط ظروف فى مثل هذه القسوة كلها! وهل يتصور العقل أن فى ميسور دجال من الدجالين أن يصدر قلبه عن هذه الأحاسيس النبيلة إلى هذا الحد، وبخاصة حين يعبر عنها بعد معاناة هذا البلاء العظيم مباشرة؟ يا للهدوء الأعجوبى الذى احتمل به كل هذه المشاق التى لا يطيقها أي إنسان على وجه الأرض البتة! أجل، لقد احتمل، بثبات مذهل، جميع تلك المصاعب التى كان خليقًا بها ان تغرى أيما امرئ آخر بالانتحار. أى إيمان راسخ بالله كان إيمانه، وأى اذعان بهيج للمشيئة الإلهية كان اذعانه، وأى سعادة روحية محضة كانت سعادته! إن هذه كلها، كذلك قال، لم تكن شيئًا مذكورًا ما دام يتمتع برضا الله وارتياحه.

---

(١) مولانا محمد علي - نفس المرجع ص١٠٧.

ثم إن رسول الله ﷺ انصرف من الطائف راجعًا إلى مكة حين يئس من خير ثقيف، حتى إذا كان بوادى نخلة قام من جوف الليل يصلى، فمر به سبعة نفر من جن أهل نصيبين فاستمعوا له، فلما فرغ من صلاته ولوا إلى قومهم منذرين، قد آمنوا وأجابوا إلى ما سمعوا، وقد قص الله علينا خبرهم فى القرآن، فقال جل شأنه: ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ (٣٠) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٣١) ﴾ [الأحقاف].

نقل عن البيهقي قوله: حديث ابن عباس حكى ما وقع في أول الأمر عندما علم الجن بحالة رسول الله محمد ﷺ وفي ذلك الوقت لم يقرأ عليهم القرآن كما حكاه عبد الله بن مسعود[١]، كما أوضح الحافظ أن البيهقي بهذا أشار إلى ما أخرجه أحمد والحاكم[٢] من طريق زر بن حبيش عن عبد الله بن مسعود «هبطوا على النبي ﷺ وهو يقرأ القرآن ببطن نخل، فلما سمعوه قالوا: أنصتوا، وكانوا سبعة أحدهم زوبعة»[٣] وهذا يوافق حديث ابن عباس.

لقد كان إيمان الجن برسول الله بعد أن ناله ما ناله على أيدى ثقيف تسلية أنسته آلامه، وكان تأكيدا جديدًا لرسول الله بأن الله تعالى لن يتركه، بل هو معه دائما، يجعل له من الأحزان ضياءًا، وس الآلام عزاء. فإيمان الجن تأكيد جديد لرسول الله بأن أهل الأرض إن تخلوا عنه وآذوه ففى العوالم الأخرى من الجن والملائكة ما يشد أزره وينصره ويدعو بدعوته. وإيمان الجن أيضا أمل جديد لرسول الله فى تحول طائفة من العتاه الكافرين إلى الإيمان بالله وبرسوله، كما تحول الجن ـ وهم فى أصلهم من شرار خلق الله، من نسل إبليس اللعين ـ إلى مؤمنين، بل إلى دعاة لهذا الدين الجديد الذى يدعو إليه رسول الله. وسار رسول الله أدراجه إلى مكة حتى وصل إلى حراء، المكان الذى وجد فيه الإشراق الروحى أول ما وجد، ونزلت عليه منه أول آيات القرآن الكريم، وأخذ يفكر، كيف يدخل مكة؟ إن زبانيتها له بالمرصاد بعد أن علموا بنشاطه الجديد، وفشله الجديد، ولذلك رأى أنه لا يستطيع أن يدخل مكة دون أن يبذل له الحماية بعض أولى الشوكة فيها. فبعث إلى الأخنس بن شريق ليجيره، فقال له معتذرًا: أنا حليف، والحليف لا يجير، فبعث إلى سهيل بن عمرو، فقال له معتذرًا: إن بنى عامر لا تجير على بنى كعب، فبعث إلى المطعم بن عدى، فأجابه إلى ذلك، ثم تسلح المطعم وأهل بيته وخرجوا حتى أتوا المسجد، ثم بعث لرسول الله: أن ادخل، فدخل رسول الله فطاف بالكعبة وصلى عندها، ثم انصرف إلى منزله لا يجرؤ أحد أن ينال منه[٤].

---

(١) البيهقي – الدلائل: ٢/ ٢٧٧ وزاد بعد قوله كما حكاه عبد الله مسعود ورأى آثارهم وآثار نيرانهم.
(٢) الحاكم – المستدرك مع التلخيص ٢/ ٤٥٦ – جامع البيان ٢٦/ ٣١.
(٣) فتح الباري – ٧/ ١٩١.
(٤) د. محمد رواس قلعه جي – المرجع السابق ص٧٤ .

وما هى غير أيام قليلة حتى انقلب إلى مكة بعد أن تعهد المطعم ابن عدى بأن يمنعه من عدوه. وهناك ارتقب أن يرشده الوحى الإلهى إلى السبيل التى يحسن به أن يسلكها: أيهاجر من مكة أم يقيم فيها؟ حتى إذا دخل الناس فى موسم الحج، عرض نفسه على كل قبيلة من القبائل التى تقاطرت إلى هناك من أقطار بلاد العرب جميعًا، يدعوها إلى الحق، ويخبرها انه نبى مرسل ويسألها أن تصدقه ولكنه كان كلما خاطب جماعة منهم، شارحًا لها المبادئ الإسلامية تبعه أبولهب، سائلا الناس ان لا يصدقوه، لأنه مبتدع يريد الاطاحة بسلطان «اللات» و«العزى» الروحى. وهكذا لم يوفق إلى اثاره اهتمام القوم إلا قليلا. وردته بعض القبائل ردًا قبيحًا ولكنه لم ييأس. وعبرت إحدى القبائل عن إعجابها بتعاليمه، ولكنها اعتذرت بعجزها عن التنكر لدين آبائها دفعة واحدة. وتساءلت قبيلة اخرى بنو عامر هل سيكون لهم فى حال انتصاره نصيب فى الملك الذى سيتم له إذا ما أيدته ودخلت فى دينه، فأجابهم الرسول بقوله ان الله يؤتى الملك من يشاء فولوا عنه وجوههم وردوه كما رده غيرهم. وهذه الحادثة، برغم تفاهتها، تغنى عن مجلدات تؤلف فى نزاهة النبى واخلاصه، فلو كان السلطان الشخصى هو هدفه، كما زعم الزاعمون فى كثيرمن الأحيان، اذن فما الذى كان يمنعه من اكتساب قبيلة برمتها بمجرد إعطائها وعدًا بتحقيق ما طلبت؟ ولكن الواقع هو أن الفوز بالسلطة الزمنية لم يكن فى أيما يوم هدف جهوده. كان قلبه يتفطر فى جوانحه أسى على تفسخ البشرية وانحطاطها. وكان السمو بالإنسان فى مراقى انسانيته هو هدف حياته الأوحد. وكان يتطلع فى لهفة إلى العون الإلهى، وهو عون لم يشك الرسول لحظة فى انه آت لا محالة، أما متى سيتم ذلك فهذا ما لم يستطع تحديده[١].

الإسراء والمعراج معجزتان: بعد أن أصاب رسول الله ما أصابه من الأذى الجسدى بعد وفاة عمه أبى طالب الذى كان يدفع عنه الكثير من الأذى بما له من مكانة وشرف فى مكة، وبعد أن أصابه ما أصابه من التعب النفسى بعد وفاة زوجه خديجة التى كانت البلسم الذى يداوى الجراح التى يصيبها المشركون من رسول الله، وبعد ما أصابه من خيبة الأمل بعد خروجه إلى الطائف، أراد الله أن يكرمه بهذه الرحلة المباركة ـ رحلة الإسراء والمعراج ـ وكأن الله عز وجل يقول له: يا محمد إن ضاقت بك الأرض فقد اتسعت لك السماء، وإن عاداك أهل الأرض، فإن أهل السماء يرحبون بك، وإن أهانك أهل الأرض، فإن مكانك عند الله عظيم. وإن الذى علينا أن نذكره دائما ولا ننساه هو أن حادثة الإسراء والمعراج معجزة وقعت لرسول الله ﷺ. وعندما نقول «معجزة» فإنما نعنى بذلك تعطل القوانين الكونية، وعندها تحترق كل الأسئلة والاستفسارات: كيف استطاع رسول الله أن يقطع تلك المسافة الشاسعة بين مكة وبيت المقدس فى دقائق؟ وكيف احتمل جسمه الشريف تلك الحرارة الهائلة المتولدة من احتكاك جسمه بالهواء؟! وكيف استطاع التخلص من الجاذبية الأرضية والعروج إلى السماء

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص١٠٨ .

بلاواسطة؟ وكيف عـاش بلا هواء بعد تجاوزه الغـلاف الهوائى المحيط بالأرض؟! كـيف. . وكيف. . وألف كيف. . ورسول الله قطع هذه الرحلة بلا أجهزة واقية، ولا معدات مساعدة، لأن هذه الأسئلة كلها ترد أن الأمر قد تم على سنن القوانين الكونيـة. . أما إنه قد تم خارج أطر هذه القوانين، بقدرة القادر على كل شيء، فإن هذه الأسئلة كلها لا تلبث أن تذوب فى غمرة الإيمان بالله القادر على كل شيء. وطالما أن المعجزة خروج على القانون الكونى وتعطيل له، فإن هذا لا يتأتى لنبى ولا لغيره من المخلوقات، وإنما هو لمن وضع تلك القـوانين جل شأنه، فالنبى لا يصنع المعجـزات ولكن الله تعالى هو الذى يجريها على يديه، وشـتان ما بينهما. وقـد بين الله تعالى هذه الحقيقـة فى كتابه الكريم فى الحوار الذي سـجله القرآن الكريم بين المشـركين من جهـة، ورسل الله تعالى من جـهة أخرى فـقال المشركون للرسل: ﴿ ... إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (١٠) ﴾ [إبراهيم]، أى معجزة ظاهرة، فأجابهم رسل الله تعالى: ﴿ ... إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ ... (١١) ﴾ [إبراهيم]. وبذلك نقر نهائيا أن المعجزة ليست من صنع الرسل، ولكنها من صنع الله تعالى[1].

عن ابن شهـاب قال: قال أنس بن مـالك: «كان أبو ذر رضي الله عنه يحـدث أن رسول الله محمد ﷺ قال: فرج عن سقف بيتي»[2] وقد أشار إلى أن شرحه قد ورد في «أوائل[3] الصلاة»[4].

أنواع المعجزات:

ونحن لو استقـرأنا المعجزات التى أجراها الله تعالى على أيدى رسله الكرام لأمكننا تصنـيفها إلى صنفين: الأول: المعجزات المادية: وهى المعجزات المرئية أو الملموسة كانشقاق القمر ونبع الماء من بين أصابع الرسـول عليه الصلاة والسلام ورده العـين المقلوعة سليمـة، ونحو ذلك. وهذا النوع من المعجزات يحدث ثم ينقضى، فلا تتجاوز آثاره الزمن الذى حدثت فيه، ولا تبقى بقاء الأيام. الثانى: المعجـزات المعنوية: وهى المعجزات التى لا ترى بالعـين الباصرة، ولكن بالعين الواعـية، ولا تلمس باليد، ولكنها تلمس بالفكر والـقلب والوجدان. ويأتى القرآن الكريم فى قمة المعجـزات المعنوية فهو أعظمها أثرًا وهو المعجزة الباقية لرسول الله ﷺ، ثم يليه معجزة الإسراء والمعراج التى أخبر بها رسول الله ﷺ، وقد كان لهـاتين المعجزتين أثر كـبير فى رسم المنهاج الجـديد للحياة الإنسانيـة المقبلة. كل معجزة تحدث لـنبى لابد وأن يكون لها هدفان، هدف عام وهدف خاص أما الهدف العـام: فهو إقامة الدليل على أن الرسول الذى أظهرت على يديه المعجزة صادق فيما يدعيه، ويدعو إليه، وبذلك تكون المعجزة قـائمة مقام قـول الله تعالى: صدق عبـدى فى كل ما يبلغ عنى. وأما الهـدف الخاص: فإنه

---

(١) د. محمد رواس قلعه جي - المرجع السابق ص٧٧.

(٢) الحديث أخرجه البخاري في باب إدريس عليس السلام صحيح البخاري مع فتح الباري ٦/ ٣٧٤ - ٣٧٥ حديث رقم ٣٣٤٢.

(٣) فتح الباري ١/ ٤٥٩ - ٤٦٤ شرح حديث رقم ٣٤٩٠ باب كيف فرضت الصلوات في الإسراء.

(٤) فتح الباري ٦/ ٣٧٥

يتمثل فى الأثر الذى تتركه هذه المعجزة، وبقدر ما يعظم الأثر، بقدر ما تعظم تلك المعجزة. إن أعظم المعجزات أثرا هى القرآن الكريم، ثم تتلوه معجزة الإسراء والمعراج، فترتيب الإسراء والمعراج بين المعجزات هو الثانى بعد القرآن الكريم ونستطيع أن نجزم بأن حادثه الإسراء والمعراج هى حادثة مبرمجة، أعنى أنها داخلة ضمن برنامج خاص أحكمه الله تعالى، وجعل له دلالته، ويكشف هذا البرنامج وهذه الدلالات من درس بإمعان سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام. فكيف حدثت معجزة الإسراء والمعراج، وما هى دلالاتها وأبعادها: فى ليلة من الليالى المشرقة بالأنوار الإلهية، وبينما كان الرسول الله متوسدا فراشة بين النائم واليقظان أتى جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ بالبراق، وهى الدابة التى كان يحمل عليها الأنبياء قبله، تضع حافرها فى منتهى طرفها، فحمل عليها، ثم خرج به صاحبه، يرى الآيات فيما بين السماء والأرض، حتى انتهى إلى بيت المقدس، فوجد فيه إبراهيم الخليل، وموسى، وعيسى، فى نفر من الأنبياء قد جمعوا له. فأمهم رسول الله فصلى بهم. ثم أتى بإناءين إناء فيه لبن، وإناء فيه خمر، فأخذ رسول الله ﷺ إناء اللبن فشرب منه وترك إناء الخمر، فقال له جبريل عليه السلام: هديت للفطرة وهديت أمتك يا محمد[1]. أوضح أن المراد في ليلة الإسراء قال البخاري إلى أن المعراج كان في ليلة الإسراء[2]. وكانا في ليلة واحدة في يقظة رسول الله محمد ﷺ وهذا هو المشهور عند الجمهور[3].

يروى لنا الصحابى الجليل أبو سعيد الخدرى قصة معجزة المعراج كما سمعها من رسول الله فيقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لما فرغت مما كان فى بيت المقدس اتى بالمعراج ولم أر شيئا قط أحسن منه، وهو الذى يمد إليه ميتكم عينيه إذا خضر، فأصعدنى صاحبى فيه حتى انتهى بى إلى باب من أبواب السماء يقال له باب الحفظة، عليه ملك من الملائكة يقال له إسماعيل، تحت يديه اثنا عشر الف ملك، تحت يدى كل ملك منهم اثنا عشر ألف ملك» يقول رسول الله ﷺ حيث حدث بهذا الحديث: ﴿ ... وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ ... ﴿٣١﴾ ﴾ [المدثر]. فلما دخل بى قال: من هذا يا جبريل؟ قال: هذا محمد. قال: أو قد بعث؟ قال: نعم. قال: فدعا لى بخير وقال. ولما دخلت السماء الدنيا رأيت بها رجلا جالسا تعرض عليه أرواح بنى آدم، فيقول لبعضها إذا عرضت عليه خيراً ويسر به، ويقول: روح طيبة خرجت من جسد طيب. ويقول لبعضها إذا عرضت عليه: أف، ويعبس بوجهه ويقول: روح خبيثة خرجت من جسد خبيث. قلت: من هذا يا جبريل؟ قال: هذا أبوك آدم تعرض عليه أرواح ذريته فإذا مرت به روح المؤمن منهم سر بها وقال: روح طيبة خرجت من جسد طيب! وإذا مرت به روح الكافر منهم أفف منها وكرهها وساءه ذلك، وقال: روح خبيثة خرجت من

(١) د. محمد رواس قلعه جي - المرجع السابق ص٧٨.
(٢) صحيح البخاري مع فتح الباري: ١/ ٤٥٨.
(٣) فتح الباري: ١/ ٤٥٩ - ٤٦٠.

جسد خبيث! ثم رأيت رجالا لهم مشافر كمشافر الإبل، فى أيديهم قطع من نار كالأفهار (حجر مقدار الكف)، يقذفونها فى أفواهم فتخرج من أدبارهم. فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء أكلة أموال اليتامى ظلما. ثم رأيت رجالا لهم بطون لم أر مثلها قط، بسبيل آل فرعون يمرون عليهم كالإبل المهيومة (العطاش) حين يعرضون على النار، يطأونهم لا يقدرون على أن يتحولوا من مكانهم ذلك. قلت. من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء أكلة الربا. ثم رأيت رجالا بين أيديهم لحم سمين طيب، إلى جنبه لحم غث منتن (الضعيف)، يأكلون من الغث المنتن ويتركون السمين الطيب. قلت: من هؤلاء يا جبريل؟

قال: هؤلاء الذين يتركون ما أحل الله لهم من النساء، ويذهبون إلى ما حرم الله عليهم منهن. ثم رأيت نساء معلقات بثديهن، فقلت من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء اللاتى أدخلن على الرجل من ليس من أولادهم. ثم أصعدنى إلى السماء الثانية فإذا فيها ابنا الخالة: عيسى بن مريم، ويحيى بن زكريا. ثم أصعدنى إلى السماء الثالثة، فإذا فيها رجل صورته كصورة القمر ليلة البدر، قلت: من هذا يا جبريل؟ قال هذا أخوك يوسف بن يعقوب. ثم أصعدنى إلى السماء الخامسة، فإذا فيها كهل أبيض الرأس واللحية، عظيم العثنون (اللحية)، لم أر كهلا أجمل منه، قلت: من هذا يا جبريل؟ قال هذا المحبب قومه هارون بن عمران. ثم أصعدنى إلى السماء السادسة، فإذا فيها رجل آدم طويل أقنى، كأنه من رجال شنوءة، فقلت له: من هذا يا جبريل؟ قال هذا أخوك موسى بن عمران. ثم أصعدنى إلى السماء السابعة، فإذا فيها كهل جالس على كرسى إلى باب البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، لا يرجعون فيه إلى يوم القيامة، لم أر رجلا أشبه بصاحبكم ولا صاحبكم أشبه به منه. قلت: من هذا يا جبريل؟ قال: هذا أبوك إبراهيم».

أقول: ثم دخل رسول الله سدرة المنتهى، وإذا ورقها كآذان الفيلة، وإذا ثمرها كالقلال، وفرض فيها على رسول الله وعلى أمته الصلاة، خمسين صلاة فى اليوم والليلة بعد أن كان ركعتين فى الصباح وركعتين فى المساء، كما كان يفعل سيدنا إبراهيم عليه السلام.

يقول عليه الصلاة والسلام: «ثم دخل بى الجنة فرأيت فيها جارية لعساء (التي يضرب لون شفتها إلى السواد قليلا) فسألتها: لمن أنت؟ وقد أعجبتنى ورأيتها، فقالت: لزيد بن حارثة». فبشر بها رسول الله ﷺ زيد بن حارثة. قال رسول الله ﷺ: «فأقبلت راجعًا، فلما مررت بموسى بن عمران، ونعم الصاحب كان لكم، سألنى كم فرض عليك من الصلاة؟ فقلت: خمسين صلاة كل يوم، فقال ان الصلاة ثقيلة، وإن أمتك ضعيفة، فارجع إلى ربك فاسأله أن يخفف عنك وعن أمتك، فرجعت فسألت ربى أن يخفف عنى وعن أمتى، فوضع عنى عشرًا، ثم انصرفت فمررت على موسى فقال لى مثل ذلك، فرجعت، فسألت ربى فوضع عنى عشرًا، ثم انصرفت، فمررت على موسى فقال مثل ذلك، فرجعت فسألته، فوضع عنى عشرًا، ثم لم يزل يقول لى مثل ذلك، كلما رجعت

إليه قال: فأرجع فاسأل، حتى انتهيت إلى أن وضع ذلك عنى إلا خمس صلوات فى كل يوم وليلة، ثم رجعت إلى موسى، فقال لى مثل ذلك، فقلت: قد رجعت ربى وسألته حتى استحييت منه، فما أنا بفاعل. فمن أداهن منكم إيمانًا واحتسابًا لهن، كان له أجر خمسين صلاة مكتوبة». وقد فرض الله الصلاة فى السماء ليدل على أهميتها التى لا تدانيها أهمية، شرعت فى السماء لتكون معراجًا يرقى بالناس كلما تدنت بهم شهوات النفوس، وليسمو بنفوسهم كل يوم خمس مرات.

وقد فرضت الصلاة في المعراج[1] وهنا تكمن أهمية الصلاة لأنها فرضت من الله سبحانه وتعالى، وقال ابن حجر: والحكمة في وقوع فرض الصلاة ليلة المعراج أنه لما قدس ظاهرا وباطنا حين غسل بماء زمزم بالإيمان والحكمة، ومن شأن الصلاة أن يتقدمها الطهور ناسب ذلك أن تفرض الصلاة في تلك الحالة وليظهر شرفه محمد ﷺ في الملأ الأعلى، ويصلي بمن سلفه من الأنبياء وبالملائكة، وليناجي ربه، ومن ثم كان المصلي يناجي ربه جلّ وعلا[2]. وقال ابن عباس: «يأمرنا النبي ﷺ بالصلاة والصدق والعفاف...»[3].

وهنا ثلاث نقاط يجدر بنا الوقوف عليها لأن لها مدلولاتها السياسية والاجتماعية والروحية البعيدة المدى، النقطة الأولى: الإسراء إلى بيت المقدس بالذات والصلاة فيه، والنقطة الثانى: صلاة رسول الله ﷺ بالأنبياء إمامًا، واقتداء الأنبياء به، والنقطة الثالثة: اختياره ﷺ كأس اللبن دون كأس الخمر، وقول جبريل له: هديت للفطرة وهديت أمتك. هذه النقاط الثلاث بالذات[4]:

إن قيادة العالم حتى حدوث معجزة الإسراء والمعراج كانت بيد بنى إسرائيل، لأن البقية الباقية من الأديان السماوية، وهى اليهودية والمسيحية، هى ديانات إسرائيلية، ولكن الناس الذين حملوا هذه الديانات لم يعودوا أهلا للقيادة، لعبثهم بالمبادئ، وبيعهم إياها بأبخس الأثمان، حيث حرفوا الأديان، وشوهوا معالمها، فلا المبادئ بقيت صالحة لقيادة العالم، ولا حاملو المبادئ بأهل لهذه القيادة، لذلك كان لابد من انتزاع عصا القيادة من أيديهم وتسليمها لقوم آخرين يختارهم الله تعالى لحمل الأمانة. وكانت هذه النقطة ـ نقطة الاتفاق على المبادىء الحاكمة، ونوعية الرجال الحاكمين، لابد من الاتفاق عليها، وإرساء قواعدها قبل البدء بتأسيس الدولة الإسلامية التى وضع رسول الله ﷺ حجر الأساس فيها بعد الهجرة إلى المدينة المنورة. ونحن نعلم أن إحكام بناء الدولة لا يمكن ان يتم إلا بتوفر أمرين اثنين:

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي: ٢/ ٢٠٩ – ٢١٥ باب الإسراء برسول الله ﷺ وفرض الصلوات، صحيح البخاري مع فتح الباري: ١/ ٤٥٨ رقم ٣٤٩ باب كيف فرضت الصلاة وفي ما جاء في زمزم.

(٢) فتح الباري ١/ ٤٦٠، فتح الباري ٧/ ١٩٦ – ٢٠١ باب حديث الإسراء.

(٣) أخرجه البخاري في باب كيف فرضت الصلوات في الإسراء مع فتح الباري: ١/ ٤٥٨.

(٤) د. محمد رواس قلعه جي – المرجع السابق ص٨٠ .

الأمر الأول: المبادئ والنظم المحكمة المتمشية مع الفطرة البشرية، لأن المحكوم بها لا يشعر بأنه مقهور بها، بل موجه لما فيه خيره وسعادته. والأمر الثاني: الأيدى النظيفة الأمينة المخلصة التى تتولى تطبيق هذه النظم.

ومن هنا كان اختيار رسول الله ﷺ لقدح اللبن الذى يمثل الفطرة، وقول جبريل عليه السلام له هديت للفطرة وهديت أمتك، إن ذلك يعنى: أن النظم التى ستنزل عليك لتقيم دولة الإسلام على أساسها، وتحكم بها بين الناس أنت وأمتك من بعدك هى الفطرة التى لا يجد الناس حرجا بالأخذ بها، والفطرة قد ينحرف بها صاحبها، ولكنها تبقى دائمًا لا تتبدل وهذه النظم التى ستنزل عليك يا محمد باقية بقاء الفطرة، والفطرة باقية ما بقى الإنسان، فهى باقية ما بقى الإنسان.

وتقدم رسول الله وصلاته بالأنبياء إمامًا، وإقرار الأنبياء له على ذلك واقتداؤهم به، وهو تحول سياسى جذرى، نزعت به القيادة من أيدى بنى إسرائيل، وأسلمت إلى الأمة المحمدية وأبطل به العمل بقيم محرفة مهترئة، لتحل محلها قيم أخرى جديدة عادلة فطرية، تلك هى «القيم الإسلامية». وهذا التحول هو تحول مشروع باركه ممثلو الأمم وعقلاؤهم المعصومون، وهم الأنبياء، ولهذا فإن كل اعتراض عليه يعتبر اعتراضا غير مشروع، وكل مقاومة له تعتبر مقاومة مردودة، تريد ان تنصر الباطل وتطفئ الحق، وهى خروج على القانون، ومقاومة هذا شأنها لا بد وأن تنال ما تستحق من القمع. كانت هذه هى الأرضية الفلسفية السياسية التى أعطت الدولة الإسلامية التى أقامها رسول الله فى المدينة المنورة الحق فى قمع وتصفية جميع حركات المقاومة التى ظهرت فى وجه الدولة الإسلامية وفى وجه انتشار مبادئها التى قامت من أجلها، وأخص منها بالذكر المقاومة اليهودية فى المدينة المنورة وما حولها، فقد وضع رسول الله ﷺ برنامجا دقيقًا لتصفيتها، وبدأ بتنفيذ هذا المخطط من العام الثالث للهجرة. وإن الإسراء برسول الله إلى بيت المقدس خاصة وصلاته فيه إمامًا بالأنبياء، وعروجه منه إلى السموات يعنى أن بيت المقدس جزء من أراضى الدولة الإسلامية المرتقبة، لأن صاحب البيت هو صاحب الحق بالإمامة فى الصلاة، فتقدم رسول الله إماما بالصلاة فى بيت المقدس دليل على أنه هو صاحب البيت دون غيره، وأن اقتداء الأنبياء به فى الصلاة يدل على إقرارهم بأن بيت المقدس بقعة من جملة البقاع الإسلامية التى ترفرف عليها أعلام الشريعة الإسلامية[1].

عن ابن مالك قال رسول الله محمد ﷺ: «ثم دخلت بيت المقدس، فجمع لي الأنبياء، فقدمني جبريل حتى أممتهم»[2]. وفي الحديث عن الحاكم: «إنه صلى ببيت المقدس مع الملائكة وأنه

(١) د. محمد رواس قلعه جي - المرجع السابق ص٨١.

(٢) رواية يزيد بن أبي مالك - النسائي - سننه بشرح السيوطي ١/ ٢٢٢ ونقلها ابن كثير في التفسير: ٣/ ٦.

أُتي هناك بأرواح الأنبياء فأثنوا على الله، وفيه قول إبراهيم «لقد فَضلكم محمد»[1] وعن أنس «ثم بعث له آدم فمن دونه فأمّهم تلك الليلة»[2].

إن صلاة رسول الله بالأنبياء على اختلاف قومياتهم وألوانهم يعنى أن الدولة الإسلامية تظل بمبادئها جميع المؤمنين، فلا تفرق بين أسود وأبيض، ولا بين عربى وأعجمى.. تذوب القوميات كلها فى بوتقة الإيمان ثم تسكب فى قوالب الامتثال لشريعة الله عز وجل وان فرصة التفوق والتسامى متاحة فى هذه الدولة للجميع على قدر متساو، وإن أبواب الدولة مفتحة للرتقاء بمن يظهرون التفوق، كإتاحة الفرصة أمام جميع المصلين على قدر متساو للتسامى، وإن أبواب السماء مفتحة لاستقبال أعمال المتسامين. وبذلك تكون معجزة الإسراء قد وضعت أساسا جديدًا لبناء المجتمع الجديد المزمع إنشاؤه فى ظل مبادئ الإسلام ودولته. لابد لنا من أن نذكر أن معجزة الإسراء والمعراج قد حدثت على أعقاب سلسلة من المآسى حلت برسول الله محمد ﷺ، منها موت عمه أبى طالب الذى كان يذب عنه أذى قريش، وموت زوجته خديجة التى كانت تزيد فيه روح التصميم قوة ومضاء، واشتداد أذى قريش ومن معهما عليه، حتى سمى بذلك العام بـ «عام الحزن» فأراد الله تعالى أن يسلى رسوله فكانت هذه الرحلة المباركة التى صلى فيها رسول الله بالأنبياء إمامًا فى بيت المقدس، وكأن الله تعالى يقول لنبيه وحبيبه: يا محمد إن المستقبل لك ولأمتك بعدك، حتى إن حدود دولتك لتتجاوز بيت المقدس، وحتى إن ميراث الأديان السابقة ليكون فى كنفها[3].

وكأن رسل الله يقولون له وهم يصلون خلفه: امض إلى ربك ونحن معك، وكأن ملائكة الله فى السماء تقول له وهو يعرج فيها: إن ضاقت بك الأرض فالسماء قد فتحت صدرها إليك، ولئن آذاك جهلة وطغاة أهل الأرض فأهل السماء يقفون فى استقبالك. كل هذا جعل روحًا جديدة تسرى فى رسول الله وفى المؤمنين، فما إن عاد رسول الله من رحلته المباركة تلك جعل يعرض الإسلام على القبائل الوافدة إلى الحج بكل همة ونشاط.

وما أن عاد رسول الله من رحلته المباركة إلى بيته فى مكة حتى أوى إلى فراشه ثم لم يلبث أن غدا على قريش فأخبرهم الخبر فقال أكثر الناس: هذا والله الكذب البين! والله إن القافلة لتسير شهراً من مكة إى الشاة مدبرة، وشهرًا مقبلة، أفيذهب ذلك محمد فى ليلة واحدة ويرجع إلى مكة! وارتد كثير من ضعفة الإيمان ممن كان قد أسلم، وآمن بذلك وصدق كثير. وكان ممن آمن وصدق أبوبكر الصديق رضى الله عنه، فقد ذهب الناس إليه فقالوا له: هل لك يا أبابكر فى صاحبك، يزعم أنه قد

(١) الحديث اورده الهيثمي في مجمع الزوائد: ١/ ٧٢ - ٧٧ والطبري في جامع البيان: ١٥/ ٨ والبيهقي في الدلائل: ٢/ ٤٠٠ - ٤١٠ نقلا عن أبي عبد الله الحافظ (الحاكم) وابن كثير في تفسيره مطولا: ٣/ ٧١.

(٢) رواية عبد الرحمن بن هاشم عن انس اخرجها الطبري في جامع البيان: ١٥/ ٦ وكذلك اخرجها البيهقي في الدلائل: ٢/ ٣٦٢.

(٣) د. محمد رواس قلعه جي - المرجع السابق ص٨١.

جـاء هذه الليلة بيت المقدس وصـلى فيـه ورجع إلى مكة! فقـال لهم أبوبكر: إنكم تكذبون عليـه؟ فقالوا: بلى. ها هو ذاك فى المسجد يحدث به الناس. فـقال أبو بكر: والله لئن كان قاله لقد صدق، فما يعجبكم من ذلك! فوالله إنه ليخبرنى أن الخبر ليأتيه من الله من السماء إلى الأرض فى ساعة من ليل أونها فأصدقه! فهذا أبعد مما تعجبون منه[1].

ثم أقبل حـتى انتهى إلى رسول الله ﷺ فـقال: يا نبى الله، أحدثت هؤلاء القـوم أنك جئت بيت المقدس هذه الليلة؟ قال: نعم قال: يا نبى الله فصفه لى، فـإنى قد جئته. فقال رسول الله ﷺ: فرفع لى حتـى نظرت إليه، فجعل رسول الله ﷺ يصـفه لأبى بكر ويقول أبو بكر: صـدقت، أشهد أنك رسول الله. حـتى إذا انتهى قـال رسول الله ﷺ لأبى بكر: وأنت يا أبا بكر الصـديق، فيومـئذ سماه «الصديق» رواية أم سلمة عن رسول الله ﷺ (قال تسـألوني عن أشياء لم أثبتها فكربت كربًا لم أكرب مثله قط، فـرفع الله لي بيت المقدس أنظر إليه، ما يسـألوني عن شيء إلا نبأتهم به»[2]. وعن ابن عباس[3] «فجيء بالمسجد وأنا أنظر إليه حتى وضع عنـد دار عقيل فنعته وأنا أنظر إليه) وهذا أبلغ في المعجزة ولا اسـتحالة فيه، فـقد أحضر إليه ومـا ذاك في قدرة الله بعزيز[4]، أما عن ابن سعد[5] «فخيِّل إليَّ بيت المقدس فطفقت أخبـرهم عن آياته) كما ورد نظيره في حديث (أريت الجنة والنار)[6] وحديث ابن أوس[7] (جيء بالمسجد) حيث ورد فيه «ثم مررت بعير لقريش ـ فذكر القصة ـ ثم أتيت أصحـابي بمكة قبل الصبح، فـأتاني أبو بكر فقـال: أين كنت الليلة؟ فقال: إنـيّ أتيت بيت المقدس، فقال إنه مـسيرة شهر فـصفه لي، قال ففـتح لي شراكًا كأني انظر إليه لا يسـألني عن شيء إلا أنبأته عنه»[8]. كما أشـار إلى أنه وقع في حديث أم هانئ أيضا أنهم (قالوا له كم للمسـجد من باب؟ قال ولم أكن عددتها، فجـعلت أنظر إليه وأعدها بابًا بابًا)[9]. ووصف رسول الله لأصحـابه من لقبه من الأنبياء فقال:

أما إبراهيم: فلم أر رجـلا أشبه قط بصـاحبكم، ولا صاحـبكم أشبه به منه. وأمـا موسى: فرجل آدم طويل ضـرب جعد أقنى (العـالي قصبة الأنف) كـأنه من رجال شنوءة (قبـيلة الأزد) وأما عيسى بن مريم: فرجل أحمر بين القصير والطويل، سـبط الشعر، كثير خيلان الوجه (جمع خال أي

---

(١) د. محمد رواس قلعه جي - نفس المرجع ص٨٢.

(٢) رواية عبد الله بن الفضل عن أم سلمة صحيح مسلم بشرح النووي: ٢/ ٢٣٨.

(٣) حديث ابن عـباس اخرجه احـمد في المسند: ١/ ٩ ٣ - البيـهقي في الدلائل: ٢/ ٣٦٤، وابن كثير في التفسـير ٣/ ١٥ والطبراني في المعجم الكبير، ١٦٨٨ رقم ١٢٧٨٢.

(٤) عمدة القارئ: ١٤/ ٤ فتح الباري ٧/ ٢٠٠.

(٥) حديث أم هاني عن ابن سعد - الطبقات: ١/ ٢١٥.

(٦) صحيح البخاري مع فتح الباري: ١١/ ٢٩٥ رقم ٦٤٦٨.

(٧) حديث شداد بن أوس عند البزار - الهيثمي - الأستار ١/ ٣٦ - ٣٧ رقم ٥٣.

(٨) الطبراني - المعجم الكبير ٧/ ٢٤٠ - ابن كثير في التفسير ٣/ ١٤.

(٩) فتح الباري: ٧/ ٢٠٠

شامة) كأنه خرج من ديماس (الحمام)، تخال رأسه يقطر ماء، أشبه رجالكم به عروة بن مسعود الثقفى.

إن حادثة الإسراء والمعراج التى امتحن الله سبحانه بها الناس فآمن بها من آمن وكذب من كذب كانت قبل الهجرة بسنة، يعنى أنها كانت قبل إعلان قيام الدولة الإسلامية بسنة، وهنا يبدو لنا اهمية هذا التوقيت. إنها احدثت فى مكة هزة عنيفة، ونشاطًا غير عادى، فالنقاش فيها يدور بين كافة الفئات، ويستتبع هذا النقاش حول المبادئ التى نزلت على رسول الله محمد ﷺ، ونتيجة لهذا النقاش وذاك يدخل فى الإسلام أناس ويخرج منه أناس وكان هذا ضروريًا قبل إعلان قيام الدولة الإسلامية فى المدينة المنورة، بل يقول: إن كشف العناصر كان لا بد منه ليعلم رسول الله محمد ﷺ عندما يعلن إقامة الدولة الإسلامية من العناصر يمكن الاعتماد عليه فى بناء هذه الدولة، ومن منهم يجب استبعاده، من منهم يصلح أن توكل إليه فى بناء دولة الإسلام مهمة من الدرجة الأولى ومن منهم يصلح أن توكل إليه مهمة من الدرجة الثانية. ولما أذن الله تعالى لرسوله بالهجرة إلى المدينة المنورة وأمره بإقامة دولة الإسلام فيها كان سهلا على رسول الله وضع الرجل المناسب فى المكان المناسب. ولذلك آتت الدولة أكلها فى أقصر زمن عرفه التاريخ لدولة أن تؤتى أكلها طيبًا مباركًا[1].

الهجرة إلى المدينة المنورة: عاد رسول الله ﷺ من رحلته المباركة، رحلة الإسراء والمعراج، وقد شحنت عزيمته بقوة جديدة تتحطم عليها الشم الراسيات، وبدأ نشاطه فى الدعوة إلى الله، منتظرًا موسم الحج، حيث يكثر القادمون من القبائل إلى مكة. وما أن حل الموسم ووفدت القبائل ووجوه الناس حتى اخذ عليه الصلاة والسلام يطوف عليهم فى أماكن نزولهم فى منى، يعرض عليهم أمره، ويطلب منهم أمرين اثنين: أولهما: الإيمان بالله تعالى وحده ونبذ ما سواه، من الآلهة المزيفة، والإيمان بمحمد رسول الله، والثانى: حماية رسول الله والدفاع عنه والوقوف فى وجه من عاداه حتى يبلغ رساله ربه. فأتى رسول الله كندة، وكانت تضرب خيامها فى زاوية من زاويا منى وفيهم سيد لهم يقال له «مليح»، فدعاهم إلى الله تعالى، وطلب منهم الإيمان والنصرة والحماية، فأبوا ذلك عليه، فلم يستجيبوا له. ثم أتى بنى عامر بن صعصعة فدعاهم إلى الله عز وجل وعرض عليهم نفسه فقال له رجل منهم يقال له «بيحرة ابن فراس»: والله لو أنى أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب! ثم قال له: أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك أيكون لنا الأمر من بعدا قال: الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء. فقال له: أفنهدف نحورنا للعرب دونك، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا!! لا حاجة لنا بأمرك فأبوا عليه. وبذلك يعلن رسول الله إنه لا يقبل بين صفوف الدعوة انتهاريا ولا نفعيًا[2].

---

(١) د. محمد رواس قلعه جي - المرجع السابق ص٨٢.

(٢) د. محمد رواس قلعه جي - نفس المرجع ص٨٣.

فلما صدر الناس رجعت بنو عامر إلى شيخ لهم قد كانت أدركته السن حتى لا يقدر أن يوافى معهم المواسم، فكانوا إذا رجعوا إليه حدثوه بما يكون فى ذلك الموسم، فلما قدموا عليه ذلك العام سألهم عما كان فى موسمهم، فقالوا: جاءنا فتى من قريش، هو أحد بنى طالب، يزعم أنه نبى، يدعونا إلى أن نمنعه ونقوم معه ونخرج به إلى بلادنا! فوضع الشيخ يديه على رأسه ثم قال: يا بنى عامر هل لها من تلاف، هل لذناباها من مطلب! والذى نفس فلان بيده ما تقولها إسماعيلى قط، وإنها لحق، فأين رأيكم كان عنكم؟ ثم قصد عليه الصلاة والسلام بنى حنيفة فى منازلهم فدعاهم إلى الله، وعرض عليهم نفسه، فلم يكن من العرب أقبح عليه ردًا منهم. وجد رسول الله صلوات الله وسلامه عليه أن مطلب «النصرة» يقف حجر عثرة فى وجه الاستجابة إليه، فرأى عليه الصلاة والسلام أن من السياسة طى هذا المطلب مؤقتا إلى أن تتشرب القلوب الإيمان وتشعر بحلاوته، والاكتفاء بالعودة إلى الإيمان بالله تعالى الواحد، ونبذ عبادة ما سواه، لأن مطلب «النصرة» يعنى معاداة قريش التى تعادى رسول الله ﷺ، والعرب على غير استعداد لمعاداة قريش ذات المكانة فى قلوبهم من أجل رسول الله محمد ﷺ أو من أجل دعوته التى لم تدخل قلوبهم بعد، وهذا ما حصل بالفعل، فقد أخذ رسول الله يدعو إلى الإيمان دون أن يذكر شيئا عن النصرة. وبذلك اتصل رسول الله محمد ﷺ بعدد من القبائل العربية وعرض عليهم الإسلام وهم «كندة» و«بنو كلب» و«بنو حنيفة» و«بنو عامر»[1].

ولكن رسول الله لم يلبث أن تحولت أنظاره عن القوم كلهم وتركزت حول أهل المدينة المنورة لأسباب منها: إن أهل المدينة المنورة يعيشون لجوار اليهود، واليهودية دين سماوى، فلا بد من أن يكون عندهم من التفتح الفكرى بتأثير الجوار ما يجعلهم أكثر من غيرهم قبولا للإسلام، لأن أصول الأديان واحدة. إن أرض المدينة المنورة تعتبر أصلح أرض لإقامة الدولة الإسلامية - وهى الدولة التى يعمل محمد صلوات الله عليه لإقامتها ليتمكن من تطبيق شريعة الله تطبيقا كاملا. وإنما كانت المدينة أنسب أرض لأن رسول الله يعلم أن المدينة يقيم فيها طائفتان من الناس: العرب الوثنيون، واليهود الكتابيون، وبينهما نزاع وتطلع إلى السيادة، فإذا استطاع رسول الله أن يجذب إليه وإلى مبادئه إحدى هاتين الطائفتين أمكنه السيطرة على الموقف، وامتلاك زمام الأمور، وقدر رسول الله أن العرب سيكونون أعون له من اليهود، لأن الحقد القومى لليهود، باعتبارهم من بنى إسرائيل، سيمنعهم من الانضواء تحت راية رجل من العرب. ولذلك فإنه عليه الصلاة والسلام ما إن سمع بأن نفرًا من أهل المدينة - الخزرج - ينزلون عند العقبة حتى أسرع إليهم، وعرض عليهم الإسلام، دون أن يذكر شيئا عن الحماية، لأنه قدر أن طلب الحماية سيحول بينهم وبين الإسلام، وخاصة أن الخزرج كانت غارقة

---

(١) ابن هشام - القسم الأول - ص٤٢٣.

في بحر من الدمـاء فى نزاعها مع الأوس، القـبيلة العربيـة الثانية التى تسكـن المدينة المنورة، فهى لا تقبل أن تزيد مشاكلها بمناصبة قريش أيضا العداء[1].

وكان الخزرج وغيرهم من أهل المدينة يعلمون أنه قـد قرب زمن بعثة نبى، وقد حصل عندهم هذا العلم من اليهـود الذين يعيشون مـعهم فى المدينة المنورة، فقد كـان اليهود يهددون الـعرب أيضا ويقولون لهم: إن نبيّـا الآن قد أظل زمانه، وإننا إذا ما بعث سنتبـعه ونقتلكم قتل عاد وإرم. وفـيما الرسول يبشر مختلف القبائل بالإسلام، خلال موسم الحج، التقى مصادفة ببضعة رجال من الخزرج، إحدى قبائل المدينة. وبعد أن استيقن انهم خزرجيـون، سألهم ما إذا كانوا من عشراء اليهود، فأجابوه نعم. ثم إنه بسط لهم رسالة الإسـلام. وإذا كانت لهم صلة بالأوس والخزرج، وإذ كانوا قـد عاشوا فى المدينة التى اشتمل سكانها على عدد من اليهود كبير، فقد سبق لهم أن سمعوا ظهور النبى الموعود الذى تنبأت به كتب اليهود المقدسة أمـسى قريبًا. وهكذا فإن دعوى الرسول أنه هو ذلك النبى الموعود لم تكن مفاجـأة لهم ألبتة. وبفضل التعاليـم الإسلامية التى شرحهـا الرسول لهم، وهى تعاليم ذات جمال فطرى، من ناحـية، وبفضل توقعهم مجىء ذلك النبى، من ناحـية ثانية، وقع فى نفس أولئك الخزرجيـين أنه كان هو النبى حقًـا. ولذلك فإنه ما أن كلم رسول الله ﷺ أولئك النفـر من الخزرج. ودعاهم إلى الله، حـتى قال بعـضهم لبـعض: تعلمون والله إنه للنبـى الذى توعدكم به يهـود، فلا يسبقنكم إليه، لأنهم إن سبقوكم إليه ليقتلنكم قتل عاد وإرم. فأجابوه إلى ما دعاهم إليه، بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام، وقـالوا: إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فـعسى أن يجمعـهم الله بك، فسنقدم عليـهم فندعوهم إلى أمرك، ونعـرض عليهم الذى اجبناك إليه من هذا الدين، فـإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك، ثم انـصرفوا عن رسول الله ﷺ راجعين إلى بلادهم وقـد آمنوا وصدقوا وهم ستـة نفر من الخزرج[2]. فلمـا قدمـوا المدينة إلى قومـهم ذكـروا لهم رسول الله ﷺ، ودعـوهم إلى الإسلام حـتى فشـا فيـهم، فلم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله ﷺ.

يعتبر سكان «يثرب»ـ«الأوس»و«الخزرج» ـ من القبـائل اليمنية القوية ولا غرو فقد برهنوا على شدة بطشـهم وقوة بأسـهم في الحروب التي لم تكن تهدأ ثـائرتها ولـم تنطفئ نارها بينهم، وقـد جاء اليهود من بني «قريظة» و«بني النضير» بعد أن طردهم المسيحيون في فلسطين نتيجة لاعمالهم الخسيسة وسوء معاملتهم مما ادى إلى اضطهاد إمبراطور الرومان أدريان HADRIAN لليهود وأمر بطردهم من فلسطين فجاءوا إلى ديار العرب كـلاجئين واستوطنوا عند العرب دون أن يتركوا أعـمالهم وتصرفاتهم البذيئة كما أقام اليهود القادمون من فلسطين في «فدك» و«تيماء» ووادي القرى و«خيبر» دون أن يتخلوا

(١) د. محمد رواس قلعه جي - نفس المرجع ص٨٤.
(٢) د. محمد رواس قلعه جي - نفس المرجع ص٨٥.

عن انتمائهم إلى بني إسرائيل أو الديانة اليهودية برغم اختلاطهم بالعرب[١]. وصلت قبائل «الأوس» و«الخزرج» من اليمن إلى «يثرب» ولما تكاثر عددهم أخذ تعديهم على سلطة الحكام اليهود يزداد شيئا فشيئا علما بأن الأوس والخزرج من القبائل اليمنية القوية والتي استطاعت آخر الأمر انتزاع السلطة والحكم كله إلى أيديهم[٢].

إن كثرة الحروب الداخلية بين أهل المدينة جعلت منها مدينة محاربة، يعنى أن أهلها عندهم القدرة على حماية الدولة الإسلامية. وإن موقعها بين حرتين الويرة فى الغرب، وواقم فى الشرق، وأحد وسلع فى الشمال وجبل عير فى الجنوب الغربى يجعلها مدينة محصنة يصعب على العدو اقتحامها. إن المدينة بلد زراعى غني بموارده، ويحقق لأهله الاكتفاء الذاتى إلى حد كبير، وبذلك يستطيع الصمود أمام الحصار فيما لو حوصر، ويستطيع تأمين الموارد المالية الكافية اللازمة لنفقات الدولة الإسلامية. والمدينة واقعة على طريق المسافر من مكة إلى الشام، فإذا ما أقيمت دولة الإسلام فيها استطاعت هذه الدولة قطع طريق التجارة على مشركى مكة، وفرض الحصار الاقتصادى عليها، وقطع طريق تجارة الشام على قريش وهو ضرب لتجارة اليمن أيضًا، لأن تجار قريش كانوا يحملون سلع اليمن إلى الشام وبالعكس، فإذا ما امتنعت عليهما تجارة أحد القطرين الشام أو اليمن امتنعت أو تأثرت بذلك تجارتهم فى القطر الآخر. وسبب تقبل المدينة المنورة الإسلام بهذه السرعة ثلاثة أمور[٣]:

الأول: وضوح عقيدته، واتفاقها مع الفطرة، وخلوها من التعقيد، وهذا ما جعلها تحتل القلوب عندما خلت القلوب من الأغراض الدنيئة. الثانى: إن أهل المدينة يعيشون مع اليهود، واليهود أرباب دين سماوى، فلا بد وأنهم قد اطلعوا على ملامح الدين السماوى، ورأوا الفرق بينه وبين وثنيتهم، ولكن الذى منعهم من الدخول فى اليهودية ما كانوا يجدونه من تعاليم اليهود وغطرستهم، لاعتبارهم أنفسهم أنهم شعب الله المختار، واعتبار اليهودية دين الخاصة والصفوة من الناس، وليس بدين الرعاع. ولابد أن يكون قد صدر كثير من التصريح والتلميح تعبيرًا للوثنيين على عبادتهم الأصنام التى لا تسمع ولا تبصر، ولا تصنع خيرًا ولا تصنع شرًا، فكانت الرغبة موجودة فى نفوس وثنيى المدينة فى التخلص من هذا الوضع، ولكن ما هو الدين البديل؟ فلما وصلتهم مبادئ الإسلام وجدوها البديل الذى يفوق الوثنية واليهودية معًا، فلم يتأخروا عن الإيمان به. الثالث: إن المدينة كانت تعيش فى بحر من الدم يعود تاريخه إلى ما قبل مائة وخمسين عامًا، وكانت آخر دفقة من الدم أصاب رشاشها كل بيت من بيوت المدينة هى دفقة حرب بعاث التى أطاحت برؤوس أكثر زعماء المدينة من أوس وخزرج. وكان كل من الفريقين يريد ـ ضمنا ـ أن يضع حدًا لإراقة الدماء، ولكن

---

(١) د. حسن إبراهيم حسن - المرجع السابق جـ١ ص٩٢.
(٢) د. حسن إبراهيم حسن - نفس المرجع جـ١ ص٩٢.
(٣) د. محمد رواس قلعه جي - المرجع السابق ص٨٦.

الأوس ترفض أن تتنازل للـخزرج، والخـزرج ترفض أن تتنازل للأوس، لما يـرون فى هذا التنازل من المعرة، فلمـا جاءت دعوة رسول الله محـمد ﷺ نظر الفريقـان إليه على أنه المخلص الذى أرسله الله ليخلص المدينة من الخلافـات التى جعلتها بحرًا من الدم. وجـد الأوس والخزرج في الدين الإسلامي الجديد ما يوحد كلمتهم، كـما وجدوا في شخصية الرسول بغيتـهم المنشودة إذ عرفوه رجلا من أكرم بيوتات قريش وسادتها، ثم هو ابن آمنة من بني النجار أحـد بطون قبيلة «الخزرج» اليمنية، ومع ذلك فهو نبي يستطيعون أن يطاولوا اليهود بما ينزل عليه من وحي(١).

بيعة العقبـة الأولى على التوحيد: حتى إذا كان العام المقبل وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلا، فلقوه بالعـقبة، وهى العقبة الأولى فبـايعوا رسول الله ﷺ على نحو بيعة النـساء، وهى بيعة على الأخذ بمبـادئ الإسلام، وليس فـيها ذكـر للقتال دفـاعا عن رسول الله وقـد ذكر لنا عـبادة بن الصامت رضى الله عنه تفاصـيل هذه البيعة ونصها، فـقال: «كنت فيمن حضر العـقبة الأولى، وكنا اثنى عشـر رجلا، فبـايعنا رسول الله ﷺ على بيعـة النساء، وذلك قبل أن تفـرض الحرب، على ألا نشرك بالله شيئًا، ولا نسرق، ولا نزنى، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتى ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه فى معروف. فإن وفيتم فلكم الجنة، وإن غشيتم من ذلك شيئا فأمركم إلى الله عز وجل، إن شاء عذب، وإن شاء غـفر». وأن المدقق فى هذا البيعة يرى أنها تشـتمل ثلاثة أمور هى: الإيمان بالله الواحد، ونبذ ما سواه. الاستقامـة فى السلوك. الأخذ بالحق المتدفق على لسان الرسول من قرآن وسنة، ومدار الإسلام على هذه الأمور الـثلاثة. وليس فيها ذكر للقتـال دفاعا عن رسول الله ولا عن دينه(٢).

تذكر كـتب السيرة أنه لما أراد القـوم المبايعون الـعودة إلى بلدهم بعث رسول الله ﷺ مـعهم مصعب بن عميـر بن هاشم بن عبد مناف، وأمره أن يقرئهم القرآن ويعلمهم الإسـلام، ويفقههم فى الدين، فكان يسمى المقرئ بالمدينة، فكان يصلى بهم، وذلك أن الأوس والخـزرج كره أن يؤم بعضهم بعضًـا لما بينهم من الخلاف والدماء. والحقـيقة أنه كانت لمصـعب مهمة أخـرى سياسيـة سرية، هى: أولا: الاطلاع عن كثب علـى مجتـمع المدينة المنورة وأحواله، ومعـرفة حـقيقـة شعوره تجـاه الدعوة والداعى، والتبـدل الذى يطرأ على هذا الشعور، ومـعرفة الصديـق والعدو، ومن المؤتلف من الناس ومن المختلـف، والعوامل التى تؤثر فى تلك المدينة، وليـعود فـيعطى رسـول الله الصورة الواضـحة الصادقـة لهذه المدينة التى توجهت أنـظار رسول الله إليها لتـكون قاعدة لإقامـة دولة الإسلام فيـها، وليخرج رسـول الله بتقدير صحيح للمـوقف فيها ليتـصرف بسرعة وبدقة عندمـا يحين وقت الرحيل إليها. ثانيًا: إعداد المؤمنين من أهل المدينة لقبول بند «النصرة» الذى طواه رسول الله ﷺ موقتًا.

---

(١) د. حسن إبراهيم حسن - المرجع السابق ص٩٢.

(٢) د. محمد رواس قلعه جي - المرجع السابق ص٩٠.

بيعة العقبة الثانية على النصرة: رحل مصعب بن عمير إلى المدينة المنورة مع الرهط المدنيين الذين بايعوا رسول الله ﷺ على الإيمان، ومكث فيها عامًا كاملا يصلى بالمسلمين إمامًا، ويدعو الناس برفق وأناة إلى التوحيد ويعمق الإيمان فى قلوب المؤمنين، ويغرس فيها الفدائية، ويبين أن الإيمان إن لم يكتنفه سلطة تحميه فلن يستطيع أن يؤدى رسالته الإصلاحية فى الحياة، وأن عليهم أن ينالوا شرف حماية الإيمان الذى حملوه فى صدورهم، وحماية كل داع إليه، وبعد عام - وفى موسم الحج - رجع مصعب بن عمير إلى مكة المكرمة مع من خرج من أهل المدينة المنورة إلى مكة، ولقى مصعب رسول الله ﷺ ليلا على انفراد، ووضع بين يدى رسول الله جميع المعلومات التى حصل عليها عن المدينة المنورة وأهلها، وأعلم رسول الله أن المؤمنين من أهل المدينة أصبحوا على قناعة تامة بوجوب حماية رسول الله ونصرته. وعلى ضوء هذه المعلومات التى وضعها مصعب بين يدى رسول الله استطاع عليه الصلاة والسلام أن يخرج بتقدير دقيق للموقف، وكانت جملة هذا التقرير: أنه سيتواجد فى المدينة المنورة ثلاث فئات: الفئة الأولى: العرب من أهل المدينة، وهذه الفئة قد استحكمت بينها العداوة، وأكلتها الحروب. الفئة الثانية: اليهود، وهى فئة غير مأمونة، قد امتلأت نفوسها حقدًا على الدين الجديد - الإسلام - وهى تحاول إجهاضه بأساليبها الدنيئة - ولا أمل فى اجتذاب هذه الفئة إلى حظيرة الدولة الإسلامية وإخلاص الولاء لها. والفئة الثالثة: المهاجرون الذين سيقدمون إلى المدينة المنورة، وهى فئة أشد ما تكون ولاء للدولة التى ستقوم فى المدينة، ولكن الفقر قد خيم على هذه الفئة لأنها تركت كل ما تملك فى مكة وتجمعت فى المدينة لتساهم فى بناء صرح الدولة الإسلامية على أرض المدينة المنورة[1].

وقدر رسول الله أن أمر الدولة الإسلامية التى ستقام فى المدينة المنورة لن يستقيم مع اليهود إلا بالقوة لأنهم فئة حاقدة. كما قدر أن قريشًا لن يروقها قيام الدولة الإسلامية فى المدينة، وفى الوقت نفسه فإن من أهداف الدولة الإسلامية محو الشرك واجتثاث جذوره، وهذا سيؤدى إلى الصدام المسلح بينها وبين السلطات التى تحمى الشرك. وبناء على هذا التقدير للموقف فقد اتخذ رسول الله ﷺ قرارًا على درجة من الخطورة والسرية، وهذا القرار وإن كان قد ألمح إليه إلا أنه لم يفصح عنه فى يوم من الأيام لئلا يتفشى أمره، ويتعذر تنفيذه، ويتلخص هذا القرار بما يلى: إنجاح عملية الهجرة - وهى تعنى: تجميع القوة المؤمنة فى الأرض التى ستقام فيها دولة إسلام. معالجة الوضع الداخلى فى المدينة المنورة للعرب الأنصار، ولليهود، وللمهاجرين. تصفية أعداء الدولة الإسلامية بعد استكمال الاستعداد لهذا الأمر الهام.

لكى تتم عملية الهجرة لا بد من أن تتم سلامة ثلاثة أمور: سلامة الخروج من مكة المكرمة. السلامة أثناء الطريق إلى المدينة المنورة. سلامة الوصول إلى المدينة المنورة إلى أن يتم الاستقرار فيها.

---

(١) د. محمد رواس قلعه جي - نفس المرجع ص٩١.

ولضمـان ذلك كله فقد اتخذ عليـه الصلاة والسلام قـرارا بتكوين: مهمة هذه الجـماعة إنجاح عـملية وصول رسول الله ـ إلى المدينة المنورة، وحفظ سلامته فيها، وقمع كل تحرك يراد به إجهاض الهجرة.

أما تكوينها: فهى تتكـون من فئتين: الفئة الأولى: فئة أهل المـدينة الذين أسلموا وقدموا إلى رسول الله. بعد أن يبذلوا لرسول الله ﷺ البيعة على الحمـاية والنصرة، (الأنصار). الفئة الثانية: فئة المؤمنين من أهل مكة (المهاجرين) الذين سيرحلون من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة[1].

بيعة العقبة الثالثة، ورحيل جماعة الحماية الأولى:

كان على رسول الله ﷺ أن يتحرك بسرية تامة لئلا يكتشف أمر تحركه، وعندئذ تفسد خطته. ولذلك واعد المؤمنين من أهل المدينة المنورة للاجتماع بهم وأخذ البيـعة منهم عند العقبة، حين يمضى من ثلث الليل من ثانى أيام التشريق فخرج المؤمنون إلى ذلك الموعد مـستخفين يتـسللون تسلل القطاط حتى اجتمعوا عند العقبة، وكانوا ثلاثة وسبـعين رجلا، ومعهم امرأتان من نسائهم، نسيبة بنت كعب المازنية، وأسمـاء بنت عمرو بن عدى. وحـضر رسول الله ومعـه عمه العباس بن عـبدالمطلب، وهو يومئذ على دين قومه فيما يبدو للناظر، إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له. ونظر رسول الله فرأى الجمع غفـيرًا، وليس من الحكمة أن يتوجه بالكلام إلى كل هذا الجـمع، إذ من المحتمل أن يخرج منهم من لا يعى تمام الوعى أبعاد كلام رسول الله فيفسد الأمر به، كما أنه لابد وأن يستمع إلى رأى من يريد أن يقول شيئا منهم، ولو فعل ذلك لطال به المقام، والأمر لا يحتمل التطويل، فما اراده رسول الله يجب أن يتم بأقـصى سرعة لئلا ينتـبه المشركون إلى اجـتماعهم فـيفسدو عليـهم أمرهم. ولذلك طلب رسول الله مـن الجمع أن يخرجـوا منهم اثنى عشـر نائبا ـ نقيـبًا ـ ليكلمـهم ويكلموه، فأخرجوا له اثنى عشر نقيبًا، تسعة من الخزرج. فلما جلسوا كان أول متكلم العباس بن عبد المطلب، فقال: يا معشر الخزرج ـ وكانت العرب تسمى هذا الحى من الأنصار: الخزرج، خزرجها وأوسها ـ إن محمد منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا، ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو فى عز من قومه، ومنعه فى بلده، وإنـه قد أبى إلا الانحيـاز إليكم، واللحوق بكم، فإن كنتـم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعـوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم تـرون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم فـمن الآن فدعوه، فإنه فى عز ومنعة من قـومه وبلده. إننا نرحب باصطحابكم إياه شريطة أن تكونوا على استعداد للصمود فى وجه المقاومة المشتركة من جانب العرب وغير العرب» فأجـاب أهل المدينة، الذين عرفوا بعـد فى التاريخ الإسلامى بـالأنصـار: سمعنا مـا قلت، فتلكم يا رسول الله، فخـذ لنفسك ولربك ما أحـببت فأجاب مـحمد بعد ان تلا القـرآن ورغب فى الإسلام: «أبايعكم على ان تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأولادكم».

---

(1) د. محمد رواس قلعه جي - نفس المرجع ص٩٢.

فقالوا له: قد سمعنا ما قلت، فتلكم يا رسول الله، فخذ لنفسك ولربك ما أحبب. فطلب رسول الله منهم البيعة على الإيمان والنصرة، فبايعوه. قال لهم النبى: «أخرجوا لى منكم اثنى عشر نقيبًا يكونون على قومهم بما فيهم كفلاء. فاختار القوم تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس، فقال النبى هؤلاء النقباء: «أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم، وأنا كفيل على قومى. وكانت بيعتهم الثانية هذه أن قالوا: «بايعنا على السمع والطاعة فى عسرنا ويسرنا، ومنشطنا ومكرهنا، وأن نقول الحق أينما كنا لا نخاف فى الله لومة لائم»[1]. ورجع الأوس والخزرج إلى مضاجعهم فباتوا ليلتهم حتى الصباح، وعلمت قريش بأنباء المفاوضات بين محمد و«الأوس والخزرج» فجاء فريق منها إليهم ويهددوهم، فأنكر بعضهم ما كان حقنا للدماء وتفاديا للشر وخرجوا يريدون بلدهم فتعقبهم القرشيون وقبضوا على بعضهم وضربوهم وعذبوهم[2].

قال عبادة بن الصامت: بايعنا رسول الله على السمع والطاعة فى عسرنا ويسرنا، ومنشطنا ومكرهنا، وأثر علينا وألا ننازع الأمر أهله، وأن نقول الحق أينما كنا لا نخاف فى الله لومة لائم. وكان البراء بن معرور أشد الناس حماسًا، فكان أول من أخذ بيد رسول الله وقال: «نعم، والذى بعثك بالحق نبيًا لنمنعك منه أزرنا (النساء)، فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أبناء الحروب، وأهل الحلقة (السلاح) ورثناها كابرًا عن كابر». وتبعه أبو الهيثم بن التيهان، فأخذ بيد رسول الله ﷺ وقال: «يا رسول الله، إن بيننا وبين الرجال حبالا وإنا قاطعوها ـ يعنى اليهود ـ فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟» فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: «بل الدم الدم، والهدم الهدم (إهدار الدم)، أنا منكم وأنتم منى، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم!». ثم بايع الناس جميعا. وكانت هذه البيعة «بيعة العقبة الثالثة» وبهذه البيعة يكون رسول الله قد كون الفئة الأولى من جماعة الحماية فى المدينة المنورة. وبهذه البيعة أخذت خيوط نور تظهر فى الأفق السياسى، تشير إشارة غير خفية للمخطط السياسى للرسول عليه الصلاة والسلام، وإن رسول الله لا يهدف بالهجرة من مكة إلى المدينة التخلص من العذاب والاستهزاء، ولكنه يهدف إلى اقامة مجتمع جديد فى بلد آمن تشرق عليه وتنظمه دولة تستمد نظامها من الله، تلك هى دولة الإسلام[3].

ثم قال رسول الله ﷺ انهضوا إلى رحالكم: فقال له العباس بن عبادة بن نضلة: والله الذى بعثك بالحق، إن شئت، لنميلن على أهل منى غدا بأسيافنا! فقال رسول الله ﷺ: لم نؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم. ورجع القوم إلى مضاجعهم فناموا، وما أن أشرق الصباح حتى غدت عليهم جلة قريش فقالوا: يا معشر الخزرج، إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه

---

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص١١١.
(٢) ابن هشام - القسم الأول - ص٤٤٨ - ٤٤٩.
(٣) د. محمد رواس قلعه جي - المرجع السابق ص٩٣.

من بين أظهرنا، وتبايعونه على حربنا، وإنه والله ما من حى من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم، منكم! . فانبعث من هناك من مشركى القوم جماعة يحلفون بالله ما كان من هذا شيء، وما علمناه، وقد صدقوا، لم يعلموه، لأن المؤمنين إنما فعلوا ما فعلوه من أمر البيعة خفية عنهم وحث الأنصار قومهم من أهل المدينة على الإسراع فى الرحيل إلى المدينة المنورة بعد أن قضوا نسكهم، فرحلوا. فواضح إذن أن الرسول إنما توجه إلى المدينة بدعوة من أهلها أنفسهم. وكان مألوفا فى بلاد العرب، كلما انضم عضو من قبيلة ما إلى قبيلة أخرى أن يأخذ أفراد القبيلة الأخيرة على أنفسهم عهدًا بحمايته، إذ كان العرف يقضى بأن تكون القبيلة مسؤولة عن حماية أبنائها دون غيرهم من الناس. ويستفاد من الحدث الذى وصفنا فى السطور السابقة أن الرسول علم علم اليقين، كما علم العباس، أن المكيين لن يدعوه وشأنه حتى فى المدينة نفسها. ومن هنا كان لابد من أخذ العهد على «الأنصار» بأن يمنعوا الرسول إذا ما شن أعداؤه هجومًا على المسلمين. وكان هذا التوقع فى محله، ذلك بأن المكيين كانوا قد قدموا براهين كافية على خبثهم حين ذهبوا إلى حد تعقب المهاجرين المسلمين حتى بلاد الحبشة نفسها. وإنما يعرف هذا ببيعة العقبة الثانية، التى تمت فى العام الثانى عشر للدعوة. وإذا أحيط التفاهم الذى تم الوصول إليه والبيعة التى أخذت بستار من الكتمان كثيف، فإن أحدًا لم يطلع عليهما غير العباس وقلة قليلة من المسلمين. وحتى أهل المدينة غير المسلمين لم يعرفوا ما الذى حدث على وجه الضبط[1] وهكذا عجز المكيون عن الفوز بأية معلومات حتى من هؤلاء. وذلك عندما اجتمع «الأوس والخزرج» برسول الله محمد ﷺ في العقبة بعد أداء الحج وكان معه عمه العباس وكان لا يزال على الشرك: «فلما جلس، كان أول متكلم العباس بن عبد المطلب، فقال: يا معشر الخزرج! إن محمدًا منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه. فهو في عز من قومه ومنعة في بلده، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم. فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم، فمن الآن فدعوه، فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده»[2] فقلنا له: قد سمعنا ما قلت، فتكلم يا رسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت، فتكلم رسول الله فتلى القرآن ودعا إلى الله ورغب في الإسلام ثم قال: أبايعكم على أن تمنعوني بما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم، فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال: نعم، والذي بعثك بالحق لنمنعك مما نمنع منه أزرنا (نساءنا) فبايعنا يا رسول الله فنحن والله أهل الحروب وأهل الحلقة[3] (السلاح عامة والدروع خاصة).

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص١١١ .
(٢) ابن هشام جـ٣ ص٤٩ - ٥٠.
(٣) الطبري - جـ٢ ص٢٣٨ - ٢٣٩.

ولكن قريشًا لم تقعد عن تقصى خبر اجتماع أهل المدينة برسول الله، فلما تأكد لهم الخبر خرجوا فى طلب القوم، فأدركوا سعد بن عبادة بأذاخر (موضع قريب من مكة)، والمنذر ابن عمرو، وكلاهما كان نقيبا. فأما المنذر فاعجز القوم، وأما سعد فأخذوه فربطوا يديه إلى عنقه بشراك رحله، ثم أقبلوا به حتى أدخلوه مكة يضربونه، ويجذبونه بجمته، وكان ذا شعر كثير، فرق له رجل ممن كان معهم فقال: ويحك! أما بينك وبين أحد من قريش حوار ولا عهد؟ قال سعد: بلى والله، لقد كنت أجير لجبير ابن مطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف تجارة، وأمنعهم ممن أراد ظلمهم ببلادى، وللحارث بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف. قال: ويحك فاهتف باسم الرجلين، واذكر ما بينك وبينهما، فهتف سعد باسمهما وذكر جوارهما، وهرع الرجل الذى رق له يبحث عنهما، فوجدهما فى المسجد عند الكعبة، فقال لهما: إن رجلا من الخزرج الآن يضرب بالأبطح ويهتف بكما، ويذكر أن بينه وبينكما جوارًا. قالا: ومن هو؟ قال: سعد بن عبادة. قالا: صدق والله، إن كان ليجير لنا تجارنا، ويمنعهم أن يظلموا ببلده! قال: فجاءا فخلصا سعدًا من أيديهم فانطلق.

رحيل جماعة الحماية الثانية: ولما أطمأن رسول الله محمد ﷺ إلى بيعة الأنصار وإخلاصهم. أمر من كان من المسلمين فى مكة بالخروج إلى المدينة سرًا، واللحوق بإخوانهم من الأنصار ليكونوا معهم جماعة الحماية التى أوكلت إليها مهمة إنجاح انتقال القيادة إلى المدينة المنورة، وقال لهم: «إن الله عز وجل قد جعل لكم إخوانا ودارا تأمنون بها». فخرجوا جماعات جماعات وأقام رسول الله محمد ﷺ بمكة ينتظر أن يأذن له ربه فى الخروج من مكة والهجرة إلى المدينة. فكان أول من هاجر إلى المدينة من أصحاب رسول الله محمد ﷺ، من المهاجرين من قريش من بنى مخزوم أبو سلمة بن عبد الأسد، هاجر إلى المدينة قبل بيعة أصحاب العقبة بسنة، وكان قدم على رسول الله محمد ﷺ مكة من أرض الحبشة، فلما آذته قريش وبلغه إسلام من أسلم من الأنصار، خرج إلى المدينة مهاجرًا. ولا يبعد أن يكون قد أوكل إليه رسول الله مهمة خاصة يقوم بأدائها فى المدينة المنورة. ثم كان أول من قدمها من المهاجرين بعد أبى سلمة، عامر بن ربيعة، ومعه امرأته ليلى بنت أبى حثمة، ثم عبدالله بن جحش، احتمل بأهله وبأخيه عبد بن جحش. ثم خرج عمر بن الخطاب، وعياش بن أبى ربيعة المخزومى، حتى قدما المدينة ثم تتابع المهاجرون. وأقام رسول الله محمد ﷺ بمكة بعد أصحابه من المهاجرين ينتظر أن يؤذن له فى الهجرة، ولم يتخلف معه بمكة أحد من المهاجرين إلا من حبس وفتن، إلا على بن أبى طالب، وأبو بكر بن أبى قحافة الصديق، رضى الله عنهما وكان أبو بكر كثيرا ما يستأذن رسول الله محمد ﷺ فى الهجرة فيقول له رسول الله: «لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحبًا» فيطمع أبو بكر أن يكون رسول الله صاحبه، ولذلك ابتاع راحلتين واحتبسهما فى داره يعلفهما إعدادا لذلك[1].

---

(١) د. محمد رواس قلعه جي - المرجع السابق ص٩٤.

ومنذ ذلك الحين هاجر صحابة الرسول إلى المدينة، جماعات صغيرة، فى كتمان تام عن المكيين. وأخيرا حان الوقت الذى خلف فيه الرسول فى مكة وليس معه غير اثنين من أصحابه، ابوبكر وعلي، بعد أن وصل سائرهم إلى المدينة. وهكذا يتضح كيف يتصرف القائد الأعلى لحماية أصحابه وأنه بعثهم مهاجرين إلى المدينة وبقي وحيدا مع أبو بكر وعلي حتى يطمئن على خروج جميع أصحابه وبسلام ثم يخرج أخيرًا مع أبي بكر ويبقى الإمام علي وحيدًا لحماية خروج رسول الله محمد ﷺ وآخر من يخرج من مكة مهاجرا هو الإمام علي بن أبي طالب بعد أن اطمأن بخروج الرسول ﷺ وأبي بكر بسلام من مكة.

وهذه الواقعة تلقى ضوءا إضافيًا على ما عمر صدر الرسول من إيمان بالله وطيد. كانت عداوة المكيين له تتعاظم حدتها يومًا بعد يوم. ذلك بأن ترسخ الإسلام التدريجى فى المدينة أذكى غيظهم وأرثه وإذ كان الرسول وحيدًا، أو يكاد، وسط أعدائه الألداء فقد تعرض لخطر عظيم. ومع ذلك فإنه لم يقلق على نفسه بقدر ما قلق على أصحابه، الذين بعث بهم إلى موطن آمن على حين تخلف هو وسط عدوه المتعطشين إلى الدم. كان محاطًا من جميع اقطاره بمثل أولئك الأعداء، الذين لم تزدهم هجرة المسلمين إلى المدينة ورسوخ قدمهم هناك إلا ضراوة على ضراوة. وفى هذا دليل لا يتهم على عمق إيمان الرسول بالرعاية الإلهية. لقد كان فى طوقه أن يشخص إلى المدينة قبل أى امرئ آخر. وما كان أحد من أصحابه ليتذمر من مثل هذا المسلك، إذ كان كل منهم يعلم ان سلامة دينهم، الإسلام، الذى كانوا على استعداد للتضحية من أجله بكل ما يملكون، رهن بسلامة الرسول. ولكن حبه العميق لصحابته أورثه قلقًا عليهم أعظم من قلقه على نفسه وهكذا وجههم جميعًا إلى المدينة، وبقى هو فى مكة ـ يحيط به أعداء الداء، مظهرًا بذلك بالغ حرصه على سلامة أصحابه، وثقته الوطيدة بالعهد الإلهى فى ما يتصل بسلامته الشخصية[1].

ومرت الأيام. وأطل العام الثالث عشر للدعوة، والرسول ـ وليس معه من صحابته غير أبى بكر والإمام علي ـ متلبث بمكة وسط أعدائه. كان سائر صحابته قد ودعوا ديارهم وفزعوا إما إلى الحبشة وإما إلى المدينة. ولكن محنة الرسول الكبرى لم تكن قد أزفت بعد. وإذ غودر على هذا الحال، ساله أبوبكر غير مرة أن يهاجر إلى المدينة، ولكن الرسول أجابه بقوله إن الله لما يأمره بذلك بعد. وهنا أيضًا كانت تكمن حكمة إلهية تجلت فى قرار قريش النهائى. فحتى ذلك الحين، كان المكيون قد بذلوا جهودًا فردية للتخلص من الرسول، وكانت تلك الجهود كلها قد منيت بالإخفاق. لقد قاوموه أشد مقاومة، واضطهدوه أقسى اضطهاد. ولكن كأس جرائمهم كانت ما تزال فى حاجة إلى قطرة واحدة حتى تطفح. وأخيرا أزفت الساعة. وإذ ألفوا الرسول وحيدًا، أو يكاد عقدوا مؤتمرًا كبيرًا فى دار الندوة، حيث تعودوا ان يناقشوا مختلف القضايا القومية ويبتوا فيها[2].

---

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص١١٢.
(٢) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص١١٢ .

انتقال القيادة إلى المدينة المنورة: نقل ما رواه أحمد[١] والطبراني[٢] من حديث ابن عباس قال: (تشاورت قريش فقال بعضهم: إذا أصبح محمد فاثبتوه بالوثاق) الحديث[٣]، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنفال] - بين ابن حجر أنه وصله ابن أبي من طريق ابن جريج عن عطاء عنه[٤] في قوله (ليثبتوك يحبسوك)[٥]. ولما رأت قريش أن رسول الله محمد ﷺ قد صارت له شيعة وأصحاب من غيرهم بغير بلدهم، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم، عرفوا أن أصحاب رسول الله محمد ﷺ قد حلوا داراً آمنة، ووجدوا فيها من يحميهم ويدافع عنهم، ولذلك حرصوا على عدم خروج رسول الله إليهم، إلى المدينة المنورة، لأنهم قدروا أنه إذا ما خرج إليها لا يلبث أن يجمع أصحابه ويهاجمهم بهم. وتنادى زعماء قريش للاجتماع فى دار الندوة - وهى دار قصى بن كلاب التى كانت قريش لا تقضى أمراً إلا فيها - للتشاور فيما يصنعون لمنع رسول الله محمد ﷺ من الخروج من مكة. واجتمع القوم فى دار الندوة فقال بعضهم لبعض: إن هذا الرجل قد كان من أمره ما قد رأيتم، فإنا والله ما نأمنه على الوثوب علينا فيمن قد اتبعه من غيرنا، فاجمعوا فيه رأيا. فاقترح البعض حبسه، وتركه فى محبسه حتى يموت.. ولكن الحاضرين لم يوافقوا على هذا الرأى لأن أصحاب رسول الله محمد ﷺ لابد وأن يعلموا بمكان حبسه، ولابد من أن يهاجموا هذا المكان ويستخرجوا رسول الله محمد ﷺ منه. واقترح البعض إخراجه من مكة ليذهب إلى أى البلاد شاء، ولا ضير على قريش من ذلك طالما قد بعد خطره عنهم، ولكن الحاضرين لم يوافقوا أيضا على هذا الرأى، لأن محمداً إذا خرج من مكة ولقى الأمن فى أى بلد كان فإنه لا يلبث أن يجمع الناس حوله بما آتاه الله من قوة فى الحجة وحلاوة فى المنطق وتأثير فى النفوس، ثم يهاجم بهم مكة. وانتفض من بين القوم أبو جهل بن هشام فقال: والله إن لى رأيا ما أراكم وقعتم عليه بعد. قالوا: وما هو يا أبا الحكم؟ قال: أن نأخذ من كل قبيلة فتى شابا جليدا نسيبا وسيطا فينا، ثم نعطى كل فتى منهم سيفا صارمًا، ثم يعمدوا إليه فيضربوه بها ضربة رجل واحد فيقتلوه، فنستريح منه. فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه فى القبائل جميعًا، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعًا، فرضوا منا بالدية، وأمر الدية علينا يسير. واستحسن الحاضرون هذا الرأى، وعزموا على تنفيذه. وتم تعيين الرجال الذين سيقفون بباب رسول الله محمد ﷺ ويبطشون به عندما يخرج، كما تم تعيين الوقت الذى يفدون فيه لمحاصرة بيت رسول الله محمد ﷺ. وعلم رسول الله محمد ﷺ بطريقة ما بكل ما اتفق عليه المتآمرون، وما عزموا على تنفيذه،

---

(١) أحمد - المسند - ١/ ٣٤٨.
(٢) الطبراني - المعجم الكبير - ١١/ ٤٠٧ - الحديث رقم ١٢١٥٥.
(٣) حديث ابن عباس أخرجه عبد الرزاق في المصنف ٥/ ٣٨٩ - الحديث رقم ٩٧٤٣ - وعن ابن الجوزي في كتابه الوفا بأحوال المصطفى ١/ ٢٩٩ - ٢٣٠.
(٤) ابن أبي حاتم - تفسيره - مخطوط ورقة ٢٤٠.
(٥) صحيح البخاري مع فتح الباري - ٨/ ٦ ٣ كتاب التفسير.

وكان عليه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ أن يتصرف بسرعة وذكاء ليحبط المؤامرة الدنيئة، وينجح بخروجه من مكة سالما ليكمل مسيرة الإيمان التى بداها[1].

وأسرع رسول الله محمد ﷺ إلى أبى بكر فى بيته وأسر إليه أن الله تعالى قد أذن له بالهجرة إلى المدينة المنورة، فطلب أبوبكر من رسول الله أن يصحبه معه فى هذه الرحلة المباركة وقال له: الصحبة يا رسول الله، فقال رسول الله: «الصحبة»، ففرح أبوبكر لذلك، ثم قال: يارسول الله إن هاتين راحلتان قد اشتريتهما وأعددتهما لمثل هذا اليوم. ثم تحركا إلى عبدالله بن أريقط ـ وكان مشركًا خبيرًا بطرق الصحراء ـ فاستأجراه ليدلهما على الطريق، ودفعا إليه الراحلتين، وطلبا منه أن يوافي بهما إلى المكان وفى الزمان الذين يخبراه بهما بواسطة رسول يأتيه من عندهما، ثم خرجا من عنده. وأمر رسول الله ﷺ أبا بكر أن يلزم بيته فلا يغادره، وعاد رسول الله ﷺ إلى بيته. وفى الساعة الموعودة قدم من أوكلت إليهم قريش حصار بيت رسول الله ﷺ ووقفوا على بابه، حتى إن رسول الله ﷺ ليسمع حديثهم، وكان على رسول الله ﷺ أن يموه عليهم ما استطاع إلى ذلك سبيلا، فقال لعلي بن أبى طالب ـ وكان معه فى المنزل ـ: «يا عم نم على فراشي وتسج (غط بدنك ورأسك حتى لا يرى منك شيء تعرف به) ببردى هذا الحضرمى، فإنه لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم». وإنما فعل ذلك رسول الله ﷺ حتى إذا ما نظر أحدهم من ثقب الباب ظن أن رسول الله ما زال نائما فى مكانه[2].

أشار موسى بن عقبة عن ابن شهاب قال: «فرقد عليٌّ على فراش رسول الله محمد ﷺ يوري عنه، وباتت قريش تختلف وتأمر أيهم يهم على صاحب الفراش فيوثقه، حتى أصبحوا فإذا هم بعلي، فسألوه، فقال: لا علم لي، فعلموا أنه فر منهم»[3]. كما أن ابن إسحاق ذكر نحوه وزاد[4]: أن جبريل أمره أن لا يبيت على فراشه، فدعا عليا فأمره أن يبيت على فراشه ويتسجى ببرده الأخضر، ففعل، ثم خرج النبي ﷺ على القوم ومعه حفنة من تراب، فجعل ينشرها على رؤوسهم[5] وهو يقرأ «يس» إلى قوله تعالى: «فهم لا يبصرون». سورة يس آيات ١ - ٩.

وما هى إلا لحظات حتى أخذ الله على أبصارهم، واستل منهم الشعور، فخرج رسول الله من بينهم وهم لا يرونه ولا يشعرون بخروجه، ولم ينس عليه الصلاة والسلام أن يأخذ حفنة من تراب وينشرها على رؤوسهم، ليعلمهم أن تدبير الله فوق تدبيرهم، ثم يخرج من بينهم وهو يتلو قوله

---

(١) د. محمد رواس قلعه جي - المرجع السابق ص٩٥.
(٢) د. محمد رواس قلعه جي - نفس المرجع ص٩٦.
(٣) نقله ابن هشام عن ابن إسحاق - السيرة النبوية ١/ ٤٨٢ - ٤٨٣ - والبيهقي في الدلائل - ٢/ ٤٦٩ - ٤٧٠، وابن كثير في البداية والنهاية ٣/ ١٧٤ - ١٧٥.
(٤) رواية ابن إسحاق عن محمد بن كعب القرظي - والدر المنثور - ٧/ ٥٤٤ - ٥/ ١٠٤.
(٥) ابن كثير - البداية والنهاية ٣/ ١٧٥ - والروض الأنف ٢/ ٢٢٩.

تعالى: ﴿يس ۞ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ۞ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۞ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۞ تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ۞ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ۞ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ۞ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۞ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ ۞﴾ [يس].

فأتاهم آت ممن لم يكن معهم فقال: «ما تنتظرون هاهنا؟» قالوا: محمدًا. قال: «خيبكم الله! والله خرج عليكم محمد، ثم ما ترك منكم رجلا إلا وقد وضع على رأسه ترابا، وانطلق لحاجته، أفما ترون ما بكم؟» فوضع كل رجل منهم يده على رأسه فإذا عليه تراب، ثم جعلوا يتطلعون فيرون عليا على الفراش متسجيا ببرد رسول الله ﷺ فقالوا: والله إن هذا لمحمد نائما عليه برده. فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا. فقام على رضى الله عنه عن الفراش فقالوا: والله لقد كان صدقنا الذى حدثنا. توجه رسول الله فور خروجه من بيته إلى بيت أبى بكر الصديق وأمره بالخروج فورًا، فخرجا من خوخه فى ظهر بيت أبى بكر. خرج رسول الله مع صاحبه أبى بكر، دون أن يعلم أحد بخروجهما غير الإمام علي بن أبى طالب وأهل بيت أبى بكر. ولم ينس رسول الله أن يطلب من أبى بكر أن يأمر ابنه عبد الله أن يتسمع لهما ما يقوله الناس فيهما ثم يأتيهما بالأخبار إلى غار ثور فى المساء، ويأمر غلامه عامر بن فهيرة أن يرعى غنمه نهارًا فيمر بها عليهما فى المساء، ويأمر ابنته أسماء بأن تحمل لهما ما يتيسر لها من الزاد[1]، وقد أشار في رواية هشام بن عروة عند ابن حبان (فركبا حتى أتيا الغار وهو ثور، فتواريا فيه[2].

حيطة وحذر: خرج رسول الله مع أبى بكر الصديق من مكة مستخفيًا لا يعلم أحد بخروجهما إلا من أناط به رسول الله ﷺ مهمة تستلزم معرفته بخروجهما، وتوجها إلى غار كانا قد عيناه من قبل فى جبل ثور، فأقاما فيه ثلاث أيام. وهكذا فإن الغارين يحتلان مركزًا هامًا فى الإسلام. ففى غار حراء هبط الوحى أول ما هبط على الرسول الكريم، وها هو الإسلام يولد الآن من جديد فى غار ثور. إن الهجرة يوم مشهود فى تاريخ الإسلام إلى درجة جعلت المسلمين يستهلون تقويمهم بها. ومن هنا، ففى طوق المرء أن يقول ان الإسلام انبثق من هذين الغارين. وفى اليوم التالى، عند انبثاق الفجر، ذهل القرشيون إذ ألفوا عليا غادر فراش الرسول. وأجريت تحريات دقيقة فى كل مكان، ووضعت جوائز ضخمة. وانتهت جماعة من مطاردى الرسول وصاحبه، المتعقبين آثارهما، إلى فم الغار نفسه. حتى إذا سمع أبو بكر وقع أقدمهم، تملكه الأسى، لا جزعًا على نفسه، ولكن جزعًا على الرسول الذى كانت حياته أعز عنده من حياته هو. يا لها من لحظة حرجة! كان سيف العدو المتعطش إلى الدم مصلتًا فوق رأسيهما[3].

---

(١) د. محمد رواس قلعه جي - المرجع السابق ص٩٦.
(٢) فتح الباري - ٧/ ٢٣٦.
(٣) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص١١٦.

وكانت نظرة واحدة يختلسها ذلك العدو إلى داخل الغار كافية لأن تجعل الصاحبين يوقنان انهما لابد هالكان، وان جسديهما لابد سيمزقان إربًا إربًا. وفى مثل هذه الحالة يغور أشجع الأفئدة، ويذهل أرجح العقول واشدها هدوءًا. إن العدو لمصمم على قتلهما، وان الموت ليحدق إليهما فى وجهيهما. وليس إلى الفرار سبيل، ولم تبق ثمة حماية أرضية، فى هذه الساعة البالغة الحرج، الراشحة باليأس المطلق، انطلقت هذه الكلمات، دون غيرها، من شفتي الرسول: «لاتحزن، ان الله معنا!». كلمات تنبىء عن قلب عامر بالطمأنينة والسكينة. وليس من ريب فى أن هذا الصوت لا يمكن ان يكون منطلقا من باطن ذلك بأن قلب مخلوق بشرى فإن الرسول، ما كان فى ميسوره أن يحتفظ - من غير ما عون إلهى - بمثل هذا الهدوء المطمئن، فى مثل هذه الأحوال الخطرة حتى التطرف. إنه لم يكن صوتًا منبعثا من باطن، لا، لقد كان هو الصوت العلوى، صوت الله، رب العالمين، اقبل ليواسى ويطمئن قلبا معذبا فى سبيله. ومن غير الله، العليم بكل شيء، يستطيع أن يؤكد ان الأعداء، برغم وصولهم إلى فم الغار نفسه. لن يستطيعوا أن يدركوهما؟[1].

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة].

كان عبد الله بن أبي بكر يخالط قريشًا طيلة نهاره ويسمع ما يقولون عن رسول الله محمد ﷺ، فإذا أظلم الليل خرج إلى غار ثور ليقص على رسول الله ما تكلمت به قريش، وكان عامر بن فهيرة - مولى أبي بكر - يرعى غنم أبي بكر مع رعيان أهل مكة، فإذا ما أمسى المساء سار بغنمه إلى قرب غار ثور فبات هناك، ليتيح لرسول الله ولأبي بكر أن يحلبا من الغنم ويذبحا منها ما يحتاجان إليه، فإذا طلع الفجر قفل عبد الله بن أبي بكر راجعًا إلى مكة، وسار عامر بن فهيرة بالغنم خلفه ليخفي أثره. حتى إذا مضت ثلاثة أيام، وسكن الطلب عن رسول الله ﷺ أتاهما الدليل عبد الله بن أريقط بالراحلتين لهما، وبراحلة له، وأتتهما أسماء بالزاد، فركب الدليل راحلته، وركب رسول الله راحلة وركب أبو بكر راحلة وأردف خلفه غلامه عامر بن فهيرة لعلهما يحتاجان إليه في الطريق. أما قريش فقد جن جنونها عندما علمت بإفلات رسول الله من قبضتها، وأخذت تستعمل كل وسيلة تستطيعها.

ونقل عن الواقدي أنه ذكر أن قريشا بعثوا في أثرهما قائفين: أحدهما كرز بن علقمة، فرأى كرز على الغار نسج العنكبوت فقال: ههنا انقطع الأثر[2]. وقال ابن عباس[3]: «استأجر المشركون

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص١١٧.
(٢) ابن كثير - البداية والنهاية - ٣/ ١٨٠.
(٣) الدر المنثور - ٤/ ١٩٦ - ١٩٧.

رجلا يقال به جرز بن علقمة الخزاعي فقفالهم الأثر حتى انتهى إلى ثور وهو بأسفل مكة فقال: انتهى هنا أثره فلا أدري أخذ يمنيا أم شمالا أم صعدا الجبل، فلما انتهوا إلى فم الغار قال أمية بن خلف: ما اربكم إلى الغار إن عليه عنكبوتا كانت قبل ميلاد النبي ﷺ»[1] فنهى الرسول ﷺ عن قتل العنكبوت وقال إنها جند من جنود الله[2].

الطريق الذي سلكه الرسول ﷺ إلى المدينة: ولم يغب عن بال رسول الله أن يوجه الدليل لأن يسلك بهم طريقًا غير الطريق الذي يسلكه الناس عادة، فسلك بهما عبد الله بن أريقط طريق أسفل مكة ثم مضى بهما على الساحل.

أما قريش فقد جن جنونها عندما علمت بإفلات رسول الله ﷺ من قبضتها، فأخذت تستعمل كل وسيلة تستطيعها للعثور عليه، فهذا أبو جهل يتوجه مع مجموعة من رجال قريش إلى أسماء بنت أبى بكر الصديق فوقفوا على باب أبى بكر، فخرجت إليهم فقالوا: أين أبوك يا بنت أبى بكر؟ فقالت لا أدرى والله أين أبي. فرفع أبو جهل يده ـ وكان فاحشا خبيثا ـ فلطم خدها لطمة طرح منها قرطها، ثم انصرفوا. وأخذوا يبحثون عنه فى كل مكان، فلما أعياهم البحث خصصوا جائزة قدرها مائة ناقة لمن يرد عليهم محمدًا وكان بين الذين انطلقوا للبحث عنه، طمعًا فى الجائزة، رجل اسمه سراقة بن مالك بن جعشم. فأنباه رجل من قريش أنه رأى ركبة ثلاثة متجهين إلى المدينة. وكان سراقة رجلا قوى البنية ومن غير أن يشعر بذلك أحدا، لبس درعه، وامتطى صهوة فرس جد رشيق وانطلق يطاردهم. وفى بعض الطريق كبا الفرس، فألقى بسراقة من فوق ظهره. وحين استقسم بالأزلام ليرى ما إذا كان عليه ان يواصل المطاردة أم لا، جريا على مألوف عادة القوم فى مثل تلك الأحوال، جاءه الجواب بالنفى. ولكنه لم يبال بالنذير، فواصل الطراد، ولكن الفرس كبا من جديد، وجاءت نتيجة الاستقسام بالنفى كرة أخرى. ومع ذلك فقد امتطى صهوة فرسه وانطلق به بأقصى السرعة حتى أمسى على مقربة من الرسول دانية، وكان على وشك أن يرميه بسهم عندما كب الفرس كرة ثالثة، وغاصت قوائمه هذه المرة فى الرمل. وفى حديث سراقة عن هذه الحادثة، بعد، قال: «عندئذ تجلى لى ان الله قضى بأن تنتصر قضية الرسول» وهكذا طرح نية القتل، وأقبل على الرسول بقلب نادم، وسأله ان يغفر له، فلا يعاقب على فعلته حتى ينتهى الرسول إلى مقام السلطة. فكتب له الرسول العهد الذى طلبه[3].

وكان الصحابة يحتفظون فى متناولهم، على نحو موصول، بأدوات الكتابة من أقلام وحبر لكى يدونوا الوحى الإلهى حال نزوله على الرسول. ليس هذا فحسب، بل لقد بشر سراقة بأنه سوف

(١) الروض الأنف - ٢/ ٢٣١ - ٢٣٢.
(٢) نقله الهيثمي ورواه البزار والطبراني - مجمع الزوائد ٦/ ٥٥ - ٥٦.
(٣) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص١٦٧

يلبس دمالج كسرى الذهبية فى يوم من الأيام وكانت هذه رؤيا رائعة للحادثة التى كان مقدراً لها ان تقع بعد أربع وعشرين سنة تقريبا، وهى حادثة تستعصى على ملكة التخيل عند الإنسان، وبخاصة إذا كان صاحبها رجلا ينجو بنفسه من القتل. ففى مثل هذه الحال اليائسة يعلن الرسول، وحياته تتأرجح فى الميزان، النبأ السعيد القائل بأن مملكة الاكاسرة سوف تؤول إليه. وقد تحققت نبوءة الرسول تلك، فى خلافة عمر، عندما سقطت فارس فى أيدى العرب، واستدعى سراقة ليحلى معصماه بدمالج الاكاسرة. لا نستطيع أن نمر بهذه الحادثة دون أن نعبر عن إعجابنا بتلك الثقة التى لا حدود لها بالله تبارك وتعالى، إنسان طريد شريد يلاحقه الموت فى كل مكان يعد أعرابيا بسوارى كسرى أعظم ملوك الأرض! . هذا الوعيد يلقى ضوءاً يكشف لنا عن بعض مخطط الرسول السياسى والعسكرى. إن هذا التصريح من الرسول ﷺ بأن الله سيلبس سوارى كسرى أعرابيا يعنى: أن صداماً مسلحًا سينشب بين الدولة الإسلامية ودولة فارس، وأن النصر فى ذلك الصدام سيكون للدولة الإسلامية، ولكن متى سيحدث هذا الصدام؟ إن رسول الله وضع الدولة الإسلامية فى وضع لابد فيه من حدوث هذا الصدام، وقد حدث بعد وفاته عليه الصلاة والسلام[1].

وإنما يرجع ثبات الرسول الأعجوبى، الذى أظهره وسط تلك المخاطر الغامرة، إلى ما كان ينزل عليه بين الفينة والفينة، من الوحى الإلهى قصد به إلى التسرية عنه. وكان قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾﴾ [القصص] (أى إلى مكة) تعزية أخرى تلقاها الرسول خلال هجرته إلى المدينة. والواقع، ان الهجرة لم تكن شيئا غير متوقع عنده. فقد أُعلم منذ عهد بعيد أنه سوف يضطر إلى مغادرة مكة، وأن نجم الإسلام سوف يبزغ من موطن آخر. والقرآن الكريم حافل بالنبوءات التى تفيد هذا المعنى فلحظة كانت عاصفة المقاومة فى ذروة قوتها، ومحنة الرسول فى أوج قسوتها، نزل الوحى بأن الإسلام لابد أن ينتصر آخر الأمر، وحتى ولو أفرغ أعداؤه كامل قواهم فى قتاله. والحق أن قصص الأنبياء السابقين، والمعارضة التى جابهوها، ونجاحهم النهائى، كما رواها القرآن الكريم، إنما نزلت فى هذه الفترة من حياة الرسول كضرب من العزاء لتثبيته فى وجه ضروب البلاء التى قاساها. وقبيل الهجرة رأى فى ما يراه النائم أنه هاجر إلى موطن غنى خصب. ولم يكن ذلك الموطن غير المدينة، التى لا تزال إلى اليوم شهيرة بجنائنها. إن السابقين من المسلمين لم يغفلوا عن إدراك أثر الهجرة فى انتصار الإسلام؛ لقد علموا علم اليقين أن ذلك الانتصار كان رهنًا بتلك الحادثة الحاسمة. وهكذا اعتبروها مولدًا للإسلام، فإذا بالتقويم الإسلامى ـ كما سبقت منا الملاحظة ـ يبدأ لا من النداء الإلهى الأول الذى تلقاه الرسول فى غار حراء، ولكن من هجرته إلى المدينة. من أجل ذلك يشير القرآن الكريم إلى هذه الحادثة بوصفها شاهدًا على أن يد الله السعفة كانت من وراء الإسلام، وانها كانت أيضا

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص١١٨ .

ضمانًا لانتصاره النهائى. فهو يقول ما تفسيره: إن لم ينصره المكيون فقد نصره الله فى محنته العظمى عندما تعين عليـه أن يغادر مكة وليس معه غير رفـيق واحد، ولقد تعين على الرفيقـين أن يفزعا إلى غار، ولكنهما لم ينعما بالأمن حتى فى ذلك الغار[1].

كان المطاردون قـد اقتصـوا آثارهم، فانتهـوا إلى فم الغار نفـسه. قال ابن عـباس[2]: «كان المشركون يرمون عليا وهم يظنون أنه النبي ﷺ فجـاء أبو بكر فقال: يا رسول الله، فقال له علي: إنه انطلق نحو بئر ميمونة فادركه، قال فانطلق أبو بكر فدخل معه الغار»[3]، كما أشار ابن حجر إلى أن أصله في الترمذي[4] والنسائي[5] ونقل الحاكم عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ وقال على أبي بكر[6]. وكان رفيقه قد خشى أن يدركهما القوم فابتأس وحزن. ولكن الرسول واسى صديقه، فى تلك اللحظة الحرجة، وسـأله أن لا يحزن لأن الله معهما. ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة] وهذا الإيمان الوطيد العـميق الجذور فى العون الإلهى كان فى الحق هو سـر تفاؤله فى أشد الأحوال قسـوة وأدعاها إلى اليأس. إن أيما لفظة قنوط أو خيـبة لم تند من شفتيـه قط. يا للمغايرة! لقد عرفت الدنيا نبيًا لم يكد يواجه مثل هذه العقبات القاهرة حتى أطلق كلمات الخيبة، قائلا إنه يؤثر أن يلتحق بآبـائه وأجداده. وعرفت نبـيًا آخر عـبر عن يأس مماثل فى حال مـن العجز المطلق فـقال: «إلهى! إلهى! لم خذلتنى؟» أما محمد، صلـوات الله وسلامه عليه، فلم يعرف أيما قنوط، أو يأس، أو فزع. كان كلما نابت الخـطوب وادلهمت توجه قلبه بالأمل. وفى هذه الساعة من سـاعات العجز الأقصى، حين بدأ ـ من الزاوية البشرية ـ أن الرسول قد حرم الأمن حتى فى مفزعه الأخير بغار ثور، هتف بقلب مفعم بالأمل والثـقة: «إن الله معنا». وخلال الفترة المكية، الممـتدة على ثلاث عشرة سنة ونيف، تعين على الرسول أن يعـمل فى وجه مقاومة من أعنف المقاومات وأمـرها. لقد خلقت قوته الروحية نحـوًا من ثلاثمئة عملاق من عمـالقة الروحانية، الذين لم يتزعـزع إيمانهم به لحظة واحدة، والذين نصروه برغم ضروب التعذيب المبرحـة، والذين هجروا بيوتهم وممتلكاتهم ولكنهم لم يهجروه هو. والواقع أن الانقلاب العجيب الذى أحدثه فى فتـرة قصيرة لا تزيد على ثلاث عشرة سنة، برغم المعارضة الموحدة التى أبدتها الأمة كلها، قد انتزع إعجابًـا عصيًا حتى من ناقد مثل السير وليم ميووير الذى رسم الصورة التالية لصحابته[7]:

---

(١) مولانا محمد علي – نفس المرجع ص١١٩.

(٢) الحاكم المستدرك مع التلخيص – ٣/ ١٣٢ – ١٣٤ – اخرجه احمد والحاكم لابن عباس من طريق عمرو بن ميمون

(٣) احمد – المسند – ١/ ٣٣٠ – ٣٣١.

(٤) الترمذي في سننه عن ابن عمر: ٥/ ٢٧٥ – رقم ٣٧٥٢.

(٥) النسائي – لفضائل الصحابة – حديث ٤ – رقم ٣ وعند الطيالسي جـ٢ ٤٢ رقم ٣١٤.

(٦) عن طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس اخرجه البيهقي في الدلائل ٢/ ٤٨٢ والسيوطي – الدر المنثور: ٤/ ٢٠٧.

(٧) مولانا محمد علي – المرجع السابق ص١٢٢ .

«فى فتـرة قصيـرة إلى هذا الحد كـانت مكة قد انشقت، بسـبب من هذه الحركـة الرائعة إلى حزبين كانا قد نظما صفوفهما، غافلين عن المعالم القديمة للقبيلة والأسرة، فى صراع تقابلا فيه على نحو مهلك. ولقد صـبر المؤمنون على الاضطهاد بروح متأنية متسـامحة، وعلى الرغم من ان الحكمة كانت تقـتضيهم اتخاذ هـذه الموقف، ففى إمكاننا أن نعترف لهم، فى غـير ما تحفظ، بفـضيلة الحلم الراشح بالشهامة وكـرم الأخلاق. كان مئة رجل وامرأة منهم قـد هجروا ديارهم، مؤثرين ذلك على ترك إيمانهم الغالى، والتمـسوا الأمن والسلامة، ربما تهدأ العاصفة، فى منفى ببـلاد الحبشة. وها إن عددًا منهم أكبر من ذلك، وفيهم الرسول نفسه، يهاجرون الآن من مدينتهم الحبيبة ببيتها الحرام، الذى كان عندهم أقـدس بقعة على الأرض، ويفزعـون إلى المدينة. وهناك كانت التعويذة العـجيبة نفـسها تنشىء لهم، طوال سنتـين أو ثلاث سنوات، جماعـة متآخـية مسـتعـدة لأن تحمى الرسول وأتبـاعه بدمائها. كانت الحقيقة اليهـودية قد تزددت فى آذان أهل المدينة منذ عهد طويل، ولكنهم لم يستيقظوا هم أيضا من سـباتهم وينطلقوا فجـأة إلى حياة جيـدة قويمة إلا بعد ان سـمعوا بيان الرسـول العربى الآخذ بمجامع القلوب. وقد وصف القرآن الكريم نفسه فضائل المسلمين فقال:

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ ﴾ [الفرقان].

والواقع أن هذه ومئات غيرها من الآيات القرآنية التى تصف شمائل الصالحين لا ترسم صورة خيـالية. إنها تقـدم إلينا وصفًا حـقيقـيًا لحيـاة صحابة الرسـول. وإنما كان الفضل فى هذا التـحول الأعجوبى للسلطان الروحى الذى تكشف عنه رجل فـرد. ففى فترة قصيرة إلى حـد غريب سما إلى ذروات الأخلاق العلـيا مئـات من الناس الغارقـين فى الرذيلة والخرافـة، المستسلمـين لأحط أشكال الوثنية، المكبلين بأصفاد أقذر العـادات الاجتماعية وأشدها قسوة. لقد نفخ فـيهم روحًا جديدة، فإذا بهم يتشبثون بمبادئ الحق والفضيلة والإحسان إلى الناس، تلك المبادئ التى ارتضوها، ويعضون عليها بالنواجـذ، برغم مـا لقوة من إعنـات ليس أفظع منه. لقـد غرس فـيهم حس المسؤولية والكرامـة الإنسانية. كـان ههنا، فعلا، أعظم محـسن للإنسانية. وأتم الرسول وصاحبـاه الرحلة إلى المدينة فى ثمانية أيام ـ وهى رحلة تستـغرق عادة أحد عشر يومًا ـ فبلغـاها فى الثانى عشر من ربيع الأول، من

السنة الثالثة عشرة للبعثة، الموافق للثامن والعشرين من يونيو عام ٦٢٢ للميلاد. وكانت أنباء اختفائه من مكة قد سبقته إلى هناك، ولكن اختبائه ثلاثة أيام في الغار لم يعرف به أحد. كانت البلدة تتوقع وصوله في لهفة. ففي كل صباح كان جماعة من أشد المؤمنين حماسة يخرجون للقاء سيدهم، مجتازين أميالا من الطريق المفضية إلى مكة. وأخيرًا انقضت ساعات الارتقاب النافذ الصبر، بما انطوت عليه من ملل وسأم، وأطل الزائر العظيم على أفق المدينة. وعلى مسافة ثلاثة أميال من البلدة يقع موطن يعرف بقباء، ويعتبر ضاحية المدينة، هناك أقامت عدة أسر من الأنصار، كانت أسرة عمرو بن عوف أبرزها وأوجهها. وقبيل دخول الرسول المدينة، قبل دعوة عمرو هذا، فعرج على قباء. وكان عدد من المهاجرين يقيمون هناك أيضا. فتدفق المسلمون من يثرب إلى قباء، زرافات زرافات ليلقوا زعيمهم المبجل. ومكث الرسول، ثمة، أربعة عشر يومًا[1].

وصف جغرافيو العرب الأرض التي بين مكة والمدينة بأنها وعرة ومزحشة لا يصادف فيها المسافر ما يخفف عنه السفر من زرع وماء ويتخللها طريقان أحدهما شرقي محاز لبلاد نجد والآخر غربي محاذ لساحل البحر الأحمر، وقد اختار الدليل الطريق الثاني بيد أنه لم يسلك جادة هذا الطريق المألوفة تماما بل كان يلتوي هنا وهناك تفاديا من أن يلحقهم من يقفوا أثرهم من القرشيين ممن كانوا يطمعون في الحصول على الجائزة التي قررتها قريش لمن يأتي بالرسول محمد ﷺ وهي مائة ناقة لمن يدلهم عليه أو يأتي به[2].

بلغ مجموعات الحماية التى أرسلها رسول الله إلى المدينة قبله، نبأ خروج الرسول ﷺ من مكة، فجلسوا ينتظرون قدومه إليهم، فكانوا يخرجون إلى مشارف المدينة، إلى قباء ينتظرون قدومه، ويبقون هناك إلى الظهيرة، ولما كان اليوم الذى قدم فيه رسول الله، كان الناس قد دخلوا بيوتهم من حر الظهيرة، وإذا بصوت يهودى ينادى يا بنى قيلة هذا جدكم قد جاء، فخرجوا إلى رسول الله، وأكثرهم لا يعرفه، فلم يفرقوا بين رسول الله وأبى بكر حتى رأوا أبا بكر يظله من الشمس، فعرفوا أنه رسول الله. نزل رسول الله ﷺ على كلثوم بن هدم، وكان يجلس للناس فى بيت سعد بن خيثمة، لأنه كان أعزبًا، ولهذا حدث التباس في بعض المصادر حول قضية نزوله وذهب البعض إلى القول بأنه نزل على سعد لا على كلثوم[3]، ونزل أبو بكر الصديق على حبيب بن إساف. ولم يلبث الإمام علي بن أبى طالب أن لحق برسول الله فى قباء بعد ان بقى فى مكة بعد خروج رسول الله منها ثلاثة أيام، رحل بعدها إلى المدينة المنورة، ولحق برسول الله فى قباء، ونزل مع رسول الله على كلثوم بن هدم. ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ... ﴿٧٢﴾﴾ [الأنفال].

---

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص١٢٣ .

(٢) د. حسن إبراهيم حسن - المرجع السابق ص٩٩.

(٣) ابن هشام - القسم الاول ص٤٩٣

أسس الرسول أول مسجد فى الإسلام، وقد عرف بمسجد قباء. وإلى هذا المسجد يشير القرآن الكريم بقوله، فى السورة التاسعة ﴿ ... لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [التوبة] ولقد بناه الرسول وصحابته بأيديهم، فكانوا يشاغلون كلهم فى بنائه وكأنهم عمال عاديون. وبعد ذلك دخل الرسول إلى المدينة، التى لبست جميع أحيائها بحلة التهلل والابتهاج. وانطلق القوم لتحيته، وقد ارتدوا أبهى ملابسهم. وصعدت النسوة إلى سطوح منازلهم، وغنين بصوت واحد ترحيبًا بالزائر النبيل. كان كل امرئ راغبا فى أن يقيم الرسول فى بيته هو. ولكن الرسول ألقى لناقته خطامها، تاركًا إياها تمضى على هواها، وقال للحشود المتلهفة المتحلقة من حوله، إنه سوف ينزل حيث تبرك تلك الناقة. ومضت الناقة فى سبيلها حتى وصلت إلى مربد قبالة بيت أبى أيوب خالد بن زيد الانصارى وثمة بركت. وكان المربد لغلامين يتيمين هما سهل وسهيل ابنا عمرو فقدماه للرسول، بالمجان لبناء مسجد عليه، ولكنه لم يرتض أن يقبله من غير ثمن وهكذا تعين عليهما أن يقبلا الثمن. فكان أول عمل تم هناك هو بناء المسجد، وقد شيده الرسول وأصحابه بأيديهم. والواقع ان كل امرئ اعتبر هذا العمل التطوعى فخرًا له وشرفًا، فكانوا يرددون مع الرسول، وهم يرفعون قواعد المسجد: «اللهم، لا سعادة إلا سعادة الدار الآخرة. اللهم، انصر المهاجرين والانصار!» وكان المسجد يتسم بالبساطة الكاملة: فقد بنيت جدرانه الأربعة من الآجر ودعم سقفه بجذوع النخيل، وغطى بسعف الشجر نفسه. ولم يكن قادرًا، بوصفه هذا، على أن يذود المطر عن أرضه غير المعبدة، فهو يجعلها موحلة. وللتغلب على هذه العقبة، فرشت أرضه بالحصى، وفى زاوية من الفناء أقيم ضرب من المنصة المسقوفة لإيواء من لاسكن لهم ولا أسرة[1].

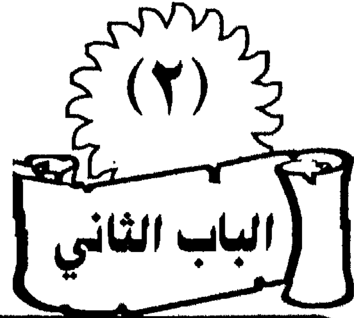
عرف الذين أقاموا هناك بأهل الصفة. وكان هذا، إذا جاز التعبير، ضربًا من المدرسة الدينية ملحقًا بالمسجد، ذلك بأن هؤلاء القوم كرسوا وقتهم لدراسة الدين. وفى محاذاة المسجد بنى مسكنان لأسرة الرسول. كان المسلمون، خلال مقامهم فى مكة، ولا يستطيعون إقامة الصلاة على رؤوس الأشهاد جماعة. أما وقد أجازت حال السلم فى المدينة إقامة الصلوات جهارًا فقد درست ذات يوم مختلف الطرائق التى يستطاع بها دعوة المؤمنين إلى الصلاة فى مواقيتها. وفى الليلة نفسها كان عمر بن الخطاب قد رأى فى ما يرى النائم رجلا يردد «الله أكبر! الله أكبر!» - أى نص الأذان الذى أمسى منذ ذلك الحين ملء الأسماع. وفى صباح اليوم التالى قص رؤياه على الرسول. وكان صحابى آخر قد رأى الرؤيا نفسها أيضًا. فلم يكن من الرسول إلا ان تبنى هذا النص أذانًا رسميًا. وأقيمت هنا أول صلاة جمعة جامعة يوم غادر الرسول قباء ودخل مدينة يثرب[2] ما إن وضع رسول الله قدميه فى المدينة المنورة، وشرع فى إقامة صرح الدولة الإسلامية فيها حين فرض الهجرة على كل مسلم أينما

---

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص١٢٥.

(٢) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص١٢٦ .

كان من غير أصحاب الأعذار، لأن الدولة بحاجة إلى إمكانيات وعطاءات كل مسلم من جهد ومال وليكون المسلمون جميعًا تحت ولاية وحماية الدولة الإسلامية، غير مستضعفين فى الأرض: ﴿ ... وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا ... ﴿٧٢﴾ ﴾ [الأنفال]، وبناء على ذلك فقد تلاحق المهاجرون إلى رسول الله حتى قال ابن اسحاق: «ولم يبق منهم فى مكة أحد إلا مفتون أو محبوس» حتى إن بعض الأسر والعائلات قد أرعبت فخرجت برمتها إلى رسول الله وتركت بيوتها فى مكة خالية.



معارك وغزوات الدولة الإسلامية الأولى

الفصل الخامس

بناء الدولة الإسلامية في مدينة رسول الله محمد ﷺ ومعركة بدر

الفصل السادس

معركتي أحد والأحزاب

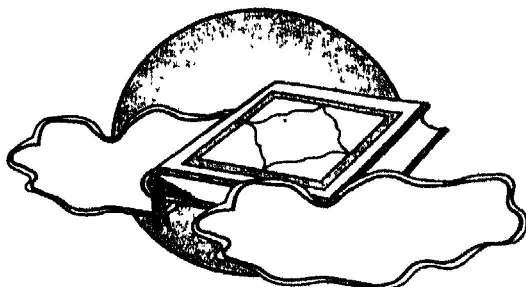
الفصل السابع

من هدنة الحديبية إلى فتح مكة

الفصل الثامن

رسول الله محمد ﷺ القائد الأعلى للقوات الإسلامية

الفصل الخامس



بناء الدولة الإسلامية الأولى في مدينة رسول الله محمد ﷺ ومعركة بدر

بناء الدولة الإسلامية الأولى في مدينة رسول الله محمد ﷺ

ما إن وصل رسول الله محمد ﷺ المدينة المنورة حتى بدأ يعد العدة لإعلان قيام الدولة الإسلامية ككيان سياسى بين الكيانات السياسية فى العالم، وكسلطة وليه الجميع من يستظلون بظلها ويعيشون بكنفها، ومهيمنة عليهم: وقد بدأ عليه الصلاة والسلام ببناء المسجد باعتباره المقر الرسمي للدولة، منه تصدر القوانين، وفيه تناقش الأمور، ومنه تذاع البلاغات، وفيه يفصل فى الخصومات، وأصبحت يثرب معقل الإسلام والمسلمين وغدت تعرف باسم مدينة النبي ﷺ وتسمى اليوم المدينة المنورة لوجود قبر الرسول محمد ﷺ وقد ذكر ياقوت تسعة وعشرين اسما منها المدينة - طيبة والمحببة والمحبوبة ويثرب والناحية والمباركة والعاصمة والشرفية[1]. بعد أن دخل رسول الله المدينة المنورة وازمع على إقامة دولة الإسلام فيها، كان عليه أن يوجد الأمن والاستقرار فى الداخل، ليتفرغ هو ومن حوله من المسلمين لبناء دولة الإسلام، ولئلا تشغلهم أو تعوقهم القلاقل الداخلية عن بناء دولة الإسلام التى تعتبر الحامى الحقيقى لدين الله، وكان فى المدينة الأنصار الذين أكلتهم الخلافات التى استحكمت بين أوسهم وخزرجهم، وكان فيها اليهود وهم فئة غير مأمونة الجانب، وقد امتلأت نفوسهم حقداً على الدين الجديد، وهم يحاولو إجهاضه بأساليبهم الدنيئة المعروفة، وكان فيها المهاجرون الذين قدموا من مكة المكرمة فراراً بدينهم إلى الله[2].

استطاع عليه الصلاة والسلام بنظرة السياسى الثاقبة، وحسن تدبيره للأمور أن يضبط الأمور ويحبك أطرافها حبكًا جعلها طوع يديه، وكان رسول الله محمد يهتم بإسناد الأمر إلى المدير القادر عليه حريصا على تقرير التبعات في الشئون ما كبر منها وما صغر على النهج الذي أوضحه الرسول بقوله: «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته». وقد كانت أوامر الإسلام ونواهيه معروفة لطائفة كبيرة من المسلمين أنصارا كانوا أو مهاجرين ولكن رسول الله محمد ﷺ لم يترك أحداً يدعي لنفسه حقا في إقامة الحدود وإكراه الناس على طاعة الأوامر واجتناب النواهي غير من لهم ولاية الأمر وسياسة الناس[3].

شاع الإسلام بين الأنصار وانتشر، ولم تبق من دورهم إلا أسلم بعض أهلها. لا يستثنى من ذلك إلا بعض البيوت القليلة، ومن المعلومات التى اجتمعت لدى رسول الله ﷺ من مصعب بن عمير وغيره، عرف رسول الله المؤتلف من القوم فى المدينة والمختلف منهم، ورأى عليه الصلاة

---

(١) د. محمد رواس قلعه جي - المرجع السابق ص١١٠.

(٢) ياقوت الحموي - معجم البلدان - انظر المدينة المنورة.

(٣) عباس محمود العقاد - المرجع السابق ص٦٦.

والسلام أن من الحكمة الإسراع فى معالجة أمر الأنصار الذين استحكمت فيهم الخلافات معالجة جذرية، بتقسيمهم إلى خلايا متضامنة فيما بينها على الخير، ومسؤول بعضها عن بعض، ففعل ذلك رسول الله ووضع الجميع أمام مسؤولياتهم، فلم يفلت منهم احد، واعتبر هذه الخلايا التى يوحد بينها الإيمان بالله تعالى، وتربط بينها الإخوة الإسلامية مسؤولة مسؤولية تضامنية عن درء العدوان الكافر الواقع بالدولة الإسلامية. وبذلك يكون عليه الصلاة والسلام قد نظم المجتمع الجديد تنظيمًا جديدًا يتفق على القيم الإسلامية، ويخدم مصالح الدولة الإسلامية، وهو يختلف اختلافا أساسيًا عن تنظيمه القديم القائم على أساس العصبيات[1]. وبذلك كان قد استقبل الأنصار إخوانهم المهاجرين وشاطروهم الديار والأموال ثم بذلوا لهم النفس والنفيس ابتغاء رضوان الله وقد أصبح حب الأنصار جزء من عقيدة الإسلام وبات بغضهم نفاقا يزري بصاحبه[2]. وكتب عليه الصلاة والسلام بذلك كتابًا وافق عليه جميع الأطراف ذات العلاقة، وهذا هو نص الكتاب:

«بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب من محمد النبى بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم فلحق بهم، وجاهد معهم. إنهم أمة واحدة من دون الناس، المهاجرون من قريش على ربعتهم (الحال التي وجدهم عليها الإسلام) يتعاقلون (الدية) بينهم وهم يفدون عانيهم (الأسير) بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، كل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وان المؤمنين لا يتركون مفرحا (المثقل بالدين والكثير العيال) بينهم أن يعطوه بالمعروف فى فداء أو عقل. والا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه، وأن المؤمنين المتقين على من بغى منهم، أو ابتغى دسيعة (العظيمة) ظلم أو إثم أو عدوان أو إفساد بين المؤمنين، وأن أيديهم عليه جميعا، ولو كان ولد أحدهم. ولا يقتل مؤمن مؤمنا فى كافر، ولا ينصر كافرًا على مؤمن، وأن ذمة الله واحدة، يجبر عليهم ادناهم، وأن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس، وأنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة، غير مظلومين لا متناصرين عليهم. وإن سلم المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن فى قتال فى سبيل الله على سواء وعدل بينهم. وإن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضًا. وإن المؤمنين يبيء (قتله به، جعله بواء به) بعضهم على بعض بما نال دماءهم فى سبيل الله. وإن المؤمنين المتقين على أحسَن هدى وأقومه. وانه لا يجير مشرك مالا لقريش ولا نفسًا، ولا يحول دونه على مؤمن، وإنه من اعتبط (قتله بلا جناية توجب القتل) مؤمنًا قتلا عن بينة فإنه تود إلا أن يرضى ولى المقتول، وإن المؤمنين عليه كاف، ولا يحل لهم إلا قيام عليه. وإنه لا يحل لمؤمن أقر بما فى هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثا ولا يؤويه، وإن من

---

(١) د. محمد رواس قلعه جي - المرجع السابق ص١١١.

(٢) محمد حامد الناصر - الحياة السياسية عند العرب - جـ١٢.

نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل. وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد ﷺ»[1].

بهذه الإخوة قام المجتمع المسلم في المدينة المنورة وضرب مثلا رائعا في التكافل الاجتماعي وبناء الجماعة المسلمة. لقد شاطر الأنصار إخوانهم المهاجرين المال والديار بكرم وسخاء وكانت المؤاخاة رباطا قويا متينا جمع المهاجرين والأنصار بما يترتب على ذلك من حقوق وصل بل تساوت مع حقوق الإخوة في النسب[2]. وعالج رسول الله أمر اليهود بمعاهدة عقدها معهم ونص هذه المعاهدة: «إن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وإن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ (يهلك) إلا نفسه وأهل بيته. إن هذه المعاهدة تحتوى على خمسة أمور رئيسية: اعتبار اليهود مواطنين فى الدولة الإسلامية، لهم حريتهم الدينية، تحميهم الدولة وتدافع عنهم وكفل لهم التمتع بما للمسلمين من حقوق وفتح الطريق للراغبين في الإسلام. على اليهود أن يساندوا الدولة الإسلامية فى رد العدوان عنها. على اليهود النصح للدولة الإسلامية، فلا يتآمرون عليها، ولا يخفون نبأ من يعلمون منه الكيد للدولة الإسلامية. تفرض الإقامة الجبرية على اليهود، ولا يجوز لهم مغادرة أماكنهم إلا بإذن من الدولة الإسلامية. السيادة للدولة الإسلامية، وإليها يرجع اليهود فى فصل الخصومات التى تنشب بينهم وبين المسلمين. حتى إذا نظم الرسول الصلات على هذا النحو التفت إلى مسألة إعالة اللاجئين. كان معظمهم، خلال مقامهم فى مكة، يحيون فى رغد وسعة، بيد أنهم اضطروا بعد ذلك إلى أن يخلفوا ثرواتهم وممتلكاتهم وراءهم ولما كان المهاجرون قد خرجوا من بلدهم مكة وقد تركوا فيها أموالهم، وحلوا المدينة المنورة وليس لهم فيها بيت يأويهم، ولا مال ينهض بحوائجهم، فلا بد من أن يتخذ الرسول تدبيراً اقتصاديا يحل مشكلتهم إلى جانب التدابير السياسية والاجتماعية، ولذلك آخى الرسول بينهم وبين الأنصار، فقال عليه الصلاة والسلام: «تآخوا فى الله أخوين أخوين» ثم أخذ بين الإمام علي بن أبى طالب عليه السلام فقال: «هذا أخى». فكان رسول الله ﷺ سيد المرسلين وإمام المتقين، ورسول رب العالمين، وعلى بن أبى طالب رضى الله عنه أخوين. وكان حمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسوله ﷺ وعم رسول الله ﷺ، وزيد بن حارثة مولى رسول الله أخوين، وإليه أوصى حمزة يوم أحد حين حضره القتال إن حدث به حادث الموت. وجعفر بن أبى طالب ذو الجناحين الطيار فى الجنة، ومعاذ بن جبل أخو بني سلمة أخوين. وانطلاقا من هذا الإخاء جعل الواحد من الأنصار يعطى أخاه المهاجر من ماله ما ينهض بحاجته دون عد ولا حساب، وجعل الواحد منهم يرث الآخر

(١) ابن هشام - جـ٢ - ص١١٩ - ١٢٣.
(٢) محمد حامد الناصر - المرجع السابق ص١٢٠.

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الأنفال].

عمل رسول الله محمد ﷺ في هذا الجو ووضع المخططات للتجمع المدني الإسلامي الجديد في المدينة المنورة وكانت المشكلة الأولى التي واجهها هي مشكلة اقتصادية نبعت من واقع أصحابه المهاجرين الذين تركوا أموالهم في مكة وغادروها بدون أمل في العودة أو استرداد ما يملكون. ولهذا كله وتوكيدا لوحدة المجتمع المدني الإسلامي أوجد الرسول محمد ﷺ نظام المؤاخاة[٢]. وكانت على مرحلتين الأولى المؤاخاة على «الحق والمؤاساة» وقد نص نظام المؤاخاة هذا على حق التوارث بين المتآخين دون الأرحام والمرحلة الثانية كانت المؤاخاة فيها بين المهاجرين أنفسهم قال رسول الله محمد ﷺ لأتباعه: تآخوا في الله أخوين أخوين ثم أخذ بيد الإمام علي بن أبي طالب فقال هذا أخي. ثم آخى بين حمزة عمه ومولاه زيد بن حارثة[٣].

فنسخ التوارث بالإخوة الإسلامية، وجعل التوارث بالقرابة النسبية المشرية بالإسلام. وبذلك يكون رسول الله قد فرغ من إصلاح الأوضاع الداخلية ونشر الأمن والسلام فى ربوع الدولة الإسلامية الناشئة. وهكذا عقد الرسول إخوة بين الأنصار والمهاجرين - إخوة فريدة فى تاريخ العالم. فجمع برباط الإخاء بين المرء من المهاجرين والمرء من الأنصار. ولقد اخذ القوم بأسباب التعاطف والحب اللذين بنيت عليهما هذه الإخوة الجديدة أخذا رائعا لم يسبق إلى مثله. فآوى كل من الأنصار أخا له من المهاجرين، فشاطره بيته، وقاسمه أمواله وأمتعته على نحو متكافئ. وكان الأنصار أصحاب زراعة، ولقد رغبوا فى أن يقتسموا مزارعهم مع إخوتهم بالتساوى. وكان المهاجرون أصحاب تجارة، فهم يسجهلون كاملا. وحين أدرك الأنصار ذلك قالوا انهم سوف ينهضون بالعبء كله بأنفسهم ويقدمون نصف الغلال إلى المهاجرين. فقد كانت الرابطة الجديدة من القوة بحيث أصبحت حتى صلة الدم بين الإخوة الأشقاء. وذلك أن ممتلكات أحد المآخيين كانت، إذا ما توفاه الله إليه، لا يرثها إخوة من أبيه بل أخوة فى الإيمان. ولكن القرآن الكريم حظر ان يذهب بتلك الرابطة إلى هذا إلى المدى، وأوصى بأن ينتقل الإرث، بالطريق الطبيعى، إلى ذوى الأرحام[٤].

تجاوز التآخي بين المهاجرين والأنصار النظريات إلى التطبيق الودود والمحبة الصادقة. إن المؤمن المغترب بدينه يشعر بفرحة عجيبة تنسيه آلام معاناته من الجاهلية التي تطارده وفراقه لدياره وأهله وعشيرته إذا شعر أن إخوته في العقيدة وقفوا إلى جانبه يمسحون عنه آلامه ويخففون عليه من جراحه[٥].

---

(١) د. محمد رواس قلعه جي - المرجع السابق ص١١٢

(٢) د. نبيه عاقل المرجع السابق ص٤٣٩.

(٣) د. نبيه عاقل - نفس المرجع ص٤٤٠.

(٤) مولانا محمد عل - المرجع السابق ص١٢٨.

(٥) محمد حامد الناصر - المرجع السابق ص١٢٠

لئن كانت هذه هي روح التضحية الأصلية التي تلقى بها الأنصار إخونهم فى الدين فإن المهاجرين، بدورهم، لم يستغلوا مشاعرهم الوجدانية البتة. فحين عرض على عبد الرحمن بن عوف من قبل اخيه الأنصارى أن يأخذ نصف ممتلكات هذا الأخ كلها، عبر عن شكره لهذا الكرم، واجتزأ بسؤاله أن يدله على سوق البلدة حيث سعى فى سبيل اكتساب الرزق، وما هي إلا فترة حتى أنشأ تجارة رابحة خاصة به. وعلى نحو مماثل انصرف سائر المهاجرين إلى العمل فى حقل التجارة. وأما أولئك الذين لم يجدوا ما يتاجرون به فقد عملوا حمالين عاديين، وبذلك لم يقيموا أودهم وأود أسرهم فحسب، بل اقتصدوا شيئا يقدمونه إلى «بيت المال»، أو الخزانة العامة لكى ينفق فى خدمة المجموع. وسرعان ما ازدهرت تجارتهم ازدهارا عظيما، فإذا بقوافل بعضهم التجارية تتألف كل منها من سبعمائة بعير. وذات يوم، وكانت السنة سنة جدب، وفد على الرسول ضيف، إذ لم يجد فى بيته مؤونة ما سأل أبا طلحة، وكان من صحابته، وأن يكرم وفادته، حتى إذا مضى أبو طلحة بالضيف إلى بيته، اكتشف أن ما عنده من طعام لا يكاد يكفى أطفاله. وتفاديا لحرج الموقف أطفأ أبو طلحة الضوء، وقدم إلى الضيف أيما شئ تيسر له تقديمه، وجلس هو وزوجته إلى المائدة، مع ضيفهما - وكان هذا واجبا يفرضه حسن الضيافة - وراحا يتظاهران من طريق تحريك يديهما وفميهما، بتناول الطعام مع الضيف. وإذا كان ذلك الطعام يسيرا ما يكاد يقيم صلب الضيف وحده، فقد باتت الأسرة كلها، تلك الليلة، على الطوى. وبعد ذلك عرف المسلمون، بفضل من الله، أيام خصب ورغد، وشرعوا يحيون حياة رخية. ولكنهم سلكوا فى كلتا الحالين، حال الشدة وحال الفرج، مسلكا رائعا. إنهم لم يتذمروا فى الأولى البتة، ولم يبذروا ثروتهم فى الأخرى على الإطلاق. لقد انفقوها فى سبيل الله: فى مد يد العون إلى الفقير، والمعوز، واليتيم[1].

نظر رسول الله فوجد أن دولة الإسلام التى ستقوم بحاجة إلى كل زند مخلص، وإلى كل فكر نظيف، وإلى كل قلب وضاء، ليساعدوا فى بناء دولة الإسلام لأن دولة فتية هذا شأنها تحمل رسالة النهضة والإصلاح إلى الإنسانية كلها لابد لها من أن تستفيد من كل طاقة بشرية مخلصة لها. وتطلع رسول الله إلى السماء يطلب من ربه التسديد والتوجيه حتى لا تزل به قدم، أو يند له فكر، ولم يدم الأمر طويلا حتى نزل قول الله تعالى يفرض الهجرة إلى المدينة المنورة على كل من قال لا إله إلا الله محمد رسول الله، فى أية بقعة من الأرض كان، فقال عز من قائل: ﴿ ... وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا ... ﴿٧٢﴾ ﴾ [الأنفال]. وأعلن الله عدم مسؤولية جماعة المسلمين عن كل مسلم لا يهاجر وينحاز إليهم، وعدم استحقاقه شيئا من فيئهم، وعدم قبول حجه إذا حج حتى يهاجر إلى الله ورسوله وينضم إلى جماعة المسلمسن. بعد أن شيد رسول الله ﷺ المقر الرسمى للدولة الإسلامية، وأصلح الأوضاع الداخلية، واجتمع الناس لرسول الله، وجعلوا

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص١٢٩ .

القيادة والحكم له. والكل له مطيعون، نستطيع القول إن الدولة الإسلامية قد قامت بالفعل ولم يبق عليها إلا أن تخطو الخطوة التالية وهى إعلان قيامها السياسى رسميا. تذكر كتب السير أنه لما اطمأن رسول الله بالمدينة، واجتمع إليه إخوانه من المهاجرين والأنصار، واستحكم أمر الإسلام فقامت الصلاة، وفرضت الزكاة والصيام، وقامت الحدود وفرض الحلال، وحرم الحرام، وتبوأ الإسلام بين اظهر الناس المكان المرموق[1]، نشأ المجتمع المدني قويا يتحدى ضغوط الواقع الجاهلي حصينا من نزغات الدنيا وجواذبها وروابط العصبية والأهل والعشيرة إذا وقفت أمام عقيدته الجديدة واليوم كيف يستطيع المؤمنون أن يتخلصوا من ضغوط الجاهلية المعاصرة؟ إذا لم يرتفعوا إلى هذه المعاني السامية من التآخي الصادق والتعاون بلا منّة ولا إحراج، وإن التآخي يجب أن يخرج من عالم النظرية إلى عالم التطبيق وبذلك يستطيع المسلمون اليوم أن يعيدوا للمسلمين ماضيهم وأن يضعوا لبنات في طريق المستقبل، إن الإسلام كان قد صنع من العرب نماذج فريدة، أنكر الفرد فيها نفسه وقطع صلته بأبيه وبابنه وهجر المال والمتاع وأصبح له طريق جديد ووجهة جديدة إلى كيان آخر إسلامي يلتصق به ويحس أنه أصبح قطعة منه ذلك هو رسول الله محمد ﷺ والمؤمنون[2]. إن للأذان معنى آخر ومهمة أخرى غير مهمة الدعوة للصلاة، إنه إعلان رسمى صادر عن مقر الدولة الرسمى ـ المسجد ـ وبواسطة أداة إعلام رسمية ـ هى المؤذن الذى عينه رسول الله ﷺ، رئيس الدولة ـ بقيام دولة الله فى الأرض لقيادة محمد رسول الله صلوات الله وسلامه عليه، بعد أن تجاوزت كل العقبات التى وضعها العتاة الظلمة فى طريق قيامها، وفاق تدبير الله كل تدبير، وفاقت قوته كل قوة. تأمل إن شئت أول كلمات الأذان «الله أكبر. الله أكبر» إنها تعنى أن الله تعالى أكبر من أولئك الطغاة، وأكبر من صانعى العقبات، وهو الغالب على أمره. «أشهد أن لا إله إلا الله» فلا سيادة فى دولة الإسلام لغير الله، ولا حكم إلا له ﴿... إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ... ﴿٥٧﴾﴾ [الأنعام]. «أشهد أن محمدا رسول الله» أسلمه الله تعالى القيادة، فليس لأحد أن ينزعها منه، فهو ماض بها إلى أن يكمل الله دينه، بما ينزله على رسوله من قرآن، وبما يلهمه إياه من سنة. «حى على الصلاة، حى على الفلاح» أقبل يا أيها الإنسان للانضواء تحت لواء هذه الدولة التى أخلصت لله، وجعلت من أهدافها تمتين العلاقة بين الإنسان وخالقه، وتمتين العلاقة بين الإنسان والإنسان على أساس من القيم الإنسانية السامية. «قد قامت الصلاة» نعم قد قامت الصلاة بقيام هذه الدولة، ولولا قيامها لما جرأ أحد على عبادة الله. «الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله» ثم يعود ليؤكد فى النهاية الأذان أن السيادة فى دولة الإسلام لله تعالى وحده، وأن الحكم فيها لشريعته[3].

---

(١) د. محمد رواس قلعه جي - المرجع السابق ص١١٧.
(٢) محمد حامد الناصر - المرجع السابق ص١٢١.
(٣) د. محمد رواس قلعه جي - المرجع السابق ص١١٨ .

سياسية الدولة الإسلامية الأولى مع القوى الداخلية والمجاورة: بعد أن تم لرسول الله ﷺ الإصلاح الداخلي ولمس الاستقرار فيه، توجه عليه الصلاة والسلام إلى تقدير الموقف الخارجي تجاه دولة الإسلام. وأول ما يجب أن يعرفه في تقدير الموقف: الصديق والعدو. ولم يكد الرسول يفرغ من بناء المسجد حتى أخذ يبث الدين في نفوس أصدقائه وأتباعه ومن ثم سمى هذا الدين «الإسلام» لما فيه من الانقياد والخضوع المطلق لإرادة الله تعالى والدين، والذين يدينون به يسمون المسلمين أي الذين يخضعون لأمر الله ورسوله وأمر الرسول بإقامة الصلاة خمس مرات في اليوم كما أمر بصوم شهر رمضان وحمى حقوق الملكية الفكرية والجماعية العامة وجعل للمرأة مركزا محترما لم يكن لها في السابق في الجاهلية[1]. وقد قدر رسول الله ﷺ الموقف بما يلي: أولا: الصديق: وقد تبين لرسول الله أن الصديق فيّ حكم المعدوم، لأن النجاشي ـ ملك الحبشة ـ رغم إيمانه بالرسول ﷺ لا يستطيع أن يقدم للرسول أية معونة نظرا لبعد الشقة فيما بينهما، لأن شعبه على خلافه في قضية الإيمان بمحمد كرسول من عند الله، وقد رأينا كيف أن بطارقته قد نخروا عندما قال ما قال مثنيا على رسول الله ودعوته، فصداقته لا تعدو أن تكون صداقة شخصية لا تجدى فتيلا. ثانيا: العدو: وقد وجد عليه الصلاة والسلام أن العدو يتألف من: اليهود: في المدينة المنورة وما حولها، لأن رسول الله حول عصا القيادة عنهم إلى غيرهم من المسلمين، ولأن دينه نسخ دينهم، فهم عدو، ولكنهم عدو ذكى داهية، ولذلك فإن تصفيه هذا العدو يتطلب تخطيطا خاصا، وهذا ما فعله عليه الصلاة والسلام، فقد جعل تصفيتهم على مراحل، على خلاف تصفيته للعرب المشركين، وقد استطاع عليه الصلاة والسلام بنظره السياسي البعيد أن يجمد عداءهم للدولة الإسلامية، واحتمل ما ظهر منهم من محاولات خبيثة، انتظارا منه لليوم الموعود، لأن كل شيء عند رسول الله ﷺ يتم بقدر. وكانت المسالة الرئيسية التى وجه الرسول همته إليها هى إقامة علاقات ودية بين مختلف القبائل المقيمة فى المدينة. وكان اليهود يتمتعون، ههنا، بسلطان غير يسير[2].

والمشركون المنتشرون فى أنحاء الجزيرة العربية، وقد ظهرت عداوة هؤلاء منذ أن دعا رسول الله نبذ الأصنام وعبادة الله الواحد. وكان رسول الله محمد ﷺ قد أظهر آثار الإسلام والتآخي بين المسلمين على اختلاف قبائل العرب ومراتبهم، وأحل الوحدة الدينية محل الوحدة القومية فأصبحوا متساويين جميعا لا فرق بين السيد والعبد وغدوا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا، وقد ساعد الرسول محمد ﷺ على توحيد كلمة العرب تلك المساواة التي جاد بها الإسلام وتلاشت أمامها هذه الفوارق الجنسية التي مزقت العرب وليس أدل على تلك الديمقراطية التي جاء بها القرآن الكريم من قوله عليه الصلاة والسلام «لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى والعمل الصالح» وهكذا أصبح

---

(١) د. حسن إبراهيم حسن - المرجع السابق ص١٠٤.

(٢) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص١٣٠ .

الدين الإسلامي دون الجنس أو القومية المرجع الوحيد في تحديد العلاقات بين الحكومة الإسلامية والرعية ثم بين أفراد الشعب(١).

وأفراد لا يحملون السيف فى وجه رسول الله ولكنهم يعملون خلف الكواليس ويدفعون من يحمل السيف فى وجهه. وفارس والروم: ورغم أن هؤلاء لم تظهر عداوتهم بعد، ولكن لابد وأن تظهر، لأنهم لن يسرهم أن تقوم بجوارهم دولة حديثة قوية، يسودها العدل والإنصاف، لما لها من الخطر عليهم وعلى أنظمتهم الظالمة الجائرة، وفعلا ما إن شعر الروم بقوة هذه الدولة الفتية حتى جمعوا لها الجموع فى مؤتة، ثم فى تبوك، ثم حشدوا لها الجيوش ونازلوها فى أماكن عدة. وقد أشعر رسول الله أصحابه بعداوة هؤلاء، وأن الواقعة بينهم وبين المسلمين لابد واقعة، عندما ضرب بمعوله صخرة أثناء مساعدته فى حفر خندق المدينة فتطاير الشرر منه فقال: فتحت عليكم بلاد فارس.. فتحت عليكم بلاد الروم.. ولم يكن الناس آنذاك يفكرون بعداوة هؤلاء، ولكن الرسول بنظرة السياسى الثاقب أدرك هذا كله منذ أن أخذ بالتخطيط لدولة الإسلام فى المدينة المنورة.

لم تعد مهمة الرسول بعد أن قدم إلى المدينة تقتصر على تبليغ الوحي والدعوة إلى دين الله فحسب بل غدا قائد الأمة الإسلامية، ورئيس الدولة الإسلامية الأولى، وعليه أن ينظم حياة جماعة من أتباعه في علاقاتهم الخاصة والعامة وفي ميادين عديدة(٢) وبعد أن انتهى من ذلك كان عليه مهمة أخرى كبرى لا تقل أهميتها عن الأولى وهي إيجاد الأمن الخارجي ومن ثم نشر الإسلام خارج حدود العاصمة الإسلامية «يثرب» ومن هنا بدأ يضع الخطط اللازمة لأممية الإسلام إذ كان رسول الله محمد ﷺ مبعوثا للناس كافة في العالم.

انطلاقا من هذا التقدير الدقيق للموقف اتخذ رسول الله قرارًا هو على غاية من الاهمية، كما أنه على غاية من السرية، إذ ليس من المعقول أن يعلن رسول الله عن قراره هذا، لانه يعتبر سرًا من الأسرار العسكرية والسياسية التى لا يجوز أن يطلع عليها أقرب المقربين، وقد انكشف لنا هذا القرار من دراسة سيرة الرسول ﷺ، ودراسة الحركة التى كان يحركها دولته بجميع أجهزتها. ويتلخص هذا القرار بالعمل على تصفية الكيانات السياسية لخصوم الدولة الإسلامية بمعدل كيان واحد فى كل سنة، والبدء بتصفية الكيانات السياسية لليهود باعتبارهم أشد خطرًا من غيرهم، لأمرين اثنين:

الأول: إن تصفية كياناتهم السياسية يعتبر جزءا من الإصلاحات الداخلية، فهم يعيشون بين المسلمين فى المدينة المنورة، ولا يتوانون عن إشعال نار الفتنة بينهم وبين وقت وآخر. الثانى: أنهم يعتمدون أسلوب المكر والخداع والتآمر، ولذلك كان الخلاص منهم مقدمًا على الخلاص من غيرهم.

---

(١) د. حسن إبراهيم حسن - المرجع السابق ص١٠٤
(٢) د. نبيه عاقل - المرجع السابق ص٤٣٦.

ثم تصفية الكيان السياسى للمشركين. ثم البدء بتصفية الكيان السياسى لدولتى الفرس والروم ولتحقيق ذلك لابد من القيام بما يلى: المراقبة المستمرة لتحركات العدو فقد كان عليه الصلاة والسلام دائم الاستطلاع لأخبار العدو، فكان يجهز السرايا الخاصة لهذه الغاية، فقد أرسل سرية عبيدة بن الحارث فى ثمانين راكبا وعين لها خط سير معين، فخرجت حتى بلغت ثنية المرة، ثم عادت فأخبرت رسول الله بما رأت، وأرسل سرية حمزة بن عبدالمطلب فى ثلاثين راكبًا إلى شاطئ البحر، وعين لها خط سير معين، ثم عادت فأخبرت رسول الله بما رأت، وأرسل سرية سعد بن أبى وقاص فى ستين راكبًا حتى بلغ الخرار ـ من الحجاز ـ وعاد، فأخبر رسول الله بما رأى، وأرسل سرية عبدالله بن جحش فى نحو من ستين راكبًا وزوده بمهمة رصد تحركات العدو، فذهب، ثم عاد فأخبر رسول الله بما رأى، ولم تكن مهمة هذه السرايا وأمثالها مهمة قتالية، بدليل أنها لم تقاتل عندما اصطدم بعضها بقوات قريش، وإنما كانت مهمتها استطلاعية بحتة. وبهذا الاستطلاع النشيط والدائم، وبما كان يبثه عليه الصلاة والسلام من العيون السرية هنا وهناك استطاع رسول الله أن يحيط علمًا بأخبار العدو، ويتصرف على ضوء ما يتجمع لديه من المعلومات[1]. تثبيت وتجميد أكبر عدد ممكن من أطراف العدو بعقد اتفاقيات ـ هدنة ـ معها، وبذلك تتقلص قوة العدو، ويسهل القضاء عليه فى الوقت المعلوم، وقد عقد الرسول العديد من هذه الاتفاقيات نذكر من ذلك: اتفاقية جميع طوائف اليهود فى المدينة المنورة وما جاورها، واتفاقية بنى ضمرة عندما خرج فى غزوة ودان، واتفاقية بنى مدلج عندما خرج فى غزوة العشيرة. القيام ببعض المناوشات الجانبية، الغاية من ذلك إرباك العدو من جهة، وإثبات الذات وتقوية معنويات المسلمين من جهة أخرى وتدريب على القتال كمناورة حية، وفى اعتقادى أن غزوة بدر رغم ما تمخضت عنه من نتائج خطيرة هى من هذا القبيل، وكذلك غزوة ذى أمر، وغزوة الضرع، وسرية زيد بن حارثة إلى القردة، وغيرها من الغزوات. إن رسول الله لو لم يقم بمثل هذه المناوشات الجانبية التى تظهر قوة دولة الإسلام فى المدينة، لنهشت القبائل المدينة المنورة وتقاسمتها مزعا. إن هذه الانتصارات الجزئية التى كانت يحققها المسلمون كانت تقوى معنويات المسلمين، وتعدهم نفسيا للوقائع الحاسمة التى يخطط لها الرسول بدقة وسرية فائقتين. وخلال ذلك كان رسول الله مضطرًا لصد الهجمات التى توجه لدولة الإسلام، وكان من أبرز هذه الهجمات، هجوم يوم أحد، وهجوم يوم الأحزاب. تصفية الذين يعملون وراء الكواليس، ويؤججون نار الفتنة، إفراديا، بسلسلة من الاغتيالات، أو الإعدام الفردى، وبناء على ذلك فقد أرسل رسول الله من يغتال كعب بن الأشرف، وسلام بن أبى الحقيق، وخالد بن سفيان بن بيتح، والأسود العنسى، وأبا سفيان بن حرب، وأبا عزة الشاعر، وعصماء بنت مروان، وأبا عفيك، وغيرهم فمنهم من نجح رسول الله فى قتله ومنهم من لم ينجح. وخلال ذلك أيضا كان عليه أن يعد قواته المسلحة إعدادا يضمن لها النصر

(١) د. محمد رواس قلعه جي - المرجع السابق ص١٢٠.

فى المعارك الفاصلة التى يخطط لها الرسول صلوات الله وسلامه عليه وقد تناول هذا الإعداد ثلاث ميادين[1]:

الميدان الأول: ميدان القوة البشرية للجيش، وفى هذا الميدان عمل رسول الله على تحقيق شعار «الجيش هو الشعب» فنجح فى ذلك نجاحًا يعتبر أسطورة التاريخ، فقد كان الرجال والنساء والأطفال فى دولة الرسول محاربين من الطراز الأول، وتذكر لنا أحداث تبوك أنه عليه الصلاة والسلام عندما أعلن الاستنفار العام لم يتخلف عنه إلا الثلاثة الذين قص الله علينا قصتهم فى القرآن الكريم، وهذا يدل على أن الشعب جيش كله، وتسابق الأطفال للالتحاق بالجيش السائر إلى الحرب، لأن أمرهم أصبح معروفًا.

الميدان الثانى: ميدان الإعداد المعنوى. وقد أقامه عليه الصلاة والسلام على ثلاثة أركان: الأول: إيمان الجيش بالقضية التى يقاتل من أجلها، وقد نجح عليه الصلاة والسلام فى غرس هذا الإيمان فى القلوب، حتى كان النغم الشادى الذى تعزفه أوتار قلب كل مؤمن، فقد آمن الصحابة بالله ربا وبالإسلام نظامًا منقذًا للبشرية من الظلم الواقع بهم، الظلم السياسى، والظلم الاجتماعى، والظلم الاقتصادى، ومن الظلمات التى أحاطت بهم، ظلمات فى العقيدة، وظلمات فى العقل، فضحوا فى سبيل ذلك بكل غال ونفيس. الثانى: تحقيق كرامة المواطن فى دولة الإسلام وعلى أرض الإسلام، فلا مظلوم ولا مشرد، ولا جائع، ولا عار، ومن مات وترك مالا فلورثته ومن ترك كلا أو عيالا فعلى الدولة الإسلامية، والمسلمون سواء كأسنان المشط يسعى بذمتهم أدناهم، ولا فضل لواحد على آخر إلا بمقدار ما يكنه من إخلاص وما يحقق من عمل صالح، إن دولة تعطى كل هذا للمواطن، وفى ذلك العصر بالذات، يفديها المواطن بدمه وماله وولده، ويدافع عن كيانها، ويبذل لامتداد ظلالها على المعمورة كل ما يملك[2] والدفاع عن الدعوة وصد من يقف في سبيلها حتى لا يفتن المسلمون عن دينهم أو حتى لا يخشى من يريد الدخول في الإسلام من الدخول فيه خوفًا من عذاب أو إيذاء[3]. الركن الثالث: هجر الفواحش والإقبال على الله، لأن الله لا يخيب من أقبل عليه: ﴿... إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾﴾ [محمد].

والميدان الثالث: ميدان إعداد السلاح والعتاد الحربى. وفى هذا الميدان عمل رسول الله على تصنيع السلاح محليا، لئلا يتحكم به أحد فى الساعة الحرجة، وقد أرسل عروة بن مسعود، وغيلان بن سلمة إلى جرش ـ الأردن ـ ليتعلما صنعة العرادات والدبابات والمنجنيقات، وهى أضخم الآلات الحربية آنذاك. وكان يحشد للعدو السلاح المؤثر الفعال، عملا بقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم

(١) د. محمد رواس قلعه جي - المرجع السابق ص١٢٠.
(٢) د. محمد رواس قلعه جي - المرجع السابق ص١٢١.
(٣) د. نبيه عاقل - المرجع السابق ص١٥١.

مِّن قُوَّةٍ ... ﴿٦٠﴾ [الأنفال] وقد استخدم الرسول الـدبابات والعرادات والمنجنيقات فى حروبه فى الطائف. وكانت تعتبر الخيل من أهم أدوات الجهاد. ولذلك فـقد شجع الرسول على اقتنائها، وجعلها من أفضل ما يكسب الإنسان، وجـعل الخير معقود بنواصيهـا فقال: «الخيل معقود فى نواصـيها الخير إلى يوم القيـامة» ومن هنا كان عـمر يتخـذ فى كل بلد قوة احتـياطية من الخـيل فكان له فى كل من البصرة والكوفـة أربعمائة فرس. هذا هو الجيش الـذى أعده محمد صلوات الله عليـه وسلامه ليكون أداة لتنفيذ مخططه العسكرى، لإقامة دولة الإسلام[1].

معركة بدر

لم يلق المسلمون، منذ أن استقـروا فى المدينة، أيما مضايقة تحول بينهم وبين إقـامة شعائرهم الدينية، فأنشـئت المساجد، وأذن للصلاة فى حرية، فـفيما تمتع المسلمون بكامل الحـرية الدينية ضمن أسوار المدينة كانت نار الحقـد ما تزال تتقد، بالعنف نفسه، فى قلوب المكيين. كـانت العداوة لا تفتأ تزداد حدة وانتشارًا. وليس ذلك بعجيب، فيوم هاجرت عصبـة صغيرة من المسلمين إلى الحبشة استبد الحقد بقريش إلى حد جعلها لا تدعهم وشأنهم هناك، فتعقبتهم حتى بلاد النجاشى نفسـه لكى تقضى عليهم قضاء مبرمًا. أما وقد استقر الرسول والمسلمون الآن آمنين فى المدينة، وأخذوا يكتسبون سلطانا ونفوذًا متعاظميـن على نحو مطرد، فطبيعى أن تعجز قريش عن الوقوف مكتوفة اليـدين. يتمتع عبد الله بن أبى ـ أحد وجوه المدينة البارزين بنفوذ ضخم هناك وكـان زعيم المنافقين. وقبل هجرة الرسول كان أهل المدينة يعتبرونه سـيدهم الأعلى. فغير مستغرب ان يستشـعر هذا الرجل، حين وفد الرسول على المدينة ليكشف شخـصيتـه، حسدا للمسلمـين وحقدا عليـهم. وحرضته قـريش أيضا على طرد المسلمين من هناك. ولكن عددا كـبيرا من أفراد قبيلته كـانوا قد انضووا تحت راية الإسلام. ومن هنا كان خليقا بكل محاولة لمقاومة الرسـول على النحو العلنى أن تقضى إلى نشوب حرب أهلية بين أبناء شعبه. حتى إذا خابت آمال قريش فى عبد الله بن أبى شرعت تحرض سكان الرقعة الممتدة ما بين مكة والمدينة على الرسول والمسلمين. وكان القريشيون، بوصفهم سدنة الكعبة المقدسة، يتمتعون بالاحترام فى بلاد العرب كلها. وهكذا كانوا فى وضع يمكنهم من أن يفـرضوا على القبائل إرادتهم وسلطانهم إلى حد غيـر يسير. والحق ان لنجاح الدعاية القـرشية بين هذه القبائل حـمل المسلمين على ان يأخذوا حذرهم من جـديد. فقد كانوا مـحاطين بالأعداء من أقطارهم جمـيعا، وحتى ضـمن جدران المدينة الأربعة تكون ضـدهم تيار معارضـة خفى عمـيق كان عبد الله بن أبى هـو مطلقه. وعلى الرغم من الميثاق فلم يكن فى مستطاع المسلمين ان يثقوا باليهود. لا، ولم يكن فى إمكانهم الركون إلى عبد الله بن أبي[1].

(١) د. محمد رواس قلعه جي - المرجع السابق ص١٢١ .

(٢) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص١٣٢ .

وهكذا استشعر المسلمون قلقا بالغا على سلامتهم. لقد خافوا، أن يأتيهم الهجوم، كل لحظة، من الخارج، وأن تفاجأهم الخيانة من داخل. وكان من دأب بعض المفارز القرشية الصغيرة أن تنطلق في حملات سلب ونهب وأن تطوف في البلاد حتى أرباض المدينة نفسها. وذات مرة، اختطفت مفرزة قرشية بعض الإبل من مراعى البلدة بالذات. والواقع أن قريشا كانت - منذ الهجرة - تتطلع في لهفة إلى فرصة سانحة تمكنها من ايقاع الأذى بالمسلمين والقضاء على الإسلام بحد السيف. وكانوا قد اتخذوا الاستعدادات كلها لغزو المدينة. وكان الموقف يقضى المسلمين حذرا ويقظة بالغين. وكان الوحى الإلهى قد نزل على النبى، مجيرا استلال السيوف من أغمادها دفاعا عن النفس. وكلمات القرآن الكريم فى هذا الصدد ذات مغزى، وهى تستحق انتباها واعيا من النقاد، الذين وصموا الإسلام، فى مناسبة، بأنه دين السيف. يقول القرآن الكريم: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [الحج] ويقول فى موضع آخر: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾ [البقرة] وهكذا فإن الحرب مقيدة بشرطين اثنين: يجب. أولا، أن لا تشن إلا ابتغاء الدفاع عن النفس. ويجب، ثانيا، أن تضع أوزارها لحظة تزول الضرورة التى دعت اليها. واذن فليس فى استطاعة المسلم، وفقا لوصايا القرآن الكريم، ان يمثل دور معتد فى معركة. فإن عليه أن ينتظر حتى يبدأ العدو الضربة الأولى. وهذا فى ما يتصل بالبدء فى القتال، وفى ما بعد يتعين عليه - فى كل مرحلة من مراحل الحرب - أن يعتصم بضبط النفس الكامل، بحيث لا يكاد العدو يجنح للسلم حتى يجنح هو لها، معلقا أعمال العنف فى الحال. إن عليه ان لا يعدو الحدود[1].

اتصفت أعمال رسول الله محمد ﷺ الحربية الأولى بأنها كانت منسجمة مع الأهداف التي من أجلها تنزل الشريعة بالجهاد، إذ من المعروف أن سراياه الأولى كانت سرايا استطلاعية والمقصود منها رصد قريش في تحركاتها المختلفة وبصورة خاصة في ميدان النشاط التجاري لأن القرشيين كانوا قد اغتصبوا من المسلمين أموالهم وطردوهم من ديارهم فحق للمسلمين أن يقاتلوهم لاسترداد أموالهم وثأرًا لكرامتهم[2].

ومن هنا كان على الرسول، كإجراء من اجراءات الدفاع عن النفس، أن يصطنع بعض الطرائق والوسائل على سبيل الوقاية. كانت الضرورة تقضى، فى تلك الظروف، أن يفوز بمعلومات دقيقة عن خطط قريش وتحركاتها. وكانت الحاجة ماسة إلى إقامة علاقات ودية مع مختلف القبائل البدوية النازلة فى جوار المدينة. وتحقيقا لهذين الغرضين وجه الرسول زمرا استطلاعية صغيرة لمراقبة حركات العدو، وللاتصال ببعض القبائل ضمانا لحيادها. ومن يدرى، فقد يكون خليقا بمثل هذا

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص١٣٣.
(٢) د. نبيه عاقل - المرجع السابق ص٤٥٢.

التدبير الوقائى أن يفضى إلى كبح نيات العدو العدوانية. كان على هذا العدو أن يدرك ان المسلمين غير غافلين، وعندئذ يفكر مرتين قبل ان يخطو اية خطوة مشؤومة. وخليق بهذا أيضا أن يثير مخاوف القرشيين على تجارتهم الشامية التى كانت قوام ازدهارهم الاقتصادى كله. فقد كان فى موقع المدينة، على طريق التجارة من مكة إلى الشام، ما يعرض قوافلهم لخطر عظيم فى حال توتر العلاقات بينهم وبين المسلمين. وكان المسلمون يرجون أن يكون ذلك فعالا فى تعطيل نيات عدوهم العدوانية ولو مؤقتا. ولقد كان هذا بالذات هو جوهر التحذير الذى وجهه سعد بن معاذ الأشهلى، وهو من الانصار، إلى القرشيين فى موسم من مواسم الحج[1].

فقد توعده أبوجهل بأنه لو لم يكن فى حمى رجل بعينه لما نجا من الموت، فرد عليه سعد بقوله إن طريق التجارة المكية إلى الشام سوف تعترض إذا ما حيل بين المسلمين وبين أداء فريضة الحج. وهكذا أوعز إلى الزمر الاستطلاعية أن تجتنب الاستفزاز وكل ما يثير النزاع. أدت المفاوضات المشار إليها آنفا إلى تفاهم عدد من القبائل المجاورة مع المسلمين، على الرغم من انها كانت تعبد الأوثان كالمكيين سواء بسواء. وهذه العهود كانت، كما ينبغى أن نلاحظ، ذات صفة دفاعية خالصة. فقد نص العهد الذى عقده الرسول مع بني حمزة على أن أرواحهم وممتلكاتهم سوف تكون آمنة، وأنه إذا ما هاجمهم عدو ما سارع المسلمون إلى نصرتهم، إلا أن تكون حربًا دينية. وأنهم سوف يهرعون لنصرة الرسول حين يدعون إلى ذلك واتفق فى أواخر جمادى الثانية، من السنة الثانية للهجرة، أن بعث الرسول إحدى تلك الزمر أو السرايا بقيادة عبدالله بن جحش ودفع إلى عبدالله هذا كتابا وأمره أن لا ينظر فيه إلا بعد يومين من مسيره فيمضى لما أمره ولا يستكره من أصحابه أحدًا. حتى إذا فتح عبدالله الكتاب، بعد يومين اثنين وجده يقول: «إذا نظرت فى كتابى هذا فامض حتى تنزل نخلة فترصد بها قريشًا وتعلم لنا من أخبارهم» لقد كان ذلك مجرد إجراء وقائى، خشية أن يأخذ العدو المسلمين على حين غرة. فلم يكن فى الإمكان ان يكون ثمة حافز آخر، أو أيما نية فى الهجوم على مكة. فقد كان المسلمون أضعف من أن يفكروا بأيما خطة مماثلة. وكان النبى مسؤولا عن سلامة الجماعة الإسلامية الصغيرة. ومثل أى قائد عسكرى بارع، أدرك الرسول أهمية مراقبة حركات العدو. حتى إذا وصل عبدالله بن جحش إلى نخلة، وفقًا لتعليمات الكتاب المختوم، مرت به عير لقريش فى طريق عودتها من الشام[2].

وخلافا لأوامر الرسول الصريحة انقض عبدالله على أولئك التجار القرشيين، فقتل عمرو بن الحضرمى، وأسر اثنين من رفاقه. حتى إذا تسامع الرسول بالنبأ عنف عبدالله لمخالفته أوامره تعنيفًا شديدًا. وهكذا أتيحت لقريش، التى تلهفت على ذريعة تتذرع بها، تلك الفرصة التى طالما انتظرتها

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص١٣٤.
(٢) مولانا محمد علي - نفس المرجع ص١٣٥.

لإطلاق العنان لغيظها. وما كان لحادثة عرضية، مثل مقتل ابن الحضرمى، أن تثير - فى الأحوال التى سادت المجتمع العربى آنذاك - اهتمامًا بالغًا. فقد كانت، فى الواقع، حادثة مبتذلة يقع نظيرها كل يوم. وكان العرف المتبع فى جميع الحالات المماثلة هو طلب الدية. ولكن قريشًا كانت تبحث عن ذريعة تثير بها حفيظة الجمهور على المسلمين، فإذا بمصرع ابن الحضرمى يقدم إليها هذه الذريعة. لقد سلخت نحواً من شهرين فى اتخاذ الاستعدادات الضرورية، ثم هاجمت المدينة فى شهر رمضان من السنة الثانية. وهكذا حدث ما يعرف فى تاريخ الإسلام بمعركة بدر[1].

نجد أن رسول الله ﷺ قد أدلى الشؤون العسكرية اهتمامًا خاصا وبدأ التعرض والتحرش للمشركين لأن الهجوم أفضل وسائل الدفاع، فوجه عدة سرايا بمهمات بسيطة، استهدفت تحطيم معنويات قريش وإرباكها وضرب نشاطها التجارى، كما استهدفت الحصول على موارد للتموين والتسليح، وإظهار القوة لليهود والبدو المحيطين بالمدينة. وقد حققت هذه السرايا المنجزات التالية: التدريب على القتال فى ظروف جديدة تختلف عن ظروف معارك الجاهلية، وفى إطار موازين قوى مادية ومعنوية مختلفة، وتعزيز الروح التعرضية (الهجومية) لدى المسلمين، ومنع روح الدفاع المستكن (الثابت) من التغلغل فى صفوفهم، استطلاع المناطق المحيطة بالمدينة، وما فيها من مسالك وطرق مواصلات ومصادر مياه، استعدادا للمعارك الحاسمة التى كان من المنتظر أن تدور فى هذه المناطق. كسب بعض الغنائم التى ساهمت فى تعزيز القوات المسلحة الإسلامية، وتقوية علاقات التعاون بين المهاجرين والأنصار، وصهرهم فى بوتقة المعركة، لبناء مجتمع متماسك متعاون يزيده الخطر الخارجى تماسكًا وقوة، وتهديد قريش بالحصار الاقتصادى عن طريق جعل ممرات تجارة قريش مع بلاد الشام مهددة وغير آمنة، يمكن أن يتعرض لها المسلمون فى أية لحظة، ويستولوا على القوافل التى تعبرها، مما جعل قريش تعيش فى ذعر وخوف على تجارتها ورجالها الذين يرافقون القوافل. تثبيت هيبة الإسلام والمسلمين بين القبائل المجاورة للمدينة المنورة[2]. ومن هذه السرايا التى بدأت عملها مبكرًا، يظهر جليا أن الرسول ﷺ انتقل من مرحلة الدفاع المستكن إلى مرحلة الدفاع المتحرك، أو أنه على الأقل طبق المبدأ العسكرى الحديث «الهجوم أقوى وسائل الدفاع»، لأنه لم يكن فى الواقع يمتلك القوات والأموال اللازمة لشن هجوم واسع النطاق.

الظروف التى أدت إلى معركة بدر

أخذت قريش بعد سرية نخلة تشهر بالمسلمين وتشيع أن محمد وأصحابه استحلوا القتال في الشهر الحرام وأنهم لا يقيمون وزنا لمقدسات العرب وتقاليدهم وحدثت بعدها فترة من الجمود كان أثناءها المسلمون يفكرون ويخططون للقضاء على نفوذ القرشيين حتى يتيسر لهم نشر الدعوة الإسلامية

---

(١) مولانا محمد علي - نفس المرجع ص١٣٦.

(٢) محمود شيت خطاب - الرسول القائد ص٨٣.

وإيقاف المعارضة التي تقودها قريش ضدهم بين القبائل العربية الأخرى، أما القرشيون فقد أيقنوا أن وجود المسلمين في المدينة خطر كبير على تجارتهم القادمة أو الذاهبة إلى الشام هذا فضلا عن شعورهم بالخطر المتزايد على مقدساتهم الدينية وما تمثله هذه المقدسات من رمز لسيادتهم على قبائل الحجاز ومركزهم في الجزيرة العربية بشكل عام ولهذا كله كان من الفريقين من يستعد ويخطط في سبيل ضرب خصمه والإيقاع به[1].

شاء الله أن تكون إحدى قوافل قريش التجارية، بقيادة أبى سفيان، عائدة فى ذلك الحين من الشام. وكان أبوسفيان قد بعث إلى مكة، قبل مسيرته، رسولا هو ضمضم بن عمرو الغفارى يستنفر قريشًا لحماية القافلة. (وقاد هذا إلى اعتقاد لا مبرر له بأن المسلمين راغبون فى اعتراض القافلة، ومن ثم نشبت معركة بدر) وهذه الفكرة لا أساس لها من الصحة البتة. فقد مرت هذه القافلة نفسها بالمدينة، فى طريقها إلى الشام، من غير ان يعترض لها احد منهم بسوء. ليس هذا فحسب، بل ان الزعماء القرشيين - فى جميع محاولاتهم لتحريض الناس على الهجوم، وخلال استعداداتهم كلها من أجل ذلك - لم ينبسوا بكلمة تشير إلى الخوف المزعوم على سلامة القافلة. فقد كان مصرع ابن الحضرمى هو الحادثة الوحيدة التى استغلوها لاثارة اهتياج عارم يغرى القوم بالانتقام. وإلى هذا، فقد كانت القافلة، بعد ان انحرفت عن طريقها المألوف، وساحلت البحر، قد بلغت مكة فى سلام، قبل أن يلتقى الجمعان فى بدر، فمن الافتراء المحض أن ينسب إلى المسلمين أى من مثل هذه الدوافع. لقد كان تشوف قريش الموصول إلى سحق قوة الإسلام النامية هو السبب الأوحد الذى قاد إلى نشوب المعركة. والواقع ان المسلمين جروا إليها جرًا. ومجرد الحقيقة القائلة بأن القوة الإسلامية لم تزد على ثلاثمئة وثلاثة عشر مقاتلا، فى جملتهم الغلمان، وكلهم مسلحون تسليحًا رديئًا، يظهر أنهم كانوا أبعد ما يكونون عن التفكير فى التصدى لقوة مؤلفة من الف رجل مزودين بالسلاح الكامل[2].

وقد صور القرآن الكريم ما كان يجول فى خلد المسلمين عندما دعوا إلى الصمود دفاعًا عن أنفسهم فقال: ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾ ﴾ [الأنفال] كان كثير منهم - كما يقول القرآن الكريم - يجدون فى ذلك عنتا بالغا، معتقدين أنهم يدفعون إلى أشداق الموت دفعًا ومع ذلك فقد كان عليهم ان يضربوا ضربة ما، دفاعًا عن النفس. ودعاهم الرسول، وشرح لهم الموقف، فلم يكن لهم مندوحة عن خوض غمار القتال ضد عدو

(١) د. نبيه عاقل - المرجع السابق ص٤٥٨.
(٢) مولانا محمد علي - نفس المرجع ص١٣٨.

مصمم على أن يوجه إلى وجودهم نفسه ضربة قاضية. وكان الأنصار قد عاهدوا الرسول على أن يمنعوه ضمن أسوار المدينة ليس غير، ولكن الموقف كان يفرض على المسلمين، الآن، ان يلقوا عدوهم قبل أن يهاجم المدينة. ومع ذلك، فما أن استشارهم الرسول ليعرف وجهة نظرهم، حتى وجدهم على أتم الاستعداد للسير من ورائه، وللوقوف فى صفة بالغًا ما بلغت المحنة من القسوة. وهكذا خرجت هذه العصبة الصغيرة من المسلمين ـ المعبأة على عجل، المسلحة تسليحا هينا ـ وسارت نحو الطريق المفضية إلى مكة، لكي تصد غارة قريش. فقد كان من الخطر أن يتركوا لهب القتال يدنو من بيوتهم فى المدينة. حتى إذا بلغوا بدرا ، وهو موضع سمى على اسم ماء فيه، ألفوا قريشا معسكرة هناك قبلهم. فعسكروا بدورهم[1].

ومن حيث العدد كانت القوة الإسلامية لا تكاد تبلغ ثلث القوة القرشية. وإلى هذا ، فقد كانت الأخيرة مؤلفة من محاربين مدربين بارعين، على حين كان المسلمون قد حشدوا حتى الشبان الذين لاخبرة لهم بالحرب ولا مراس . وإذن، فلم يكن المسلمون ـ لا من حيث العدد ولا من حيث القوة والبراعة ـ أندادًا لعدوهم. وهذا ما أورث الرسول أعظم القلق. فانقلب إلى عريش كالوا قد بنوه له وابتهل إلى الله بعينين دامعتين قائلا: «اللهم هذه قريش قد أتت بخيلائها تحاول أن تكذب رسولك ، اللهم فنصرك الذى وعدتنى . اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد!» وبعد أن هتف بربه مادًا يديه مستقبلا القبلة خرج إلى الناس متهلل الوجه وجهر بتلاوة الآية القرآنية التى تقول، وكانت قد أنزلت إليه قبل ذلك بفترة غير يسيرة : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [القمر]. وقد كان أبو جهل قائدًا من الناحية العسكرية، أما الرسول ﷺ فقد انطلق بأصحابه وهم ثلاثمائة وأربعة عشر رجلا، وسائل نقلهم سبعون بعيرا وفرسان، وكان المسلمون يحملون ثلاث رايات، راية بيضاء حملها مصعب بن عمير، وراية سوداء حملها الإمام علي بن أبى طالب كرم الله وجهه، بينما حمل أحد الأنصار الراية الثالثة وكانت سوداء أيضا. وكان الصحابة يتناوبون الركوب على الجمال، كل ثلاثة يتناوبون على بعير، ولما وصلوا إلى مقربة من المكان المعروف باسم «بدر» على طريق القوافل بين مكة والمدينة أرسل النبى من يستطلع له أخبار أبى سفيان، فعاد رجال الاستطلاع بأسيرين، والأسرى أحد مصادر المعلومات الرئيسية ، حتى إن الجيوش فى العصر الحاضر عندما تعجزها مصادر المعلومات الأخرى، وأحيانًا لتأكيد المعلومات، تلجأ إلى القيام بإغارات لخطف الأسرى، حيث يجرى استجوابهم من قبل اختصاصيين للحصول على المعلومات اللازمة. وهذا بالضبط ما طبقه الفرسان الذين أرسلهم الرسول لجلب المعلومات.

بدأ التحقيق الدقيق مع الأسيرين. وكان المسلمون يحسبونهم من رجال أبى سفيان ولما قالا إنهما من سقاة قريش ضربوهما، وكان الرسول ﷺ يصلى فى أثناء ذلك، فلما أنهى صلاته تولى

---

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص١٣٨.

التحقيق بنفسه، فلما تأكد أنهما من جيش قريش سألهما: كم القوم ؟ قالا: لا ندرى، قال: كم ينحرون كل يوم؟ سؤال غريب، ولكنه سؤال الملهمين من القادة الأفذاذ، فالرجلان من الخدم لايهتمان بعدد الجيش، لكن قيامهما بالخدمة يتيح لهما معرفة كم ينحر كل يوم لإطعام الجيش، قالا : ننحر فى يوم تسعًا وفى يوم عشرًا. فقال الرسول لأصحابه: القوم بين التسعمائة والألف، وبعدما عرف عدد جيش العدو أراد أن يتعرف نوعية الشخصيات المشاركة فى ذلك الجيش، فإذا بهم قادة قريش وزعماؤها وأقوى فرسانها: عتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأبو جهل عمرو بن هشام، وأمية بن خلف، وسهيل بن عمرو، وعمرو بن عبد ود، وغيرهم. ماذا يفعل القائد قبيل المعركة؟ لقد اكتملت المعلومات، وسمعها أركان حرب الرسول. وفى ذهن النبى هدف كبير، يريد أن يهاجم بأصحابه الثلاثمائة جيش قريش الكبير، فتبقى الصحراء تردد أنباء تلك المعركة ما دارت الأيام. على أى شىء يعتمد؟ وسلاح جيشه ضعيف، وعدده قليل، وتجهيزاته بسيطة. إنه يعتمد على شىء مهم جدًا فى أية معركة، يعتمد على قوة المعنويات المرتكزة على الإيمان بالله واليوم الآخر. فالقتيل فى جيش المسلمين شهيد، والشهيد إلى الجنة خالدًا فيها، مع أن الشهادة ليست غاية للقتال فى الإسلام ولا هدفًا. فهدف الإسلام من القتال عامة إزالة العوائق المادية التى تقف فى وجه الدعوة ولايتحقق ذلك إلا بالنصر. وغاية المسلم فى جهاده رضوان الله عز وجل. فإن نتج عن القتال نصر المسلمين، فقد تحقق الهدف، وإن استشهد المسلم فقد نال إحدى الحسنيين. والنصر مأمول دومًا بقوات لا تهاب الموت وترغب بالشهادة[1].

ووجد الرسول أن من واجبه استشارة أصحابه قبل إبلاغهم القرار الذى يدور فى خلده، خاصة وأن فيهم عددًا من الأنصار الذين لم يكن فى شروط بيعتهم للرسول ما يلزمهم بالقتال خارج المدينة. فوقف الرسول بين أصحابه يستشيرهم. وكان مما قال: «هذه مكة ألقت إليكم أفلاذ كبدها...» «فوقف أبو بكر فقال وأحسن، وقام عمر فقال وأحسن، ثم وقف المقداد بن عمرو فقال: «يارسول الله امض لما أراك الله فنحن معك، والله لانقول لك كما قالت بنو إسرائيل: ﴿... فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [المائدة]، ولكن نقول: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فو الذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى «برك الغماد» (مدينة فى الحبشة) لجالدنا معك من دونها حتى تبلغها، فتابع الرسول كلامه: «أشيروا على أيها الناس»، وأدرك الأنصار أنه يريد أن يسمع رأيهم، فقام سعد بن معاذ فقال: «قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ماجئت به هو الحق، فامض يارسول الله لما أردت فنحن معك، فو الذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف عنك رجل واحد، فسر على بركة الله». وسر الرسول وأدرك متانة جبهته، وتراص صفوف جيشه، فقال لأصحابه يشجعهم[2]: «سيروا وأبشروا فإن الله قد وعدنى إحدى الطائفتين، والله لكأنى أنظر إلى مصارع القوم».

---

(١) أحمد راتب عرموش - قيادة الرسول السياسية والعسكرية ص٤٣.

(٢) أحمد راتب عرموش - نفس المرجع ص٤٤.

تقدم الرسول بأصحابه ، فنزل عند أقرب ماء من بدر. فتقدم أحد الصحابة واسمه «الحباب بن المنذر» قال الرسول : يارسول الله، أرأيت هذا المنزل، أمنزلا أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه. أم هو الرأى والحرب والمكيدة؟ فقال الرسول: «بل هو الرأى والحرب والمكيدة». فقال الحباب : «يارسول الله، فإن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى نأتى أدنى ماء من القوم فننزله ثم نغور ما وراءه، ثم نبنى عليه حوضًا ، فنملؤه ماء، ثم نقاتل القوم، فنشرب ولايشربون». فقال رسول الله «لقد أشرت بالرأى» . ونهض رسول الله ومن معه من الناس ونفذوا خطة الحباب وأشار سعد بن معاذ أن يقام للرسول عريش مرتفع يتولى منه قيادة المعركة، فنفذ الرسول رأيه، ووقف يدعو الله، وعندما حل الفجر صلى بالمسلمين وراح ينظمهم صفوفًا ويحرضهم على القتال[1]. أما قريش فكانت قد خرجت بالسلاح الكامل. وعملا بالوصية القرآنية أحجم المسلمون عن الهجوم، ريثما يضرب العدو الضربة الأولى. وأخيرًا خرج من صفوف المكيين ثلاثة من أبطال قريش هم عتبة ابن ربيعة بن عبد شمس، وابنه الوليد، وأخوه شيبة فطلبوا من يخرج لقتالهم من صفوف المسلمين.

وكانت العادة المتبعة فى الحروب العربية، فى تلك الأيام ، تقضى بأن يفتتح القتال بمبارزات فردية. وهكذا قبل التحدى ثلاثة من المسلمين هم حمزة بن عبد المطلب، وعبيدة ابن الحارث بن المطلب، والإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه، فخرجوا لمبارزتهم فكان عبيدة بإزاء عتبة، وعلي بإزاء الوليد، وحمزة بإزاء شيبة. واتفق أن صرع الأبطال القرشيون الثلاثة فى المبارزة، وعقب ذلك بضع مبارزات أخرى، وسرعان ما أمسى القتال عامًا. لقد حمل القرشيون على المسلمين، ولكن هؤلاء ثبتوا لهم، وردوهم على أعقابهم ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [آل عمران]. وهنا حدثت ظاهرة رائعة من ظواهر العون الإلهى. فقتل فى المعركة أقطاب قريش كلهم تقريبا. زعماء الحملة المهلكة ضد الإسلام. ولقى أبو جهل حتفه بأيدى شابين من الأنصار. وكانت جملة قتلى قريش فى المعركة سبعين. حتى إذا رأى القوم رؤساءهم وزعماءهم يسقطون صرعى، دبت الفوضى فى صفوفهم وولوا الأدبار، فطاردهم المسلمون وأسروا منهم نحوًا من سبعين. أما شهداء المسلمين فلم يزيدوا على أربعة عشر[2].

تمثل وقعة بدر مشهدًا فاتنًا للعون الإلهى لعله كان فريدًا ، من ناحية واحدة، فى تاريخ الحرب كله. فكثيرًا مايحدث أن يوفق جيش قليل العدد نسبيًا ولكنه حسن التجهيز مؤلف من جنود بواسل يمتازون بانضباطيتهم وبراعتهم فى اصطناع السلاح، كثيرًا ما يحدث أن يوفق مثل هذا الجيش إلى إيقاع الهزيمة بجموع تفوقه عددًا ولكن تعوزها مزايا متكافئة. بيد أن الذى يجعل وقعة بدر فريدة

---

(١) أحمد راتب عرموش – نفس المرجع ص٤٥.

(٢) مولانا محمد علي – المرجع السابق ص١٣٨.

على نحو رائع هو أن أوجه الضعف كلها اجتمعت فى ناحية، ووجوه القوة كلها اجتمعت فى الناحية المقابلة. كان عدد أفراد الجيش القرشى ثلاثة أضعاف المسلمين الذين شهدوا تلك المعركة. وكان الموقع الذى احتله ذلك الجيش خيراً من موقع المسلمين. وكانت صفوفهم تضم جنوداً أولى شهرة وصيت، جنوداً كان القتال حرفتهم التى احترفوها عمرهم كله. والسلاح أيضاً كان موفوراً فى أيديهم بل أكثر من موفور. وكان كل منهم يلتثم بدرع سابغة. وكان فيهم مئة فرس عليها مئة فارس، وسبعمائة بعير. فما كانت قوة المسلمين؟ كان عددهم ثلث عدد عدوهم. وكانت صفوفهم تضم نفراً من الفتيان الذين لم يبلغوا الحلم بعد، ومن المهاجرين الطاعنين فى السن، وبعض الأنصار المدنيين، وكلهم ليسوا بأكفاء للمكيين المولعين بالحرب. فما كان عدد فرسانهم وجمالهم؟ فارسين وسبعين بعيراً ليس غير. وفى ما يتصل بالعدد لم يكن ثمة مجال للمقارنة ألبتة . وهكذا قذف بالضعف المطلق فى وجه القوة الغامرة. ولكن اليد الإلهية امتدت لنصرة الضعفاء، نافخة فى قلوبهم قوة - قوة غير قوة العدد أو العدة أو السلاح - فإذا بالقوة الدنيوية تمنى بالهزيمة[1]. وإلى هذه الظاهرة يلفت القرآن الكريم الانتباه فى الآية التالية: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ (١٣)﴾ [آل عمران].

أحسن المسلمون معاملة أسراهم، فأعجب كثير منهم بنبل الروح الإسلامية. وتذكر أحدهم، حينا اعتنق الإسلام بعد، حسن المعاملة التى لقيها فى الأسر، وحدث بها معترفًا بالجميل. لقد روى قائلا إن الذين عهد إليهم بالعناية بأمره قدموا إليه خير ما فى المنزل من طعام، على حين اجتزأ أفراد الأسرة بالرطب وما إليه يأكلونه. وعلى الرغم من أن حالة الحرب لم تكن قد زالت فقد أعيد الأسرى إلى أهلهم لقاء فدية افتدوهم بها. أما الفقراء الذين لم يجدوا مايفتدون أنفسهم به فقد أطلق سراحهم من غير فدية. لقد سئل كل من القادرين على القراءة والكتابة أن يعلم عشرة من أطفال المسلمين، واعتبر هذا الصنيع من جانبهم بمثابة فدية تكفل لهم حريتهم، والحق أن التنازل عن أربعة آلاف درهم كفدية مالية لكل أسير والاستعاضة عنها بتعليم القراءة والكتابة أطفال المسلمين، لينهض دليلا قويًا على ما كان للعلم من قيمة فى عينى الرسول. إنه لم يعامل العدو المهزوم معاملة خشنة ألبتة. ولقد كانت هى أول فرصة أتيحت للمسلمين، بعد الآلام الطويلة المريرة التى قاسوها على أيدى القرشيين، للانتقام من عدوهم، لو شاءوا. وكان بين الأسرى واحد هو سهيل بن عمرو، وكان خطيبًا يتمتع بفصاحة بالغة اصطنعها فى غير ما إبقاء، يوم كان فى مكة، لإثارة الناس على الإسلام. وكأنما عز على عمر ابن الخطاب أن يفتدى وينجو من غير أن يصيبه مكروه فقال[2]: يارسول الله دعنى أنزع ثنيتيه فيدلع لسانه فلا يقوم عليك خطيبًا فى موطن أبدًا. فأجابه الرسول: «لاأمثل به فيمثل الله بى وإن كنت نبيًا».

---

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص ١٤٠ .

(٢) مولانا محمد علي - نفس المرجع ص١٤١.

تعتبر معركة بدر، من ناحية، ضربة قاضية وجهت إلى قوة قريش، على حين أنها رسخت، من ناحية ثانية، جذور الإسلام. وإلى هذا ، فقد خلفت أثراً رائعاً في نفوس اليهود، وفي نفوس القبائل البدوية المجاورة أيضاً، لقد قالوا في ذات أنفسهم: كيف تأتى للمسلمين أن يهزموا مثل هذا الجمع العظيم؟ لا ريب في أن الله قد أيدهم بروح منه. ثم إنهم دهشوا إذ رأوا كيف صرع ألد أعداء الإسلام في غير ما استثناء. أليس في ذلك ما يؤذن بأن يد الله قد عملت عملها؟ وثمة حقيقة أخرى ماتعة في معركة بدر، وهي أن الرسول كان في قلب الميدان يبتهل إلى الله بعينين دامعتين، على حين كان أبوجهل، من ناحية أخرى، يبتهل إلى الله أيضاً أن يهزم أيّا من الفريقين المتناحرين كان مسؤولا عن قطع صلة الرحم وعن البلاء المتطاول. وحتى قبل أن يفصل القريشيون من مكة، كانوا قد ضرعوا إلى الله في الكعبة أن ينصر من كانوا على الحق. وهكذا كانت نتيجة معركة بدر، إذا جاز التعبير، حكماً إلهيّاً على الباطل. لقد حظى الحق بالتأييد الالهى فانتصر. لقد أحبطت خطط العدو، بينما وجد المسلمون في إحباطها مصداقاً للوعود الالهية التي أكدت لهم، طوال هذه السنوات الاثنتى عشرة، أن الحق لابد أن يسود آخر الأمر، فخلال فترة المحن والبلايا المتطاولة كانوا قد تلقوا عزاء إلهيّاً مفاده أن كل مقاومة قريش سوف تنهار، وأن الإسلام سوف يخرج من الصراع منتصراً. وها هم الآن يرون أن ما كانوا قد آمنوا به إيماناً راسخاً يصبح حقيقة واقعة، فإذا بعدالة قضية الإسلام تتجلى لأعينهم كالشمس في رائعة النهار[1].

نتائج معركة بدر:

نزلت بعد معركة بدر آيات كريمة تبين للناس أسباب ظفرهم، وتكشف بعض الحقائق التي كانت آنذاك خافية على المسلمين، وتحمل بعض تشريعات القتال والأسرى وتوزيع الأنفال (الغنائم).

قال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (41)﴾ [الأنفال] ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (48) إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (49)﴾ [الأنفال] ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (67)﴾ [الأنفال]، ولقد نزلت الآية الأخيرة في عتاب الرسول لأنه قبل فداء الأسرى، وهم رؤوس الفتنة وأئمة الكفر. إنهم كمجرمي الحرب الذين لا يجوز الإبقاء على حياتهم. وتشير الآية إلى أن الفداء ممكن بعد أن يكون المسلمون قد ثبتوا أقدامهم في الأرض وأقاموا دولة قوية لا يستطيع مثل هؤلاء المجرمين التأثير فيها إن هم بقوا على قيد الحياة.

---

(1) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص١٤٢ .

يتبادر إلى الذهن لأول وهلة أن نتيجة المعركة غير طبيعية، وخاصة أن مجموع خسائر المشركين فى المعركة مائة وأربعين مقاتلا وبذلك يكون عدد المنهزمين أكثر من ثمانمائة، أى أكثر من ضعف عدد جيش المسلمين. وكان المفروض أن يتراجع المشركون ويعيدوا تنظيم صفوفهم ويستأنفوا القتال بعد يومين أو ثلاثة أو أكثر. لكن التعمق فى دراسة طريقة قتال جيش المسلمين، والأساليب التى طبقت فى هذه المعركة، وهى أول معركة يخوضها المسلمون، يفسر لنا أسباب النجاح التى يمكن تحديدها بما يلى[1]: وحدة القيادة: كان الرسول ﷺ هو القائد العام فى المعركة، وكان مثال القائد الناجح، يستشير أصحابه، ويأخذ بالآراء السلمية، ويتقدم قواته عند الضرورة فى القتال، وتولد عن ذلك انضباط رائع فى صفوف المسلمين، وتقيد كامل بالتعليمات، قابلة انقسام فى الرأى فى صفوف جيش المشركين. الكفاءة الحربية: فلقد تميز المقاتل المسلم بكفاءة قتالية عالية، وانضباط شديد، وطاعة لامثيل لها لأوامر القائد، وروح جماعية مثلى، عمل الرسول على غرسها فى النفوس منذ بدء الرسالة، وكرسها فى المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، بينما كانت الروح الفردية (الأنانية) سائدة فى صفوف المشركين. التعبئة الجديدة: كانت مسيرة الرسول من المدينة إلى بدر فى تشكيلة قتالية تشبه التشكيلات الحربية الحديثة، فأرسل مقدمة وترك مؤخرة، وأفاد من دوريات الاستطلاع، وقام بإغارات لأخذ أسرى، وجمع المعلومات الكافية قبل بدء القتال، وخاض المعركة بأسلوب جديد يعتمد على التعاون، هو أسلوب القتال بالصفوف المتراصة، بينما طبق المشركون أسلوب الكر والفر. المعنويات العالية: تمتع المقاتل المسلم بروح معنوية عالية نابعة من عقيدة راسخة ولقد عمد الرسول إلى إذكاء روح المقاتلين بكثرة الدعاء ودوام التبشير بالنصر. وضوح الهدف: كان هدف المسلمين الرئيس القضاء على رؤوس الكفر، وإزالة العوائق من طريق الدعوة. ولم يكن الاستيلاء على قافلة قريش سوى هدف آنى. مرحلى. لذلك وجدنا الرسول يقر مهاجمة جيش المشركين لتحقيق الهدف الرئيسى، رغم هروب القافلة (الهدف المرحلى) التى خرج المسلمون لاعتراضها. سمو الغاية: فقد كان المسلم يقاتل فى سبيل رضوان الله عز وجل، لتكون كلمة الله هى العليا، وليزيل العوائق المادية من أمام الدين الجديد الذى يحرر الإنسان من العبودية والظلم، بينما كان المشرك يقاتل فى سبيل أهداف دنيوية رخيصة، أو عقائد فاسدة مزعزعة، أو تعصبا لقبيلة وانتصاراً لعشيرة. ويمكننا تلخيص نتائج المعركة بما يلى: هددت طريق أهل مكة مع بلاد الشام، والتجارة عصب حياتهم. أضعفت هيبة قريش ومكانتها بين العرب. عززت مكانة المسلمين ورفعت من شأن «نواة دولتهم» الفتنة فى المدينة. أفسحت المجال أمام نشر الإسلام بين القبائل بعد سماعهم بهزيمة قريش[2]. فقد كانت خسارة كبيرة لقريش إذ إن قائمة قتلاها كانت تتضمن إلى جانب أبي جهل أسماء عدد كبير من أبرز رجالاتها، إذ

---

(١) احمد راتب عرموش - المرجع السابق ص٥٠ .
(٢) احمد راتب عرموش - نفس المرجع ص٥١.

أنهم لم يكونوا من كبار رجالاتها فحسب بل من أشدهم شجاعة وتجربة وبأسًا، أما أبو سفيان زعيم بني أمية فقد غدا بعد بدر أقوى وأهم شخصية في قريش وكانت بدرا لا تمثل خسارة حربية بالنسبة لقريش فحسب بل خسارة معنوية أيضا، إذ إن المدينة أخذت تظهر في المجتمع العربي كقوة سياسية وعسكرية تستطيع أن تتحدى مكة ولا يلزمها إلا براهين قليلة لتحتل مكان الصدارة والسيادة[١].

اعتمدت قريش في علاقاتها مع رسول الله محمد ﷺ على ما تملك من نفوذ سياسي واقتصادي واعتقدت أنها بهذا النفوذ قادرة على دحره ولكن بدرًا أثبتت عدم جدوى هذين السلاحين وأن النصر للأقوى والاكثر استعداد وكانت نتائج بدر رائعة بالنسبة لوضع الرسول في المدينة فقد قوى مركزه فيها وأخذ المشككون في مقدرته يشعرون أن دعواهم تنهار بعدما قدمه النصر في بدر من برهان على هذه المقدرة. وإذا تركنا الجانب المعنوي وأخذنا الجانب المادي بعين الاعتبار لوجدنا أن أهم ما نتج عن نصر بدر هو انتعاش حال المسلمين المادي بما أفاءه الله عليهم من غنائم بعد بؤس وفقر شديدين داما ما يقارب العامين فلم يعد من حاجة لنظام المؤاخاة ولم يعد هناك من لا يجد ما يسد رمقه فألغيت المؤاخاة وعاد التوارث بالقرابة وفرج الله كرب المسلمين[٢].

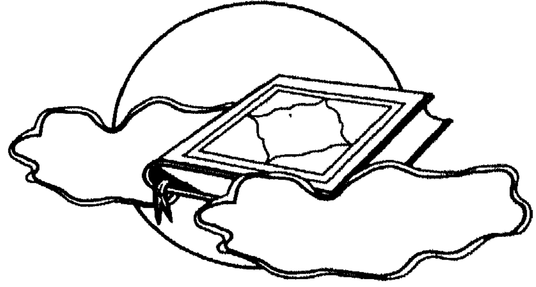
زادت التضامن والتماسك بين المهاجرين والأنصار وقوتهما. كانت مناسبة لتشريع خمس الغنائم لبيت مال المسلمين. فقد نزلت الآيات الكريمة بهذا التشريع بعد بدر مباشرة. فكان الخمس تدعيمًا لميزانية الدولة المسلمة، وظل أكبر مصدر لبيت المال حتى نهاية الفتوحات الإسلامية فى صدر الإسلام.

---

(١) د. نبيه عاقل - المرجع السابق ص٤٦٧.

(٢) د. نبيه عاقل - نفس المرجع ص٤٦٧

الفصل السادس



معركتي
أحد
والأحزاب

معركة أحد: أحست قريش بعمق الجراح التى خلفتها بدر بعدما عادت إلى مكة. وكانت كثرة الخسائر ولاشك عاملا مهما فى اضطراب قريش. ولكن العامل الأهم هو نوعية القتلى الذين كانوا من الفرسان والزعماء والأعيان. كما أدركت قريش أن طريق تجارتها مع بلاد الشام أصبح تحت سيطرة المسلمين، وفى توقف تجارتها قضاء عليها. ولما حاولت سلوك طريق آخر غير طريق الساحل علم بذلك رسول الله ﷺ، وأرسل سرية بقيادة زيد بن حارثة فاستولى على القافلة بعد أن هرب حماتها. كانت هزيمة بدر عارًا ما كان لكرامة قريش أن تسكت عليه. فقد أنزلت بهم العصبة الصغيرة، السيئة السلاح، ضربة ماحقة. وإذن، فقد كان الانتقام هو كلمة السر فى ارجاء مكة كلها. وإذ كان زعماء قريش كلهم قد سقطوا صرعى فى بدر. فقد انتخب أبو سفيان زعيما لكفار قريش وأخذ على نفسه عهدًا غليظًا ليغسلن عار بدر. وانعقد رأى قريش على أن يخصص ربح القافلة التى عادت من قريش برئاسة أبى سفيان، يوم بدر، لحملة الثأر المبيتة. وحشد جيش مؤلف من ثلاثة آلاف مقاتل، بعد اثنى عشر شهرًا انقضت على هزيمة بدر، فيهم مئتا فارس مسلح، وسبعمائة بطل مسلح. وأجيز للنسوة أيضًا أن يرافقن هذا الجيش، لكى يثرن حماسة الجند بأناشيدهن الحربية. وهكذا زحف القرشيون، فى السنة الثالثة للهجرة، نحو المدينة، وفى يوم الخميس، التاسع من شوال، عسكروا عند سفح أحد، وهو جبل يقع على مبعدة ثلاثة أميال من المدينة، ثم أنهم استولوا على مراعى المدينة. لقد حصدوا محاصيل خصبة وقدموها علفًا لخيلهم، وأطلقوا إبلهم ترعى الحقول وتعيث فيها فسادًا(١).

رجع العباس عم النبي من المدينة بعد أن تم إطلاق سراحه من الأسر بالفداء الذي دفعه عن نفسه ولكنه بالرغم من عدم إسلامه آنذاك فقد كان مخلصا لابن أخيه رسول الله محمد ﷺ فكان يخشى عين الدوائر وكان لذلك يرقب حركات قريش واستعداداتها العسكرية(٢)، ولما أتمت قريش تجهيزات جيشها وأخذ هذا الجيش في التحرك أرسل من مكة رسالة مستعجلة مع أحد رجاله الأمناء ضمن هذه الرسالة التفصيلات الكاملة عن حملة مكة فذكر فيها عدد القوات واليوم الذي خرجت فيه، وسلم رسول العباس وهو رجل من بني غفار رسالته إلى رسول الله محمد ﷺ وهو في مسجد قباء، وبعد أن عرف مضمون الرسالة نهض من فوره وعاد إلى المدينة وأخذ في الاتصال بقادة المهاجرين والأنصار ليتداول معهم الأمر لمواجهة الموقف(٣).

جمع الرسول فى اليوم التالى، الجمعة، العاشر من شوال أصحابه ليتدارسوا أفضل السبل لمواجهة الموقف. وكان من عادته أن يشاور أصدقاءه قبل الإقدام على أيما عمل خطير. وقص عليهم

---

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص١٤٣.

(٢) محمد محمد البيلي يونس - الاستخبارات في غزوات الرسول ﷺ ص٧٤.

(٣) محمد محمد البيلي يونس - نفس المرجع ص٧٤.

بعض رؤاه. كان قد رأى، فى ما يراه النائم. أن طرف سيفه قد ثلم. وأول ذلك بأنه نذير بأذى سوف يصيب شخص الرسول. ورأى أيضًا أنه لبس درعًا. وأول ذلك بأن من الخير للمسلمين أن يلزموا حصون المدينة لا يغادرونها. وكانت ثمة رؤيا ثالثة ذبحت فيها بعض الثيران، فأولت بأن الأذى سوف يصيب أتباعه. واستنادا إلى هذه الرؤى. ذهب الرسول إلى أن عليهم أن لا يغامروا بالخروج للقاء العدو حيث نزل، مؤثرين البقاء ضمن أسوار المدينة ورد هجمات القرشيين عليها. وأقره على رأيه هذا أصحاب السن العالية والعقل الراجح من صحابته. حتى عبدالله بن أبى، الذى كان قد اعتنق الإسلام رياء ونفاقًا بعد معركة بدر، قال بالرأى نفسه. ولكن الكثرة، المؤلفة فى المقام الأول من شبان متقدين حماسة، مالوا إلى الخروج لمقارعة العدو فى معركة ناضجة بالرجولة والشجاعة. وكانت حجتهم أن التحصن بالمدينة قد يحمل على محمل العجز والضعف وقد يجرئ العدو عليهم. وإلى هذا، فقد كان مما يجرح احترامهم الذاتى أن يروا إلى حقولهم يعاث فيها فسادًا دون أن يحركوا ساكنًا. ومراعاة من الرسول لرأى الأكثرية أخذ بوجهة نظرهم، ولبس لأمته أى درعه، وخرج من المدينة قبيل المغيب على رأس الف مقاتل لم يكن بينهم غير فارسين اثنين ومئة رجل مسلح. وقضى المسلمون الليل على مبعدة من المدينة يسيرة، ثم استأنفوا تقدمهم فى اليوم التالى مع الفجر[1].

ولم يكد عبدالله بن أبى يلمح العدو حتى انخذل مع رجاله الثلاثمائة، منقصًا بذلك مجموع المقاتلين المسلمين إلى سبعمائة كان عليهم أن يواجهوا عدوًا عدد رجاله أربعة أضعاف عددهم. وحتى هؤلاء لم يكونوا، بأية حال، بارعين فى فنون القتال. كانت قوتهم الوحيدة كامنة فى تفانيهم فى الدفاع عن الحق. وكانت الحماسة قد أشربت قلوب الطاعنين فى السن عزم الشباب وهمتهم. وكذلك اشرب من لم يبلغوا الحلم بعد مثل هذا العزم وتلك الهمة. ويروى أن أحد الغلمان تطوع للقتال فرفض القوم قبوله لصغر سنه، فما كان منه إلا أن تمطى ووقف على رؤوس أصابعه لكى يبدو أطول قامة. وأيا ما كان، فقد كفلت له حماسته مكانًا بين صفوف المقاتلين. وتقدم غلام آخر فى مثل سنه مؤكدا حقه فى الاشتراك فى القتال. وألح قائلا أن فى استطاعته، لو صارع زميله ذاك، أن يطرحه أرضًا. فأتاحوا له فرصة يثبت فيها صدق دعواه، حتى إذا وفق إلى جندلته أجابوا سؤله، وبعد ذلك تقدم رجل طاعن فى السن، لم يبق له فى هذه الدنيا غير أيام معدودات، وقال: «أنا، يارسول الله على قاب قوسين من القبر. فما أعظمه من مجد أن أختم حياتى بحمل السلاح دفاعًا عن رسول الله!» وهكذا حشد المقاتلون السبعمائة، وقد استعاضوا عن القوة والبراعة بحماستهم العارمة للقضية الأثيرة على قلوبهم. ومثل قائد بارع، تقدم الرسول للقاء الأعداء، وعدتهم ثلاثة الاف مقاتل أشداء مسلحين تسليحًا حسنًا، واتخذ مركزًا متفوقًا فى ميدان القتال، جاعلا من صخور أحد وقاء يحمى به

---

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص١٤٤.

ظهور رجاله وراح يصف أصحابه بنفسه. بيد أنه كان فى ناحية من نواحى الجبل شعب يمكن العدو من الانقضاض على صفوف المسلمين من خلاف[1].

بقى مع الرسول سبعمائة رجل، بعد انسحاب عبدالله بن أبى بن سلول برجاله، اختار الرسول منهم خمسين راميًا، وعين عليهم قائدًا هو عبدالله بن جبير، وأمره أن يتمركز مع رجاله على الجبل للرمى بالنبال على خيل المشركين ومنعهم من مهاجمة المسلمين من خلفهم. وقال لعبد الله: «إن كانت لنا أو علينا (أى إن انتصرنا أو انهزمنا)، فاثبت مكانك لا نؤتين من قبلك». وجعل الرسول جبل أحد خلف جيشه وسوى الصفوف، وأمر رجاله أن لايبدأوا القتال حتى يأمرهم بذلك، وسلم اللواء إلى مصعب بن عمير. كان جيش قريش يتألف من ثلاثة آلاف رجل بينهم سبعمائة دارع ومعهم مائتا فرس، وخرج معهم سبع عشرة أمرأة تقودهم هند بنت عتبة، زوج أبى سفيان، فجعلوا على ميمنة الخيل خالد بن الوليد، وعلى ميسرتها عكرمة بن أبى جهل، ووضعوا قلب الجيش فى مواجهة جنيش المسلمين، وسلموا لواءهم إلى بنى عبد الدار. التقى الطرفان يوم السبت فى الخامس عشر من شوال سنة ٣ هجرية ٦٢٥م على أرجح الروايات، واقترب بعضهم من بعض. أخذ أحد فرسان المسلمين «أبو دجانة» سيف رسول الله، وعصب رأسه بعصابة حمراء واندفع إلى قلب المعركة لايقف فى وجهه أحد من المشركين إلا قتله، وكذلك فعل حمزة بن عبد المطلب، وكان حمزة العدو الأول لقريش التى حملته دم معظم قتلى بدر[2]. وإلى جانب النسوة اللواتى صحبن الجيش القرشى لتحريضه على القتال. رافق ذلك الجيش أيضًا راهب نصرانى، يدعى أبا عامر عبد عمرو بن صيفى الأوسى ليمثل دورًا مماثلا. وكان أبو عامر هذا قد أقام، قبل ذلك فى المدينة، حيث اكتسب احترام الشعب العميق، لتقواه وزهده. حتى إذا وفد الرسول على المدينة ورأى إلى الانصار يستقبلونه ذلك الاستقبال القلبى، لم يطق على ذلك صبرًا.

لقد غلب عليه الاستياء فانتقل إلى مكة. وكان قد زعم، فى كثير من الاعتزاز، أن مجرد وجوده فى صفوف القرشيين خليق به أن يوقع الرعب فى أفئدة المدنيين، وعندئذ يخذلون المهاجرين لا محالة. وحين التقى الجمعان، وتواجها، تقدمت النسوة الجيش المكى، واصطنعن كل ما أوتين من براعة لإثارة حماسة الجند فكن يضربن بالدفوف والطبول، وعلى رأسهن هند بنت عتبة زوجة أبى سفيان، ثم برز أبو عامر، وراح يذكر الأنصار بنفسه قائلا: يامعشر الأنصار أنا أبو عامر بيد أنهم ردوه فى ازدراء قائلين لا انعم الله بك عينًا يا فاسق، فاضطر إلى الانسحاب.

أورد ابن حاتم: قال ابن إسحاق: أنزل الله في شأن أحد ستين آية من آل عمران[3]، وأورد

---

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص١٤٥ .

(٢) احمد راتب عرموش - المرجع السابق ص٥٧.

(٣) فتح الباري - ٧/ ٣٤٧ نقل الحافظ عن ابن إسحاق قوله.

ابن حاتم عن ابن مخرمة قال: قلت لعبد الرحمن بن عوف أخبرني عن قصتكم يوم أحد[1]، قال: اقرأ العشرين ومائة من آل عمران تجدها: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ... ﴿١٢١﴾﴾ [آل عمران] - إلى قوله ﴿آمنة نعاسا﴾ وإن قوله غدوت أي خرجت أول النهار[2].

وبعد سلسلة من المبارزات قتل فيها الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام طلحة بن أبى طلحة حامل لواء القرشيين، أمسى القتال عامًا. وأبلى أبو دجانة سماك ابن خرشة، وكان معروفًا بشجاعته، وحمزة عم النبى ﷺ، بلاء حسنًا. لقد شدا على العدو، فأوقعا الاضطراب فى صفوفه، وقتلا كل من لقياه. وأخيرًا سقط حمزة صريعًا بحربة «وحشى»، وهو مولى حبشى زنجى كانت هند زوجة أبى سفيان قد استأجرته لهذا الغرض. ومع ذلك، قاتل المسلمون قتال اليائس. فصرع سبعة من حملة الألوية المكيين. واحدًا إثر واحد، حتى دبت الفوضى المطلقة فى صفوف قريش. وأخيرًا ولوا الأدبار، فطاردهم المسلمون مطاردة حثيثة. وهكذا كان المسلمون، مرة أخرى، على وشك إحراز نصر مؤزر على المكيين. ولكن ثمة، عملا واحدًا من أعمال الإخلال بالواجب، ارتكبه الرماة المسلمون الذين أمروا بأن يلزموا مواقعهم عند النقطة التى خشى الرسول أن يباغت صحابته منها، قلب سعودهم نحوسًا. إذ ما كاد الرماة يرون إلى المكيين ينخذلون حتى سألوا قائدهم أن يأذن لهم فى الاشتراك مع سائر أفراد الجيش الإسلامى بمطاردة العدو. وبرغم رفض القائد، غادر الرماة مواقعهم التى كان الرسول قد أمرهم أمرًا جازمًا بأن يلزموها حتى النهاية، على حين لزمها عبدالله بن جبير وقليل آخرون[3] ذكر موسى بن عقبة[4]: «وحمل المسلمون على المشركين حتى أجهضوهم عن أثقالهم وحملت خيل المشركين فنضحهم الرماة بالنبل ثلاث مرات فدخل المسلمون عسكر المشركين فانتهبوهم فرأى ذلك الرماة فتركوا مكانهم ودخل العسكر فأبصر خالد بن الوليد ومن معه فحملوا على المسلمين في الخيل فمرقوهم». ولمح خالد بن الوليد، الذى كان على رأس الفرسان المكيين والذى كان يراقب الوضع مراقبة دقيقة، موطن الضعف الذى ترك الآن من غير دفاع تقريبًا.

وسرعان ما استغل خالد الفرصة، فشد بفرسانه المئتين على الرماة المسلمين القلائل الذين ظلوا عند فم الشعب، فأجلاهم عنه، وانقض على الجيش الإسلامى فى وقت تراخت فيه صفوفه واضطربت إثر مطاردته للقرشيين مطاردة حثيثة. حتى إذا رأى المكيون المهزومون المولون الأدبار خالد بن الوليد يحمل على المسلمين من خلاف انقبلوا إلى الميدان أيضًا، فإذا بالمسلمين يحصرون من أمام ومن وراء. وكان خليقًا بكثرة العدو العددية الغامرة أن تسحقهم منذ البدء. سحقًا كليًا، لولا تدبير حربى وقائى كان الرسول قد اتخذه مقدمًا. وتفصيل ذلك أنه كان قد أدخل فى حسابه، حين صف

---

(١) ابن أبي حاتم - تفسير مخطوط مصور رقم ١٨٧٥ - ٢/ ١٢١.
(٢) القرطبي - الجامع لأحكام القرآن جـ٤/ ١٨٤ - الزجاج - معاني القرآن وإعرابه جـ١/ ٤٦٥.
(٣) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص١٤٦.
(٤) قال ابن حجر ما ذكره موسى بن عقبة في سياق القصة - فتح الباري - ٧/ ٣٤٦.

رجاله للقتال، شأن القائد اليقظ، إمكان تطور الموقف لغير صالح المسلمين. والواقع أنه إنما قد جعل ظهره وظهور أصحابه إلى احد لمجرد الرغبة فى أن يتخذ من الجبل مفزعًا يلجأ إليه إذا ما ألمت بهم كارثة. وكان الرسول، حين شغل المسلمون بمطاردة العدو، قد تخلف هو وطلحة بن عبيد الله وسعد بن أبى وقاص فلم يبرحوا مواقعهم. فلم يكد يرى إلى خالد ينقض على المسلمين ويحتل الموقع الذى هجره الرماة حتى أدرك عظم الخطر المحدق بالجيش الإسلامى. ولم يكن أمامه، فى تلك اللحظات، غير سبيلين اثنين يستطيع انتهاجهما: إما أن يكفل سلامته الشخصية بالشخوص إلى مفزع ما، تاركا أصحابه لمصيرهم المقدور، وإما أن يناديهم مخاطرًا بنفسه لكى ينقذهم من الخطر. ولقد اختار السبيل الثانية. وإذ وجدهم فى ضيق صاح بأعلى صوته: «هلموا إلى، أنا رسول الله» ولم يكد صوت الرسول يبلغ آذانهم حتى التفتوا، كلهم، نحوه وشقوا طريقهم إليه عبر صفوف العدو. ولكن إذا كانت الصيحة قد جمعت المسلمين حول النبى، فإنها قد دلت القرشيين، أيضًا، على مكانه. لقد كان هو فى زعمهم أصل البلاء كله. وكان غرض الحرب الأوحد هو التخلص منه[1].

وما هى إلا لحظة حتى أمسى هدف هجمات العدو. ولكن صحابته، المتفانين فى اخلاصهم له، دافعوا عن حياته الغالية بأرواحهم فصرعوا حوله واحدًا إثر واحد وخلص المشركون إلى رسول الله محمد ﷺ فجرحوا وجهه وكسروا رباعيته اليمنى وهشموا البيض على رأسه ورموه بالحجارة حتى وقع على شقه وسقط في حفرة فأخذ الإمام علي ابن أبي طالب بيده الشريفة وحضن رسول الله محمد ﷺ[2]. وفي تلك الأثناء قتل مصعب بن عمير بين يديه اللواء فأخذه الإمام علي بن أبي طالب ونشبت خلقتان من خلق المغفر في وجه الإمام علي فانتزعهما أبو عبيدة الجراح وعض عليهما حتى سقطت ثنيتاه من شدة غوصهما في وجهه وامتص مالك بن سنان والد أبي سعيد الخدري الدم من وجنته، وأدرك المشركون يريدون ما الله حائل بينهم وبينه فحال دونه نفر من المسلمين نحو عشرة حتى قتلوا ثم جادلهم طلحة حتى أجهضهم عنه وترّس أبو دجانة عليه بظهره والنبل يقع فيه وهو لا يتحرك وصرخ الشيطان بأعلى صوته: إن محمدًا قتل ووقع ذلك في قلوب كثير من المسلمين وفر أكثرهم[3]. وفى غضون ذلك، قتل مصعب بن عمير، وكانت طلعته شبيهة بطلعة الرسول. فانتشرت انتشار النار فى الهشيم شائعة تقول إن الرسول قد قتل. فأوقع ذلك مزيدًا من الذعر فى صفوف المسلمين التى كان الاضطراب قد دب فيها قبل ذلك. واستبد الأسى بأحدهم إلى حد جعله عاجزًا عن الضرب بسيفه. ودهش مسلم آخر، هو أنس بن النضر، دهشًا عظيمًا إذ وجده واقفًا مكتوف اليدين. حتى إذا سأله عن سبب ذلك أجابه: «وأى فائدة ترتجى من القتال بعد أن توفى الرسول؟» ولما رأى المشركون ما فعل خالد عادوا ثانية إلى المعركة وأوقعوا المسلمين بين فكى الكماشة. وفى

---

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص١٤٨.
(٢) د. السيد الجميلي - غزوات النبي ﷺ - ص٥٠.
(٣) د. السيد الجميلي - نفس المرجع ص٥٠.

غمرة الاضطراب انسحب بعض المسلمين إلى المدينة ليطلب من عبدالله بن أبى سلول أن يطلب لهم الأمان من أبى سفيان، وتشتت بعضهم الآخر فى أطراف ميدان المعركة. . وثبت الصابرون المجاهدون الذين يحملون إيمانًا لا تزعزعه الجبال، وفى مقدمتهم أنس بن النضر الذى رفض الانسحاب، ووقف بين المسلمين قائلا: «ياقوم إن كان محمد قد قتل، فإن رب محمد لم يقتل، فقاتلوا ما قاتل عليه محمد، اللهم إنى أعتذر إليك مما يقول هؤلاء. وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء. ثم شد بسيفه وقاتل قتالا شديدًا وأبلى بلاء منقطع النظير حتى إنه لم يقتل إلا بعد ان ضرب سبعين ضربة[1].

ظل الرسول محافظًا على رباطة جأشه رغم استشهاد خيرة رجاله، وفى اللحظات الحرجة يتميز القادة من مدعى القيادة ومغتصبيها أو ممن يتسلمها مصادفة أو وراثة وهو غير أهل لها. لقد رأى الوضع المؤلم الذى يعانى منه أصحابه، فحدد لهم «نقطة ازدلاف» تجمع - يجتمعون فيها، كى لا ينفرد بهم المشركون وهم بين مقاتل لوحده أو فار من المعركة، وكانت «نقطة الازدلاف» الشعب فى الجبل، فاتجه إليه الرسول ومعه أبو بكر وعمر والإمام علي كرم الله وجهه وطلحة والزبير وجماعة من المسلمين بلغوا الثلاثين، وراح يقاتل ويقاتل معه أصحابه قتال المستميت. وقد التف حوله أصحابه وأخذوا يتساقطون شهداء دونه، والمشركون يضغطون عليهم، حتى جرح الرسول عدة جروح، ووقف أمامه أبو دجانة يرد السهام بظهره. وعندما خلص أحد المشركين إلى الرسول، رماه صلوات الله عليه بحربة كانت سبب وفاته، وأخذ يزود سعد بن أبى وقاص بالنبال، وسعد يرمى بها المشركين، فقد كان سعد من أمهر رماة زمانه. وعلم المسلمون المشتتون فى أرض المعركة بان الرسول لم يمت، فبدأوا التجمع حوله فى «نقطة الازدلاف» التى عينها، فطلب إليهم عندها التراجع نحو الجبل، جبل احد، وعدم السماح للمشركين بالالتفاف حولهم من أعلى الجبل، وعندما حاول المشركون ذلك ثانية منعهم عمر بن الخطاب بمن معه[2]. وهكذا راح الصحابة يشجع بعضهم بعضًا، ويشقون طريقهم وسط صفوف العدو، ومتحلقين حول قائدهم المحبوب. وكان قد أصيب، آنذاك، بجراح بليغة، وسقط على الأرض فشج فى وجهه، وكلمت شفته، ودخلت حلقتان من المغفر الذى يستر به وجهه فى وجنته. واستمات أصدقاؤه المخلصون فى الدفاع عنه، منشئين حول شخصه سورًا بشريًا.

وانقض العدو بكامل قوته على الرسول، ولكن سور الجنود المسلمين كان امنع من ان يخترق. فما إن تحدث فيه ثغرة بمصرع واحد منهم حتى يندفع آخر فيحل محله ويسد الثغرة. وسرعان ما استرد المسلمون رشدهم، بعد الصدمة التى أذهلتهم، ورصوا صفوفهم، وشدوا على العدو شدة عنيفة، مقابلين هجمات العدو العنيدة بمثلها. وإلى هذا ، فقد كانوا الآن قد ارتدوا إلى موقع تحدى كل المحاولات لتشتيتهم. وبذل القريشيون قصارى جهدهم، وشنوا هجمات متكررة،

(١) احمد راتب عرموش - المرجع السابق ص٦٣.
(٢) احمد راتب عرموش - نفس المرجع ص٦٤.

ولكنهم ردوا فى كل مرة على أعقابهم، ثم انهم فقدوا كل أمل فى سحق المسلمين، الذين كانوا الآن قد تراصوا كتلة متماسكة. وانهمرت نبـال أبى طلحة، الرامى الشهير. عليهم فى سرعة هائلة. ولقد كسـر خلال ذلك ثلاث قسى. وكان سـعد بن أبى وقاص يشـارك فى النضال أيضًا. لقـد أفرغ كنانة الرسول، وكـبد العـدو خسـائر فادحة. وفـوق هذا، فقـد كانوا الآن أكـثر تعرضًـا لنبال المسلـمين وحجارتهم، بعد أن احتلـوا مواقع ذات امتياز. وهكذا، بفضل حذق الصحابة فـى الرماية ومواقعهم التى كانت خيرًا من مواقع عـدوهم، من ناحية، وبفضل ما عرفه القرشـيون من الجراءة المتهورة التى اتصف بها المسلمون. وجد المشركون أن من حسن الرأى أن ينقلبوا على أعقابهم[1].

جاء الإمام علي إلى رسول الله محمد ﷺ بماء ليشرب منه فوجده آجنًا فرده وغسل عن وجهه الدم وصب على راسه، فأراد رسول الله محمـد ﷺ ان يعلو صخرة هنالك فلم يستطع لما به فجلس طلحة تحته حتى صعدها وحانت الصلاة فصلى بهم جالسًا وسار رسول الله محمد ﷺ في ذلك اليوم تحت لواء الأنصـــار[2]. وبعد أن حبطت مـحاولات القرشيين، على هذا النحـو، فى القضاء على المسلمين، انـصرفوا إلى إرواء ظمـأهم إلى الثأر فى أرض المعـركة نفسـها. لقد مـثلوا بالقتلى تمثـيلا بربريًا، وشـوهوا جثـثهم جادعين الآذان والأنوف. وبقـرت هند بطن حمزة وجذبت بين يديهـا كبده وجعلت تلوكـها لوكًا. ليس هذا فـحسب، بل لقد انتـزعت أحشاءه واتخـذت منها أكليلا لرأسـها.

وصاح أبو سفيان «زعيم بني أمية» من بعيد: «هل مـحمد بينكم؟» فأشار النبى إلى أصحابه ليسكتوا. ثم نادى بصوت عال: «هل أبو بكر بينكـم؟» فلم يرد عليه أحد بجواب. فصاح للمـرة الثالثة: «هل عمـر بينكم؟» وهنا لم يعد عـمر قـادرًا على أن يتمـالك نفسه. فـأجابه: «ياعـدو الله، إنهم كلهم لايزالون أحياء لكى ينزلوا بكم الويل!» وعندئذ صاح أبوسفيان «زعيم بني أمية»: أعل هبل!! فما كان من الرسول إلا أن قال لعمر: «قم فأجـبه: الله أعلى وأجل!» لقد كان نزع الرسول إلى غض الطرف عن هذيان أبى سفيان « زعيم بني أمية» ما بقى ذلك الهذيان مسألة شخصية، وكان يؤثر تجاهله وعدم الرد عليه. ولكن ما إن عدا أبو سـفيان نطاق الهذر الشخصى إلى التجـديف على الله حتى عجز عن الاعتصـام بالصمت. لقد حـفزه احترامه لاسم الـله العظيم إلى أن يرد على أبى سفيان ردًا منـاسبًا. ومرة اخرى صاح أبو سفيـان: «العزى لنا ! «الله ناصرنا. أما أنتم فليس لكم من ناصر» ومع ذلك، فقد كان للرسول فؤاد مفعم بالشفقة حتى على أعدائه. فبينما كانت النبال تنهمر عليه كان يتضرع إلى الله قائلا[3]: «اللهم اغفر لقومى فانهم لايعلمون!».

نلاحظ من ذلك أن رسول الله محمد ﷺ امرهم بجوابه عند افتخار أبي سفيان زعيم بني أمية بآلهته الكفار وبشركه الفاحش تعظيما للتوحيد وإقرارًا به في مواجهة الوثنية المقبوحة وإعلامًا بعزة الله

---

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص١٥١.
(٢) د. السيد الجميلي - المرجع السابق ص٥٠.
(٣) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص١٥٢.

معبود المسلمين الموحدين ولم يأمرهم رسول الله محمد ﷺ بإجابته عندما قال: «فيكم محمد وأبو بكر وعمر، بل لقد روى أنه ﷺ نهاهم عن ذلك، فلما قال لأصحابه: أما هؤلاء فقد كفيتموهم. حمي عمر بن الخطاب واشتد غضبه وقال كذبت يا عدو الله فكان في هذا الإعلام من الإذلال والشجاعة وعدم الجبن والتعرف إلى العدو في تلك الحال ما يؤذنهم بقوة القوم وبسالتهم وأنهم لم يهنوا ولم يضعفوا[1].

ولم يوفق بعض المسلمين ـ بعد أن عزلوا عن إخوانهم وسط البلبلة العامة التى عصفت بصفوف المسلمين عند هجوم خالد المباغت ـ إلى شق طريقهم عائدين إلى مواقع الرسول وصحابته، فتركوا الميدان متوهمين أن جيشهم قد هزم. ولكن زوجاتهم حثون التراب فى وجههم عندما علمن أنهم خلفوا الرسول فى الميدان. ثم إن عدداً منهن هرعن لتوهن إلى الميدان، وكلهن يسألن عن الرسول ماذا فعل؟ لقد كان قلقهن عليه أعظم من قلقهن على بعولتهن وأنسابهن. ويروى أن امرأة من الأنصار نعى لها أبوها فاجتزأت بترديد الآية القرآنية المألوفة: ﴿... قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ۝١٥٦﴾ [البقرة] وتساءلت فى لهفة: هل الرسول بسلام؟ عندئذ قيل لها إن أخاها استشهد أيضاً. فرددت الآية نفسها، ولكنها عاودت السؤال نفسه عن الرسول أهو بسلام؟ ثم إنهم حملوا إليها نبأ آخر موجعاً: لقد قتل أبوها أيضاً. فأطلقت زفرة عميقة وردت الكلمات نفسها. حتى إذا قيل لها: «هو بحمد الله كما تحبين» رايلها الكرب كله. فقالت: «أرونيه حتى أنظر إليه» فأشير لها إليه حتى إذا رأته تنفست الصعداء وهتفت: «الآن وقد رأيتك فكل مصيبة بعدك جلل» وبروح التسليم السامية نفسها صبرت النسوة الأخريات على مصابهن بأنسابهن الذين صرعوا فى المعركة ومثل بهم. وكان بعضهن، قد لزمن الجيش فى المعركة، فكن يسقين الجرحى ويضمدن جراحاتهم فى غمرة القتال. وبارتداد المسلمين إلى الجبل يحتمون به أمست المدينة عرضة للهجوم بكل ما فى الكلمة من معنى. ولكن أبا سفيان وجموعه لم يؤانسوا فى أنفسهم الشجاعة للعودة إليها. إن حالهم لم تكن بأحسن من حال المسلمين، ولقد عزوا أنفسهم بانسحاب أعدائهم . إنهم لم يجرؤوا على متابعة الحرب حتى النهاية خشية أن يفضى ذلك ـ وكان لهم كل الحق أن يخشوا ـ إلى هلاكهم. وهكذا انقلبوا عائدين، على جناح السرعة، إلى مكة، مجتازين عدة أميال فى يوم واحد. وفى طريق عودتهم تساءلوا ما إذا كان يجوز لهم ـ من غير افتئات على الحقيقة ـ أن يزعموا أنهم رجعوا ظافرين[2].

إنهم لم يكونوا يملكون أية غنيمة من غنائم النصر يعرضونها على أنظار شعبهم، ولم يكن فى أيديهم أسير حرب واحد، أفيعد هذا نصراً؟ وكان الجيش الإسلامى لايزال مسيطراً على ميدان القتال، أفيعتبر هذا نصراً؟ وكانوا قد عجزوا عن احتلال المدينة برغم أنها تركت من غير دفاع،

---

(١) د. السيد الجميلي - المرجع السابق ص٥٣.
(٢) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص١٥٢.

أفيكون هذا نصرًا؟ تلك كانت هى الخواطر التى راودتهم. واقترح بعضهم أن يرجعوا إلى المدينة ليحسموا المسألة، ولكنهم لم يوفقوا إلى استجماع الشجاعة للاقدام على ذلك. وفيما هم يترددون على هذا النحو لايدرون ما يفعلون تسامعوا بأن الرسول يطاردهم بجيشه. والواقع أن القرآن الكريم اطرى البسالة التى أبداها المسلمون فى تلك المناسبة إطراء عظيمًا. ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [آل عمران]. فهى تقول إنهم استجابوا فى بشر لدعوة الرسول حين كلفهم أن يخرجوا ويطاردوا العدو، على الرغم من غمهم وبلواهم. ولقد تعقبوا العدو. فى اليوم التالى نفسه، حتى موضع يدعى «حمراء الأسد»، على مسافة ثمانية أميال من المدينة. ولكن أبا سفيان على أعقابهم حالما بلغته أنباء المطاردة الإسلامية. إنه لما ينم عن جهل بالوقائع التاريخية أن يستنتج المرء أن المسلمين هزموا فى معركة أحد. صحيح من غير ريب أن المسلمين منوا بخسائر باهظة، ولكن من الثابت ـ بالقدر نفسه ـ أن قريشًا أكرهت على العودة خائبة، أيضًا . وهل نقع فى صفحات التاريخ على حادثة انتصار واحدة ثبّت فيها العدو المغلوب أقدامه فى الميدان وانقلب الجيش المنتصر عائدًا إلى وطنه من غير ان يأسر أسيرًا واحدًا. . . ووجد فيها العدو المهزوم الجرأة على مطاردة المنتصرين فى غد، بعد بضع ساعات من المعركة ليس غير، على حين ولى المنتصرون الأدبار لدن سماعهم نبأ المطاردة؟ ليس من شك فى أن المسلمين اجتازوا فى هذه المعركة محنًا قاسية. لقد جرح الرسول نفسه جراحات بليغة، بل لقد شرت شائعة تقول إنه قتل، وبذلك خيل إلى القوم أن أمر الإسلام قد انتهى قولا واحدًا. ولكن هذا كله كان واجب الحدوث فى حياة الرسول لكى يكون منارة أمل وشجاعة للأجيال الإسلامية اللاحقة، خشية أن تقنط وتضعف فى ساعات الضنك وخيبة الرجاء. إن العدو قد يهلل ابتهاجًا لما يتراءى فى ناظريه قضاء على الإسلام، ولكن القلب المسلم يجب أن يظل ناعمًا بالطمأنينة. فالاسلام خالد لايموت. وكل مصيبة تلم به، مهما تكن عظيمة، لابد أن تحمل إليه انتصاره الحقيقى متنكرًا بقناع[1].

يضع القائد الناجح نفسه مكان خصمه، ويناقش ما لديه من معطيات، ثم يطرح على نفسه السؤال التالى: «لو كنت مكانه ماذا أفعل؟» والقائد الناجح يعيش قضيته ما دامت روحه تخفق بين جنبيه. لذلك لم يغب عن ذهن الرسول وهو يعانى من الجراح والتعب ما يمكن أن يقوم به المشركون. لقد كانت لديهم فرصة للقيام بهجوم حاسم على المدينة، ولهم فيها «طابور خامس» يتعاون معهم، ولهم فيها يهود المدينة وهم ينتظرون اللحظة المناسبة للتخلص من المسلمين، ولو أنهم فعلوا ذلك لقطعوا الطريق على المسلمين وعرضوهم لمصير قاتم وبما أن الاحتمال وارد، فقد اتخذ الرسول قراره لمجابهة الحالة التى يمكن أن تطرأ، ولخص قراره بقوله: «فو الذى نفسى بيده لئن

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص١٥٣.

أرادوها لأسيرن إليهم فيها ثم لأناجزنهم فيــها». وأصدر أوامره للإمام علي عليه السلام أن يخرج فى أثر القوم فينظر ماذا يفــعلون، فإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل أى ساقوهـــا معهم دون أن يركبوها، لأن العرب كـــانوا إذا عزموا ســفرًا طويلا ركبــوا الإبل ولم يربكوا الخيل فهم يريــدون المدينة، وإن امتطوا الإبل وجنبوا الخيل فهم يقصدون مكة. ولما جاء على بالخــبر أنهم ركبوا الإبل تنفس الرسول الصعداء وأيقن أنهم توجهوا إلى مكة. لكن القائد يحسب دائمًا حــساب الخدعة، ويحتاط لها. ولذلك أرسل الرسول سبعــين رجلا من أصحابه ليتبــعوا المشركين ويتأكدوا من عدم وجــود نية لديهم فى الرجوع. وبعدما وارى المسلمون قتلاهم وضمدوا جراحهــم، عمد الرسول إلى مظاهرة عسكرية تعيد للمسلمين معنوياتهم، وتهــرب أعداءهم، وتظهر لليــهود والمنافقيــن والأعراب أن خسارة هذه المعــركة لم توهن عزيمــة المسلمين ولم تؤثر على مقدرتهم الــقتالية، ففــى اليوم التالى للمعــركة نادى مناديه بالناس أن يتهيئوا لملاحقة العدو، وأن لايخرج أحد لم يشترك فى معركة أحد بالأمس[1].

وانطلق بالجيش حتى بلغوا «حمراء الأسد» على بعــد ثمانية أميال من المدينة، بينما كان جيش المشــركين قد بــلغ «الروحاء»، على بعــد ٦٠ ـ ٧٠ كم تقريبًــا، وعسكروا هناك. فى الــروحاء أدرك المشركــون خطأهم، وتداولوا أمرهم، فقــرروا العودة للقضاء على المســلمين واستئــصالهم. وهذا هو الأمر الطبيعى، لأن غاية الحرب تدمير قــوات العدو والقضاء عليها. ولكن مناورة «إظهار القوة» التى قام بها الرســول فعلت فعلها. فبــعد أن قرر المشركون العــودة للقتال، اعتقــادًا منهم بأن المسلمين فى المدينة يبكون قتلاهم أعــلمهم رجل من خزاعة «حلفاء الرســول» أن الرسول خرج وراءهم على رأس قوة كبــيرة من المسلمين تتحرق شــوقًا للأخذ بثأر مــعركة أحد، عندها عدل المشــركون عن قرارهم. وعمــد أبو سفيان إلى مناورة مــعاكسة تــرهب المسلمين، فأرسل إليــهم من يخبرهم أن قريشًــا عائدة لقتالهــم، بينما تابع طريقه إلى مكة. فأقام الرســول ثلاثة أيام ينتظر قريشًا، ولما علم بتوجهها إلى مكة رجع بقواته إلى المدينة. كانت معــركة أحد ولاشك هزيمة «مؤقتة» للمــسلمين، ولكننا لا نستطيع أن نعتبرها نصرًا حاسمًا للمشركين، وبخاصة أنهم لم يستثمروا الفوز الذى حققوه فى المعركة، وانسحبوا منها فى لحظة غير مناسبة دون أن يحولوا النصر الأولى المحقق إلى نصر حاسم. واستطاع الرسول أن يخرج من المعــركة بخسائر لاتتــجاوز العشرة بالمــائة من قواته التى خاض بها المعــركة. وأخذ جيــشه دروسًا أفادته فيما بعد، وأفادت «الاستراتيجية» الإسلامية على مدى الأيام والدروس المستفادة هى[2]:

تبين أن النصر لا يــرتبط بتعداد القوات، فقــد انتصر المسلمون فى بدر ولم ينتــصروا فى أحد رغم أن نسبة تفوق المشركين كــانت متقاربة فى المعركتين. ظهرت أهمية تطهــير الصفوف من المنافقين وذوى العقيدة المزعزعة. وكان انسحــاب عبدالله بن أبى بن سلول درسًا لم ينسه المسلمون أبدًا، حتى

---

(١) أحمد راتب عرموش - المرجع السابق ص٦٥.

(٢) أحمد راتب عرموش - المرجع السابق ص٦٦.

أن أبا بكر لم يسمح للمرتدين بعد وفاة الرسول ﷺ بالمشاركة فى جيوش الفتح. علمت المسلمين أن سنن الحياة لا تتبدل، فهم عندما يأخذون بأسباب النصر ينتصرون، وعندما يتعاونون فيها ينهزمون. إنها سنة الله فى خلقه. ولن تجد لسنة الله تبديلا. علمتهم أهمية الانضباط العسكرى والتقيد بتعليمات القائد مهما كانت الظروف والأحوال، فقد تبين لجميع المسلمين أن السبب الأول فى الهزيمة يعود إلى تهاون الرماة فى تنفيذ الأوامر وتركهم الجبل، مما حرم مؤخرة المسلمين من الحماية، ومكن خالد بن الوليد من الالتفاف عليهم. وقد نزل فى أحد كثير من الآيات، ومنها قوله عز وجل. ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٢١) إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٢٢)﴾ [آل عمران] ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (١٥٢)﴾ [آل عمران].

يأخذ من نتائج معركة أحد بعض الأحكام الفقهية وهي[1]:

١ - يجوز الانغماس في العدو كما انغمس أنس بن النضر وغيره.

٢ - يجوز أن يصلي الإمام قاعدًا إذا جرح في المعركة وعلى المسلمين أن يصلوا خلفه قعودا وإن رسول الله محمد ﷺ قد فعل ذلك في «أحد» واستمر على ذلك حتى وفاته، وقال الشافعي والحنفية: «يصلون خلفه قياما»، وإذا قتل المسلم نفسه فهو في النار، وذلك لقوله ﷺ في قزمان: الذي أبلى بلاء حسنا مشهودًا يوم أحد فلما اشتدت به الجراح نحر نفسه فقال ﷺ: «هو من أهل النار».

٣ - السنة في الشهيد أن لا يغسل ولا يصلى عليه ولا يكفن في غير ثيابه لكن يدفن إلا أن يسلب هذه الثياب فيجوز أن يكفن في غيرها.

٤ - إذا كان الشهيد جنبا فإن الملائكة تتعهد وتتكفل بغسله مثلما غسلت الملائكة حنظلة بن أبي عامر.

٥ - يدفن الشهداء في مصارعهم فلا ينقلون إلى مكان آخر فإن قوما نقلوا قتلاهم إلى المدينة، فنادى منادي رسول الله محمد ﷺ بالأمر برد القتلى إلى مصارعهم، وإنه من الجائز أن يدفن الرجلان أو الثلاثة في القبر وكان ﷺ يقول: «أيهم أكثر أخذا للقرآن فإن أشاروا إلى رجل قدمه في اللحد» وقد دفن عبد الله بن عمرو، وعمرو بن الجموح في قبر واحد.

٦ - أسوأ العواقب يكون من العصيان وعدم الانقياد للأوامر لأن ما نزل بالمسلمين في أحد من البلاء إنما كان من جراء عدم انقيادهم وعصيانهم لأمر رسول الله محمد ﷺ.

---

(١) د. السيد الجميلي - المرجع السابق ص٥٨.

٧ - إن الحرب مرة للمسلمين ومرة عليهم والمقصود هنا هو الأسمى وغايتها الأسنى إنما هي الابتلاء وتمحيص النفوس، وسبر غور إيمانها ويقينها وثباتها على الحق واستسلامها لأمر الله وبهذا يتميز الصادقون من غير الصادقين والعاقبة للمتقين.

٨ - إن المنازل والمراقي والدرجات العالية التي أعدها الله تعالى لأوليائه وأهل كرامته لابد أن تكون غالية الثمن وأن مهدها هو صدق اليقين بالله تعالى وموافقة الأمر والنهي والجهاد الخالص الصادق غير المشوب.

كان لموقعة أحد أثر جد مقلق في نفوس أبناء القبائل العربية على العموم: لقد حفزتهم إلى الجهر بمعاداة الإسلام ومقاومته، ذلك بأنهم اقتنعوا الآن بأن قريشًا عازمة على تحطيم الإسلام وإلا لما تجشمت عناء القيام بمثل تلك الحملة الضخمة وأنفقت ما أنفقت فى سبيلها. وإذ استوثقوا من تصميم القرشيين على ذلك، بدأ حقدهم المكبوت حتى ذلك الحين يعلن عن نفسه. لقد حسبوا أن القضية الإسلامية قد أخفقت، وأن عليهم أن لا يتخلفوا عن المشاركة فى شرف الإطاحة بها. وهكذا راحت القبائل، فى كل مكان، تعد العدة للانقضاض على المسلمين. كان تثقيف الشعب الاخلاقى والروحى هو، من غير ريب، هدف الرسول الأوحد. ولم تكن الحرب لتشكل جزءًا من برنامج حياته ولم يكن فى الإمكان تحقيق هذا الهدف العظيم إلا على أيدى تلك العصبة الصغيرة النبيلة التى كان قد أعدها لهذا الغرض. أما وقد تعرض للخطر حتى وجود أولئك الذين عقدوا النية على وقف أنفسهم لتطهير الإنسانية روحيًا، أفلا يكون من واجبه أن يتخذ جميع الاجراءات الممكنة لحمايتهم؟ كانت مصلحة المثل الأعلى الذى رفعه أمامه تدعو إلى القيام بعمل حازم. وإلى هذا، فقد كان الرسول زعيم الجماعة الصغيرة، وكان ـ بوصفه هذا ـ مسؤولا عن سرائهم وضرائهم. إن مركزه كزعيم لهم كان يفرض عليه السهر على مصلحة شعبه. وفى هذه الناحية أيضا كان مثلا يحتذيه أولئك الذين أسندت إليهم مقاليد الحكم والسيطرة على الآخرين. وكما أظهر ذلك النموذج الكامل للجنس البشرى، يتعين على الزعيم أن لا يقبل منصبه لمجرد التمتع بالامتيازات التى يتيحها له، بل إن عليه أيضًا أن يواجه المسؤوليات الشاقة التى يفرضها. إن واجبه الأخلاقى ليقتضيه أن يفكر فى الأساليب والطرائق التى تمكنه من الدفاع عن شعبه ضد العدوان، وأن يتخذ التدابير التى تكفل له الدفاع، وأن يتخذ التدابير التى تكفل مصلحتهم. ولو لم يكن للرسول غير هذه المأثرة الباهرة إذن لكانت كافية لأن تبوئه مركزًا فريدًا فى تاريخ البشرية. لقد وجد شعبه محاطًا، من أقطاره جميعًا، بأعداء الداء. كان وجودهم كله يتأرجح، ليل نهار، فى الميزان. ولقد وفق، ببعد نظره وتضحيته بنفسه، إلى انقاذهم من جميع الأخطار، وتمكينهم من الفوز بأكاليل النجاح. إن إنشاء أمة ما، يعتبر فى جملة الأعمال العظيمة فى التاريخ الإنسانى، وليس للعقبات الضخام التى ذللها الرسول لإنشاء أمة عظيمة نظير فى حوليات بناء الامم[1].

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص١٥٥

نلاحظ من نتائج معركة أحد أن نكث يهود المدينة عهدهم، وانشأوا يتآمرون مع قريش لانزال الأذى بالمسلمين. ومن ناحية ثانية ، فإن أذى المنافقين أمسى الآن أوضح وأصرح. لقد حرصوا على إعنات المؤمنين بكل سبيل. وكانت القبائل المجاورة قد عقدت العزم أيضًا على توجيه ضربة قاضية إلى الإسلام، متوهمين أنه كان على شفير الانقراض. لقد عدم المسلمون كل أمن وطمأنينة داخل المدينة وخارجها على السواء. وكانت الأنباء تشعرهم كل يوم بهجوم يشن من هذه الناحية حينًا، ومن تلك الناحية حينًا. كان عهدًا جد عصيب. ولم يكن المسلمون بقادرين على الخروج من بيوتهم عزلا من غير سلاح. ونحن نعلم من بعض الروايات أنهم لم يستطيعوا التخلي عن أسلحتهم حتى فى سكينة الليل. وأخيرًا استنفد الارهاق صبرهم، ففتحوا قلوبهم للرسول واصفين عجزهم عن الصبر أكثر مما فعلوا بعد أن بلغ السيل الزبى. فكان من دأبه أن يطيب خاطرهم مؤكدًا لهم أن فجر السلام أمسى وشيكًا. ولقد شاطرهم بنفسه رهق أيام المحنة هذه وعنتها، واتخذ كل اجراء وقائى لاجتناب خطر الهجمات الذى لاح الآن، فى كل ناحية من الأفق، شديدًا عارمًا. وذات يوم، وكان الظلام لايزال حالكًا، سمعوا جلبة وهديرًا، وخافوا أن يكون عدو ما قد أقبل لاقتحام المدينة، أو أن تكون ثمة غارة مبيتة. واحتشد المسلمون من كل صوب، واستعدوا للخروج ابتغاء المقاومة. وكم كان دهشهم عندما بصروا بالرسول عائدًا على صهوة جواده بعد أن راد أرباض المدينة كلها. وطمأنهم قائلا إنه ليس ثمة أى خطر، وإنه لا داعى للقلق ألبتة. وهكذا أظهر الرسول إنه لم يكن مجرد زعيم حكيم بل كان فى الوقت نفسه جنديًا باسلا يزدرى الخطر فى جراءة وكانت المدينة تحيا فى غمرة خطر موصول[1].

بعد عودة رسول الله محمد ﷺ من حملة «حمراء الأسد» أمر بتنفيذ حكم الإعدام في معاوية بن المغيرة بن أبي العاص وهو جد عبد الملك بن مروان لأمه فأتى ابن عمه عثمان بن عفان فطلب من الرسول ﷺ الأمان فوهبه له، فلما خرج الرسول ﷺ اغتنم معاوية هذه الفرصة وصار يتجسس على المسلمين لحساب قريش، فلما عاد رسول الله محمد ﷺ خرج معاوية هاربًا فأمر رسول الله ﷺ زيد بن حارثة وعمار بن ياسر أن يتعقباه ويقتلاه فوجداه على بعد ثمانية أميال من المدينة فقتلاه رميا بالنبل تنفيذا لحكم الإعدام في الجاسوس معاوية[2].

وكان على المسلمون أن يلتزموا الحذر واليقظة لحظة بعد لحظة. لقد عمدوا إلى خنق أضال الخطر فى مهده. فإذا ما نمى إليهم أن ثمة بلاء يفرخ فى ناحية ما، وأن المدينة عرضة لهجوم ما، سارعوا إلى توجيه كوكبة من الرجال لمعالجة الخطر قبل استفحاله. وهكذا كانوا يتلافون، بمجرد الوقاية العاجلة، ما كان خليقًا به أن يقضى إلى إضرام نار الحرب على نحو رهيب. إن بعض النقاد

(١) مولانا محمد علي – المرجع السابق ص١٥٦.
(٢) محمد محمد البيلي يونس – المرجع السابق ص٨٣.

المتعصبين على الإسلام يرمونه بتهمة الانتشار بحد السيف، وهو زعم يتنافى تنافيًا كليًا مع الحقيقة والواقع. فهداية الناس إلى الإسلام لم تتم، فى أيما يوم من الأيام، من طريق السيق، ولم يسجل التاريخ حادثة واحدة كان فيها إسلام أيما امرئ ثمرة من ثمرات الحملات العسكرية.

بئر معونة: والحق أن الرسول كان يعين - ابتغاء نشر الدين - مبشرين أعدوا خصيصًا لهذا الغرض. فكان من دأب هؤلاء الفقهاء الذين حفظوا القرآن عن ظهر قلب أن ينشروا نور الإسلام فى أوساط القبائل على اختلافها. وكان بعض ذوى الغدر يدعون هؤلاء المعلمين بحجة رغبتهم فى التفقه فى تعاليم الإسلام، حتى إذا أمسوا تحت رحمتهم عمدوا إلى قتلهم فى غير ما شفقة. وقد حدث مثل هذا الصنيع البربرى الغادر فى «بئر معونة» فى منطقة نجد بين أرض بنى عامر وحرة بنى سليم، فى شهر صفر من السنة الرابعة للهجرة. وتفصيل ذلك أن أبا براء عامر بن مالك ملاعب الأسنة زعيم بنى عامر وبنى سليم وفد على الرسول حاملا بعض الهدايا، وسأله أن يوجه بعض المعلمين إلى قومه لعلهم يقبلون رسالة الإسلام. فرفض الرسول الهدايا[1]، وقال إنه يخشى غدر أهل نجد الذين كانوا يعرفون بالغدر والنفاق ضد الإسلام وضد رسول الله محمد ﷺ كما نزلت عدة آيات فى القرآن الكريم عن الأعراب حيث يقول العزيز الكريم: ﴿الأَعْرَابُ أشد كفرا ونفاق﴾ وفى آية أخرى: ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ... ﴿١٤﴾﴾ [الحجرات] كما ظهر منهم فيما بعد مسليمة الكذاب فى اليمامة. ولكن أبا براء قال: «أنا لهم جار، فابعثهم فليدعوا إلى أمرك. وكان أبو براء رجلا مسموع الكلمة فى قومه لا يخاف من أجاره عادية أحد عليه فوافق الرسول آخر الأمر على أن يرسل معه سبعين من خيار أصحابه من حفظة القرآن الكريم، حيث ظن الرسول أن جواره كاف لحماية أصحابه من غدر سكان «نجد» وأرسلهم بزعامة المنذر بن عمر ليدعو سكان نجد إلى الإسلام وأعطى الرسول المنذر كتابا ليقرأه على أهل نجد وأمرهم بالسير لما ندبوا إليه. حتى إذا بلغوا مكانًا يعرف بـ «بئر معونة» فى وسط نجد وجدوا أنفسهم بين أشداق جيش كبير. وهناك قتل حملة الرسالة الإلهية هؤلاء أصحاب رسول الله محمد ﷺ بحد السيف، ما خلا واحدًا، هو عمرو بن أمية لأنه كان في الرجال بعيدا عن أرض المعركة وحين عاد وجد أن أصحاب رسول الله محمد ﷺ قد قتلوا فأخذ أسيرا ثم أطلق سراحه بعد أن جز ناحيته، وفي طريقه صادف رجلين من بني عامر كان لهما من رسول الله أمان فقتلهما انتقاما لأصحاب رسول الله دون أن يعلم بأمان رسول الله لهما[2]، وفق إلى النجاة بنفسه ليروى على مسمع الرسول تلك القصة التى يتقطر لها الفؤاد.

فأصيب الرسول من جراء هذا الغدر الوحشى بصدمة عنيفة مما فعله سكان نجد وقتلهم أصحاب رسول الله محمد ﷺ والذى يقدر بحوالى سبعين صحابى من حفظة القرآن الكريم ووجد

---

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص١٥٧.

(٢) د. نبيه عاقل - المرجع السابق ص٤٨٢.

لقتلى بئر معونة أشد الوجد، ولما قص عمرو بن أمـية على الرسول قتله للعامريين أنبه الرسول لذلك وقال له: بئس ما صنعت قد كان لهما مني أمـان وجوار لأوينَّها أي عليَّ دفع ديتهما، وبعث الرسول فعلا بديتـهما إلى قومـهما في حين أن الرسول محـمد ﷺ لم يطلب دية أصحابه الاثـنين والسبعين صحابي الذين قتلوا من قبل سكان نجد وكان لهم أيضـا أمان وجوار من زعيم نجد هو عامر بن مالك الملقب أبو البراء ولعل الرسول أراد من ذلـك أن يظهر للقبائل المختلفة احـترامه لقضية الجـوار والعقد وتمسكه بها حتى ولو لم يتمسك به أعداؤه من سكان «نجد»[1].

بئر الرجيع: ويحدثنا التاريخ عن مأساة مماثلة وقعـت فى مكان آخر يدعى الرجيع فقد وجهت بعض القبائل رهطًا منها إلى رسول الله محمد ﷺ يقـولون له «إن فينا إسلامًا، فابعث معنا نفرًا من أصحابك يعلمـوننا شرائعه ويقرئوننا القـرآن» فلم يكن من الرسول إلا أن بعث إليهم بعشـرة واجهوا المصير نفسـه. لقد قتل ثمانية منهم وهم يقاتلون دفاعًا عـن النفس، على حين وثق اثنان، خبيب بن عدى وزيد بن الدثنة، بعهد الغـادرين، فاستسلما. ولكنهم نكثوا بميـثاقهم هذه المرة أيضًا، وبدلا من أن يطلقوا سراحهما كما عـاهدوهما، باعوهما للمكيين بيع الرقيق. فلم يكن من بنى الحارث، الذين أمسى خبيب مـولىً لهم، إلا أن اقتادوه إلى خارج الحرم، وهو الأرض المقدسـة التى كان كل ضرب من ضروب العنف محظورًا فيـها حتى فى الجاهلية، ليصلبوه. فـقال لهم: إن رأيتم أن تدعونى حتى أركع ركعتين فافـعلوا، فأجازوه ما أراد. فركع الركعتين ثم أقـبل على القوم وقال: أما والله لولا أن تظنوا أني إنما طولت جزعًا من القتل لاستكثرت من الصلاة. ثم أنهم رفعوه إلى خشبة وأوثقوه إليها، فنظر إليهم بعين مغضبة وصاح: اللهم أحصهم عددًا، واقتلهم بددًا، ولاتغادر منهم أحدًا[2].

أما زيد فاشتراه صفوان بن أمية للغرض نفسه. وشهد أبو سفيان وزعماء قريش المقدمين كلهم مقتله. فلما استل نسطاس، مولى صفوان بن أميـة السيف ليقطع به رأسه حاول أبو سفيان أن يغريه إغراء لايقاوم بأن قـال له: «أنشدك الله يا زيد، أتحب أن محمدًا الآن عندنـا فى مكانك تضرب عنقه وأنت فى أهلك؟» وكم كـان جواب زيد نبيـلا جليلا فى تلك السـاعة الحرجـة من حياته وقـد حدق الموت إليه فى عينيـه! لقد قال: «والله ما أحب أن محـمدًا الآن فى مكانه الذى هو فيه تصيبـه شوكة توذيه وأنا جالس فى أهـلى!». والواقع أن هذا مثل نموذجى على تعلق أصـحاب الرسول به وحـبهم العميق لـه. والحق أن سفك القبائل العـربية الغادر لدماء المسلمـين على هذا النحو الذى لايرحم آلم الرسول إيلامًا كـبيرًا. كان فى ميسـوره أن يصبر على مختلف ضروب المحن والمشـاق. ما بقيت هذه المحن والمشاق مقـصورة على شخصه هو. ولكـنه لم يستطع صبرًا على تعذيب أولـئك الذين اعتنقوا دين الحق ولم يحجموا عن الوقـوف إلى جانبه فى السراء والضراء مضحين فى بشـر وابتهاج بكل ما

---

(١) د. نبيه عاقل - نفس المرجع ص٤٨٢.

(٢) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص١٥٨.

ملكت أيديهم فى سبيل الله، مكتسبين بذلك ـ عند الله ـ مقامًا عليًا. وكان قتل المعلمين الدينيين صدمة له لاتحتمل، حتى لقد عقد النية ذات مرة على أن يتضرع إلى الله أن يأخذ المعتدين بجراذمهم الشنيعة. والواقع أن تلك القبائل كانت تستحق أن تلقى مثل ذلك القتل التعذيبى، ولكن الرسول اجترأ، فى أساه العميق ذاك، بأن دعا الله أن يتولى أمرهم . ولكن الله كان قد أرسله رحمة للجنس البشرى كله، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء] ومن أجل ذلك لم يرض له أن يكون من القسوة بحيث يستنزل الغضب الالهى حتى على أمثال هؤلاء المجرمين الكبار. كان يريده أن يكون تجسيدًا للرحمة الكلية. . الرحمة التى لا تميز بين صديق وعدو. ومن هنا نزل الوحى الالهى يقول: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [آل عمران] ولم يكد الرسول يتلقى هذا اللوم الالهى حتى كف عن إضمار النقمة على الذين قتلوا المعلمين الدينيين الوادعين، فى وحشية بالغة. يا للقلب الرقيق! هل يستطيع التاريخ أن يباهى بمثله؟[1].

إن بلاد العرب بكاملها كانت تتميز بالغيظ والحقد على الإسلام. كان اليهود، والمنافقون، وعبدة الأوثان، كلهم ـ منفردين ومجتمعين ـ قد عقدوا العزم على إبادة الإسلام. ولولا الحذر الذى أبداه الرسول والذى تمثل فى كبته كل عاصفة من عواصف المعارضة قبل أن تقوى وتشتد إذن لكان من المتعذر على المسلمين أن يلبثوا يومًا واحدًا فى المدينة. وهكذا لم يكن قد بقى للمسلمين، بحكم تلك الملابسات التى أحاطت بهم، غير سياسة عملية واحدة يستطيعون أن ينتهجوها: وهى أن يعمدوا إلى تفريق قوى العدو قبل أن يتحد ويصبح من القوة بحيث يسحق الاسلام سحقًا. والحق أنه لم يكن فى طوقهم أن يقعدوا مكتوفى الأيدى، ويشهدوا جموع العدو تحتشد حتى تمسى أقوى من أن يقدروا عليها. كان من الواضح أن مثل هذا الموقف خليق به أن يعنى القضاء على الإسلام قضاء لا ريب فيه. وهكذا أكرههم حفظ الذات، مسوقين إلى ذلك بسلطان الظروف وحدها، إلى الإمساك بالثور ـ إذا جاز التعبير ـ من قرينه. ومن المناوشات الصغيرة التى حدثت فى هذه الفترة مناوشة تعرف بمعركة «بدر الصغرى»، أو «بدر الآخرة». وتفصيل ذلك أن أبا سفيان كان قد تحدى المسلمين، لدن مغادرته ميدان أحد، قائلا: «يوم بيوم بدر ، والموعد العام المقبل» وهكذا لم يحن ذلك الموعد حتى سار المسلمون إلى بدر، حتى إذا لم يجدوا القرشيين هناك انقلبوا عائدين بسلام، بعد أن باعوا، فى السوق التى كانت تقام فى ذلك الموطن سنويًا، جميع السلع التى حملوها معهم[2].

وكانت موقعة «دومة الجندل» و«ذات الرقاع» فى السنة الخامسة للهجرة، وموقعة «بنى لحيان» و«ذى قرد» فى السنة السادسة للهجرة كلها من هذا الضرب. كان المسلمون لا يكادون يتلقون أيما نبأ عن استعدادات العدو العسكرية حتى يبعثوا على التو بسرية من رجالهم، فيتفرق شمل القوات المعادية

---

(١) مولانا محمد علي - نفس المرجع ص١٥٩ .

(٢) مولانا محمد علي - نفس المرجع ص١٦٠ .

على نحو آلى، أو فى بعض الأحيان إثر مناوشة يسيرة. وثمة عدد من المناوشات الأخرى المماثلة تلفت نظرنا منها، بخاصة، تلك التى تعرف بموقعة المريسيع أو موقعة «بنى المصطلق». وكانوا - بنو المصطلق - يقيمون فى موطن يعرف بالمريسيع، على مسيرة تسعة أيام من المدينة. وتفصيل الأمر أن زعيمهم الحارث بن أبى ضرار أعد العدة للهجوم على المدينة، بتحريض من قريش فى أغلب الظن، وبلغ النبأ الرسول، فحقق فيه، فألفاه صحيحًا. وسرعان ما أصدر أمره باتخاذ استعدادات مضادة لتشتيت قوى الحارث. وولى الحارث وجيشه الأدبار، ولكن أهل المريسيع قاتلوا المسلمين فانهزموا. لقد أسر المسلمون ستمائة منهم، وفيهم جويرية بنت الحارث، ووفد الحارث على الرسول لكى يفتدى ابنته. فترك الأمر لمشيئة جويرية، فآثرت البقاء مع الرسول. وفى هذا مايغنى عن مجلدات توضع فى وصف المعاملة الرقيقة التى كان أسرى الحرب يلقونها من المسلمين فى غير ما استثناء. ودفع الرسول الفدية من ماله هو، وبنى بجويرية نزولا عند رغبتها. أما الأسرى الآخرون الستمائة، فأطلق سراحهم جميعًا[1]. .

وفى مرجع الناس من غزوة بنى المصطلق قال أهل الإفك ما قالوه فى حق أم المؤمنين عائشة رضوان الله عليها. قال ابن سعد: وفى هذه الغزوة سقط عقد لعائشة، فاحتبسوا على طلبه. أنزل الله تعالى براءة عائشة أم المؤمنين - رضى الله عنها - وكان فتح بنى قريظة فى آخر ذى القعدة من السنة الرابعة من الهجرة، وغزوة بنى المصطلق فى شعبان من السنة السادسة، أى بعد سنة وثمانية أشهر من موت سعد، وكانت المقاومة بين الرجلين المذكورين بعد الرجوع من غزوة بنى المصطلق بأزيد من خمسين ليلة[2]. أما يهود «بنو النضير» فقد بلغ أمرهم أن خان بعضهم عقده مع الرسول ﷺ وجواره، فحاول بنو النضير قتل الرسول غيلة فى أثناء زيارته لبيوتهم مع رهط من أصحابه، وكان قد جاءهم مستعينًا فى دفع دية قتيلين قتلهما عمرو بن أمية بعدما نجا من واقعة بئر معونة. ولما احس الرسول منهم ذلك، استأذن لقضاء حاجة، وغادر مكانه، وكانت خطتهم أن يلقى عليه أحدهم، عمرو بن جحاش، صخرة. ولما لم يعد، رجع أصحابه، فأخبرهم بالأمر، وأمر المسلمين بالسير إليهم. فتحصنوا فى حصونهم، فبدأ بقطع نخيلهم، وحرق بساتينهم، فقذف الله فى قلوبهم الرعب، وطلبوا من الرسول أن يحقن دماءهم مقابل استسلامهم وجلائهم عن المدينة بما حملت إبلهم من أموال دون سلاح ففعل. فخرجوا إلى خيبر وبلاد السلام. وسيكون لهم دور كبير فى غزوة الأحزاب كما سنرى لاحقًا. ثم غزا رسول الله فى جمادى من السنة نفسها غزوة ذات الرقاع، ولم يحصل فيها حرب.

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص١٦١.
(٢) د. السيد الجميلي - غزوات النبي ﷺ - ص٧٤ .

معركة الأحزاب: أدرك يهود خطر الإسلام عليهم مبكرين. فهم أولو كتاب بالاسم فقط، يحرمون ويحللون بحسب أهوائهم، يأكلون الربا ويرتكبون الفواحش، ولا يهمهم إلا جمع المال والتفرقة بين الناس، والتعالى عليهم، وسلب أموالهم. وكانوا يظنون أن المشركين سيقضون على الإسلام فى مهده، فهادنوا المسلمين أول الأمر ضنا بأنفسهم وبأموالهم. ولما لم ينتصر المسلمون فى أحد، حاول بنو النضير قتل الرسول، ليقضوا على الإسلام بقتل نبى المسلمين وقائدهم، وبعدما أجلوا عن المدينة، علقوا آمالهم على اللقاء الموعود بعد عام من غزوة أحد بين المشركين بقيادة أبى سفيان والمسلمين بقيادة الرسول الكريم، فلما خلف أبو سفيان موعده، خاب ظنهم، وأدركوا نتائج ذلك التخاذل، فقرروا التحرك. وانطلق أشرافهم من بنى وائل ومن بنى النضير الذين أجلاهم الرسول ﷺ عن المدينة، منهم حيى بن أخطب، وسلام بن أبى الحقيق وغيرهما، فجاؤوا قريشًا فى مكة وحرضوهم على قتال المسلمين، ووعدوهم بمؤازرتهم والوقوف بجانبهم، وشهدوا لهم بأن دينهم «الشرك» خير من دين محمد ﷺ «الإسلام» فسرت قريش بشهادة يهود، وهم أهل كتاب، ونشطوا لمحاربة الرسول. ثم خرج أولئك النفر من يهود حتى جاؤوا غطفان، فحرضوهم أيضًا على مقاتلة الرسول، وذكروا لهم ما كان من شأنهم مع قريش، وموعد الحرب، وأن يهود سيكونون فى طليعة المحاربين ضد المسلمين(1).

وبينما كان الرسول منهمكا فى كبت أذى القبائل العربية، لكى يتلافى نشوب الحرب على نطاق واسع، كانت قريش فى شغل شاغل بإعداد حملة جديدة على المدينة. وكانت القبائل اليهودية المنفية من المدينة، والمقيمة الآن فى خيبر، حليفة لهم أيضًا فى القضية المشتركة: قضية إبادة الإسلام. ولقد وفقوا إلى تحريض العشائر البدوية المقيمة على مقربة من مكة، فانضمت بدورها إلى الحلف المعادى للإسلام. وهكذا تضافرت قريش، واليهود، والبدو لضرب الإسلام ضربة قاضية.

حتى إذا كانت السنة الخامسة للهجرة حشدوا جيشًا عظيمًا يتراوح عدد رجاله، وفقًا لمختلف التقديرات، ما بين عشرة آلاف جندى وأربعة وعشرين ألف جندى. وحتى القبائل اليهودية المقيمة داخل أسوار المدينة خانت المسلمين وتعاونت، فى آخر لحظة ممكنة، مع المغيرين. ومن ثم لم يكن للمسلمين، إذا نظرنا للمسالة بمنظار بشرى صرف، غير أضال الحظ فى النجاة من هذا السيل الزاخر من المهاجمين وبلغ الرسول الكريم نبأ هذا الهجوم الوشيك المعد على نطاق لم يسبق إلى مثله من قبل. فسارع إلى دعوة أصحابه يشاورهم فى الأمر ويتدارس معهم خير الطرق لمواجهة الموقف. فأشار سلمان الفارسى بتحصين المدينة من طريق حفر خندق عميق عريض يحيط بها من أقطارها جميعًا حيث كان لرأى سلمان الفارسى الأثر الأكبر فى ربح المعركة. قال: «إنا كنا بفارس إذا حوصرنا

(1) أحمد راتب عرموش - المرجع السابق ص73.

خندقنا علينا» أى حفرنا خندقًا يمنع العدو من التقدم نحونا. فأعجب الرسول ﷺ بالفكرة، وأمر بحفر الخندق من جهة الشمال بين حرة واقم من الشرق وحرة الوبرة من الغرب، وقد شكل هذا الخندق فيما بعد مفاجأة للأحزاب اضطرتهم إلى الوقوف أمامه عاجزين عن عبوره. وهذه المفاجأة كانت العامل الأهم فى كسب المعركة وكان للمدينة ـ من ناحية ـ حاجز طبيعى من الصخور الوعرة، وكان يصونها ـ من ناحية أخرى ـ جدران البيوت الحجرية المبنية على نحو مكتظ، فى استمرار غير منقطع، والتى كانت تولف فى ذات نفسها خطًا دفاعيًا منيعًا. وفى الحال بدىء بحفر الخندق فى الناحية المعرضة للهجوم(١).

وقسم الرسول العمل بين جماعات من المسلمين، كل جماعة مؤلفة من عشرة رجال، وشارك هو نفسه فى الحفر مثل أي عامل عادى. إن التاريخ لم يدون لنا غير حادثة مفردة عن شخصية كان لها سلطان روحى وزمنى أيضًا على أمة من الامم، ومع ذلك فقد عمل مثل عامل عادى، جنبًا إلى جنب مع أتباعه، فى ساعة الحرج الوطنى العظيم لا أهمية للخندق إن لم ينجز فى الوقت المناسب، وإن لم يغط المنطقة الصالحة للتقدم كلها، وإن لم يكن عريضًا وعميقًا بقدر كاف لمنع الخيل من اجتيازه. وكان الخندق اللازم لتغطية المنطقة يبلغ ما بين ٣٥٠٠ ـ ٤٠٠٠ متر، بعمق حوالى خمسة أمتار وعرض ستة أمتار أو أكثر بقليل. وبناء على ذلك فقد قسم الرسول المسافة وحدات طولية، كل وحدة بطول ثلاثين مترًا كلف بها عشرة رجال، أى كان على كل رجل أن يحفر ٣×٦×٥= ٩٠ مترًا مكعبًا. فإذا علمنا أن حفر الخندق استغرق شهرًا، يكون كل رجل قد حفر بمعدل (٣م٣) ثلاثة أمتار مكعبة يوميا على أقل تقدير، وعلى افتراض صحة رواية إنجاز العمل فى شهر كامل وليس فى أقل من شهر. وهذا عمل مجهد، فالحفر يواجه صعوبات من صخور وأحجار وأرض قاسية، ولما يستتبع الحفر من نقل التراب بوسائل بدائية، ولهذا كان المسلمون يعملون بجد ونشاط بإشراف الرسول نفسه ومساعدته. فقد كان يعمل بالحفر بيده، بل إذا استعصت صخرة شكوا إليه أمرها فعمد إلى معالجتها بيديه الشريفتين. تم حفر الخندق واتخذت قوات المسلمين مواقعها الدفاعية خلفه باتجاه المدينة، مستفيدة من حرة واقم لحماية ميمنتها وجبل سلع وباتين النخيل لحماية مؤخرتها، وحرة الوبرة لحماية ميسرتها. ووزع الرسول ﷺ مخافر الحراسة على مداخل المدينة، وعند طرفى الخندق وفى مكان لم ينته العمل فيه بالشكل الكامل. وعين دوريات الارتباط والمراقبة. وتم تأمين حماية المؤخرة، والنساء والصبيان والبيوت(٢).

إنه لمن سمات شخصية الرسول المميزة أنه كان يضفى رواء على أيما شىء يشارك فى صنعه. فحيثما وضعته أدى واجبه فى كياسة عجيبة. ولئن كان، من ناحية، أكثر الملوك رجولة، لقد كان ـ

---

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص١٦٥.

(٢) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص١٦٦.

فى الوقت نفسه ـ أكثر الرجال جلالا ملكيًا. وفيـما هم يحفرون انتهوا إلى حجر صلد. وبذلوا كلهم قصـارى جهدهم لتـحطيمه. وهكذا اقـترح على الرسـول، الذى كان قد رسم حـدود الخندق بيديه الاثنتين، أن يجـيز لهم الانحراف بعض الشى عن الخطة الاصلية. فلم يكن مـنه إلا أن تناول معولا وانهمك فى أداء المهمة التى أعجزت رجـاله. لقد هبط إلى جوف الخندق وراح يقرع الصخرة بعنف، فانزاحت مطلقة فى الوقت نفسه شرارة نار لم يكد الرسول يلمحها حتى صاح، يتبعه أصحابه، «الله أكبر!» وقال أنه رأى فى الشرارة أن مفاتيح قصر الملك فى الشام، قد آلت إليه. وضرب الصخرة كرة أخرى فانشقت، مطلقة شرارة النار نفسها. ومرة ثانية ارتفع التكبير: «الله أكبر!» ولاحظ الرسول أنه وهب مفـاتيح المملكة الفارسيـة. وعند الضربة الثالثـة تناثرت الصخرة قطعـا وأعلن الرسول أنه رأى مفاتيح اليمن تصبح ملك يديه[1].

ثم أوضح قائلا أنه، فـى المرة الأولى، أطلع على قصر قـيصر، وفى المرة الـثانية على قـصر أكاسـرة فارس، وفى المرة الثالثة علـى قصر صنعاء، وأنه أنبئ أن أتبـاعه سوف يمـتلكون تلك البلاد كلها. ظاهرة رائعة! كانت قوة جبـارة، تتألف من أربعة وعشرين ألف رجل، تقف عند أبواب المدينة نفسها على أتم استعداد لسحق الإسلام. وكانت بلاد العرب كلها متعطشة لدماء المسلمين. وفى غمرة من سحب هذا الخطب الرهيب تلمح عين الرسـول شعاعًا قصيًا يؤذن بالقـوة التى ستتم للإسلام فى المستقبل! أليس ذلك شيئًا يتخطى أبعد طاقـات الخيال البشرى؟ ومن غير الرب الكلى الحكمة والكلى العلم يستطيع أن يكشف أسـرار المستقبل هذه فى لحظة كـان الاسلام مهددًا فيـها بالفناء المطلق؟ دب الذعر فى نفوس المسلميـن عندما انقضت الأحزاب المتحالفة، بكامل قـوتها، على المدينة؛ لقد نزلت أسـاس البلد نفـسهـا. ولقـد وصف ما ألـم بالقوم، فى تلـك اللحظة، من كـرب وارتباك، بهـذه الكلمات[2].

﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾ [الأحزاب] من خلال مشـهد الرعب والذعر الظاهرى استطاعت أفئدة المؤمنين ان تقرأ مصـداق ما وعدهم الله ورسوله. ولقد صور الله ما دار فى خلدهم بالآية التالية: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾ [الأحزاب]. وعلى الرغم من أن الاحتمـالات كلها كانت تشير، على نحو ساحق، إلى أن المسلمين سوف يبادون، وعلى الرغم من المخاوف التى عصفت بهم فى تلك الحال الـكالحة فقـد أدركوا ان هذه المحاولة كـانت المحاولة الأخـيرة اليائسـة يقوم بهـا عدو محتضـر. إنها سوف تقصم ظهر العدو مرة وإلى الأبد، وتؤذن باسـتهلال عهد سعيد، عـهد انتصار الإسلام.

---

(١) احمد راتب عرموش - المرجع السابق ص٧٧

(٢) احمد راتب عرموش - نفس المرجع ص٧٧.

فرغ المسلمون من حفر الخندق قبل وصول قريش على الرغم من تسلسل المنافقين وهربهم في أثناء العمل دون إذن من رسول الله محمد ﷺ وجعل الرجل من المسلمين إذا نابته النائبة من الحاجة التي لابد له منها يذكر لرسول الله ويستأذن في اللحوق لحاجته فيأذن له وإذا قضى حاجته رجع إلى ما كان فيه من عمله رغبة في الخير واحتسابا له، فأنزل الله تعالى في أولئك النفر من المؤمنين[1]: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾ [النور].

وصلت قوات المشركين من جهة الشمال، كما كان منتظرًا، وعسكرت قريش كما يقول الطبرى الأسيال، من رُومة، بين الجرف والغابة. وعسكرت غطفان ومن تابعهم من أهل نجد فى مكان اسمه «ذنب نقمى» إلى جانب جبل أحد. وربما زاد عدد المهاجمين بالتحاق الكثير من الأعراب الذين لا هم لهم سوى السلب والنهب وكانت قوات المسلمين فى مواقعها، تراقب بيقظة وتهيأ لمواجهة أى طارئ. كانت خطة الغزاة، كما أحكمها زعماء يهود مع زعماء المشركين، أن تتقدم قوات المشركين من الشمال باتجاه المدينة لاحتلالها، وفى الوقت ذاته يتحرك يهود بنى قريظة من خلف المسلمين، وكانوا ما يزالون فى المدينة، وبينهم وبين المسلمين معاهدة تعاون ودفاع مشترك. وتنفيذا لتعهدات خونة يهود للمشركين ذهب حيى بن أخطب، رأس المؤامرة، إلى كعب بن أسد القرظى صاحب عقد بنى قريظة وعهدهم. فلما سمع بن كعب أغلق دونه حصنه، ولكنه ما زال يناديه ويلح عليه حتى وافق على استقباله، وفى خلال اللقاء استطاع حيى ابن أخطب إقناع كعب بنقض عهده مع الرسول، فنقض العهد وتبرأ منه. ولما علم الرسول بالأمر، أرسل وفدا على رأسه سعد بن معاذ سيد «الأوس»، وسعد بن عبادة سيد الخزرج، للتأكد من صحة الخبر، وقال لهم: انطلقوا حتى تنظروا، أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا، فإن كان حقا فالحنوا لى لحنا نعرفه، [أى أخبرونى بواقع الحال بطريقة رمزية] ولا تفتوا فى أعضاد الناس [كيلا تنهار الجبهة الداخلية] حتى تقوى عزائمهم[2].

فخرجوا حتى التقوا بيهود فوجدوهم على أخبث حال، وشتموهم وذكروا الرسول ﷺ بسوء، وقالوا: لا عقد بيننا وبين محمد ولا عهد، فعاد الوفد إلى الرسول وقالوا له «عضل والقارة». (أى غدروا كغدر قبيلتى عضل والقارة اللتين مر معنا غدرهم بأصحاب الرسول فى الرجيع) فكان جواب الرسول ﷺ الله أكبر! أبشروا يا معشر المسلمين.. كان هذا جوابه لتقوية معنويات أصحابه، أما واقع الحال، فإن الخبر بدأ بالانتشار بين المسلمين واشتد الخوف، وعم البلاء. وكان على المسلمين أن يحرسوا النساء والأطفال بالإضافة إلى حراسة الخندق فعين الرسول لذلك مجموعتين: الأولى من

(١) د. حسن إبراهيم حسن - المرجع السابق ص١١٧.
(٢) أحمد راتب عرموش - المرجع السابق ص٧٧.

مائتى رجل بقيادة سلمة بن أسلم، والثانية من ثلاثمـائة بقيادة زيد بن حارثة. وأخذ المنافقون يخذلون المسلمين، ويبثـون الشائعات ويتهكمون على المسلمـين، حتى أن أحدهم قال: «كان محـمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط» أما المشركون، فقد فوجئوا بالخندق، فلم يستطيعوا التقدم بحسب الخطة الموضوعة، ففرضوا الحصار على المدينة، وأخذوا يرمون المسلمين بالنبل والسهام ويرد عليهم المسلمون برمى مماثل[1].

واشتـد الخوف وعظم البلاء على المسلمين إذ ذاك وظهـر نفاق الكثيـرين حتى قال مـتعب بن قشير أخو بني عمرو بن عوف: «كان محـمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسـه أن يذهب إلى الغائط»[2]. وعلى سبيل الوقاية من هجوم مـحتمل من الخارج، أو خيانة يهودية من الداخل نقل النساء والأطفال إلى مـواطن حصينة. واستمر الحصار نحـواً من شهر، قاسى المسلمون خلاله ـ وفيهم الرسـول نفسه ـ من ويلات المجاعة شيئًا كثيـرًا. لقد سلخوا أيامًا عديدة من غير أن يذوقوا أيما طعام، فتعين عليهم ان يشدوا إلى بطونهم قطعا من الحجارة ولكن روحهم لم تقهر بسبب من ذلك ألبتـة. وذات يوم، اقترح النبى إغراء قبيلة غطفـان من طريق وعدها ثلث ثمار المدينة إن هى ارتحلت. وكان خليقًا بهذا الاقتراح ان يسهم إسهامًا كبيرًا فى كسر شوكة العدو. وعلى الرغم من المجاعة التى قاساها المسلمون. والضيق الذى ألم بهم فى جـراء الحصار المتطاول والسهر والحراسة الموصولـين فقد رأوا أن فى الـقبول بمثل هـذا الذل جرحًا لكـرامتهم. وقـال الأنصار، الذين عنـتهم المساومة المقترحة مباشرة، إنهم لم يدفعـوا أيما جزية إليهم حتى فى الجاهلية، فكيف يطيقون الإذعان لهم، خاصـة وأن فى الأمر مسـاسًا بشرف الإسـلام نفسه؟ إنهم سـوف يقاتلون حـتى آخر رجل من رجالهم، وليكن ما يكون! وكان اليهود والمنافقون يـتحينون الفرصة للانقضاض من داخل، على نحو متواقت مع الهجوم من خارج[3].

وجرت بادئ الأمر مبارزات كتبت الغلبة فيـها للمسلمين. كان عمرو بن ود، وهو بطل عربى شهير، يعـتقد انه كفؤ لألف رجل. فتقدم ينادى: «مـن يبارز؟» ولما دعاه علي بن أبى طالب كرم الله وجهه إلى النزال قال فى صلف: «لم يا ابن أخى؟ فوالله مـا أحب أن اقتلك!» فقال الإمام علي كرم الله وجهـه: «لكنى أحب والله أن اقتلك!» فتنازلا فـيقتله الإمام علي كـرم الله وجهه. وأخـيرًا شنت قريش، بكامل قـوتها، هجوما عـامًا، ولكنها لم تستطع أن تقتحم الخندق بيد أن سـهامها ونبـالها انهمرت انهمـار وابل رهيب، ولولا ثبات المسلمين بروح الانضباط لكسب العدو المعركـة. لقد عجز الجيش العظيم، البالغ عدده أربعـة وعشرين الف مقاتل، عن اختراق خط دفاعـهم، فالم به الاعياء. كان الحصار قد أمسى مرهقًا له وإلى هذا، كانت مـؤن العدو قد نفدت. ثم هبت ريح عاتية فاقتلعت

(١) احمد راتب عرموش - المرجع السابق ص٧٩.
(٢) تاريخ اليعقوبي جـ٢ ص٥١.
(٣) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص١٤٨.

خيـامهم، وكفأت قـدورهم، فدب الاضطراب في صفوفـهم. وإلى هذه الحادثة يشيـر القرآن الكريم بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝﴾ [الأحزاب] لقد حققت الريح للمسلمين مـا كان متعذرًا عليهم أن يحققوه بقوة سلاحهم. وإذ رأت قريش وأحلافها أن الطبيعة نفسها كانت تعمل ضدهم دب الذعر في نفوسهم. لقد اعتـبروا ذلك نذيرا بشؤم. وهكذا انسحبوا، يائسين، في تلك الليلـة نفسـها، وكم كان ابتهاج المسلمين عظيمًا، وشكرهم لله غامرًا، حين لم يروا أيا من أعدائهم هناك، صباح اليوم التالي. هل كانت اليـد العاملة من وراء الستار، والتي أحـبطت محاولات القوى المتـفوقة الهادفـة إلى سحق حفنة من المسلمين والتي أفسدت خطط اليهود والمنافـقين الغادرة، غير يد الله نفسه؟ وعلى هذا النحو انتهت بالخيبة والذعر الشاملين أقوى حملة منظمة شنت على الإسلام[1].

أدرك ذلك رسول الله ﷺ، فوقف علـى الخندق، وبعدما جال ببصـره في الأفق، التفت إلى أصحابه وقال: «لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا، ولكنكم تغزونهم» وقد أثبتت الأيام صدق قوله، وصحة استنتاجاته، فقد كانت غزوة الخندق آخر عمل هجومي تقوم به قريش. كانت خسائر المسلمين في المعركة ستة شهداء، وخسائر المشركين أربعة نفر. ونزل فيها آيات كثيرة.

تحليل المعركة:

نتيجة المعـركة فشل تام لقريش، بقيادة أبي سفـيان وحلفائها ونصر للمسلمـين بقيادة الرسول القائد العظيم. ويمكن اخـتصار أهم أسبـاب فشل المشركين بما يـلي: عدم وحدة القيـادة، واختلاف أهداف المهاجمين. فـقد كانت قريش تهدف إلى القضـاء على الدين الإسلامي، وغطفان تأمل بنهب المدينة وفرض إتاوة على أهلهـا، يفسر ذلك موافـقتهم على الانسحـاب من المعركة مقـابل ثلث ثمار المدينة، الأمر الذي رفـضه الأنصار كـما مر معنا. ويهـود بني قريظة ترددوا كثـيرا حتى وافـقوا على مخـطط أبناء دينهم من يهود الذيـن أجلوا عن المدينة إلى خيـبر. وقـد امتـازوا بالتردد وعـدم الثـقة بحلفائهـم من أول الحصار حـتى آخره، وكانوا يأملون أن يقـضي الأحزاب من قريـش وغطفان على المسلمين دون أية تضحـيات فعلية منهم في المعركة. اخـتيار المسلمين موقفًا دفـاعيًا في داخل المدينة، بالإضافة إلى موقع المدينة الحصين طبيعيا من ثلاثة اتجاهات، ناهيك عن استكمال ذلك الموقع الحصين بالخندق الذي كان له دوران مهمان: الأول: حقق مفاجأة للمهاجمين قلب خططهم رأسا على عقب. الثاني: حرم المهاجمين من خـوض معركة غير متكافئة كانوا يحلمون بالنصر فيـها لتفوقهم الهائل في العدد والعـدة. طريقة الدفاع «المرنة» التي اعتـمدها الرسول ﷺ، فقـد كانت قواته جاهزة باسـتمرار للتحـرك باتجاه أية ثغـرة وسدها بسرعـة. كما ان انتظام الدوريات والمراقـبة المسـتمرة والشـاملة حرم المشركين من انتـهاز أية فرصة[2]. تظهر لنا الأسباب التي قلبت التـحالف القرشي الضخم إلى هزيمة

(١) مولانا محمد علي - نفس المرجع ص١٦٩.
(٢) احمد راتب عرموش - المرجع السابق ص٨٥.

غير متـوقعة والعوامل التي أدت إلى سير الجمـاعة الإسلامية إلى النصر، لقد كـان التحالف القرشي يضم حوالي عشـرة آلاف مقاتل في حين أن رسول الله محـمد ﷺ لم يستطع تجمـيع أكثر من ثلاثة آلاف مقاتل وكان نسبة القتلى إلى نسبة عدد الجيوش ٦ من المسلمين مقابل ٣ من القرشيين لوجدنا أن العنصر الأسـاسي في هذه المعركة لم يكن القـتال بل الاستراتيـجية الحربيـة لكل من الطرفين والعمل الدبلوماسي. ويكاد الإجماع ينعـقد على أن استراتيجية رسول الله محـمد ﷺ في هذه المعركة كانت متفوقة على استراتيجية خصومه[١].

ثبات المسلمـين، واستماتـتهم فى الدفاع عن مدينتـهم، ظهر ذلك بجلاء عندمـا رفض سادة الأوس والخزرج دفع إتاوة من ثمار المدينة لـزعماء غطفان، مما جعل أولئك الزعـماء يدركون خطورة المعركة الـتى تنتظرهم فيما لو حـصلت، وبما حملهم ذلك على تقويم جـديد لمواقفهم. سوء اخـتيار زمان المعركة من قبل المشركين، فقد كان الشتاء قاسيًا، وهـم لم يعتادوا البرد الشديد، ولم يتمكنوا من تأمين الإمـدادات لقواتهم الكبيرة. وكـان مقامهم فـى العراء تحت الخيام يحـرمهم الدفء الذى تؤمنه الأبنية، وكثيـرًا ما اقتلعت الرياح خيامهم وأطفـأت نيرانهم حتى ضجوا بموقفـهم عندما طال الحصار دون نتيـجة. وكان قرار الانسحـاب فى لحظة من تلك اللحظات القاسيـة التى اشتدت فيـها الرياح، والأعاصير حتى ظنوا الموت آتيهم من غير حرب. الحرب النفسية المدمرة التى قادها ابن مسعود بحنكة عاليـة تعجز عنها أرقى أجـهزة المخابرات المعـاصرة، فقد اسـتطاع وحده أن يفرق صفـوف الأحزاب ويزعزع الثقة فى نفوسهم مما جعلهم يحجمـون عن الدخول فى المعركة وحسم الحصار بالمواجهة وكان من نتائج هذه المعركة ان كشفت أهمية تحصين الجبـهة الداخلية، وضرورة التنبه للمجموعات المعادية، التى يخرسهـا الخوف فى أثناء السلم، وتحركها الأحـقاد عند أول فرصة سانحـة لتكون عونًا للأعداء على الحلفاء، لذلك نجد الرسول ﷺ عمد إلى تطهير المـدينة من بنى قريظة عقب فك الحصار مباشرة وقبل إلقاء السلاح[٢].

فشل أعداء الإسلام القرشـيون ولم ينجحوا في تحقيق أهدافهم حيث كـان عليهم أن يعتمدوا على فرسـانهم إذا أرادوا تحقيق أي كـسب ولكن الفرسان المسلمـين كانوا لهم بالمرصاد وفـوتوا عليهم جميع فرص التفوق، إضافة إلى وحدة صف المسلمين وانضباطهم وراء قائدهم رسول الله محمد ﷺ كان له أثر كبير في سيـر المعركة ونتائجها سيما وأن خصومهـم كانوا على عكس ذلك مما سهل مهمة الدبلوماسية الرسلامـية التي ارتكزت على هذه الناحية واعتمدت عليهـا في تفريق كلمة قريش وشتت شملهم، وبدا واضـحا أن جـهود قريش في القـضاء على رسول الله مـحمد ﷺ عـن طريق العمل

---

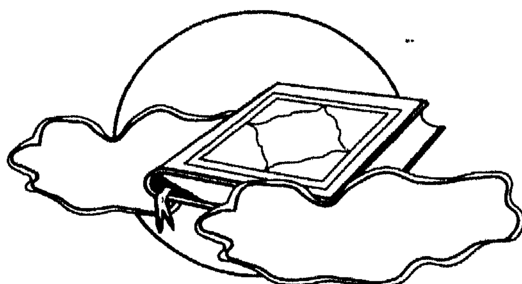
(١) د. نبيه عاقل - المرجع السابق ص٤٩٦.

(٢) احمد راتب عرموش - المرجع السابق ص٨٦.

العسكري لن يكتب لها النجاح ولا سيما وأنها وضعت في هذه المعركة كل ثقلها العسكري وحشدت لها أقصى ما تستطيع حشده من القوة البشرية ولم تعد مشكلة قريش الآن القضاء على رسول الله محمد ﷺ والدعوة الإسلامية بل غدت مشكلتها الحفاظ على وجودها هي هذا الوجود الذي أصبح تحت رحمة المسلمين ولم يكن يحتاج لوقت طويل[1].

(١) د. نبيه عاقل - المرجع السابق ص٤٩٦.

الفصل السابع



من هدنة الحديبية
إلى فتح مكة

هدنة الحديبية: عاد رسـول الله ﷺ بجيـشه الظافـر من غزوة الأحزاب إلى المديـنة ضحى. وتنفس المسلمون الصعـداء، فقد زال كابوس رهيب عن صدورهم، وكسـبوا معركة البقـاء بعدما كان وجودهم مهـددا بالزوال . ولكن، قبل الاسترخاء، وبعـد استراحة لم تتجاوز السـاعات، أذن مؤذن رسول الله ﷺ بعيـد الظهر قائلا: «لايصلين أحد العـصر إلا ببنى قريظة». لقد قـرر الرسول تنظيف قاعدته من الأعداء والمنافقين والجواسيس، بعدما كشفوا أقنعتهم عن وجوه الغدر والخيانة، فسلم رايته إلى الإمام علي كرم الله وجهه وقدمه، وسـار بالمسلمين وهم ثلاثة آلاف. معهم ست وثلاثون فرسًا. فحاصر حصـون بنى قريظة خمسًا وعشرين ليلة. وكان معـهم فى تلك الحصون «حيى بن أخطب»، دخل حصونهم وحـوصر معهم وفاء منه للوعد الذى قطعـه لزعيمهم «كعب بن أسد» عـندما فاوضه على الخيـانة، وأقنعه بنقض عهـده مع رسول الله ﷺ. ولم يجد اليهـود بعدما ضـيق عليهم الخناق وشدد الحصـار، سوى النزول على حكم رسول الله، الذى فـوض حليفهم قبل الإسـلام، «سعد بن معاذ» بالحكـم فى أمرهم. وكان حكمه حـلا جذريًا، نطق به بعدما أخـذ العهد على الجمـيع بقبول حكمه، لقد حكم بقـتل الرجال، وقسم الأموال، وسبى الذرارى والنساء، وبذلك انتـهى وجود يهود فى المدينة إلى الأبد[1].

وكأنى بالرسول في المديـنة بعد هذه المرحلة الشاقة. يطرق مفـكرًا، يستعيد فى ذاكـرته قسوة قريش عليه وعلى أصحـابه، ويستعرض ما لاقاه من أذى هو وأصحابه، ويدرك أن قـريشًا لن يقر لها قرار ما لم تقـض عليه وعلى دينه، ثم ينتقل بتفكيـره إلى الأعراب الذين وصفهم القـرآن بأنهم أشد كفرًا ونفاقًا، وقـد أظهروا أنهم على استعداد دائم لمساعدة أعدائه والانقـضاض على قاعدته. والقائد الحكيم لا ينتظر أعداءه حتى يطرقـوا بابه، ولايفسح لهم فى المجال حتى يتوحـدوا ضده. ولهذا قرر الرسول الكريم ﷺ القـيام بعدة حمـلات «إجهاضيـة وتأديبية» تهـدف إلى معاقبـة كل من أساء إلى الرسول ودعـوته كيلا يقـدم على الإساءة مرة أخـرى، كما تهدف إلى إنـذار كل من يفكر بالإساءة، ليعلم مسبقًا أن اعتداءه لن يمر بدون عقاب كما تهدف أيضًا إلى إثبات وجوده، قوة فاعلة على صعيد الجزيرة العـربية كلها، وتقويـة مركزه العسكرى والمالى. ولتـحقيق تلك الأهداف أرسل السـرايا وقاد الغزوات المبينة فيما يلى[2]:

١ ـ سرية عبدالله بن عـتيك إلى «أبى رافع سلام بن أبى الحقيق النضرى» بخيـبر وكان هدفها قتل أبى رافـع لأنه جيش غطفان ضـد الرسول، ودفع الأمـوال لتعـبئة الجـيوش وتسـييـرها لمحاربة المسلمين. ٢ ـ سـرية محمد بن مسلمـة إلى القرطاء، وهم بنو قرط وقريس مـن بنى كلاب، بهدف

---

(١) احمد راتب عرموش - المرجع السابق ص٨٩.

(٢) احمد راتب عرموش - المرجع السابق ص٩٠ .

إثبات الوجود، وبث الرعب فى قلوب الأعراب. ٣ ـ غزوة بنى لحيان بناحية «عسفان» انتقامًا لعاصم بن ثابت وإخوانه الذين قتلهم بنو لحيان. ٤ ـ غزوة ذى قرد تأديبًا لعيينة بن حصن الذى أغار على نوق لرسول الله وسلبها وقتل ابن أبى ذر الغفارى. ٥ ـ سرية عكاشة بن محصن الأسدى بهدف إثبات الوجود والحصول على غنائم، لتقوية جيش المسلمين. ٦ ـ سرية محمد بن مسلمة إلى بنى ثعلبة بذى القصة، بهدف الاستطلاع، وجلب المعلومات. ٧ ـ سرية أبى عبيدة بن الجراح إلى «ذى القصة»، فى عملية «إجهاضية» قبل أن يغيروا على مسرح (أنعام) المدينة، بعدما علم بنيتهم تلك. ٨ ـ سرية زيد بن حارثة إلى بنى مسلم بـ «الجموم»، بقصد إثبات الوجود وجلب الغنائم. ٩ ـ سرية زيد بن حارثة إلى «العيص» بقصد الاستيلاء على عير لقريش، إضرارا بقريش، وتقوية للمسلمين. ١٠ ـ سرية زيد بن حارثة إلى بنى ثعلبة من الطرف بقصد إثبات الوجود وجلب الغنائم. ١١ ـ سرية زيد بن حارثة إلى «حسم»، انتقامًا لاعتداء قبائل تلك المنطقة على رسول رسول الله إلى قيصر الروم. ١٢ ـ سرية زيد بن حارثة إلى «وادى القوى». ١٣ ـ سرية عبدالرحمن بن عوف إلى «دومة الجندل». ١٤ ـ سرية الإمام علي بن أبى طالب كرم الله وجهه إلى بنى سعد بن بكر «بفدك». ١٥ ـ سرية عبدالله بن رواحة إلى «أسير بن رزام» اليهودى بخيبر. ١٦ ـ سرية كرز بن جابر الفهرى إلى «العرينين». ١٧ ـ سرية «عمرو بن أمية الضمرى» و«سلمة بن أسلم» إلى أبى سفيان بمكة. وسببها أن أبا سفيان حاول اغتيال الرسول فى المدينة بوساطة عميل أرسله من مكة، وقد اكتشف أمره فأرسل الرسول عمرو بن أمية وسلمة ليغتالا أبا سفيان جزاء نكالا على فعلته.

أثبتت معركة الأحزاب أن الإسلام مؤيد بروح إلهية. فقد بذلت قريش قصارى جهدها للقضاء على الدين الجديد فى معركتين متواليتين، بدر وأحد، ولكنها لم توفق إلى أكثر من انزال بعض الأذى به. وناضلت القبائل البدوية المختلفة أيضًا، كل بمفردها، لزعزعة قدمى الإسلام الراسختين، ولكنها عجزت عن ذلك. وسعى المنافقون واليهود إلى نسف الإسلام من داخل، ولكن عبثًا. وأخيرًا، قامت قريش، وقبائل البدو، والمنافقون، واليهود ـ يعنى الأعداء الخارجيين والأعداء الداخليين معًا ـ بمحاولة مشتركة للإطاحة بالإسلام، ولكن النتيجة كانت هى هى، لم تتغير ولم تتبدل. وكان هذا هو النضال الأخير. ومنذ ذلك الحين لم يجد العدو فى نفسه الجرأة على مهاجمة المدينة. إن هذه حقائق تاريخية، يسلم بصحتها الصديق والعدو على حد سواء، ومع ذلك يرفع بعض القوم عقائرهم قائلين أن الإسلام مدين بانتشاره للسيف، ولكن الوقائع والأرقام، كما دونت فى وضح التاريخ، تشير إلى عكس ذلك تمامًا. فالحقيقة هى أن الإسلام انتشر، لا بالسيف، ولكن برغم السيف. إن أيما دين لم يتكشف قط عن مثل هذه البسالة. لقد سلت السيوف على الإسلام من كل حدب وصوب، ولكنها بدلا من أن تهلكه ساعدت، إذا جاز التعبير، على نشره[1].

---

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص١٧٩.

لقد شنت على المدينة ثلاث حملات متعاقبة، ابتغاء إبادة الإسلام، وكل منها أعنف من سابقتها وأقوى. ولكن ما كانت النتيجة؟ هل أوهنت قوة الإسلام بأية حال؟ على العكس، فنحن نلاحظ فى كل مرة تزايدًا فى عدد المسلمين المعبأين للقتال. ففى معركة بدر كان الجيش الإسلامى مؤلفًا من ثلاثمائة رجل ليس غير، على حين ارتفع عدده بعد عام واحد، فى معركة أحد، إلى سبعمائة، وأخيرًا ارتفع ذلك العدد، فى معركة الأحزاب، فبلغ نحوًا من ألفين. وهكذا نشهد نموًا فى قوة الإسلام يتناسب واستفحال الهجوم عليه. يعنى أن ازدهار الإسلام كان يتعاظم كلما قويت المحاولة الرامية إلى سحقه، وأن قدمه كانت تزداد رسوخًا كلما تنافس أعداؤه فى السعى إلى كبته، ويومًا بعد يوم اشتد ساعد الإسلام. لقد عجزت أيما عاصفة عن استئصاله، وعجزت أيما سموم عن تصويحه. كانت يد الله تعمل على دعمه[(1)].

اطمأن رسول الله محمد ﷺ إلى قوته العسكرية وتفوقه على أعدائه وأن الاستراتيجية السياسية والعسكرية الجديدة التي وضعها الرسول ﷺ بعد غزوة الخندق انقلبت من مرحلة الدفاع إلى مرحلة التحدي ولم يعد في استراتيجية الرسول الدفاع عن الإسلام وعاصمته الجديدة بل أصبح يفكر في مهاجمة قريش في عقر دارها استعدادا منه للإطاحة بها وتصفية جميع مظاهر سيادتها، وقد واكب موقف التحدي هذا سياسة جديدة اتبعها رسول الله محمد ﷺ وهي إخضاع القبائل النازلة على الطريق بين الحجاز والشام وجعله تحت السيطرة الإسلامية بغية السيطرة الاقتصادية ومنع تجارة قريش وبالتالي خنقها اقتصاديا قبل السيطرة العسكرية ثم سياسيا[(2)].

بعدما وطد الرسول سلطته فى المدينة، وفيما حولها، تطلع إلى الجنوب، إلى مكة، قبلة العرب، فوجد أنه غير قادر على فتحها، وقريش فيها مازالت قوية تحوك المؤامرات، وتتربص به وبدعوته الدوائر. ونظر إلى الشمال، فإذا يهود ما زالوا فى خيبر يحاولون تقوية حلفهم مع قريش وتشكيل «كماشة» تحيط بالمدينة من الشمال والجنوب. وكى يستطيع التقدم بدعوته لابد من كسر هذه الكماشة، وتحييد أحد الطرفين لمتابعة انطلاقه فى دعوته. هذه المرة قرر القيام بعمل سياسى، فاستنفر أصحابه إلى العمرة، واستنفر معهم أهل البوادى والأعراب ليخرجوا معه، وهو يخشى أن تصده قريش عن البيت الحرام وكان قد انقضى على معركة الأحزاب نحو من عام عندما رأى الرسول نفسه، فى ما يرى النائم، يؤدى فريضة الحج، مع أصحابه، فى الكعبة. لقد خيل للمسلمين أن قريشًا، وقبائل البدو التى بذلت أقصى جهدها لمقاومة الإسلام، قد أكبرت فيه قوته الفطرية. وظنوا كذلك أن القوم قد أعجبوا بصدق الإسلام، ومن أجل هذا لن يتعرضوا للمسلمين وهم يؤدون فريضة الحج. وفوق ذلك، فقد كان حج البيت حقًا لم ينكر قط حتى على ألد الخصام. ومن هنا لم يكن ثمة أيما

---

(1) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص١٨٠ .

(2) د. نبيه عاقل - المرجع السابق ص٤٩٩.

سبب يدعو القرشيين إلى اعتراض سبيل المسلمين. وهكذا خرج الرسول فى السنة السادسة للهجرة، على رأس ألف وأربعمائة من صحابته، يريد الحج إلى مكة، وقد حظر على أصحابه، حذرًا أن يسىء القرشيون فهم دوافعه، أن يحملوا سلاحًا. وكان خليقًا بهذا أن يطمئن شكوك القرشيين ويؤكد لهم نيات المسلمين السلمية. كانت السيوف المغمدة هى كل ما أجيز للمسلمين حمله. وكان السيف. فى تلك الأيام، شيئًا عاديًا يحمل على نحو موصول، مهما يكن الأمن مخيمًا على الربوع. وساق المسلمون معهم الهدى سبعين بدنة، جريًا على مألوف عادتهم، وانطلقوا كلهم ـ وعدتهم كما ذكرنا ألف وأربعمائة ـ نحو مكة[1]. حتى إذا أمسوا على مقربة دانية من مكة ألفوا قريشًا على استعداد لأن تصدهم عنها بقوة السلاح.

وحمل بديل بن ورقاء، زعيم خزاعة ـ ولم يكن مسلمًا ولكنه كان يستشعر للإسلام مودة ـ هذا النبأ إلى الرسول، فكلفه أن ينقلب إلى قريش ليعلمها أن المسلمين أقبلوا ليؤدوا فريضة الحج لا ليقاتلوا. واقترح الرسول أيضًا على قريش عقد صلح بينه وبينها إلى أجل بعينه. ومن ثم توقف المسلمون فى الحديبية، على مسيرة يوم من مكة. نستنتج من كلام الرسول ما يلى: إنه لايهدف إلى قتال قريش فى هذه المرحلة، وإن مجيئه إلى مكة لهدف تعبدى. رغبته فى تحييد قريش، وإخراجها من حلبة الصراع ولو مؤقتًا. تصميمه على المضى فى دعوته مهما غلت التضحيات. حمل بديل الرسالة إلى قريش ونزعت العناصر الأكثر تعقلا وخبرة إلى قبول ما عرضه الرسول من الصلح. فقد كانت لديهم أسباب وجيهة تدعوهم إلى الاعتقاد بأنهم عاجزون عن إنزال أيما أذى بالإسلام. كانوا قد بذلوا قصارى جهدهم غير مرة، فى تلك السبيل، ولكن على غير طائل. وإلى هذا، فإن عقد الصلح خليق به أن يمكنهم من استئناف التجارة مع الشام، تلك التجارة التى عطلت بسبب الحرب مع المسلمين المسيطرين على طريقها. وهكذا أوفد القريشيون عروة ابن مسعود الثقفى سفيرًا يفاوض المسلمين فى شروط الصلح. وخلال المناقشة قال عروة أن من الخير للرسول أن لا يطمئن إلى أصحابه اطمئنانًا كثيرًا، لأنهم سوف ينصرفون عنه فى سهولة ويسر إذا ما ألم به خطب. فثارت ثائرة أبى بكر لدن سماعه هذا الكلام. وصاح به منكرًا أن ينصرف الناس عن رسول الله وعامله فى شىء من القسوة. واتفق أن أذن لصلاة العصر وعروة هناك ما يزال. حتى إذا قام الرسول يتوضأ شاهد عروة أصحاب الرسول يبتدرون وضوءه فلا يدعون نقطة من الماء الذى توضأ به تسقط على الأرض، إلى هذا المدى قادهم حبهم لشخص الرسول. والواقع أن هذا المشهد ترك فى نفس عروة أثرًا عميقًا. صحيح أن المفاوضات أخفقت آخر الأمر، ولكن عروة حمل إلى قريش انطباعه عن الاحترام العظيم الذى يكنُّه الصحابة للرسول[2].

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص١٨١ .

(٢) مولانا محمد علي - نفس المرجع ص١٨٢ .

لقد قال لهم: «يامعشر قريش، إنى جئت كسرى فى ملكه، وقيصر فى ملكه، والنجاشى فى ملكه وإنى والله ما رأيت ملكًا فى قوم قط مثل محمد فى أصحابه. لا يتوضأ إلا ابتدروا وضوءه ولا يسقط من شعره شىء إلا أخذوه، وإنهم لن يسلموه لشىء أبدًا، فروا رأيكم. وبعث الرسول إلى قريش بموفد آخر، ولكنهم أساءوا معاملته، وعقروا جمله. ليس هذا فحسب، بل لقد خرجت سرية قرشية مسلحة ابتغاء أخذ المسلمين على حين غرة، ولكن المسلمين أسروهم. وأيًا ما كان فسرعان ما خلى الرسول سبيلهم جميعًا لأنه لم يأت ابتغاء القتال.

بقي رسول الله محمد ﷺ مصرا على هدفه عندما وصل الحديبية، ففسح المجال لمفاوضي قريش بالقدوم إلى معسكر المسلمين في كل وقت، وأرسل مفاوضين من المسلمين إلى معسكر قريش وكانت نظرته إلى المستقبل تعني الاعتراف بالدولة الإسلامية كطرف مُسَاوٍ لقريش، وأصبح الطريق مفتوحًا أمام رسول الله محمد ﷺ لمحالفة القبائل التي لم تكن تطمئن إلى محالفته، إضافة إلى الفرصة المواتية لمكاتبة الملوك وانتشار الإسلام، واكتسب المسلمون عطف كثير من القبائل وكثير من قريش نفسها، والتمهيد لفتح مكة فيما بعد، وإن الأهداف البعيدة كانت لنشر الإسلام ويعم سائر أنحاء الجزيرة العربية وخارجها[1].

عهد إلى عثمان بن عفان فى مفاوضة قريش، فاحتجزته قريش لديها. وسرت شائعة تقول إن عثمان قتل. وشرع المسلمون يعتقدون أن قريشًا مصممة على القتال. لقد كان الموقف موقفًا حرجًا. فالمسلمون عزل من السلاح تقريبًا، وعددهم أقل من عدد القرشيين بكثير. كانت قريش تتمتع دونهم بكل مظهر من مظاهر التفوق والامتياز. ولكن يا للإيمان الراسخ بالرعاية الالهية ! فحين أخفقت المفاوضات كلها، وبدا تصميم العدو على سفك الدم، لم يكن لمسلم أن ينقلب على عقبيه. ودعا الرسول أصحابه إليه ليبايعوه من جديد، بالنظر إلى حرج الموقف إلى حد بعيد، على القتال حتى آخر رجل فيهم، دفاعًا عن الدين. فبايعوه تحت شجرة ما، مجاورة، وملئ نفوسهم البشر والابتهاج. وإنما تعرف هذه البيعة، فى التاريخ، بـ «بيعة الرضوان». ولقد كانت عملا باسلا من أعمال التضحية بالذات فى سبيل الحق، يعز نظيره، كما كانت حدثًا بارزًا فى تاريخ الإسلام. وكان فى عزم المسلمين على إراقة آخر نقطة من دمهم دفاعا عن دينهم ما رد قريشًا إلى صوابها. والحق أن تجربتها الماضية نفعتها فى هذا المجال. فقد أمسى فى ميسورها الآن أن تدرك ما يعنيه مثل هذا القرار الذي يتخذه المسلمون. وكان فى إمكانها أن تستشف الكارثة العظمى المدخرة لها إذا ما جد الجد، برغم أن المسلمين كانوا عزلا من السلاح، وكانوا دون عدوهم عددًا. وحملها ضعف معنوياتها هذا على إيفاد رجل منها، سهيل بن عمرو، إلى الرسول لاستئناف المفاوضات، وقالت له: إئت محمدًا فصالحه، ولا يكن فى صلحه إلا أن يرجع عنا عامة هذا. فو الله لا تحدث العرب عنا أنه دخلها علينا عنوة أبدًا

(١) محمد محمد البيلي يونس - المرجع السابق ص١٣٨.

وتوصل الفريقـان بعد مفاوضـات طويلة إلى الهدنة، لغة، كـما جاء في لسان العـرب: السكون بعد الهيج[1].

ويقال للصلح بعـد القتال هدنة، وربما جـعلت للهدنة مدة معلـومة. وهي تعني في المصطلح الحديث: وقف الحـرب إلى حين. وغالبًـا ما تكون بانتظار التـوصل إلى تسوية محـددة بين الطرفين المتنازعـين وتوقيع معـاهدة الصلح. بينما الـصلح هو إنهاء لحالـة الحرب بشكل كامل، بحـيث يحل السلام مكـان القتال والعـداء. ولذلك فإن «صلح الحـديبيـة» هو في واقعـه هدنة، بالمفهـوم الحديث للهدنة، لأنه كان ينص عـلى إيقاف القتال والأعمـال العدائية بين الطرفين مدة مـحددة. وقد درجت كتب السيـرة على تسميته صلحًا آخـذة بالمعنى اللغوى الواحد للكلمة. وقد كـان عمر رضى الله عنه أكثر دقة فى تسميته ذلك الصلح هدنة حين قال: «فـلما وقعت القضية أسلم فى الهدنة أكثر ممن كان أسلم يوم دعا رسول الله ﷺ إلى يـوم الحديبية» وقد فـضلنا تسميته هدنة كـيلا تكون التسمـية ذريعة لدعاة الصلح مع العدو الصهيونى [إسرائيل] مستندين على سابقة «صلح الحديبية» الذى كان فى اللفظ صلحًـا وفى المضمـون هدنة على شـروط يقر السـلام بينهمـا عـشر سنوات. وإليك أهم مـواد تلك الهدنة[2]:

١ ـ يرجع الرسول عامه ذاك فلا يؤدى فريضـة الحج، فإذا كان العام القادم دخلوا مكة بعد أن تخرج قريش وليس معهم إلا سلاح المسافر.

٢ ـ يجوز للمسلمين أن يفدوا فى العام القادم على مكة، ولكن لايجوز لهم أن يلبثوا فى مكة أكثر من أيام ثلاثة.

٣ ـ لا يحق للمسلمين أن يصطحبوا أيًا من المسلمين المقيمين فى مكة، ولا أن يعترضوا سبيل أيما امرئ منهم قد يرغب فى التخلف فى مكة.

٤ ـ من أتى محمدًا من قـريش من غير إذن وليه رده عليهم، ومن جاء قريشًـا ممن مع محمد لم يردوه عليه.

٥ ـ من أحب من العرب أن يدخل فى عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه.

حتى إذا شرعـوا فى تدوين نصوص الاتفاق استـهل على العهد، وكان الإمـام علي كرم الله وجهه المكـلف بالكتابة، بهذه الكلمات: «بسم اللـه الرحمن الرحيم». فاعـترض سهيل على افـتتاح الوثيقة بهذا الاستهلال الإسلامى، مصرًا على اصطناع الصيغة التقليدية الشائعة منذ عهد بعيد فى بلاد

---

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص١٨٣.

(٢) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص١٨٤.

العرب، أعني «باسمك اللهم» فقال رسول الله لعلي: «اكتب باسمك اللهم» ثم قال: «اكتب: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو» فاعترض سهيل على ذلك قائلا: «أمسك، لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك. ولكن اكتب اسمك واسم أبيك» ولكن عليًا قال انه لن يشطب كلمتي «رسول الله» بيده هو . أما الرسول فلم يعلق أية أهمية على مثل هذا التفصيل التافه، فسأل عليًا أن يدله على موضع الكلمتين المختلف عليهما. حتى إذا دله على عليهما محاهما بيده هو وأملى بدلا منهما: «محمد بن عبدالله».

قال البراء بن عارب رضي الله عنه[1]: لما صالح رسول الله محمد ﷺ أهل الحديبية كتب علي بن أبي طالب رضوان الله عليه بينهم» وقد بين ابن حجر في قوله باب الصلح مع المشركين[2] وبين أن المراد حكمه وكيفيته أو جوازه وإن شرحه وبيانه ورد في «كتاب الجزية»[3].

أثارت شروط الصلح اشمئزاز المسلمين إثارة بالغة، ولكنهم لزموا الهدوء احترامًا منهم لموقف الرسول. وفى غضون ذلك أقبل على المسلمين أبو جندل بن سهيل بن عمرو. كان قد اعتنق الاسلام فى مكة، وكانت قريش قد عذبته بسبب من ذلك وأخيرًا وفق إلى الفرار من أيدى مضطهديه، وكان قد أقبل الآن إلى معسكر المسلمين متوقعًا، طبعًا، ان يلقى ثمة ترحيبًا حارًا. لقد أظهر المسلمين على آثار التعذيب فى جسده، فتأثر الرسول لمشهدها، وحاول أن يدخل على المادة الرابعة من الاتفاقية تعديلا يكون فى مصلحة أبى جندل، ولكن سهيلا أبى فى عناد، وهكذا تعين على الرسول أن يذعن. وحركت محنة أبى جندل مشاعر المسلمين تحريكًا بالغًا. إنهم لم يطيقوا أن يروا إليه يعاد إلى أشداق الاضطهاد. وبلغ التأثر بعمر ابن الخطاب حدًا جعله أعجز من أن يضبط نفسه. فراح يجادل الرسول، ناطقًا بلسان جمهرة المسلمين جميعًا. لقد سأله: «الست برسول الله؟» قال: «بلى». قال: «أولسنا بالمسلمين؟» قال: «بلى» قال: «أو ليسوا بالمشركين؟» قال: «بلى». قال: «فعلام نعطى الدنية فى ديننا؟» قال: «أنا عبدالله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعنى» فسأله عمر: «ألم تقل لنا إننا سوف نؤدى فريضة الحج؟» فأجابه الرسول: «أنا لم أقل لكم أننا سوف نؤدى فريضة الحج هذا العام» وعلى النحو نفسه جادل عمر أبا بكر فى الموضوع نفسه، فكان جواب أبى بكر أن الرسول لا يخالف أمر الله فى كل ما يفعله[4].

وبكلمة موجزة، استشعر المسلمون قلقًا عظيمًا من جراء أبى جندل ولكنهم لم يعيروا من الأمر شيئًا. ولاحظ الرسول أن هذه المحنة تنطوى على امتحان حاسم لعهد المسلمين ووعدهم، وأن

---

(١) الحديث اخرجه البخاري في باب كيف يكتب: هذا ما صالح فلان بن فلان وإن لم ينسبه إلى قبيلته أو نسبه. كتاب الصلح - صحيح البخاري مع فتح الباري: ٥/ ٣٠٣ - ٣٠٤ الحديث رقم ٢٦٩٨.

(٢) صحيح البخاري مع فتح الباري - ٥/ ٣٠٤.

(٣) باب الموادعة والمصالحة مع المشركين - فتح الباري: ٦/ ٢٧٥ - ٢٧٦ و٢٨١.

(٤) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص١٠٣.

عليهم أن يحترموا كلمة الشرف التى أعطوها، مهما كلفهم ذلك. ثم إنه واسى أبا جندل أيضًا قائلا له: «اصبر واحتسب فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين مخرجًا» حتى إذا انقلب الرسول إلى المدينة نزل الوحى على الرسول بسورة الفتح، فتلا على أصحابه قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣﴾ [الفتح]، إن ما اعتبره المسلمون صلحًا شائنًا كان فى عينى الله نصرًا حقيقيًا وعلى التو دعا الرسول عمر بن الخطاب ليزف إليه النبأ السعيد. وأوجس عمر فى نفسه خيفة، ذلك بأنه كان قد انفعل أكثر مما ينبغى فى نقاشه مع الرسول حول شروط الهدنة، فحسب أنه إنما دعى لكى يلام على ما بدر منه ويؤنب. ولكنه لم يكد يدخل على الرسول ويسمع الوحى الإلهى حتى تبدل خوفه بهجة. وسأل عمر الرسول : «هل نزلت هذه الآيات فى صلح الحديبية؟» حتى إذا أجابه الرسول نعم آمن مع غيره من المسلمين بأن ذلك الصلح كان فى الحقيقة نصرًا لهم. كان كل امرئ، حتى ذلك الحين، ناقمًا على شروط الهدنة المخزية؛ أما الآن فقد أمست سورة الفتح على كل شفة ولسان. والواقع أن تجاربهم فى الماضى أقنعتهم بصدق الوحى. كان تاريخ الإسلام مفعمًا، حتى تلك الفترة، بأحداث مماثلة[1].

نتائج هدنة الحديبية:

يبدو من النظرة السطحية لهدنة الحديبية أن الرسول ﷺ قدم تنازلات كبيرة لقريش، ولكن دراسة عميقة لوضع المسلمين قبل الهدنة وبعده وما نشأ عنه تظهر أن الهدنة كان فتحًا كبيرًا ونصرًا عظيمًا، لم يدرك أهمية معظم المسلمين وقت إبرامه، لأن خيبة أملهم كانت شديدة من عودتهم دون حج، ولما رأوه من عدم مساواة فى رد من جاءهم مسلمًا من قريش وعدم الزام قريش برد من جاءها مرتدًا من المسلمين. لقد كان المسلمون منذ مدة بسيطة عرضة للمجابهة والمحاصرة فى مدينتهم، وهم اليوم يتوجهون إلى مكة دون خوف أو وجل. صحيح أنهم لم يتوجهوا إلى مكة لفتحها، ولكنهم مع ذلك يحطمون كبرياء قريش فى عملهم هذا. فإن هى منعتهم من دخول مكة فى ذلك العام فلا ضير فى ذلك، وبخاصة أن الهدنة يضمن لهم تنفيذ ذلك فى العام التالى. إن البند الأول فى الهدنة والذى يتضمن إيقاف الحرب لمدة عشر سنين هو مكسب كبير للمسلمين، وقد أثبتت الأيام ذلك فقد أعطى المسلمين فرصة العمل على جبهات أخرى، بعدما جمد الاتفاق أقوى الأعداء وأشرسهم «قريش». والرسول يحمل عقيدة جديدة ينشرها بين الناس، ويناقش بها الملأ، فهو يدعو إلى وحدانية الله، وتوحيد العرب تحت راية الإسلام. ودينه الجديد كله فضائل ومكارم أخلاق، وثورة على واقع اليم، ودعوة إلى التحرير من الظلم وعبادة البشر والحجر، وهو يعد أتباعه لسيادة العالم. هذه الدعوة لا

---

(١) مولانا محمد علي - نفس المرجع ص١٠٣.

تستطيع أن تقف أمامها فى السلم دعوة قريش، هذا إن كان لها دعوة، فإلى أى شىء تدعو قريش الناس؟ إلى عبادة الأحجار وأكل الربا، وممارسة الفجور[1].

لهذا ما أن أمن المسلمون جبهة قريش حتى وجهوا جهودهم إلى قبائل العرب الأخرى فحققوا من النتائج فى سنة واحدة ماعجزوا عن تحقيقه فى سنوات. كذلك فإن مجرد قبول قريش بمفاوضة الرسول جعل المسلمين فى نظر عرب الجزيرة كلهم فى مستوى قريش، وهى التى لم تكن لتعترف بهم سابقًا، وتعدهم جماعة خارجة عن قانونها، صابئة عن معتقدات الآباء والأجداد. ولم تكتف الهدنة بذلك بل أعطى للرسول حقًا فى محالفة من يشاء من قبائل العرب، وسمح لتلك القبائل بالدخول فى حلف رسول الله محمد ﷺ إن شاءت أو فى حلف قريش. وهذا البند جعل القبائل الخائفة من قريش والراغبة فى حلف الرسول تسرع إلى إعلان محالفتها للرسول، وشجع القبائل المترددة على حزم أمرها والانضمام إلى المسلمين. أما البند الذى ينص على إعادة من جاء الرسول من قريش مسلمًا من غير إذن وليه دون التزام قريش بالمقابل بذلك، فيبدو أن الرسول عندما وافق عليه كان فى ذهنه أن المسلم إن كتم إسلامه بين المشركين كان عينًا للمسلمين فى وسط المشركين، وإن انكشف أمره يكون عبئًا عليهم، لأنه صاحب عقيدة راسخة فلا تهزه الرياح، ولا تقف فى طريقه الصعاب، بينما المسلم إن ارتد عن دينه فلا خير فيه، وليرجع إلى عشيرته بدلاً أن يكون منافقًا فى صفوف المسلمين او جاسوسًا عليهم[2].

تجلى الضبط في موقف رسول الله محمد ﷺ أثناء المفاوضات وبعدها على الرغم من تذمر بعض المسلمين وضبط الرسول ﷺ أعصابه في مثل هذا الموقف الحرج والعصيب وضبط المسلمين اعصابهم أيضًا مما يدل على تحلي المسلمين حينذاك بالصبر والانضباط الذي يدعو إلى الإعجاب الشديد[3]. ففي عهد الحديبية تجلى تدبير رسول الله محمد ﷺ في سياسة خصومه وسياسة أتباعه وفي الاعتماد على السلم والعهد حيث يحسنان ويصلحان والاعتماد على الحرب والقوة حيث لا تحسن المسالة ولا تصلح العهود[4].

اثبتت الأيام سريعًا حكمة الرسول فى قبول هذا الشرط وبعد نظره، فقد تجمع المسلمون الذين ينطبق عليهم هذا الشرط فى مكان على طريق قوافل قريش إلى بلاد الشام وأخذوا يغيرون على تلك القوافل، وقطعوا طريق تجارتها مع دمشق، ولما ضاقت قريش ذرعًا بتصرفاتهم، راجعت قريش الرسول بأمرهم، فأجابهم أنه لاسلطان له عليهم، وهو لم يقبلهم فى صفوفه تنفيذًا لهدنة الحديبية، مما اضطر قريش إلى طلب إلغاء ذلك البند من الاتفاق، بل وتوسلت إليه أن يكف عنها أذى أولئك

(١) احمد راتب عرموش - المرجع السابق ص١٠٣.
(٢) احمد راتب عرموش - نفس المرجع ص١٠٤ .
(٣) محمد محمد البيلي يونس - المرجع السابق ص١٣٨.
(٤) عباس محمود العقاد - المرجع السابق ص٥٩.

المسلمين المؤمنين ويؤويهم. وهكذا ألغت قريش نفسها البند الذى اعتبره المسلمون مجحفًا بحقهم، وخاليًا من المعاملة بالمثل. وكانت تظاهرة الرسول وخروجه إلى العمرة من أكثر الأمور دعاية للدين الجديدة فى صفوف العرب الذين كانوا يعظمون مكة ويقدسونها. فظهر جليًا لهم أن الرسول يجل كعبتهم ويحترمها. وأظهرت تلك التظاهرة قريشًا متعنتة مستكبرة تمنع الناس من القيام بواجباتهم الدينية بدون مسوغ. كما حققت هدنة الحديبية أحد أهم أهداف الرسول من خروجه معتمرًا، وهو كسر أحد فكى الكماشة التى كانت تطبق على المدينة من الشمال والجنوب. فقد أتاح له الاتفاق تحييد قريش فى نزاعه مع يهود الذين كانوا يتجمعون فى خيبر بانتظار الفرصة المناسبة للانقضاض عليه. وأصبح باستطاعته القضاء على يهود الشمال دون خوف من دعم قريش لهم. وهذا ما فعله فى أول فرصة سانحة. وكان لقيام الرسول بالعمرة فى العام التالى أطيب الأثر فى نفوس المسلمين، ونفوس العرب أجمعين وشعرت قريش بالمهانة وبأن العد العكسى لسلطانها قد بدأ فعلا. لهذه الأسباب مجتمعه، عد هدنة الحديبية فتحًا مبينًا. ولم يطل الأمر بقريش، فأخطأت فى تقديراتها، وأساءت بتصرفاتها، فنقضت عهدها، فاغتنم الرسول الفرصة، وأتى فى هذه المرة فاتحًا فدخل مكة، وقضى على أئمة الشرك، وحطم الأوثان[1].

والحق أن هدنة الحديبية كانت انتصارًا للإسلام أيضًا. يدلك على ذلك أن الرسول، حين وفد على مكة بعد عام ونصف عام، رافقه عشرة آلاف من صحابته بدلا من ألف وأربعمائة وهو عدد من كان معه زمن الهدنة. فكيف نعلل هذا الازدياد العظيم فى عدد المسلمين؟ الواقع أن حالة الحرب التى سادت حتى ذلك الحين بين المسلمين والمشركين كانت قد أقامت بينهما برزخًا عريضًا. كان الحقد العام على الإسلام قد حال بين العرب وبين الامتزاج بالمسلمين، ومن هنا لم تتح لهم أيما فرصة للاحتكاك بالمسلمين، والتعرف إلى الفضائل الإسلامية. فإذا بهدنة الحديبية تعقد ما بين الفريقين - للمرة الأولى منذ انبثاق الحركة الإسلامية، ولمدة من الزمن غير يسيرة ، جسرًا على ذلك البرزخ القديم. لقد أتاح ذلك للمشركين فرصة التفكير الهادئ فى فضائل الإسلام الفطرية. فأدركوا كيف هذب جميع أولئك الذين تأثروا بسلطان الرسول الأخلاقى ورفعوا إلى صعيد أسمى. إن من طبيعة النفس البشرية أن يعمى المرء عن رؤية محاسن من يضمر لهم العداء ولو فى أوهن أشكاله. وكان العرب قد عقدوا العزم على ريادة الإسلام، فهم فى وضع لايساعدهم على أن يقدروا تعاليم الإسلام حق قدرها. أما وقد أزيل ذلك الحاجز الآن، واستؤنف الاتصال السوى بالمسلمين فقد أمسوا فى مركز يمكنهم من أن يدرسوا أخلاق المسلمين وعاداتهم. لقد تلاشت جميع انطباعاتهم الخاطئة عن الرسول، تلك الانطباعات التى خلقتها العداوة والبغضاء. وأدركوا بأنفسهم أنه لم يكن براغب فى قطع صلة الرحم ولا بمثير للشقاق أو متاجر به، كما توهموا من قبل[2].

---

(١) أحمد راتب عرموش - نفس المرجع ص١٠٥

(٢) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص١٨٤

تجلى لهم الآن نبل طبيعته وجمال أخلاقه. وأدركوا أنهم كانوا ضحية التمويه والتضليل، وأن شخصية الرسول كـانت أسمى بكثير مما صورت لهم. والواقع أن عددًا كبيرًا منهم أعـجبوا بسمو مثل الرسول العليا وطهارة مسالك أصحابه، فدخلوا فى الجماعة الإسـلامية. وهكذا تحقق الوحى الالهى الذى أنزل على الرسول فى طريق عودته من الحديبية: «ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك وما تأخر» لقد محيت جميع الذنوب التى عزاها الحقد إليه، فتكشفت للقوم، مرة أخرى، شخصيته الفاتنة بكامل الغنى المميز لجمالها. وقوله تعالى «وما تأخر» ينطوى أيضًا على وعد خاص بالمستقبل. فهذه الكلمات النبوئية تعلن أن كل اتهام ضده، فى المستقبل، لن يجاز لـه أن يصمد، لا، إنه سوف يتـهافت هو الآخر، كمـا تهافتت الاتهامات السـابقة، وليس على المرء إلا أن يلاحظ التغيـر اليومى الطارئ على نظرة أوروبية إلى الرسول حتى يدرك صحة هذا الجزء من الآية القرانية. فالصورة الكاريكاتورية البشعة التى رسمهـا الاوروبيون له حتى الآن، سواء عن طريق الجهل أو التـضليل، تخضع اليوم ـ من ذات نفسـها ـ لتغيـر ملحوظ. إن أوروبا لتدرك، يومًا بـعد يوم، نبل شخصـيته وصفـاءها. ولابد أن يقر الناس، عاجلا أو آجلا، إقرارًا جماعيًا بسمـو حياة الرسول، كما تنبأ القرآن. ومثل هذا الإقرار يجب أن يتم اليوم، كـما تم من قبل، فى أعقـاب سلم شامل. اما وقد أشـبع الآن نهم أوروبا إلى التوسع الإقليمى فقد أمسى فى ميسور المرء أن يرجو انبـثاق عهد من المثالية جديد. إن اتصال أوروبا بالإسلام قد غدا أوثق من ذى قبل، ولقد حان الوقت لان يؤدى هذا الاتـصال إلى تحريرها من فكراتها الخاطئة عن الإسلام، فتدرك، شأن أعداء الرسول قـبل ثلاثة عشر قرنًا، ان وجه الإسلام الوسيم برئ من أيما وصمة ألصقـها به الحقد والضغينة. إنها قـد تدرك، خلال بحثها الحالى عن الضيـاء الذى تفتقده فى معتقـداتها، أن خلاصها كامن فى ذلك الإسلام نفسـه الذى دأبت منذ البدء على تصويره بألوان ليس أشد منها قتامًـا. عجيبة هى طرائق الله، فلا غرابة إذا ما أعـاد تاريخ الإسلام نفسه. إن أولئك الذين عقدوا العـزم على إبادته قد يسحرهم، عمـا قريب، سلطانه الأخلاقى كالذى حـدث عند عقد هدنة الحديبية[1].

ومن يدرى فقـد تتجلى قوة الله مـرة أخرى، فإذا بما يبدو اليـوم ـ وفقا لكل تقـدير بشرى ـ وكأنه قهر نهائى للإسلام ينقلب غدًا ليصبح انتصار الإسلام الحقيقى. قبول الرسول لمثل هذه الشروط القاسية التى انطوت عليهـا هدنة الحديبية لم يكن خلوًا من حكمة إلهية. فالحادثة نفسـها شهادة بليغة على أن الرسول كان شديد المقت للحرب. كان المسلمـون، حتى ذلك الحين، هم أصحاب اليد العليا فى مختلف النزاعـات التى نشأت بينهم وبين قريش. إنهم لم يعرفوا الهزيـمة مرة واحدة قط، برغم تألب القبائل كلهـا عليهم وتعاونها ضدهم. لقـد اعتبروا تلك الشروط ماسـة بكرامة دينهم، وأصروا على رفضها. وكانوا قـد اقسموا ليقاتلن حتى آخر رجل فيـهم دفاعًا عن شرف الإسلام. ومع ذلك،

---

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص١٨٩ .

نجد الرسول ـ حيثما بدا له أضأل دليل على جنوح العدو للسلم ـ يرحب بتلك البادرة ترحيبًا قلبيًا. إن المسلمين لم يهزموا، ولكن أحكام المعاهدة بدت وكأنها تعاملهم بوصفهم الفريق المغلوب، ومع ذلك قبلها الرسول. أفيمكن لمثل هذا الموقف أن يكون موقف رجل وطد النية على التحكم بالآخرين والاستبداد بهم، كما يزعم الزاعمون؟ أليس ذلك برهانًا قاطعًا على مدى حب الرسول للسلم وتعلقه به؟[1] إن القرآن أيضًا ليوصي بضرورة اتخاذ هذا الموقف نفسه حين يقول: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦١﴾﴾ [الأنفال].

تظهر شروط صلح الحديبية ولا سيما البند الذي يتعلق بوقف الحرب بين المسلمين وقريش لمدة عشر سنوات أن رسول الله محمد ﷺ كان لا يكن نوايا عدوانية ضد قريش وأنه يفضل السلم إذا جنحت له قريش. أما البند المتعلق بتأجيل العمرة إلى العام التالي فقد كان له وجهان، وجه يظهر أن قريشًا استطاعت إنقاذ ماء وجهها وردت الرسول دون أن يحقق هدف زيارته، ووجه يبرز تقديس المسلمين للكعبة ويظهر أمام القبائل العربية احترامهم لمقدساتها وشعائرها كما يؤكد اعتراف قريش برسول الله محمد ﷺ واعتباره ندا تفاوضه وتعقد معه المعاهدات، ويحاول البعض أن يثير أمر عدم التساوي في المعاملة الذي يحتوي عليه البند الثاني والذي ينص على التزام رسول الله محمد ﷺ بإعادة من يأتيه مسلما دون إذن وليه، في حين أن قريشا لا تلتزم بمثل ذلك ويرون أن فيه عدم تكافؤ ليس له ما يبرره[2].

يبدو أن الذي جعل رسول الله محمد ﷺ يقبل بمثل هذه الشروط هو إيمانه الأكيد بأن أحدًا من جماعته لن يتخلى عن دينه وينحاز للجانب المكي وأن الذي سيحدث هو العكس فلا ضير إذن في قبول هذا الشرط. ولعل أهم المكاسب التي حققتها بنود هذا الصح هي قبول قريش بأن يكون للقبائل العربية الراغبة في الانضمام إلى حلف رسول الله محمد ﷺ الحق في فعل ذلك دونما خشية وفي هذا تحقيق لحلم رسول الله محمد ﷺ بإقامة حلف قبلي برئاسته يستطيع أن يقف به في وجه قريش إذا ما فكرت بالعدوان على المسلمين[3].

ولكن ما كانت، على أية حال، ثمرة الهدنة الذى بدا مذلا حتى فى أعين المسلمن أنفسهم؟ هل وضع حدًا لدخول الناس فى الدين، فى مكة؟ لقد كان خليقًا بالهدنة، وفقًا لكل منطق بشرى، أن تفضي إلى ذلك. ذلك بأنه كان برهانًا جديدًا على عجز المسلمين وقلة حيلتهم. كان فى ميسور الداخلين فى الدين، حتى ذلك الحين، أن يعتمدوا على العون يأتيهم من إخوانهم المسلمين فى المدينة. ولكن المسلمين حرموا، بحكم شروط الهدنة، حقهم فى نجدة معتنقى الدين الجديد، الذين

(١) مولانا محمد علي - نفس المرجع ص١٩٠.
(٢) د. نبيه عاقل - المرجع السابق ص٥٠٤.
(٣) د. نبيه عاقل - نفس المرجع ص٥٠٤.

كانوا فى قبضة ظالميهم ومضطهديهم. ليس هذا فحسب، بل لقد أمسوا عاجزين عن إيواء هؤلاء المؤمنين الجدد إذا ما وفقوا للفرار بأنفسهم إلى المدينة. إنه لعزاء عظيم للمرء أن يجد نفسه، فى أيام المحنة، بين فريق من أصدقائه، برغم أن أولئك الأصدقاء أنفسهم قد لا يكونون فى حال أفضل. إنه لمما يسرى عن النفس أن يكون معهم فى مركب واحد، كما يقولون. ولكن حتى مصدر السلوان الأخير هذا أنكرته هدنة الحديبية على الداخلين حديثًا فى الإسلام. فكيف يجد امرؤ فى نفسه الجرأة، فى ظل تلك الأحوال، على اعتناق الإسلام؟ كان المسلم يخضع، فى موطنه مكة، لضروب من العذاب رهيبة، ولكنه لم يعد يطمع فى أن ينعم، الآن، فى المدينة نفسها، بحال أفضل. إن ما أصاب أبا جندل لايزال ماثلا فى أذهان القوم، وخليق به أن يوهن عزيمة أكثر الناس حماسة. والواقع أن مثل هذا الوضع كان ينبغى أن يضع حدًا لتقدم الإسلام. ولكن أليس مما يروع المراقب أن يكون الضياء الإسلامى قد انتشر ـ على عكس ذلك ـ فى هذه الفترة بالذات بسرعة تبلغ عشرة أضعاف سرعته السابقة؟ فما هو إذن الاستنتاج المنطقى الوحيد ؟ إنه ليس شيئًا أكثر من هذا: إن قيمة الإسلام الجوهرية لترجح رجحانًا عظيمًا شبح التعذيب والاضطهاد على اختلاف ضروبهما. إن جمال الإسلام الفاتن لينسى محبه جميع الآلام التى قد يجرها اعتناقه عليه. لقد عجز التنكر فى المدينة، بقدر ما عجز الاضطهاد فى مكة، عن تثبيط همتهم، فإذا بالآلام والمحن تتلاشى أمام حبهم للحقيقة على نحو استغرق كل شيء[1].

وتلك مناسبة أخرى تغرى الناقد بالتأمل والتفكير. أيتعين عليه أن يدعو هذا الوضع انتشار الإسلام بالسيف، أم انتشار الإسلام برغم سيف العدو؟

وحذا عتبة، وهو رجل جرئ آخر اعتنق الاسلام فعذبته قريش من غير رحمة، حذو أبى جندل، ففر ناجيًا بنفسه إلى المدينة. عندئذ عهدت قريش إلى رجلين اثنين فى تعقب آثاره، فطلبا إلى الرسول رده، وفقًا لأحكام هدنة الحديبية. فلم يكن من الرسول إلا أن أشار عليه، كما أشار على أبى جندل من قبل، أن ينقلب عائدًا إلى مكة. فاحتج عتبة فى دهش، قائلا: «يا رسول الله أتردنى إلى المشركين يفتنونى فى دينى؟!» ذلك وضع حرج جديد: عتبة يتضرع باسم الدين، من ناحية، وقريش تصر على تنفيذ المعاهدة، من ناحية أخرى. وهذه المرة كان مركز الرسول، بوصفه فى المدينة، أشد منعة مما كان فى قضية أبى جندل بالحديبية، يوم كان المسلمون حفنة ليس غير، حفنة عزلاء من السلاح أيضًا. ولكن قانون الشرف النبوى لا يجيز نقض العهد فى استخفاف، حتى ولو أفضى ذلك إلى ارتداد مسلم عن دينه. وقال الرسول للرجل: «لامناص لنا، ياعتبة، من ردك إلى قريش. وإن الله لجاعل لك مخرجًا» إن احترام الرسول لعهده الذى قطع لرائع، ولكن حب عتبة للإسلام ليس أقل روعة. ما الذى يدعوه إلى المبالاة بالإسلام، بعد، وقد رده الرسول نفسه إلى أيدى المشركين؟

---

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص١٩١.

ولكنه لايجيز لـنفسه، وهو المفتون بسـحر الإسلام، أن يتساءل لماذا يفـعل الرسول ذلك. وهكذا نزل عند إرادة الرسـول، فى إذعان لا يعرف التـردد، ورافق الرجلين المكيـين عائدًا إلى حـيث كان الموت ينتظره ويحدق إلى وجهه عن كثب[1].

لم تكن ثمـة قوة أرضيـة تقيه غـيظ قريش، وكـانت غريزة حفظ الذات تكرهه عـلى النجاة بنفسه. لقـد قال فى ذات نفسه إن عليه، أيًا مـا كانت النتائج، أن يضرب الضربة التى تنقـذ حياته. وهكذا واغتنم فرصة مـلائمة أتيحت له فقتل واحدًا من حارسيـه، على حين ولى الآخر الأدبار فرارًا من الموت، ولكن المدينة كانت لاتزال أرضًا مـحرمة عليه. إن عليه أن يبـحث عن مفزع له فى مكان آخر. وهكذا نزل «العيص» على ساحل البحر فى طريق قريش إلى الشام، وكان شبه منطقة محايدة. ومن ثم فزع سـائر المسلمين المضطهـدين فى مكة، والذين أوصدت فى وجـوههم أبواب المدينة، إلى الموطن نفسه، فإذا به ينمو، شيئا بعد شيء، ليصبح آخر الأمر مستوطنًا كبيرًا للاجئين المسلمين. ولم يكونوا ثمة بخـاضعين لأحكام هدنة الحـديبية. وسـرعان ما أوقـعت قوتهم الناميـة الذعر فى قلوب القرشيين، الذين خافوا أن يعمد هؤلاء المسلمون، فى يوم من الأيام، إلى اعتراض طريق تجارتهم مع الشام. وهكذا رأوا أن من الخير لهم أن ينسخوا المادة التى فرضت إعادة الفارين من مكة إلى مكة، إذ وجدوا أن مثل هذا النسخ خليق به أن يضعف مستوطن «العيص» إضعافًا كبيرًا[2].

غزوة خيبر: خيبر، البلدة المعروفة حتى الآن بهذا الاسم فى شمالى الجزيرة العربية. كان ينزل بها يهود عاهدوا الرسـول على أن يقفوا على الحياد بينه وبين أعدائه. ولكنهم كعـادة يهود لم يلتزموا مواثيقهم، وحالفوا قريشًا ضد الرسول. فما أن عقد الرسول الاتفاق مع قريش حتى تفرغ لهم. فأقام فى المدينة «ذو الحجـة» وبعض «المحرم» ثم خرج إلى خـيبر. كـان يهود خيـبر فى تحالف مع قـبائل غطفان، ولذلك تركزت خطة الرسول على قـطع مدد غطفان عن خيبر، فسار بجـيشه حتى نزل بين الطرفين. ولمـا سمعت غطفـان بمنزله حشـدت قواتها، ثـم تحركت باتجاه خـيبـر. علم الرسول ﷺ بتحركهـا، فأرسل وحدة من قواته لتغيـر على منازلها، وكانت قد قطعت مرحلة عندما فـاجأها خبر قوات المسلمين تغير على منازلها، فعادت أدراجها لتنقذ أهلها وأموالها، وتركت خيبر لتواجه مصيرها وحدها. بدأ جيش المسلمين بقيادة النبى العربى بفتح حصون خيبر الواحد تلو الآخر، واليهود ينتقلون من حصن إلى آخر حتى استقروا فى آخر حـصنين لهم وهما «الوطيح» و«السلالم»، ولما اشتد عليهم الحصار، وسمع بهم أهل «فدك» تدخلوا فى الصلح على أن يخلى اليهود أموالهم وما ملكت أيديهم، وينجوا بأرواحـهم فيلتحقـون بفدك. ثم عرض اليهـود أن يقوموا هم برعاية ممتلكاتهم مـقابل نصف مردودها يدفعونه للمسلمين، فوافقهم الرسول على ذلك، ثم صالح أهل فدك على مثل ذلك. كانت خسائر المسلمين لا تكاد تذكر، ولم يعكر صفو ذلك النصر سوى محاولة امرأة يهودية هى زينب بنت

(١) مولانا محمد علي - نفس المرجع ص١٩٢
(٢) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص١٩٢

الحارث تسميم الرسول ﷺ، فأهدت إليه شاه مشوية بعدما أكثرت السم فى ذراعها، وعممته على جميعها، ولكن الرسول لم يسغ ذلك اللحم، بينما أكل منه صحابى جليل هو بشر بن البراء، فكان سبب وفاته مسمومًا. وعاد الرسول إلى المدينة، فوصل إليها مع قدوم جعفر بن أبى طالب وأصحابه، عائدين من هجرتهم الثانية إلى الحبشة[1].

لم يورِّ رسول الله محمد ﷺ في غزوة خيبر هذه كعادته في أكثر غزواته البعيدة بل أعلن التعبئة العامة وأعلم الناس أنه يريد خيبر، ولعل ذلك راجع في الدرجة الأولى إلى أن المسلمين باتوا آمنين على المدينة من أن تكون عرضة لأي هجوم من قبل الأعراب المجاورين الوثنيين بعد تلك الحملات العسكرية التأديبية التي جردها عليهم رسول الله ﷺ فنحضد بها شوكتهم وإلى أن قيام المسلمين بالزحف على خيبر لم يعد سرا يمكن إخفاؤه لأن اليهود في خيبر كانوا يتوقعون بأن ينقل رسول الله ﷺ المعركة إلى عقر دارهم في خيبر ولذلك قاموا بتشييد الحصون والقلاع[2].

عند فتح خيبر جاء أبو موسى الأشعري[3] مع أهل اليمن[4] على رسول الله محمد ﷺ وقال ابن نافح أنه قدم وفدا في نضر من «حمير» وقال أبو موسى عن «النبي ﷺ هم مني وأنا منهم» بين أنه طرف من حديث أوله «إن الأشعريين إذا أرملوا في الغزو جمعوا ثم اقتسموا بينهم فهم مني وأنا منهم»[5] والمراد بقوله (هم مني) المبالغة في اتصال طريقهما واتفاقهما على الطاعة[6].

عمرة القضاء: وبقى الرسول فى المدينة، يبعث السرايا والغزوات، حتى كان ذو القعدة، الشهر الذى صده المشركون فيه عن العمرة، فخرج معتمرًا يؤدى «عمرة القضاء» حسب اتفاقه مع قريش. ولما سمعت قريش بقدومه خرجوا من مكة، ودخل المسلمون والمشركون يراقبونهم، وقد شيعوا عن المسلمين أنهم فى عسر ومشقة، فأمر الرسول أصحابه أن يروا المشركين من أنفسهم قوة. فجعل عضده الأيمن فوق لباس الإحرام، وأخذ يهرول وصحابته معه ثلاثة الأشواط الأولى، ومازال المسلمون حتى اليوم يقتدون برسولهم فيهرولون فى الأشواط الثلاثة الأولى من طوافهم وتزوج هنالك بعد إحلاله ميمونة بنت الحارث خالة ابن عباس وخالد بن الوليد فلما تمت الثلاث أوجبت عليه قريش أن يخرج من مكة ولم يمهلوه حتى يبني بأم المؤمنين، فخرج فبنى عليها بسرف[7]. وبعد ثلاثة أيام وهو الوقت المحدد فى الاتفاق ليترك المسلمون مكة بعده، أرسل الكفار يطلبون من

---

(١) احمد راتب عرموش - المرجع السابق ص١١٢.
(٢) د. السيد الجميلي - المرجع السابق ص١١٥.
(٣) فتح الباري - ٨/ ٩٧.
(٤) صحيح البخاري مع فتح الباري - ٨/ ٩٦.
(٥) صحيح البخاري مع فتح الباري - ٥/ ١٢٨ - ١٣٠ - الحديث رقم ٢٤٨٦.
(٦) فتح الباري - ٨/ ٩٧.
(٧) محمد محمد البيلي يونس - المرجع السابق ص١٤٤.

الرسول مغادرة مكة، فغادرها متجهًا نحو المدينة. فأنزل الله عز وجل قوله: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾ [الفتح].

غزوة مؤتة: بعث الرسول ﷺ في السنة الثامنة من الهجرة، وفي جمادى الأولى جيشًا مؤلفًا من ثلاثة آلاف رجل إلى جهة مؤتة، وهي قرية صغيرة في جنوبي بلاد الشام. وسبب إرسال ذلك الجيش أن النبي ﷺ بعث «الحارث بن عمير» رسولا إلى ملك بصرى، فلما نزل الحارث «مؤتة» هاجمه عمرو بن شرحبيل الغساني فقتله، فقرر الرسول الانتقام لمقتل رسوله وعين زيد بن حارثة قائدًا على ذلك الجيش وأوصاهم فقال: «إن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب على الناس، فإن أصيب جعفر فعبد الله ابن رواحة». وكأني بالرسول ﷺ يدرك أهمية ذلك البعث وخطورته، ويتهيب مواجهة جيش الروم وأعوانهم فيعين ثلاثة قادة، يخلف واحدهم الآخر إن أصيب. وقد حدث في تلك المعركة ما تحسب له الرسول ﷺ فقد مضى جيش المسلمين حتى نزل بلدة «معان»، البلد المعروف في جنوبي الأردن في هذه الأيام. وهناك بلغ جيش المسلمين أن «هرقل» حشد مائة ألف جندي في منطقة البلقاء، وانضم إليهم مائة ألف أخرى من قبائل «لخم» و«جذام» وغيرهما. بلغت أخبار العدو جيش المسلمين، فأمضوا ليلتين في منطقة معان يتشاورون ويتدارسون الموقف. فاقترح بعضهم أن يكتبوا إلى الرسول يخبرونه عدد عدوهم وقوته، ويتركوا له القرار في أمرهم. ولكن عبدالله بن رواحه كان متشوقًا للشهادة فلما رأى موقف الناس قال[1]: «ياقوم، والله إن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون: الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به. فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين: إما ظهور، وإما شهادة. فقال الناس: قد والله صدق ابن رواحة». فانطلق جيش المسلمين حتى وصل حدود منطقة البلقاء، وكان جيش هرقل في إحدى قرى تلك المنطقة واسمها «مشارف». فنزل جيش المسلمين بلدة «مؤتة»، واستعدوا لملاقاة الروم.

كان تفوق الروم كبيرًا، ولكن المسلمين قاتلوا ببسالة بقيادة زيد بن حارثة، حامل راية رسول الله، الذي حافظ على تلك الراية مرفوعة حتى سقط شهيدًا. فأخذ الراية جعفر بن أبي طالب، فقاتل حتى استشهد . فلما قتل جعفر آلت القيادة حسب أوامر الرسول إلى عبد الله بن رواحة، ولكنه لم يلبث حتى قتل أيضًا، فأخذ الراية أحد أبطال المسلمين «ثابت ابن أقرم»، وصاح بالجيش أن اختاروا لكم قائدًا، فاختاروا خالد بن الوليد. كان خالد بن الوليد قائدًا حكيمًا، يعرف كيف يقاتل، ويعرف متى يجب أن يقاتل، كما يعرف متى يجب أن ينسحب، فقدر أن معركته انتحار، فوضع

---

(١) احمد راتب عرموش - المرجع السابق ص١١٣

خطة سريعة للانسحاب بجيشه. أوهم الروم بوصول إمدادات كبيرة إليه، فى حين كان ينسحب بجيشه من أرض المعركة.. وهكذا عاد جيش المسلمين إلى المدينة، فاستقبله المسلمون فى المدينة بالحزن والبكاء والاستنكار، حتى اضطر الرسول للثناء على ذلك الجيش وتطييب خواطر مقاتليه، والتنويه بما بذله من جهود فى محاربة الأعداء. وبشر المسلمين بالعودة إلى القتال والنصر[1].

نلاحظ من غزوة «مؤتة» بأن خالد بن الوليد خطط لإنقاذ الجيش الإسلامي من الإبادة الجماعية حيث لم تكن القوتان متكافئتين حيث كان جيش الروم مائة ألف والمسلمين ثلاثة آلاف فقط وما أسرع ما قتل زيد وسقط جعفر وحمل عبد الله بن رواحة الراية وسقط هو الآخر فتولى خالد القيادة فاستفاد من حلول الظلام وقام بأول عملية انسحاب في تاريخ الإسلام ثم عمد إلى سحب الجناحين تحت حماية القلب ولما أصبح الجناحان بمنأى عن ضربات العدو، عمد إلى التراجع بالقلب تحت حماية الجناحين وأحدثت ضجة عالية لإيهام العدو بقدوم إمدادات، فقد أثبت خالد بن الوليد أن الانسحاب بأقل الخسائر هو أعلى مرحلة من مراحل الانتصار وأن المحافظة على أرواح المقاتلين هي محافظة على الدعوة وعلى العقيدة نفسها وكانت معركة «مؤتة» مفترق الطرق بالنسبة للدعوة الإسلامية وهي أول معركة يحتك بها السيف الإسلامي بالسيف المسيحي للروم[2].

عدة سرايا: أرسل الرسول ﷺ وفى سنة ثمان هجرية من جمادى الآخرة سرية بقيادة عمرو بن العاص إلى ذات السلاسل بهدف ضرب جمع لقبيلة قضاعة كانوا ينوون الإغارة على أطراف المدينة ظنًا منهم أن المسلمين كسرت شوكتهم بعد مؤتة فنجحت السرية فى مهمتها، وشتت القبائل وفرضت هيبة المسلمين. ثم أرسل فى رجب سرية بقيادة أبى عبيدة بن الجراح عرفت باسم «سرية الخبط» إلى حى من جهينة لجهة البحر الأحمر ولم يحصل فيها قتال. وفى شعبان أرسل سرية أبى قتادة الأنصارى إلى «خضرة» وهى أرض محارب فى نجد وعادت بمغانم كثيرة بعدما قتلت عددًا من الأشخاص. وكانت أشبه بإغارة بطولية نفذها خمسة عشر رجلا. وفى رمضان سنة ٨هـ بعث أبا قتادة الأنصارى فى سرية أخرى إلى «بطن إضم» ليوحى إلى الناس بأنه توجه إلى تلك الناحية تغطية على توجهه إلى مكان لفتحها[3].

فتح مكة

بلغت اعتداءات قريش ذروتها. وكانت السنة الثامنة للهجرة تدنو من نهايتها. وكانت قد انقضت على إنقاذ هدنة الحديبية سنتان اثنتان. وكان إقرار جو السلم قد أثبت صلاحه العظيم لنمو الإسلام فلم يعد فى طوق قريش ان تنظر بنفس مطمئنة إلى قوة الإسلام المتعاظمة يومًا بعد يوم.

---

(١) احمد راتب عرموش - نفس المرجع ص١١٤.
(٢) محمد محمد البيلي يونس - المرجع السابق ص١٥٥.
(٣) احمد راتب عرموش - المرجع السابق ص١١٤ .

واخيرا نقضت الهدنة. وكانت قبيلة خزاعة قد أفادت من حرية الاختيار التى منحتها هدنة الحديبية فدخلت فى عهد المسلمين، على حين دخل أعداؤها التقليديون، بنو بكر، فى عهد المكيين. واتفق ان اغار بنو بكر، ذات ليلة، على خزاعة. فانتصرت قريش لبنى بكر. والتمست خزاعة مفزعًا فى الحرم، حيث يحظر سفك الدماء ـ بحكم التقاليد العربية ـ تحظيراً صارمًا. ولكنهم لم ينجوا، حتى هناك، من عدوان المعتدين. لقد قتل عدد منهم كبير. ولم تكتف قريش بعدم صد حلفائها عن العدوان، بل ساعدتهم على ذلك منتهكة احكام هدنة الحديبية انتهاكًا صريحًا وهكذا ذهب وفد من خزاعة ليستنصر الرسول، وفقًا لأحكام التحالف. فبعث الرسول إلى قريش يخبرها قبول واحد من الشروط التالية: إما أن تدفع ديات من قتلوا من خزاعة، وإما ان تحل نفسها من عهد بنى بكر، وإما ان تعلن أن هدنة الحديبية أمست لاغية. فردت قريش قائلة أنها قبلت الشرط الأخير، برغم أن أبا سفيان الأموي حاول، فى ما بعد، أن يبرر هذه الخطوة الخاطئة التى خطاها قومه، وأن يعتذر عنها. فقد أدرك أبوسفيان الأموي أن مثل هذا النقض الصارخ للصلح محفوف بخطر عظيم[1]، ومن أجل ذلك وفد على المدينة لتجديد المعاهدة فقال «أبو سفيان الأموي زعيم بني أمية»[2] لأبي بكر: جدد لنا الحلف، قال ليس الأمر إلي، ثم أتى عمر فاغلظ له عمر، ثم أتى إلى السيدة فاطمة الزهراء فقالت له: ليس الأمر إلي، فأتى الإمام علي عليه السلام فقال: ليس الأمر إلي» فقال أبو عكرمة[3] ما رأيت كاليوم رجل أضل» أي من أبي سفيان»[4]، أنت كبير الناس، فجدد الحلف فضرب إحدى يديه على الأخرى وقال: أجرت بيْنَ الناس، ورجع إلى مكة فقالوا له: ما جئتنا بحرب فنحذره، ولا بصلح فنأمن) لفظ عكرمة[5].

بيد أن الرسول لم يغفل عن المكيدة، ذلك أن أبا سفيان أصم اذنيه دون المطالب الإسلامية كلها ومن ثم رفض الرسول تجديد المعاهدة، فتعين على أبى سفيان الأموي أن ينقلب إلى مكة خائب الرجاء وهكذا اتخذ الرسول الاستعدادات الضرورية لفتح مكة، داعيًا إلى ذلك جميع القبائل المتحالفة مع المسلمين. كانت قريش قد اضطهدت المسلمين طوال إحدى وعشرين سنة. وكانت قد غزت المدينة، ثلاث مرات، للقضاء على الإسلام والمسلمين. فلا عجب إذا ما خيل للمرء، إذ يرى إلى هذه الاستعدادات، أن الظالمين سوف يعاقبون على جرائمهم عقوبة عادلة. ولقد كان جد طبيعى ان يتوقع المرء أن يعمد الرسول، الآن إلى مناقشة من ارتكبوا جرائم وحشية ضد الإسلام، وبينما الجيش الإسلامى على أهبة السير كتب رجل مسلم اسمه حاطب بن أبى بلتعة، بسبب من قلقه على أنسبائه

---

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص١٠٠.

(٢) الواقدي - المغازي ٢/ ٧٨٧.

(٣) ورد في مرسل عكرمة عن ابن ابي شيبة - المصنف: ٧٠/ ٤٠٠ - ٤٠٢.

(٤) ابن هشام: ٢/ ٣٩٦ - ٣٩٧.

(٥) فتح الباري - ٨/ ٦ و٧.

فى مكة، كتابًا أعطاه امرأة تسمى سارة وأسر إليها بأن تبلغه قريشًا ليقفوا على ما أعد المسلمون لهم من غزو. ولو قد وصل الكتاب إلى أيدى المكيين اذن لعمدوا هم أيضا إلى اتخاذ الاستعدادات الضرورية لمقاومة المسلمين. ولكن حكمة الله شاءت أن يتم هذا الفتح العظيم. فسارع فبعث الإمام علي بن أبى طالب كرم الله وجهه والزبير بن العوام لاعتقال حاملته، فأدركاها ورداها والكتاب إلى المدينة. وكان فى ذلك ما أثار ثائرة المسلمين على حاطب، الذى كان قد حاول أن يخون إخوانه فى الدين. واعتقل حاطب وقدم إلى النبى ليلقى جزاءه. ولكن الحكم عليه لم يصدر من شفتى ملك من ملوك الدنيا، أو قائد من القواد العسكريين، ولو قد صدر من أيهما اذن لقضى بقتل المجرم فى الحال. لا، لم تكن الحملة حملة انتقام. لقد أريد بها أن تكون مثلا خالدًا على العفو - العفو يجاد به على أعداء الداء. فكيف يجوز أن يعامل حاطب، الذى كان دائما صديقا، غير هذه المعاملة؟ لقد قبل الرسول عذره، وعفا عنه[1].

خلال فترة السنتين التي انقضت بين هدنة الحديبية وفتح مكة كان ما لا يقل عن سبع عشرة غزوة وسرية قام بها رسول الله محمد ﷺ وقادة مسلمون آخرون وكانت تضم ثلاث فئات الأولى عدد من العمليات العسكرية وجهت ضد بعض القبائل التي لم يكن ولاؤها خالصا للرسول ﷺ رغم أنها لم تبد عداءا صريحا ضده مثل الغزوات ضد غطفان وفروعها كمرة وثعلبة وغيرهما وفروع من بني ليث هو ملوح وبني جهينة وغيرهم. أما الفئة الثانية فتتضمن الغزوات ضد فروع من هوازن ورغم أن هذه الغزوات لا قيمة عسكرية لها إلا أنها توضح الاتساع الجغرافي الذي امتدت إليه العمليات العسكرية الإسلامية والفئة الثالثة كانت تتضمن الحملات العسكرية إلى الشمال مثل سرية كعب وغزوة مؤتة وذات السلاسل[2] وهكذا فقد حققت المعارك الإسلامية خلال السنتين اللتين أعقبتا صلح الحديبية سيادة الإسلام على رقعة واسعة من الجزيرة العربية واستطاع الجيش الإسلامي أن يكسب خبرة كبيرة من خلال تلك المعارك وبذلك يكون مستعدا للذهاب إلى المعركة النهائية ألا وهي فتح مكة.

سار الرسول، على رأس عشرة آلاف من أتباعه البررة، إلى مكة، فى العاشر من رمضان، من السنة الثامنة للهجرة،وهكذا تحققت النبوءة التى انطلقت، قبل ألفى عام، من بين شفتى موسى: «وأتى مع عشرة آلاف من القديسيين» (سفر التثنية ٣٣:٢) وليس فى التاريخ بعد الموسوى أيما حادثة أخرى تتحقق بها هذه الكلمات النبوئية. يا لها من ظاهرة أعجوبية! لقد كان عدد المسلمين عشرة آلاف مقاتل، وكانوا فى الوقت نفسه كلهم «بررة» كما جاء فى النبوءة. إن هدفهم فى الحياة لم يكن حال خوض غمار الحرب وسفك الدماء، ولكن اقامة قواعد البر ولو كلفهم ذلك حياتهم. وعسكروا

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص٢٠٢ .
(٢) د. نبيه عاقل - المرجع السابق ص٥٠٥.

في مر الظهران، على مسيرة يوم من مكة. وأمروا جميعا بأن يوقدوا النيران في كل معسكر. فخليق بذلك أن يبده قريشا بعظم قوة المسلمين العددية، وهكذا يتجنب رسول الله محمد ﷺ مقاومة قريش وما تستتبعه من إراقة دم. واستسلم المكيون من غير مقاومة. ومن عجب أن أبرز القرشيين الذين مثلوا بين يدى الرسول كان أبا سفيان الأموي، زعيم المعارضة بعد أبي جهل. لقد بذل قصارى جهده، على نحو موصول، لإبادة الإسلام. أجل، لقد اذن لأبى سفيان الأموي، اكبر المسيئين للإسلام، فى المثول بين يدى الرسول لكى يغفر له! لقد بدأ ذلك امرًا متعذرًا جدًا ولكن طبيعة الرسول الرحيمة لم تكن لتميز بين الصديق والعدو[1]. وهكذا عفا عن أبى سفيان الأموي.

لقي رسول الله محمد ﷺ عمه العباس في منتصف الطريق مهاجرا بعياله فأسلم بين يديه، وأراد العباس بعد إسلامه أن يقوم بعمل ينقذ به قريش من كل ما قد يتعرضون إليه من مخاطر من المسلمين فسار بعد مقابلته الرسول ﷺ يبحث عن رجل يبعثه إلى قريش لتأخذ حذرها وتبادر بالاستسلام وبينما هو على هذه الحال إذ لقى أبا سفيان زعيم بني أمية الذي خرج من مكة هائما على وجهه ومعه بعض أصحابه سعيا وراء مقابلة رسول الله محمد ﷺ ليأخذ منه امانا للقرشيين ورافق العباس أبا سفيان الأموي إلى حضرة الرسول وتوسط له عنده فمنحه الرسول أمانا[2].

راع أبا سفيان الأموي جبروت القوة الإسلامية، فانقلب إلى قومه مسرعًا لكى ينبئهم بأن كل مقاومة للرسول عبث لا طائل تحته. ونقل إليهم فى الوقت نفسه كلمة الرسول: «من دخل دار أبى سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن» ولا ريب فى أن النقاد الذين يصمون الإسلام بأنه دين انتشر بالسيف سوف يخيب فألهم حين يعلمون أن اعتناق الإسلام لم يشكل جزءا من شروط هذا الأمان، وأخيرا زحف الجيش الإسلامى على مكة، من كل جانب. وكان النبى قد جعل سعد بن عبادة على أهل المدينة ليدخلوا مكة من جانبها الغربى، فلم يكد سعد هذا يمر بأبى سفيان الأموي حتى صاح: «اليوم يوم الملحة، اليوم تستحل الحركة» فاغتاظ الرسول من ذلك، وأخذ الراية منه ودفعها إلى ابنه قيس لكى يجتنب إراقة الدماء. وكان على خالد بن الوليد أن يدخل مكة من أسفلها، وكان يعتصم فى ذلك الحى من أسفل مكة أشد قريش عداوة الإسلام، وهو الذين شاركوا فى الحملة على خزاعة. وكان عكرمةِ بن أبى جهل يقيم مع هؤلاء. وعلى الرغم من الأمان العام الممنوح لجميع المواطنين فقد أبى هؤلاء القوم على خالد أن يمر من غير مقاومة، فأمطروا جيشه بوابل من نبالهم. وهكذا اضطر خالد إلى أن يحمل عليهم. وقد قتل من قريش فى هذه المناوشة ثلاثة عشر رجلا، فى رواية، وثمانية وعشرون فى رواية على حين لم يستشهد من المسلمين غير رجلين اثنين وفى غضون ذلك كان الرسول قد انتهى إلى مرتفع من مرتفعات مكة فأسف وجزع

---

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص٢٠٢.

(٢) د. نبيه عاقل - المرجع السابق ص٥١٦.

لدن رأى سيوف خالد ورجـاله تلتمع فى أسفل المدينة وصاح مغضبـا يذكر أمره الصارم بأن لا يكون ثمة سفك دمـاء أيا ما كان السبب. ثم إنه دعا خـالدا ليبرر ما أقدم علـيه من تمرد ظاهرى، حتى إذا علم بما كان قال ان الخيرة فى ما اختاره الله[1].

تقدم الرسول نحو مكة، وطهر ذلك البيت المقدس من جميع الأصنام. وكان كلما مس واحدا من تلك الأصنام بقـضيب فى يده يـتلو هذه الآية القرآنيـة الكريمة الـتى نزلت عليه قـبل ذلك بزمن طويل: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ [الإسراء] ولم تعرف منذ ذلك الحين قط أيما صـورة أو أيما صنم سبـيلا إلى جدران ذلك الحرم المكـرس لوحدانية الله. قال عـبد الله بن مسـعود[2]: «دخل الرسول ﷺ مكة يوم الفتح وحول البيت سـتون وثلاثمائة نصب» وهو ما ينصب للعبـادة من دون الله تعالى[3]. وفي رواية ابن أبي شيـبة «صنما»[4] بدلا من «نصبـا» ويطلق النصب على الحجارة التي كانوا يذبحون عليها للأصنام[5]. وفي قوله بأن رسول الله محمد ﷺ جعل يطعنها بعود في يده ويقول: «جاء الحق» وفي رواية مسلم (يطعن في عينيه بسية القوس)[6]، «فيسقط الصنم ولا يمسه»[7]، وعن ابن عباس «فلم يبق وثن استقبله إلا سقط على قفاه مع أنها كانت ثابتة بالأرض وقد شد لهم أقدامـها بالرصاص)[8]، وإنما فعل النبي ذلك لإذلال الأصنام وعابديهـا ولإظهار أنها لا تنفع ولا تضر ولا تدفع عن نفـسها شيئًـا. ثم إن الرسول استدار إلى «مـقام إبراهيم» وصلى هناك. عندئذ دعى عثمان بن طلحة، سادن الكعبة، وفتحت أبواب البيت الحرام، فدخله الرسول وصلى فى الناس هناك أيضا. ثم إنه أعاد المفتاح إلى عثمان قـائلا ان سدانة الكعبة سوف تظل فيه وفى أبنائه من بعده حـتى يرث الله الأرض ومن عليـها لا يأخـذها منهم إلا ظالم.حتى إذا أتم الرسـول ذلك ألقى خطبة أكد فيها وحدانية الله وأخوة البشر الشاملة.

وبعد ذلك وجـه الخطاب إلى وجوه قـريش المجتمـعين حوله. كـانوا كلهم فى وضع المذنب الجانـى. فكم قد عـذبوا المسلمين ونكلوا بـهم! لقد بدا وكـأن ثرى مكة نفسـه كان مـتعطشـا للدم الإسلامى ومـا كان أفظع الآلام التى أذاقوها المسلمـين منتهكين فى ذلك جمـيع النواميس الأخلاقـية والتـقليدية! إن مـجـرد ذكرى أشكال الاضطهـاد الغـريبة تلك ليـوقع الرعـدة فى قلب المرء. ثم إن

---

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص٢٠٣.

(٢) عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن أبي معمر عن عبـد الله بن مسعود رضي الله عنه - الطبراني - المعجم الكبير: ٧/ ١٨٨ - مجمع الزوائد - ٦/ ١٧٨.

(٣) فتح الباري ٨/ ١٦ - ١٧.

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي - ١٢/ ١٣٣، ابن أبي شيبة - المصنف ٧/ ٤٠٣ - حديث رقم ٣٦٩٠٦.

(٥) فتح الباري - ٨/ ١٧.

(٦) صحيح مسلم بشرح النووي - ١٢/ ١٢٩ - ١٣٠.

(٧) الهيثمي - موارد الظمآن - ص٤١٦ - الحديث ١٧٠٢.

(٨) حديث ابن عباس أخرجه ابن هشام بتمامه - ٢/ ٤١٧.

سلطانهم لم يكن مقصوراً على ثرى مكة، بل لقد طاردوا المسلمين حيثما وجدوا وفورا بأنفسهم ملتمسين مفزعًا لقد هاجموا المدينة مرة بعد مرة لكى يسحقوهم سحقًا. إلى هذا الحد كانت جريمة المكيين الواقفين الآن موقف المتهم بين يدى الرسول، شائنة مخزية. وكانوا بما تكشفوا عنه من حقد، وانتقام، ومحق لحقوق الإنسان الأساسية، وتنكيل بالأبرياء يستحقون أقصى عقوبة من عقوبات العبرة نص عليها أكثر قوانين العالم رحمة. وكان أرأف ضرب من ضروب القصاص يقضى بقطع رؤوس زعمائهم الكبار، وسجن عدد من الآخرين لكى يكون فى ذلك تحذير لسائرهم وعبرة لهم فى المستقبل. كان ينبغى لقوتهم أن تسحق سحقا كاملا لكى يمسوا عاجزين عن إحداث أيما متاعب فى المقبل من الأيام. إن أكثر الطرق تمدينا فى مواجهة أمثال هذه الجرائم هى إنزال عقوبة من عقوبات العبرة فى فريق من المعتدين سواء أكانوا مذنبين فعلا أم لم يكونوا، وإخضاع سائرهم لعبودية كاملة. ولقد كانت هذه هى المعاملة التى عامل بها المنتصرون مغلوبيهم دائما وأبدا، وبالطريقة نفسها تعامل الشعوب المغلوبة، اليوم، فى ظل أعرق الحكومات فى المدينة. فقوية هى غريزة الانتقام فى الطبيعة البشرية، وإنها لنزاعة إلى الاستفحال والطغيان، وبخاصة حين يكون العدو تحت رحمة المرء المطلقة. عندئذ تتخطى التخوم الأخلاقية كلها. ولكن قريشًا كانت تؤمن إيمانًا لا يتزعزع بما فطر عليه الرسول من طبيعة نبيلة رحيمة. انهم لن يتوقعوا قط أن يلقوا على يديه أيما معاملة قاسية. ومن هنا لم يكد الرسول يسألهم: «يا معشر قريش، ما ترون أنى فاعل لكم؟» حتى أجابوا: «أخ كريم وابن اخ كريم!» إنهم لم يكونوا غرباء عن كرم خلق الرسول. لقد كانوا على مثل اليقين من أن الشهامة، التى ميزت شخصيته طوال أربعين سنة انقضت قبل جهره بالنبوة، لم يتطرق إليها أيما تغيير البتة. ولكن المعاملة التى أسبغها عليهم فاقت حتى ما كانوا يتوقعونه.

لقد قال لهم: «لا تثريب عليكم اليوم» يا لسمو النفس! لقد أعفاهم حتى من اللوم على جرائمهم السوداء، بله العقوبة والقصاص. ليس هذا فحسب، بل إنه لم يطالبهم حتى بعهد يأخذونه على أنفسهم فى ما يتصل بمسلكهم فى المستقبل. وممتلكات المهاجرين المبعدين، التى كان المكيون قد استولو عليها، لم ترد إليهم. لقد طلب إلى المهاجرين أن يتنازلوا عن جميع حقوقهم السابقة. وحتى يوم دخل المسلمون مكة لم يتمالك عكرمة بن أبى جهل عن إيذائهم فهاجم سرية خالد بن الوليد وإذ خشى العقوبة القاسية التى كان يعلم انه يستحقها فقد فر بنفسه حذر الموت. وفى حال من الأسى البالغ وفدت زوجته على الرسول، والتمست منه العفو عن زوجها، وإذ كانت رحمة الرسول لا تعرف حدوداً فقد منح عكرمة، ذلك العدو اللدود، العفو أيضا. وأسبغ الرسول رأفته السخية، كذلك، على وحشى قاتل حمزة، عمه الحبيب، وعلى هند التى مضغت كبده. وحتى هيار ـ الذى آذى زينب بنت الرسول فى طريقها من مكة إلى المدينة أذى بالغا أفزعها فأجهضها وافضى آخر الأمر إلى وفاتها ـ عفى عنه. والواقع أن تاريخ العالم ليعجز عن تزويدنا بنظير لهذا الصفح الكريم الذى

أغدقه الرسول على أمثال أولئك لمجرمي الحرب الكبار. إن الضرب على وتر المواعظ الداعية إلى الصفح والغفران لا يكلف المرء شيئًا كثيرًا، ولكن عفو المرء عن معذبيه هو ليحتاج إلى قدر من الشهامة عظيم وبخاصة عندما يكون أولئك المعذبون تحت رحمته. وهذا الانفساح فى مدى العطف الإنسانى والعفو الكريم لا نقع عليه فى حياة يسوع. فالحق أن يسوع لم تتح له الفرصة لممارسة فضيلة العفو، ذلك بأنه لم يكتسب فى أيما يوم السلطة التى تمكنه من الرد على مضطهديه[1].

تعارف المؤرخون على تسمية هذه العملية العسكرية التي قادها رسول الله محمد ﷺ وانتهت باستسلام قريش، باسم «الفتح» الذي يعتبر تتويجا لجهوده الكبيرة في سبيل نشر الإسلام، ويقول الإمام الشافعي[2]: «إن مكة فتحت صلحا لما وقع هذا الأمان ولإضافة الدور إلى أهلها ولأنها لم تقسم، ولأن الغانمين لم يملكوا دورها وإلا لجاز إخراج أهل الدور منها»[3]. وكان لابد للرسول ﷺ رغم العفو العام الذي أصدره أن ينظر في حالة بعض الأفراد الذين اشتهروا بعدائهم للإسلام أو كان لهم مواقف لا تغتفر ضد المسلمين[4].

فتحت مكة، ولكن العفو العام الممنوح لأهل البلدة كان فتحًا أعظم بكثير، فتحا وراء متناول أسلحة المسلمين. لقد أسر قلوب الناس. وحتى الأعداء الألداء، من طبقة أبى سفيان الأموي، سحرتهم الأخلاق الإسلامية. وأدى هذا المشهد الأخير من مشاهد الشهامة الإسلامية إلى تجريد المعارضة، على اختلاف ضروبها، من سلاحها. لقد رأى المكيون بأم العين كيف تحققت آخر الأمر جميع تلك الوعود الإلهية التى وعد بها المسلمون يوم كانوا لا يزالون يئنون تحت وطأة تعذيب أعدائهم لهم. إن قوى المعارضة المشتركة عجزت عن إضعاف الإسلام. فكان فى هذا برهان قاطع على عدالة القضية وصدقها، برهان أزال كل شك كامن فى أفئدتهم. واليوم، والإسلام يجد نفسه كرة أخرى فى غمرة أيام عصيبة، وقد عقد الأعداء عزمهم على إبادته، بل وقد اتحدت دول العالم كلها لمحوه من على وجه الأرض، يبدو للمرء وكأن القوة الإلهية سوف تتجلى من جديد، كفعلها فى الأيام السالفة، بحيث تقنع العالم بأن الأيدى البشرية أعجز من أن تسحق الحق الإلهى. وبكلمة موجزة، لقد تلاشت المعارضة كلها ونفذت الحقيقة الإسلامية إلى أعماق قلوب المكيين. فانضووا تحت راية الإسلام زرافات زرافات. واستوى الرسول فى مرتفع من جبل الصفا ليتقبل دخولهم فى الجماعة الإسلامية. لقد أقبل الرجال يتبعهم النساء اللائى اعتنقن الدين الجديد بأعداد ضخمة. وإنما فعلوا كلهم ذلك على نحو تلقائى. فلم يكره أى منهم على اعتناق الإسلام بالقوة. وكان ثمة أيضا فريق لم ينشرح صدره للإسلام،ولكن أيما أذى، مهما ضؤل، لم ينزل بهم بسبب من ذلك. لقد تعلقوا

---

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص٢٠٧ .

(٢) فتح الباري: ٨/ ١٢.

(٣) الشوكاني - نيل الأوطار: ٨/ ٢٣ و٢٤.

(٤) د. نبيه عاقل - المرجع السابق ص٥١٨.

بأهداب عـقيدتهم الوثـنية الخاصـة، ولكن المسلمين عـاملوهم فى إحسـان بالغ. كانت تشـدهم إلى المسلمين صلات ود وصداقة، حتى لقد قاتلوا مع المسلمين كتفًا إلى كتف عندما وقعت معركة حنين. وهكذا يعتبر فتح مكة دحضًا قاطعًا للتـهمة القائلة بأن الإسلام لم ينتشر قط إلا بالسيف، إذ هل كان فى الإمكان أن تنشأ لمثل هذا الإدخال القسرى فى الدين فرصـة خير من هذه الفرصة؟ فالواقع ان أيما حادثة من حوادث الإكراه لم تقع فى تلك المناسبة. وإليك اعتراف ميووير حول هذه النقطة[1]:

«على الرغم من أن البلدة رحبت بسلطانه ترحيبًا بهيجًا، فلم يكن جميع سكانهـا قد اعتنقوا الدين الجديد، ولم يكونوا قد اعتـرفوا رسميا بصحة دعواه النبوئيـة. ولعله عقد العزم على أن يسلك ههنا ذلك النهج الذى سلكه فى المدينة، ويدع الناس يدخلون فى الإسلام، شيـئا بعد شىء، من غير ما إكراه»

دروس من فتح مكة

يعود بنا الفتح بالذاكـرة إلى قول الرسول العظيم، والقائد الحكيم، بعـد غزوة الأحزاب: «لا تغزوكم قريش بعد اليوم بل تغزونهـا». وصح حدس الرسول بعد سنوات قليلة وها هى قريش تصبح ركنا من أركان الإسـلام وقوة كبيـرة فى جيش المسلمين نسـتطيع أن نأخذ من فتح مكة دروسًا وعـبر كثيرة أهمها[2]:

أهمية معرفة إمكانات العدو وقدراته بدقة، فلو أن قريشًا كانت على علم بتطور قوة المسلمين، وأدركت أنهم كانوا يتـمنون اللحظة التى يتخلصـون فيها من قـيود هدنة الحديبـية للدخول معـها فى معركـة حاسمة، لما جازفت وسـاعدت قبيلة بكر فى قـتالها ضد حلفاء الرسـول ﷺ. إن الهدنة قد تكون مرحلة تسـبق الصلح، وقد تكون فرصـة يستعـد فيها كل طرف لينـقض على عدوه فى الوقت المناسب له، أو بعـد انتهاء الهـدنة. والقائد الحكيم لا يضـيع هذا الوقت الثميـن، بل يستثـمره دون تلكؤ، فى إعداد العدة لساعة استئناف القتال. هـناك حالات لا تمكن المصالحة فيها، ولا التعايش بين الطرفين المتـقاتلين، كما كـانت الحال بين المسلمين والمشـركين، وفى هذه الحالة لا تنتـهى الحرب إلا بانتصار أحد الطرفين، والقضاء على الطرف الآخر، أو باقتناع المهزوم بصواب مبادئ المنتصر واعتناقها عن قناعة لا عن إكـراه ورضوح للقوة. وكان الرسـول يعلم ذلك، فركز جـهوده على تقوية جيـشه بحيث استطاع الانتصار بسهولة على عدوه، ثم دعـاه للدخول فى الإسلام، فاقتنع المشركون بدعوته، وانضموا إلى صفوفه. ضرورة إزاحة الـعوائق المادية، والطواغيت التى تحول دون نشر الدعوة بالقوة، ليتـأمن للناس مناخ من الحرية، يستطيـعون فيه اختـيار عـقائدهم وممارسة شعـائرهم دون خوف من

---

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص٢٠٨ .

(٢) احمد راتب عرموش - المرجع السابق ص١٢٦ .

سلطة، أو إكراه من حاكم مستبد. ولعل أهم السمات التى برزت فى غزوة الفتح هى التالية: الإعداد الجيد للمعركة: فقد بلغ عدد جيش الفتح عشرة آلاف مقاتل، مجهزين أحسن تجهيز، تسمح به أحوال المسلمين فى ذلك الوقت. المحافظة على السرية التامة: فقد أمر الرسول ﷺ صحابته بالتجهز للحرب، ولكنه لم يعلن عن وجهته، حتى لأهله، إلا متأخرا. كان الناس يتجهزون للخروج فى مهمة، لكنهم لا يعرفون العملية التى تنتظرهم وعندما اضطر قبيل التحرك للإعلان عن وجهته، نظراً لصعوبة المهمة، وبعد السفر، أمر صحابته بالمحافظة على السرية التامة، كى يستطيع تحقيق المفاجأة. تحقيق المفاجأة: وقد تمكن جيش المسلمين، نتيجة التشدد فى المحافظة على السرية التامة، من مفاجأة المشركين، والظهور فجأة على مقربة من مكة بقوات كبيرة لا قبل لقريش وحلفائها بمواجهتها. اللجوء إلى الحرب النفسية: فقد تعمد الرسول ﷺ نشر قوات على بقعة كبيرة من الأرض. ولما أشعلوا نيرانهم ليلا، غطوا منطقة واسعة جدا، عرف أبوسفيان الأموي من كثرتها أنها أكبر من أن تكون نيران خزاعة أو غيرها فأصابه كثير من الوجل، وبدأ الخوف يتسرب إلى نفسه من أن يكون ما يراه قوات المسلمين جاءت تهاجم مكة ولما سمع العباس عم الرسول ﷺ حديثه مع صاحبه «بديل بن ورقاء» وهو الرجل الحكيم الخبير بالرجال ونفسياتهم، اغتنم الفرصة وهول الأمر على أبى سفيان الأموي، حتى أقنعه بالاستسلام. واستكملت الحرب النفسية على رئيس مكة بأمر الرسول ﷺ بوضعه فى مكان بحيث تم تجميع قوات المسلمين بأسلحتها وعنفوانها أمامه، الأمر الذى ثبط عزائمه، وجعله يجد عزته وعزاءه فى إعلان استسلامه بصياحه «من دخل دار أبى سفيان فهو آمن»[1]. توزيع القوات: رغم موافقة أبى سفيان الأموي على تسليم مكة، فقد كان الموقف يتطلب الحيطة والحذر، والاستعداد الدائم لأية مواجهة مفاجئة. ولذلك فقد أمر الرسول ﷺ بتوزيع قواته، ودخولها من عدة جهات فى أربعة أرتال. حكمة التصرف بعد النصر: لم يبدر عن الرسول ﷺ بعد دخوله مكة أى تصرف يمكن أن يثير المنهزمين. فهو فاتح ليس كغيره من المحتلين. وهو يعود إلى بلده وأهله، لا يحمل غلا ولا حقدا، ولا يجد فى انتصاره وسيلة للتكبر أو التجبر. ويعبر عن سروره بالفتح بتواضع جم، وشكر لله ظهر فى إطراقه رأسه على راحلته ثم طوافه بالبيت وأدائه للصلاة. واستطاع فى موقف إنسانى نبيل أن يستميل أهل مكة، وهم الذين وقفوا ينتظرون حسابهم، فإذا بالرسول ﷺ يعفو عنهم ويقول لهم «اذهبوا فأنتم الطلقاء» وهذا التصرف الحكيم جعلهم يدخلون فى الدين الجديد دون استثناء تقريبا. نهاية الوثنية: كان من أهم نتائج فتح مكة تحطيم الأوثان وزوالها من حياة العربى وعقيدته إلى الأبد. فقد كانت مكة وما جاورها مركزاً لأهم أصنام العرب، وها هى هذه الأصنام تقع تحت ضربات فؤوس المسلمين فتتحطم وتهوى على الأرض كأى جدار قديم، بل وتداس بالأقدام، فلا تنتقم لنفسها، ولا يثور لكرامتها أية قوة غيبية كان بعض العرب يعتقدون بوجودها. ظهور

---

(١) احمد راتب عرموش - نفس المرجع ص١٢٧

المسلمين قوة عظمى فى جـزيرة العرب: وبعد فتح مكة، وتحقق أمنية الرسـول ﷺ بدخول قريش فى الإسلام، برزت قوة كـبرى فى الجزيرة العربية، لا يسـتطيع أى تجمع قبلى الوقوف فى وجـهها وهى مؤهلة لتـوحيد العـرب تحت راية الإسلام ثم الانطلاق إلى الأقطار المجـاورة، لإزالة حكومات الظلم والطغيان، وتأمين الحرية لخلق الله كى يدخلوا فى دين الله، ويعبدوه وحده من دون سواه[١].

معركة حنين

بقي رسول الله محمد ﷺ في مكة بعد الفتح حـوالي عشرين يوما أشرف خلالها على تحطيم الأصنام، واهتم ببعض القـضايا التنظيمـية والإدارية ومن بينها تأمين نفـقة الفقراء من أصـحابه الذين رافقـوه في الفتح والذين لم يحصلوا عـلى أية غنيمة ذلك لأن الرسـول منع استبـاحة مكة أو سلب أموال أهلـها، فاسـتدان مـالا من بعض أغنياء مكـة، وقد أعاد الرسـول ﷺ المال الذي استلـفه إلى أصحابه بعد أن نصره الله على قـبيلة «هوازن» في غزوة «حنين» هذه الغزوة التي أورّثت على المسلمين مغانم كثيرة[٢].

لم يكد ينقضى شهر واحد على مغادرة الرسول المدينـة حتى بلغه أن قبيلة هوازن، المقيمة فى سفوح الجبال القائمة شرقى مكة، كانت تحتشد فى أعداد كبيرة لشن هجوم على المسلمين. كان تعاظم قوة الإسلام بعد هدنة الحديبية قد أرعجها وأقلقـها. وكانوا قد شرعوا، قبل فترة طويلة من فتح مكة، يثيرون القبائل البدوية ويحرضونهـا على الإسلام. حتى إذ سقطت مكة بدا لهم أن عليهم أن يغتنموا أول فرصة لتـسديد ضربة إلى الإسلام، خشيـة أن يمسى أقوى من أن يقدروا على كبـته. وإذا كانوا أقـوياء متـمرسـين بالحـرب فقـد وفقـوا إلى حـشد قـواهم فى أيام معـدودات. ولم يكن نبـأ تلك الاستعـدادات يتصل بالنبى حتى بعث من يتبـين حقيقة الأمـر. فإذا بهذا الذى بعثـه يؤكد له أن النبأ صحيح. وفى الحال انصرف الرسول إلى تعبئـة جيش يشتت به قوى هوازن. وكان تحت إمره الرسول فى تلك اللحظة عشرة آلاف مقاتل هم الذين غزوا مكة وفتحوها فانضاف إليهم ألفا متطوع ممن أسلم من قريش، وبذلك أمسى الجـيش الإسلامى مؤلفًا من اثنى عشر ألفًا، سـار الرسول على رأسهم إلى وادى حنين حيـث احتشـدت هوازن. وبالاضافة إلى القـوة البشـرية زود المكيون المسلمـين بقدر من الأسلحة كبير. وكـان فى القوة العددية، مردفة بالتجهـيز الكامل، ما أوقع الزهو فى قلوب فريق من المسلمين. ولكن الله شاء ان يظهر أن الفتوح الإسلامية كانت ثمرة العون الإلهى ليس غير، ولم تكن بأية حال ثمرة قوة السلاح الإسـلامى. فقد كانت ثمة مواقع وفق فيهـا المسلمون بتأييد من الله، إلى التغلب على جيوش عدوه بلغ أفرادها ثلاثة أضعاف أو أربعة أضعاف عددهم هم، بل عشرة أضعاف

---

(١) احمد راتب عرموش - المرجع السابق ص١٢٩ .

(٢) د. نبيه عاقل - المرجع السابق ص٥١٩.

عددهم أيضًا. أما عند انطلاق شرارة القتال فى ساحة حنين فقد تعين على المسلمين أن يذوقوا طعم الانتكاس، برغم أعدادهم الكبيرة وأسلحتهم الموفورة كان الازدهاء بتلك القوة قد خامر قلوب بعضهم. ولكن الله ما كان ليرضى لهم أن يستشعروا العجب والغرور، كان يؤثر أن يراهم دائما ينظرون إليه بوصفه سناد قوتهم الأوحد. ولقد وصف القرآن الكريم هذا المشهد(١).

لم يبق على الشرك إلا بعض القبائل مثل «هوازن» و«ثقيف» التي سمعت بفتح مكة وقررت أن تقوم بغزو المسلمين(٢)، لأنهم غدوا معزولين يتهددهم خطر مماثل للخطر الذي حل بقريش فقرروا أن يبادئوا رسول الله محمد ﷺ بالحرب ومهاجمته قبل أن يستكمل استعداداته(٣).

كان رجال هوازن بارعين فى الرماية، وكانوا إلى ذلك قد احتلوا جميع المراكز الاستراتيجية المختارة. لقد ركزوا خيرة رماتهم فوق مختلف الهضاب. فكان على المسلمين أن يقنعوا باحتلال موقع غير ملائم. لقد انهال عليهم من كل جانب وابل من نبال، فى حين انقض عليهم الجيش الرئيسى من أمام. وكان خالد بن الوليد فى مقدمة جيش المسلمين، وتحت إمرته قوات المتطوعين المكيين، وفى جملتهم جماعة من غير المسلمين. وكانت هذه القوات هى التى تلقت الصدمة الأولى، فى المعركة، ولكنها لم تستطع الصمود لضراوة الهجوم. فإذا بتراجعها يوقع البلبلة فى صفوف المسلمين. لقد انقلبت على أعقابها فى اضطراب كلى. وحتى سرايا المهاجرين والأنصار شاركت فى الانكفاء العام. وهكذا ترك الرسول، مع عمه العباس ونفر آخرين، تحت رحمة جموع العدو الزاحفة. لقد رأى إلى الجيش الإسلامى ينكص على عقبيه، ولكنه ثبت فى موقعه المحفوف بالخطر فى رباطة جأش عجيبة. وكان العدو يشد عليه شدة ضاربة، وكان هو وحيدا أو يكاد، ولكن ذلك لم يعكر صفاء ذهنه أضأل تعكير، ألم يكن آمنا فى رعاية أقوى الأقوياء الكلية؟ إن معين السلوان الذى لا يخطئ ـ ذلك الإيمان غير المتزعزع بالتأييد الإلهى والثقة المطلقة بانتصار قضيته النهائى ـ قد ثبته الآن كتثبيته إياه من قبل. فلزم الساحة منفردا، والعاصفة العدوة تدوم منقضة عليه، وأنشأ يصيح بأعلى صوته، على نحو مكرور. «أنا النبى لا كذب» «أنا ابن عبدالمطلب» وهتف العباس أيضًا بصوته الجهورى: «يا معشر الأنصار الذين آووا ونصروا، يا معشر المهاجرين الذين بايعوا تحت الشجرة!» فجاءه الجواب من كل صوب، وقد أخذت القوات المشتتة تحتشد حول النبى، «لبيك! لبيك!». لقد ترجل المسلمون عن خيلهم وإبلهم وانقضوا على العدو الزاحف انقضاضًا مسعورًا جعله لا يقوى على الثبات فى وجههم. ففر فريق(٤). وقاوم فريق فترة من الوقت يسيره. حتى إذا صرع حامل رايتهم ولو هم أيضا الأدبار.

---

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص٢١١

(٢) محمد محمد البيلي يونس - المرجع السابق ص١٧١.

(٣) د. نبيه عاقل - المرجع السابق ص٥٢١.

(٤) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص٢١٢.

يقـول الربيع بن أنس[١] «قـال رجل يوم حنين لن نغلب اليـوم من قِلّة، فشق ذلك على رسـول الله محمـد ﷺ فكانت الهزيمة»[٢]. وعن ابن إسحاق قال: «سـمعت البراء رضي الله عنه، وجاءه رجل فقال: يا أبا عمارة أتوليت يوم حنين»[٣].

وكان قائد هوازن، مالك بن عوف النصرى، وهو شاب متهور فى الثلاثين من عمره، قد أمر النساء والأطفال بمرافـقة قواته لقد خيل إليـه أن وجودهم سوف يبقى معنويات رجـاله قوية، ويحول بينهم ـ إذا ما أصابتهـم محنة ـ وبين الانقلاب على أعقابهم. بيد أنهم سـرعان ما غادروا كل شىء: نساءهم وأطفالهم وأنعامهم وولوا الأدبار. فإذا بالغنيمة التى غنمها المسلمون تتألف من أربعة وعشرين ألف شاة، وأربعة آلاف أوقية من الفضة. ليس هذا فحـسب، بل لقد أسر المسلمون ستة آلاف مقاتل منهم. وبعـد أن نقل الجيش الإسـلامى تلك الغنائم إلى مكان آمن، واصل زحـفه. وكان فـريق من الجيش المهـزوم قد فـزع إلى معقله فـى أوطاس، فبعث الرسـول حفنة من المسلمـين إلى هناك لكى يشتتـوهم. أما الجمهـرة العظمى من أفراد ذلك الجيش فاحـتموا ضمن أسوار الطـائف الحصينة ذات الشرفات. كانوا بارعين فى صـناعة الحرب، متمرسين باصطناع الأسلحة الحديثـة، كالمنجنيق وغيره، وكانوا قد ادخروا أيضا ضمن الأسوار مؤنًا تكفيهم عامًا كاملا، وأقاموا حاميات قوية حولها. واندفع الرسول بقواته إلـى هناك، مباشرة، وألقى الحصـار على البلدة. وبمساعدة بعض القـبائل وفق الجيش الإسلامى أيضا إلى اصطناع الأسلحـة الجديدة. وتطاول الحصار، وأخيرًا شـاور الرسول أصحابه فى الأمر. وأبدى أحد زعماء الأعراب المجربين ملاحظة هامة فقال: «إنما ثقيف فى حصنها كالثعلب فى جحـره، لا سبيل إلى اخـراجه منه إلا بطول المكث. فإن تـركته لم يلحـقك منه ضر» وإذا استـيقن الرسول أن العدو لم يعد قادرًا على إنزال أيما أذى بالمسلمين، أمر برفع الحصار عن الطائف، ذلك بأن وقاية الإسلام من الهجمـات المعادية كان هو غرض الحملة الأوحد. وفيمـا الرسول ينسحب سئل أن يستنزل الغضب الإلهى على العدو ـ فقد كـان ذلك هو الموطن نفسه الذى رجم فيه، ذات يوم، حتى سال الدم من جسده. فـما كان منه إلا ان دعا الله لهم بهذا الدعاء: «اللهم اهد ثقـيفًا، وقدهم لى»، يعنى إلى الإسلام. واستجاب الله دعاء الرسول، وما هى غير فترة يسيرة حتى اعتنق الثقفيون الإسلام طائعين وهذا مثل آخر على حب الرسول العميق للجنس البشرى[٤].

هل شنت هذه الحملة ابتغـاء نشر الدين؟ إذا كان هذا، كما يزعم الزاعـموان، هو الهدف من حروب الرسول، فلم رفع الحصار عن البلدة؟ هل فعل ذلك لأن الموقف كان ميؤوسًا منه؟ لا! فلو انه أطال أمد الحصار بضعة أيام أخرى، اذن لاستسلم العدو وطرح السلاح. لماذا تركهم وشأنهم من غير

---

(١) ابن هشام – ٢/ ٤٣٩ – ٤٤٠.

(٢) فتح الباري: ٨/ ٢٧.

(٣) صحيح البخاري مع فتح الباري ٨/ ٢٧ - ٢٨ حديث رقم ٤٣١٥.

(٤) مولانا محمد علي – المرجع السابق ص٢١٣.

أن يخضعهم لسلطانه أو يكرههم على الدخول فى دين الله؟ ألم يكن الرسول يفقه الآية القرآنية التى تقول: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ... ﴿٣٩﴾﴾ [الأنفال] فإذا كانت هذه الكلمات: «ويكون الدين لله» تقضى، ضرورة، بفرض الإسلام على الناس، كما يساء فهمها اليوم، فلم يخالف الرسول الأمر الإلهى الصريح، بقبوله أحكام هدنة الحديبية، عند فتح مكة، وبرفعه الآن الحصار عن الطائف؟ ولكن الواقع أن الرسول فهم مفاد الأمر الألهى. إن الكف عن الاضطهاد لم يعن شيئًا أكثر من أن المسلمين لن يضطهدوا بعد اليوم من جراء اعتناقهم الإسلام. وقوله تعالى: «ويكون الدين لله» لا يقضى بغير توطيد الحرية الدينية. يجب ان يصبح المرء حرًا فى اختيار الدين الذى يحب، لأن هذه مسألة بين الإنسان وخالقه. هذا وليس شيئًا أكثر هو المراد بقوله تعالى «ويكون الدين لله». ولقد كان ذلك هو السبب الذى من أجله أصدر الرسول أمره برفع الحصار عن البلد، حالما اقتنع بأن العدو لم يعد قادرًا على إيذاء المسلمين. وإلى هذا، فقد كان الجيش الإسلامى ينتظم، آنذاك، جماعة من المكيين غير المسلمين أيضًا. فلو قد كان نشر الدين بالقوة هو الهدف إذن لكان خليقا بهؤلاء القوم أنفسهم أن يكونوا هم أول من يستشعر حد السيف الإسلامى[1].

هذا يظهر بجلاء أن معركة حنين كانت مثل جميع معارك الرسول الأخرى. مجرد إجراء دفاعى قومى. صحيح أن الرسول أغار على العدو، ولكن ذلك لم يتم إلا بعد شروع ذلك العدو فى الاعتداء على المسلمين بعد أن تعرضت السلامة الإسلامية للخطر. وما إن شتتت قوى الأعداء ولم يبق ثمة أيما خوف من تعرض المسلمين لأذاهم حتى أوقف العمليات الحربية. وحتى لو كان التوسع الإقليمى هو هدف الرسول، بل نشر الإسلام بالسيف، إذن لما رجع من غير أن يخضع الطائف. وهذا يظهر أن التوسع الإقليمى نفسه لم يكن هدف حروب الرسول، فما قولك بنشر الدين بقوة السلاح! ولدن عودة الرسول من الطائف قسم الغنيمة بين أفراد الجيش الإسلامى، فاصلا الخمس، جريا على مألوف عادته، للخزانة العامة. وكانت بين السبايا أيضا أخت للرسول من الرضاعة، هى الشيماء بنت الحارث بن عبد العزى. وأدخلها القوم على رسول الله محمد ﷺ فلم يكد يعرفها حتى بسط لها رداءه لكى يجلسها عليه، وأحاطها بمجالى الكرم والاحترام. إن الشيماء لم تكن أخته الحقيقة. ولكن أيما أخت حقيقية لم تشرف فى أيما يوم على نحو أفضل وأسخى. ثم إنه اقنعها بمرافقته إلى المدينة، ولكنها قالت إنها تؤثر البقاء مع قومها. وهكذا أعيدت إليهم مزودة بهدايا لطيفة[2].

ظلت ثقيف بادئ الأمر على عنادها ولم تعلن إسلامها كحليفتها «هوازن»، ولكن ما لبث بعض زعمائها أن أدركوا أنه لن يتاح لهم الصمود طويلا في موقفهم المعادي للرسول ﷺ بعد أن

(١) مولانا محمد علي - نفس المرجع ص٢١٤.
(٢) مولانا محمد علي - نفس المرجع ص٢١٥.

دانت له الجـزيرة العربيـة وغدا عـلى جانب من القـوة لا ينفع مـعه عنادهم وكـان على رأس هؤلاء الزعماء الثقفيين عروة بن مسعود الذي لحق بالرسول ﷺ في المدينة وأعلن إسلامه واستأذن في العودة إلى الطائف لتحويل عشـيرته إلى الإسلام وحين عاد إلى مدينته وأعلن إسلامه وجـد معارضة شديدة من بعض رجالات قومه أدت إلى مـقتله، على أن هدف هذا الموقف المعادي لم يدم طويلا واضطرت ثقيف في النهاية إلى إرسال وفد منها إلى الدمينة ليعرض على الرسول الصلح والاتفاق[1].

قدم على الرسـول وفد من هوازن يلتـمس إطلاق الأسرى وبسط الناطق بلسـان الوفد، على مسامع الرسول، جميع البلايا التى ينوء بها قومه. فأى جواب كان يجدر بفاتح من أعرق الفاتحين فى المدينة أن يكون؟ كان خليقًا بذلك الفاتح أن يقول شيئا كهذا: «انا أدرك مصاعبكم، ولكن الأوان الآن قد فـات. لقد كان قـمينًا بكم أن تفكروا فى ذلك قـبل أن تقدموا على الإغـارة علينا لكى تسحـقوا قوتنا. ولو انكم كسبتم أنتم المعركة إذن لعـاملتمونا على نحو أسوأ» أليس هذا هو الجواب النموذجى الذى ترد به توسلات عدو مهـزوم فى عهود الحضارة هذه؟ ولكن فؤاد الرسول كان مـفرغًا فى قالب أكثر نبلا. كانت رحمته لا تعرف حدودًا. وكان من حق العدو ان يطمع فى رافة الرسول السابغة كما يطمع فيهـا أيما كائن بشرى آخر. فقد كـان من دأب فؤاد الرسول أن يتفطر حزنًا لأضـأل مشهد من مشاهد الـبؤس البشرى. فكيف يطيق صـبرًا على رؤية الآلاف يجرعون كـأس الألم؟ ومن هنا سارع إلى إطلاق سراح الأسرى الذين اتفق أن كانوا من نصيبه ونصيب أسرته. ولكنه قال إنه لا يستطيع أن يتعرض لحقـوق الآخرين، وإن فى ميسور هؤلاء أن يتخلوا عن نصيـبهم من الأسرى إذا شاءوا. يا له من مـثل رائع على المساواة فى الحـقوق البـشرية! ولـيس من ريب فى أن أولئك الذين ضحـوا، فى ابتهاج، بثروتهم، وبمـمتلكاتهم، بل حتى بأرواحهم، من أجله لن يحملوا البتـة بأن يضنوا عليه بهذا الفضل: فضل تسـريح أسراهم تسريحًا شامـلا. ولكنه ما كان للرسول الذى جاء ليـعزز المساواة بين البشر، أن يعتدى على حق الآخرين فى ممارسة حـقوقهم بحرية كاملة. إن الملك، أو الأمير، لا حق له - فى الإسلام - على ممتلكات الفـرد. ولكن قلب الرسول، فى الوقت نفـسه، يقطر الما، فى حنايا صدره، بسـبب من أولئك القوم الذين ألم بهم بلاء عـظيم. كان شديد التـوق إلى مساعـدتهم على الخروج من محنتهم. ولقد سألهم أن يفدوا مرة واحـدة، قبيل صلاة العصر، وعندئذ يعرض مطالبهم على الجماعة الإسلامية، ويسألها أن تنظر فيه بعين العطف[2].

وهكذا وفدوا عليه فى الميقات المضروب، فتم تسريح سـتة آلاف أسير بفضل شفاعة الرسول. والواقع أنها حادثة يعز نظيرها فى تاريخ العالم كـله. أن يغدق الرسول مثل هذه المعاملة الكريمة على وفد من الوثنيين، وأن يستشفع المسلمين لمصلحة المشركين! حتى مناظير التحيز المسيحي المضللة تعجز

(١) د. نبيه عاقل - المرجع السابق ص٥٢٧.

(٢) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص٢١٦.

عن تقديم تفسير لتحرير هؤلاء الأسرى الستة آلاف من غير اشتراط الدخول فى الإسلام. وإنه لمن المؤلم جدًا ان نرى من كان تجسيدًا للرحمة ورقة القلب يصور وكأنه قاتل متعطش للدماء، القرآن فى إحدى يديه وسيف متدل من يده الأخرى لكى يضرب به رأس من يتردد فى الإيمان بالكتاب!. وبعد قسمة الغنيمة أغدق الرسول الأعطيات على بعض الزعماء القرشيين والبدو من حصة الخزانة العامة. فكان فى ذلك ما أثار بعض الدمدمات المكبوحة بين بعض الشبان من الأنصار. لقد تذمروا قائلين أن الرسول حابى عشيرته فى توزيع الغنائم[1].

وفى ميسور المرء، بسهولة أن يتخيل بأية طريقة لا تعرف الرحمة كان خليقًا بأحد الحكام المستبدين أن يعالج هذه الوقاحة. فقد تغيرت نفوس الأنصار بعض الشيء وساورتهم الشكوك فظنوا أن رسول الله محمد ﷺ صار في غنى عنهم بعد أن لقي قومه فلم يعد يحفل بهم ولا يعني بشأنهم كما كان من قبل فلما بلغ الرسول ذلك أمر سعد بن عبادة أن يجمع له الأنصار فجمعهم وخطبهم تلك الخطبة التاريخية التي يتجلى فيها حسن سياسته وقدرته على جذب النفوس وتأليف القلوب إليه ومهارته في إعداد سامعيه وتهيئتهم لقبول ما يريد أن يلقيه عليهم والتأثر به إلى أبعد حد[2]. فقد بين للأنصار في عبارة سلسة أخاذة نعمة الإسلام عليهم، إذ هداهم بعد الضلالة وألف بين قلوبهم بعد العداوة ثم ذكر لهم بالثناء تصديقهم رسالته وإيواءهم إياه ومواساتهم له ثم عتب في كياسة وظرف تطلعهم إلى هذا الفيء الذي أفاءه الله عليهم ففرقه في حديثي عهد بالإسلام تطييبا لنفوسهم عما أصابهم من القتل والهزيمة معتمدا على حسن إسلام الأنصار وصدق رغبتهم في نشر الدين وإعلاء كلمة الله ثم أكد محبته إياهم وإيثارهم على غيرهم من العرب وأخيرا أعلن إليهم أنه منهم ودعا لهم ولأبنائهم وأبناء أبناءهم، فلا عجب إذ بكى الأنصار بعد هذه الخطبة الرائعة وطابت نفوسهم برضاء رسول الله عليهم وعدوا ذلك غنما عظيما[3]. ولكن الرسول دعا الأنصار وحدثهم فى لطف بالغ قائلا: «يا معشر الأنصار، ما قاله بلغتنى عنكم وجيدة وجدتموها فى أنفسكم؟».

وإذ كانوا قد نشأوا فى ظل سلطان الرسول الأدبى فقد وجدوا الجرأة على إنبائه بالحقيقة الصريحة، معترفين بأن فريقًا منهم كان يتحدث بمحاباة الرسول زعماء قريش. عندئذ قال لهم الرسول: «ألم آتكم ضلالا فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله، وأعداء فألف بين قلوبكم؟» فأجابه الأنصار: «بلى، الله ورسوله أمن وأفضل» فتابع الرسول: «أما والله شئتم لقلتم فصدقتم وصدقتكم: أتيتنا مكذبًا فصدقناك، ومخذولا فنصرناك، وعائلا فآسيناك. يا معشر الأنصار! أوجدتم فى لعاعة من الدنيا تالفت بها قومًا ليسلموا أى هل غضبتم لأنى أعطيت فريقًا من الناس شيئا يسيراً من عرض

(١) مولانا محمد علي - نفس المرجع ص٢١٧.
(٢) د. حسن إبراهيم حسن - المرجع السابق ص١٤٥.
(٣) د. حسن إبراهيم حسن - نفس المرجع ص١٤٥.

الدنيا لكى أتألفـهم فيسلمـوا. ووكلتكم إلى إسلامكم؟ الا ترضـون، يا معشـر الأنصار، أن يذهب الناس بالشاة والبـعير وترجـعوا برسول الله إلى رحـالكم؟ فو الذى نفس محـمد بيده، لولا الهـجرة لكنت امرءا من الأنصـار. ولو سلك الناس شعـبًا وسلكت الأنصار شـعبًا لسلكت شـعب الأنصار. اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار!» والواقع أن تفـجر فؤاد الرسول العفوى هذا ليظهر عزوفه عن عرض الحياة الدنيا. وتأثر الأنصار لدن سماعهم كلامه تأثيرا عظيمًا، وفاضت دموع الفرح من عيون كثير منهم، بعد أن أدركوا ان الرسـول نفسه سيكون رفيقهم، وأنهم كانوا بذلك أوفر الناس حظًا[1].

دروس من حـنين والطـائف: الدرس الأول من غزوة حنين: هو أن الكثـرة ليست دائمًا هى سبـب النصر، ويؤكـد ذلك القرآن الكريم بقـوله: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [التوبة]. فللنصر عـوامل كثيرة قـد يكون التفوق العددى أحـدها، ولكنه ليس العامل الوحيـد. ولعل الحروب العربية مع اليهـود فى العصر الحاضر أكبر شـاهد على تأكيد ذلك. فالعرب أكثر من اليـهود بعشرات المرات، ومع ذلك لم يستطيـعوا حتى الآن استرداد الأرض المـغتصبة. هناك عـوامل كثيرة غـير العدد تؤمن التفوق لطرف ما على الآخر يجب الا يفهم من هذا أن العـرب استخدموا طاقاتهم فى حروبهم مع إسرائيل، فالعكس هو الصحيح. والمقصود من هذا الكلام لـفت العرب لاكتشاف مصادر الضعف ومواطن الخلل التى تحـول بيهم وبين النصر. الدرس الثـانى: أهمية العقـيدة فى تحقيق النصـر، فلما انهزم جيش المسلمين فى بداية معركـة حنين لم يثبت مع النبى إلا المسلمون الأولون، راسخو الإيمان بينما كان حديثو العهد بالإسلام أول المنهزمين، وبينهم فرسان شجعان عرفوا بالبأس والثبات. الدرس الثالث: أثر المعنويات البالغ فى تحقيق النصر. فما ان سمع المسلمون صوت العباس يضرب على الوتر الحساس، فيذكر الأنصـار بمواقفهم السابقة حتى اندفعوا نحو مصدر الـصوت ملبين، ومن منعه فرسه أو أخره بعيره عن ذلك تخلى عنه وتقدم راجـلا بسيفه وترسه[2]. الدرس الرابع: أهميـة القيادة التى تعد قدوة المقاتلين. فلو كان على رأس جيش المسلمين قائد غير الرسول ﷺ، وكان من الهاربين، كما فعل قائد قوات المشركين، لكانت نتيجة المعركـة مختلفة تمامًا. الدرس الخامس: عندما يتحصن العدو فى مكان منيع فليس من الضرورى هدر الطاقات الجيش فى حـصاره، طالما هو لا يستطيع التأثير على مجريات الأمور، ولا يؤثر فى المجهود الحربى للأصدقاء. ولهذا تجنب الألمان الذين اكتسحوا أوربا فى الحرب العالمية الثانية الدخـول إلى المدن بدباباتهم السريعة واكتفوا بالالتفات حولهـا ومتابعة تقدمهم. الدرس السادس: أنه مهما كـان الجيش انضباطيا فقد تحدث ثغرات تؤثر فى مـعنوياته، وربما استغلها

---

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص ٢١٨.

(٢) أحمد راتب عرموش - المرجع السابق ص١٤١.

العدو لينفذ من خلالها إلى قلوب عساكره. والقيادة الناجحة تلاحظ معنويات الأفراد التابعين إليها ولا تترك مجالا للتأثير فيها. فلما تأثر الأنصار من توزيع الغنائم بالشكل الذى بدا لهم أنه غير عادل، سارع الرسول إلى تطييب خواطرهم. ومع أنه اعطاهم كلامًا، وأعطى غيرهم مالا، فقد كانوا مسرورين راضين. الدرس السابع: إذا كان بعض الناس يباعون ويشترون، فإن القائد الناجح لا يبخل فى شرائهم، ولكن عليه أن يتنبه إليهم فلا يسمح لهم ببيع أنفسهم بعدما يصبحون فى صفوفه؛ فالذى يباع مرة يباع مرات، وهو رهن إشارة الذى يدفع أكثر. ويمكن ضمان ولائهم بدعوتهم إلى الإسلام وتعزيز قيمه فى عقولهم وقلوبهم. فإذا ما دخل الإيمان قلوبهم تعذر على العدو شراؤهم. كذلك يمكن إغراء أصحاب النفوذ لينتقلوا إلى صفوف الأصدقاء بما لا يخالف العقيدة. ولهذا فقد أغرى الرسول مالك بن عوف النصرى قائد المشركين فى حنين حتى هرب من الطائف. ولم يوافق على ترك صنم ثقيف يومًا واحدًا، عندما جاءه وفدها مفاوضًا[1].

عاد الرسول ﷺ إلى المدينة تاركا بنى ثقيف فى الطائف جزيرة فى بحر من المسلمين، ولم تمض أشهر حتى أدركت ثقيف أنها لا قدرة لها على محاربة العرب الذين دانوا بالإسلام، فأرسلت وفدا يفاوض الرسول ﷺ، ودارت بين الوفد وبين الرسول مفاوضات طلب فيها تنازلات فى العقيدة، منها: أن يسمح لهم بالزنا والربا وغيرهما، ويترك لهم صنمهم «اللات» لمدة ثلاث سنين. وكان الرسول يرفض طلباتهم الواحد تلو الآخر، حتى اقتصروا على مطلب واحد، ظنوه صغيرا ومقبولا وهو: أن يترك لهم «اللات» شهرًا واحدًا، ولكنه أبى أن يتركه يومًا واحدًا، ففى أمور العقيدة لا مساومات ولا تنازلات. عندها أعلنوا إسلامهم وكتب لهم الرسول كتابا، وعين لهم قائدا من أصغرهم سنًا، هو عثمان بن أبى العاص لما رأى فيه من علامات النجابة والحرص على تعلم القرآن والتفقه فى الدين، ولم يمنع صغر سنه من تعيينه، فالعمر لا يدخل فى حساب المزايا إلا عندما تتساوى بقية الصفات فى عدد من الأشخاص المؤهلين. وأرسل معهم أبا سفيان والمغيرة ابن شعبة لهدم «اللات»[2].

فلما بلغوا الطائف أراد المغيرة أن يقدم أبا سفيان فأبى وقال له: «ادخل أنت على قومك»، ولما شرع المغيرة في هدم (اللات) قام أهله «بنو معتب» دونه يحمونه خشية أن يرمى كما رمي عروة بن مسعود، وخرجت نساء ثقيف حسرًا يبكين على صنمهم، على أن أهل الطائف الذين حرصوا على وثنيتهم كل الحرص ودافعوا الرسول ﷺ عنها بهذه الحماسة أصبحوا بعد إسلامهم من أشد العرب حرصا على الإسلام وذودًا عنه حتى في محنة الردة[3]. وقدموا للدولة الإسلامية عددًا من أشهر قادتها ورجال السياسة فيها.

(١) احمد راتب عرموش - المرجع السابق ص١٤٣ .

(٢) مولانا محمد علي -المرجع السابق ص٢٢١.

(٣) د. حسن إبراهيم حسن - المرجع السابق ص١٤٦.

بدأ الرسول ببعث السرايا إلى مختلف الجهات فى الجزيرة التى دانت له فى معظمها، وكانت مهمات هذه السرايا مختلفة عما سبقها. فقد أرسل الوليد بن عقبة إلى بنى المصطلق لجمع الصدقات وأرسل قطبة بن عامر فى صفر سنة ٩ هـ إلى بنى خثعم بناحية تبالة واد كبير ذو قرى ومياه ونخل يقع جنوب شرق الطائف. فى عملية إغارة ليلية. وبعث الضحاك بن سفيان الكلابى فى سرية إلى بعض بنى بكر اسمهم «القرطاء»، وعلقمة بن مجزر المدلجى فى ربيع الثانى سنة ٩هـ إلى جهة نحو الساحل، لأخبار سمعها عن رؤية أحباش فى مراكب فى البحر.

وبعث رسول الله محمد ﷺ سرية علي بن أبي طالب إلى «الفُلس» وهو صنم «طيء» يهدمه وكان ذلك في شهر ربيع سنة تسع إذ بعثه في خمسين ومائة رجل من الأنصار على مائة بعير وخمسين فرسا ومعه راية سوداء ولواء أبيض فشنوا المسلمون الغارة على محلة آل حاتم مع الفجر فهدموا «الفُلس» وخربوه وملأوا أيديهم من السبى والنعم والشاء وهرب عدي إلى الشام(1).

غزوة تبوك: أثار انبثاق الإسلام فى بلاد العرب قلق الدولة المسيحية المجاورة. لقد راقبت، بعين حسود، هذا النمو السريع الذى عرفه الإسلام. والواقع أن عواطف المسلمين كانت دائما مع اليهود والمسيحيين بوصفهم أعداء الوثنيين وعباد النار. فحسب اكتسحت جيوش الفرس الأجزاء الآسيوية من الإمبراطورية الرومانية وقرعت أبواب القسطنطينية ولاحت النهاية المشؤومة لكل عين، تنبأ القرآن الكريم بأن الامبراطورية الرومانية سوف تهزم فارس قبل انقضاء تسعة أعوام: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ الرُّومُ ۝٢ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝٥ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦﴾ [الروم] وهكذا عندما انتصر المسلمون فى بدر وفقت الإمبراطورية الرومانية إلى استرداد أراضيها المفقودة، واندفعت قواتها حتى بلغت تخوم فارس نفسها. ولكن الامبراطورية الرومانية لم تستطع أن تغضى عن تعاظم قوة الإسلام أو ترضى به. وكانت مناوشة قد حدثت ذات مرة، فى مؤتة، بين المسلمين والبيزنطيين. حتى إذا تسامعت ديار الشام، الآن، بأن بلاد العرب كلها أنشأت تنضوى تحت لواء الإسلام، تطرق الحسد الدينى إلى نفوس المسيحيين. كان الأمل قد راودهم فى أن يوفقوا إلى تنصير بلاد العرب. ولقد خيل لهم أن هجومًا يشنونه على الجزيرة خليق به على الأقل أن يعوق انتشار الإسلام. وبلغ المسلمين أن قيصر قد عبأ قوة ضخمة لسحق الإسلام، وأن القبائل المسيحية فى بلاد العرب قد تضافرت معه. وكانت قبائل غسان، بخاصة، مصدر خطر على أمن الجزيرة العربية. فلم يكد النبى يتلقى ذلك النبأ حتى أمر بإعداد جيش يزحف إلى تخوم الشام. إن القرآن الكريم يوصى بتحصين الحدود، كاحتراز من غزو مفاجئ والرسول، لم يدخر، من

(1) د. السيد الحميلي - المرجع السابق.

ناحية روحية، وسعًا لحماية قومه من جـميع هجمات الشيطان المحتملة. وهكذا لم يكن فى مستطاعة أن يستخف بالأنباء المتوالية عن استعدادات قيصر الضخمة لإبادة الإسلام[1].

لما رأى هرقل ملك الروم أن المسلمين أخـضعوا جزيـرة العرب كلها تقريبـا لسـيطرتهم، أدرك الخطر القادم من الجنوب الذى يهدد بلاده بالاجتياح وملكه بالزوال، وبخاصة أن الإسلام دعوة للناس كافة، وسيعمل المسلمون على تأمين حرية انتـشاره، وهو دعوة تستهوى سكان تلك البلاد الذين كانوا يعانـون من الظلم والاضطهاد وينوؤون تحت ثقل الضـرائب المفروضـة عليهم. وقـد دخل فى الدين الجديد عدد من القبائل المتاخمة لبلاد الشام، والتى كانت تخضع لنفوذ الروم وتساعدهم، فقرر هرقل التحرك للقضاء على الخطر قبل استفحاله، فدفع لجماعته أعطيات عام كامل، وحشد أعدادًا هائلة من المقاتلين فى بلاد الشام ومعهم قبائل لخم وجذام وعاملة وغـسان لغزو حدود العرب الشمالية والقضاء على سيـادة الإسلام هناك، أمـا الأسباب التي دعت رسـول الله محمـد ﷺ إلى غزوة «تبـوك» فهى حماية حرية نشر الإسـلام خارج حدود الجزيرة العربية بعد أن انتشر داخلهـا وتقوية معنويات القبائل العربية الخاضعة لاستعمار واحتلال الروم ومحو أثر الانسحاب للمسلمين من «مؤتة» من النفوس[2].

بلغ الرسول ﷺ نبأ تلك الحشـود فقرر المبادأة بالهجوم وأمر أصحابه بالـتهيؤ لغزو الروم، فى عسرة من الناس وشدة من الحر، وأعلم الناس بنيته ووجهتـه لبعد المسافة وكثرة العدو، وليعلم الجيش ما سيواجهـه من مصاعب فيحتاط لها، وطلب من صحـابته التبرع لتجهيز الجيش، فتـبرعوا بسخاء. وبعد استكمال الاستعدادات تحرك الجيش نحو الشمال فى رجب سنة تسع للهجرة وكان تعداده ثلاثين ألف مقاتل معهم عشرة آلاف فرس ولما وصل الجـيش إلى تبوك وجد الروم قد تفرقوا. فهم لما علموا بقوة جيش المسلمين وصـلابة عود مقاتليه وارتفاع معنوياتهم قرروا عـدم الاصطدام به، فأقام الرسول فى تبوك عشرين يومـا، وأتاه فيها يحنة بن رؤية صاحب أيلة هى «العقـبة» الميناء الأردنى على البحر الأحمر حاليًـا فصالحه رسول الله على الجزية. وأتاه كذلك أهل جـرباء وأذرح فأعطوه الجزية، وكتب لهم كتابًا. ثم دعـا الرسول ﷺ خالد بن الوليد فبـعثه إلى أكيدر بن عـبدالمطلب ملك دومة الجندل، وكان مسيحـيا من قبيلة كندة، فأسره خالد وجاء به إلى رسـول الله ﷺ فصالحه على أن يدفع الجزية وخلى سبيله وبعدما أمضى الرسول فى تبوك عشـرين ليلة، عقد فى خلالها معاهدات صلح مع أمراء تلك المنطقة، واظهر لهم قوة جيش المسلمين، عاد إلى المدينة فوصلها مظفرا فى رمضان سنة ٩هـ[3].

نتـائج غـزوة تبـوك: منع الروم من تحقـيق أهدافهم المتمثلة فى ضـرب الدين الإسلامى ومنع انتشـاره. وهذا وحده يعد نصرًا كـبيرًا. إظهـار قوة المسلمين للروم وزرع الخـوف فى قلوب الأعراب

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص٢٢٣ .

(٢) محمد محمد البيلي يونس - المرجع السابق ص١٧٩.

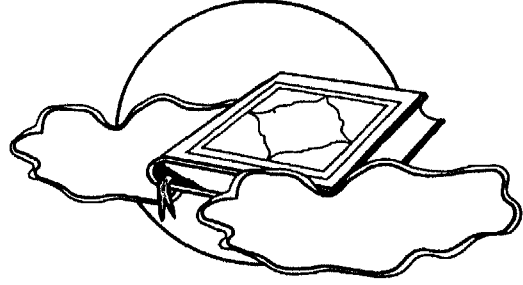
(٣) احمد راتب عرموش - المرجع السابق ص١٤٧.

الذين كـانوا لا يزالون على شركـهم، فهـو قد رأوا بعـيونهم القـوة العظمى فى ذلك الوقت (الروم) تخـاف المسلمين وتتـحاشى لقـاءهم. رفع معنـويات المسلمين الذين كـانوا يتحـاشون حـرب الروم ويخافونهم حتى أن بعـضهم تخلف عن المشاركة فى تلك الغزوة. حسمت حـركة المسلمين إلى تبوك تردد القبائل العربيـة التى كانت تتأرجح بين تأييد الروم والدخول فى الإسلام، فأخـذت وفود القبائل تؤم المدينة خاضعة مـذعنة معلنة إسلامها وتأييدها. أدت تلك الغزوة إلى إقامـة تماس مباشر مع الروم وتنظيم «نقاط ارتكاز» سيكون لها دور فى الفتح الإسلامى لبلاد الشام فيما بعد[1].

---

(١) احمد راتب عرموش - المرجع السابق ص١٤٨ .

الفصل الثامن



رسول الله محمد ﷺ القائد الأعلى للقوات الإسلامية

رسول الله محمد ﷺ القائد الأعلى للقوات الإسلامية

بعدما درسنا نماذج مختلفة من أعمال الرسول ومعاركه «غزواته وسراياه»، وتبين لنا أنه كان ـ بجانب أنه نبي الله ـ زعيما شعبيا محبوبا، وقائدا عسكريا متميزا، وسياسيا بارعا، لم تعرف البشرية له مثيلا، تجلي ذلك في أثره بأتباعه، وحبهم له، واحترامهم لشخصه، وطريقة معالجته للأمور، ومعاملته للأصدقاء والأعداء على السواء وحيث أنه لا يمكن الفصل الدقيق بين أعماله بصفته القائد العسكري، وبين أعماله بصفته الرئيس السياسي، وبخاصة أنه أمضي جزءا كبيرا من حياته في قتال فعلى مع أعدائه، أو في التحضير لقتالهم. وبما أن الجمع بين المهام العسكرية والمهام السياسية ضرورة تلجأ إليها الدول المعاصرة في حالات الطواريء والحروب. ولذلك كله لا نستطيع الفصل بين أعماله وقراراته بصفته القائد العسكري وبينها بصفة الرئيس السياسي. ومع ذلك سنحاول التركيز على الجانب القيادي العسكري في حياة رسول الله ﷺ. ومما لا شك فيه أن خصائص القيادة الأصلية صفات فطرية موهوبة تخلق مع الإنسان تجارب الحياة ودروسها تصقل هذه المواهب وتثريها. تتداخل في تكوين شخصية القائد، صفاته الإنسانية التي وهبه الله إياها، وخلقه عليها، والظروف المحيطة به، والتحديات التي يواجهها، وميزات الشعب الذي يقوده. نجد سيرة رسول الله محمد ﷺ أنه، عندما كلف بحمل رسالة الله إلى أهل الأرض، بدأ بدعوة أقرب المقربين إليه للإيمان بالله الواحد الأحد، والدخول في دين الله. وفي الواقع العملي بدأ بتنظيم حزب سري مبدؤه الإسلام يقول الله عز وجل في سورة المائدة/ ٥٦ ﴿وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المائدة] والمقصود بحزب الله «المؤمنون» في مواجهة «الكافرين» وعندما انكشفت أمر هذا الحزب لم ينكره بل دعا عشيرته إلى الدخول فيه، وانتقل من مرحلة الدعوة السرية إلى مرحلة الدعوة العلنية، مع المحافظة على سرية التنظيم. وكعادة القوى الغاشمة في كل زمان ومكان، وبدأت السلطة المتمثلة بقريش حربا لا هوادة فيها ضد الفكرة الجديدة التي تدعو إلى التوحيد والعدالة والمساواة بين الناس(١).

ولما رأى الرسول ضعف قاعدته في مكة، وتبين له استحالة تحويل القوي المتسلطة عليها إلى جانبه، بدأ يتطلع إلى مكان يستطيع أن يتخذه قاعدة قوية وأمينة. وعندما دخل بعض أهل المدينة في الإسلام، وجد فيهم أملا لم يجده في قريش، فتطلع إلى المدينة لتكون قاعدته المنتظرة. وبدأ يرسل أصحابه إليها، حتى أذن الله له بالهجرة من مكة إلى المدينة بعد ثلاثة عشر عاما من الدعوة، والأمل

(١) احمد راتب عرموش - نفس المرجع ص١٥١.

يحدوه بالعودة فاتحا. لم يكن الإسلام دين قتال ولم يكن رسول الله محمد ﷺ رجلا مقاتلا يطلب الحرب للحرب أو يطلبها وله مندوحة عنها ولكنه مع هذا كان نعم القائد العسكري البصير إذا وجبت الحرب ودعته إليها المصلحة العليا اللازمة، يعلم من فنونها بالإلهام ما لم يعلمه غيره بالدرس والمرانة ويصيب في اختيار وقته وتسيير جيشه وترسيم خططه إصابة التوفيق وإصابة الحساب وإصابة الاستشارة، وقد يكون الأخذ بالمشورة الصالحة آية من آيات حسن القيادة تقترن بآية الابتكار والإنشاء لأن القيادة الحسنة هي القيادة التي تستفيد من خبرة الخبير كما تستفيد من شجاعة الشجاع. وهي التي تجند كل ما بين يديها من قوى الآراء والقلوب والأجسام[1] وهكذا كان القائد العسكري للقوات الإسلامية رسول الله محمد ﷺ. فور وصوله إلى المدينة بدأ بوضع أسس دولة جديدة تقوم على مبادىء العقيدة الإسلامية، وليس على القيم والأعراف القبلية التي كانت سائدة في ذلك لعصر. أي نقل الناس من الولاء للعشيرة والقبيلة إلى الولاء للأمة الواحدة.

نظم الرسول ﷺ العلاقات الاجتماعية بين عناصر المجتمع الجديدة المؤلف من مسلمين ويهود، في معاهدة عرفت في كتب السيرة باسم «الصحيفة»، لينتقل بعدها إلى مرحلة «الكفاح المسلح» ضد القوى التي حاربته ومنعته من نشر دعوته في مكة، والأخرى التي ما زالت تتربص به في المدينة لتنقض عليه إن هو لم يقض عليها، أو على الأقل، يحول بينها وبين أية إمكانية لديها للعمل ضده. ولكي يضمن النصر على هذه القوى كان لابد من توافر ثلاثة شروط ضرورية لكل نصر:

قيادة ممتازة: وهذا ما كان متوفرا في الرسول الكريم ﷺ. جنود ممتازون: وهذا ما استطاع الرسول القائد أن يعده من خلال تربيته لاتباعه. قضية عادلة: ولا أعتقد أن أحدا يخالف القول أن الدعوة الإسلامية هي أعدل دعوة عرفتها البشرية وأن جهاد المسلمين الأوائل، بشكل خاص، كان من أكثر الحروب عدلا ومشروعية. ومع أن طبيعة حياة البدوي تجعل منه مقاتلا ممتازا، فإن الرسول ﷺ اهتم بالإعداد العسكري من جميع النواحي، ابتداء بالتدريب وانتهاء بالتسلح لما كانت إمكانيات المسلمين غير كافية لإنشاء جيش محترف كما كان الحال عند الرومان والفرس، ولم تكن لديهم أموال اليهود ولا مقدرة قريش على تجهيز جيش قوي، فقد اتبع الرسول أسلوبا يجعل الأمة كلها محاربة تحت السلاح في أي وقت. إنه أسلوب سبق «الحروب الشعبية» بأوسع معانيها في العصر الحاضر مع فارق كبير هو«هدف الحرب». حتى إذا ما شعر بأنه أصبح بإمكانه التعرض للعدو المتمثل في قريش انقل إلى «مرحلة الصراع المسلح» فأرسل السرايا «٣٨ سرية»، وقاد الغزوات «٢٧ غزوة قادها بنفسه» «كان عدد مغازي رسول الله ﷺ التي غزاها بنفسه سبعا وعشرون غزوة، كانت سراياه التي بعث بها سبعا وأربعين سرية، وكان ما قاتل فيه من المغازي تسع: بدر، وأحد، وخيبر، والخندق، وقريظة،

---

(١) عباس محمود العقاد - المرجع السابق ص٣٥.

وفـتح مكة، والمصطلق، وحنين، والطائف، وفـتح مكة، ووحـد الجـزيرة، حارب الرومـان، وأنذر الفرس[١].

ولما مات رسول الله محمـد ﷺ كان جيش المسلمين يتأهب للتوجه إلى الجبـهة الشمالية، إلى أرض فلسطين، التي تضم قبلة المسلمين الأولى. وبذلك فقد حـقق الرسول ﷺ في مدة وجيزة ما لم يحققه أي قـائد عسكري، أو زعيم سياسي في مخـتلف العصور والأمصار. وفيـما يلي سنحاول أن نستعرض صفاته القيـادية، ثم نستعرض مدى تطبيقه لمباديء الحرب بمفهـومها الحديث. يمكن اختصار صفـات القيـادة المختارة بما يلـي: ١ ـ القدرة على اتخاذ الـقرار الصحـيح في الوقت المناسب. ٢ ـ الشجاعة الشخصية. ٣ ـ الإرادة القوية الثابتة. ٤ ـ تحمل المسؤولية بلا تردد. ٥ ـ معرفة مباديء الحرب والخبرة بأصولها. ٦ ـ نفسية مستقرة ثابتة لا تتبدل في حالتي النصـر والهزيمة. ٧ ـ بعد النظر وصحة التوقـعات. ٨ ـ معرفـة نفسية الجنود وإمكاناتهم، وخـبرة تامة بالرجـال. ٩ ـ الثقة المتبـادلة بين القائد وجنوده. ١٠ ـ المحبة المتبادلة بين القـائد وعساكره. ١١ ـ شخصية قوية مهـابة. ١٢ ـ اللياقة البدنية. ١٣ ـ ماض ناصع مجيد. هذه هي صفات القائد الممتـاز، وسنحاول فيما يلي تبيان مدي تمتع الرسول ﷺ بهذه الصفات[٢].

١ ـ القـدرة على اتخاذ القـرار الصحـيح في الوقت المناسب: يستـطيع القائد أن يصـدر قرارا صحـيحا في الوقت المنـاسب إذا توافرت له المعلومات الكافـية، الصـحيحـة والدقيقـة، عن العدو، والصديق والأرض، وكـان حوله أركـان حرب «مسـتشـارون» أكفاء، وكـانت لديه الملكات الفـعلية الراجحة، والمحاكمة السريعة. أما الحصول على المعلومات: فقد كان من أوائل اهتمامات الرسول ﷺ أن بدأ، بعدمـا أنهى تنظيم المجـتمع الجديد فـي المدينة، بإرسال السـرايا، أي الدورات الاستطلاعـية والقتاليـة، بالغة المعاصرة، لأغراض الحصـول على المعلومات عن المنطقة التي تحيط بالمدينة، ومـعرفة الطرق والمسالك التي تؤدي إلى مكة، والتعرف إلى سكان تلك المناطق، وإنشاء علاقات ودية معهم، أو فرض هيـبة المسلمين عليهم. ولذلك فـقد أرسل سرية من ثـلاثين فارسا، بقيـادة حمزة بن عـبد المطلب هدفها الوصول إلى العيص لتهديد طريق قريش التجاري بين مكة وبلاد الشام. ثم أرسل سرية من ستين فارسا بقيـادة عبيد بن الحارث بمهمة الوصول إلى وادي رابغ للغـاية ذاتها. كما أرسل دورية استطلاعية بقيادة سعد بن أبي وقاص. وقـام على رأس قوة من مائتي فارس وراجل فيما عرف بغزوة «ودان» وفي هذه الغزوة وقع «معـاهدة عدم اعتداء» مع قبائل «بني ضـمرة» وتلت ذلك «غزوة بواط» و«غزوة العشـيرة»، و«غزوة بدرالأولى»، حتى كـانت سرية عبد الله بن جحـش في شهر رجب من

(١) احمد راتب عرموش - المرجع السابق ص١٥٤.

(٢) احمد راتب عرموش - المرجع السابق ص١٥٥ .

السنة الثانية للـهجرة قبل غزوة بدر. وقد أعـطى الرسول ﷺ الأوامر لهذه السرية في رسـالة مغلقة، وسلمها لقائد السرية وأمره بالسير إلى جهـة حددها له وطلب منه أن يفتح الرسالة بعد مسيرة يومين. وإذا ما فتح الرسالة وعرف المهمة مضى لتنفيذها غير مستكره أحدا من رجاله على مرافقته[1].

وكان نص أمـر المهمة «إذا نظرت في كـتابي هذا فامض حـتى تنزل نخلة فتـرصد بها قـريشا وتعلم لنا من أخبارهـم». ومن نافلة القول أن المهمة كانت استطلاعية وإن كتمان المهمة بلغ الذروة في السرية، ولا يختلف عن أحدث الأساليب العسكرية السائدة في العصر الحاضر كل هذه السرايا كانت قبل غـزوة بدر التي وقعت في ١٧ رمضـان سنة ٢هـ، أي بعد حـوالي تسعة عـشر شهـرا من هجرة الرسول ﷺ، وقد حقـقت الغاية المرجوة منها، فتعرف المسلمـون على الأرض الجديدة المحيطة بهم، وأصـبحـوا على علم تام بتـحركـات قريش. وهـكذا علم الرسول ﷺ في السـنة الثانيـة من دورية استطلاعية أن أبا سفيان الأموي قـادم على رأس قافلة قريش التجارية وهو في طريق عودته من دمشق إلى مكة. ولما قرر الخـروج لملاقاة القافلة أرسل دورية اسـتطلاعية أمام قـواته. وعند وصوله إلى بدر ارسل العيون« الجواسيس» يجلبون له الأخبار وقام باستطلاع شخصي ليتأكد من موقع قريش وقوتها. وعندما أسرت إحدى الدوريات غلامين أشرف بنفسه على استجـوابهما، واستطاع بحسن محاكمته أن يستنتج عدد قوات قريش ومكانهـا، فقد كان رسول الله محمد ﷺ عليما بمزايا بعـثة الاستطلاع معنيا بها غاية العناية يحسب العدو المجهول كالعدو المستتر بأسوار الحصون في حمى من الجهل به قد يحول دون الاستعداد له بالعدة الضرورية ويحول من ثم دون الانتصار عليه[2].

وأما الشوري، التي تعد مبـدأ أساسيا من مبادىء النظام الإسلامي فقد كـان الرسول يعتمدها في الأمور الدنيـوية، وكان يغرس في نفـوس أصحابه حب المشـاورة ويثني على من يعطي منهم رأيا سديدا ويشجـعه. ويعلمهم الفصل بين أمور الـدين الموحي بها والمعصوم عن الخطأ فيـها، وبين أمور الدنيا التي يخطيء ويصيب فيها كل الناس، وهو منهم. لذلك نـرى الحباب بن المنذر عندما لم يعجبه المكان الذي نزلته قوات المسلمين في بدر سأل الرسول ﷺ: «أمنزلا انزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه، أم هو الراي والحـرب والمكيدة؟». فلما أجابه الرسـول بأنه الرأي والحرب والمكيدة، بادر إلى إعطاء وجهة نظرة في المكان، فبين سلبياته ومسـاوئه وأراه مكانا أكثر ملاءمة منه، أمام الماء بحيث يشرب المسلمون ويمنعون الماء عن المشركين. وأصـغى الرسول ﷺ باهتمام إلى رأي الحباب، ولما تبين له صوابه سارع إلى الأخذ به وغـير مكان قواته. لم يجد غضاضة في ذلك، وهذه صـفة من صفات القائد المتميز ولكن شتـان بين قائد يستمع للأقوال فيدرك أفضلَها ويأخذ به، وبين قـائد يستشير أركانه

---

(١) احمد راتب عرموش - نفس المرجع ص١٥٦.

(٢) محمد محمد البيلي يونس - المرجع السابق ص١٨٧.

ثم يتشبث برأيه، ولـو كان على خطأ، أو لا يستطيع التمييـز بين الخطأ والصواب فيـأخذ بأسوا الآراء لذلك نرى الرسول لم يأخـذ برأي أصحابه يوم اتفـاق الحديبيـة، لأن الأخذ برأيه يخرجـه عن الهدف الذي خرج من أجله. لقد كان أيهم خطأ ورأيه صوابا، فأصر على رأيه، وقـد تبين لصحابته فيما بعد خطأ رأيهم وصواب رأيه. ومن الطبيـعي في الحالات المماثلة وبعد ظهور النتائج وتأكـد صوابية القرار الذي اتخذه القائد، أن تزداد ثقـة الأفراد بقائدهم ويمنحوه ما يسـتحقه من تقدير وحب واحـترام. وما ذكرناه عن مـعركـة بدر هو مثل توسـعنا به قليلا، ولكن هكذا كـان اهتمـام الرسول بالحـصول على المعلومات في كل أعماله العـسكرية. وبذلك كان دائما على معرفة تامـة بنوايا قريش، وبما تحوك يهود من مؤمـرات، واستطاع نتـيجـة تلك المعرفة أن يحـبط خططهم ويرد كيـدهم وينتصـر، باستـمرار، عليهم[1].

٢ـ الشجاعة الشخصية: جميع المسلمين والمطلعين على التاريخ الإسلامي يعرفون شجاعة الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، فهو الذي نام في فـراش الرسول في مكة، عندما تركه مهاجرا إلى المدينة. وصاحب المواقف التي يضرب المثل فيها بالجرأة والشـجاعة الشخصية، على هذا رضي الله عنه يقول: «إنا كنا إذا اشتد الخطب واحـمرت الحدق، اتقينا برسول الله، فمـا يكون أحد أقرب إلى العدو منه، ولقد رأيتني يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله، وهو أقربنا إلى العدو». لقد كان الرسول ﷺ بقواته وهي ثلاثمائه وأربعـة عشر مـقاتلا يوم بدر في معركـة غير متكافئة مع قوات قـريش التي تبلغ ثلاثة أضعاف قـواته، وقاتل بنفسه حتى انتصـر، وكان، بشهادة الإمام علي بن أبي طالب كـرم الله وجهه، أقرب المحـاربين إلى العدو. وفي غـزوة أحد، ترك الرماة الذين وضـعهم على رأس الجـبل أماكنهم، واستطاعت مـفرزة من المشركين بقيـادة خالد بن الوليد اغتنام الفـرصة ومفاجـاة المسلمين من خلفهم؛ فاختل توازن جيـش المسلمين وكانت هزيمته مؤكدة، وبعدمـا سقط عدد كبير من القتـلى في صفوفه. ولكن الرسول ثبت في مكانه وأخذ ينادي أصـحابه، فتجمع حوله عـدد منهم، استطاع بهم أن يكسر حدة هجـوم المشركين وينسحب بمن بقي من قـواته نحو الشعب في الجـبل. ولم يكتف بذلك فبعـدما التقط الناجون أنفاسهم قام بمطاردة جيش المشركين إلى موضع يقال له «حمراء الأسد» على الطريق بين مكة والمدينة. وفي معركة حنين، بعد فتح مكة، انهزم جيش المسلمين في بادئ الأمر أمام قبائل هوازن وثقيف، فثبت الرسول مع بعض أصحابه، واستطاع أن يحول الهزيمة إلى نصر. هذه بعض الأمثلة عن شجاعة الرسول الشخصية، غنية عن التعليق[2].

فقـد كان خلق النبي ﷺ القـرآن وكان تعاليم الإسـلام تمشي على الأرض بشراً سـويا لا يأمر بشيء إلا طبقه على نفسه أقوى مايكون التطبـيق ولا ينهى عن شيء إلا ابتعد عنه أشد مايكون الابتعاد

---

(١) أحمد راتب عرموش - نفس المرجع ص١٦١.

(٢) أحمد راتب عرموش - نفس المرجع ص١٦٢.

وكان مثالا عاليا للشجاعة والإقدام وكان كالقمة العالية في عمله ومعاملته لأصحابه وكلهم قمم عالية وكان يؤثر رجاله بالخير والأمن ويستأثر دونهم بالخطر والمشقة وكان مثالا شخصيا لأصحابه في كل عمل يبتغي به وجه الله والدار الآخرة[1].

٣ ـ الإرادة القوية: إن أفضل ما يبرز إرادة رسول الله محمد ﷺ القوية، هو موقفه يوم جاء المشركون إلى عمه «أبي طالب» يهددونه ويتوعدونه ويغرونه لكي يقلع عن دعوته. فقال له عمه: «يا ابن أخي، إن قومك قد جاؤوني فقالوا كذا كذا، فأبق على وعلى نفسك ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق» فأجابه الرسول ﷺ: «يا عم، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهللك فيه، ما تركته». فإذا عرفنا أن هذه الحادثة جرت في أول العهد بالدعوة، وأنه لم يكن مع الرسول إلا رجال قلائل يعدون على الأصابع أدركنا قوة إرادته، وشجاعته، وتصميمه على بلوغ هدفه. لقد بقي ثلاثة عشر عاما في مكة يكافح ويجاهد، ويدعو فيصد، فتحمل كل أنواع الاضطهاد والتكذيب والأذى، ولم تلن له قناة ولم تهن له عزيمة. ولما اضطر للهجرة واجه اليهود والمنافقين في المدينة فصبر حتى ظفر.

٤ ـ تحمل المسؤولية بلا تردد: من أهم صفات القائد أن يتحمل المسؤولية بلا تردد، فيأخذ على عاتقه تبعة أعمال يقتنع بها، كما فعل الرسول يوم اتفاق الحديبية. ويتحمل النتائج حسنة كانت أم سيئة. وقد كان في موقف الرسول يوم غزوة أحد مثالا رائعا على تحمل المسؤولية. فقد استشار أصحابه لاختيار مكان المعركة، وكان يفضل أن تكون المعركة في داخل المدينة وشاركه رأيه معظم كبار الصحبة من المهاجرين والأنصار. ففي القتال في داخل المدينة ميزات لخصها الرسول ﷺ بقوله: «امكثو في المدينة، واجعلوا النساء والذراري في الأطم، فإن دخلوا علينا قاتلناهم في الأزقة، فنحن أعلم بها منهم، وارموا من فوق الصياصي والآطام». ولأن الكثرة الكاثرة من الفتيان والشبان المتحمسين للقتال، وبخاصة ممن لم يشهد بدرا منهم رغب في الخروج لملاقاة العدو، حتى لا يظن العدو أنهم كرهوا الخروج جبنا وتخاذلا. وأيدهم في رأيهم حمزة ابن عبد المطلب، فنزل الرسول ﷺ على رأي هذا الفريق المتحمس، وبخاصة أنما هم عصب الجيش وقوته، وقرر الخروج لملاقاة المشركين خارج المدينة. ولما شعر أنصار هذه الفكرة بأنهم أخطأوا بإصرارهم على موقفهم عادوا إلى الرسول يعتذرون، ولكن الرسول قال لهم: «ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل». وكانت نتيجة المعركة محزنة، استشهد فيها من المسلمين واحد وسبعون رجلا، بينهم حمزة بين عبد المطلب، عم الرسول. ومع ذلك لم نسمع في كتب السيرة كلها أن الرسول ذكر الخطأ في الخروج لملاقاة

(١) محمود شيت الخطاب - المرجع السابق ص٥٨٢.

المشـركين، أو أنه ألقى باللوم على الذين أصـروا على الخـروج من المدينة. فـهو القـائد، وهو الذي يتحمل نتائج القرار[1].

٥ ـ معرفة مباديء الحرب والخبرة بأصولها: القادة الأقدمون لم يتخرجوا من مدارس عسكرية أو كليات حـربية، ولكنها الفطرة ثـم الخبرة كمـا ذكرنا سابقـا. وما اصطلح على تسمـيته «مـباديء الحرب» إنما استـخلصها المنظرون العسكريون من دراسة تاريخ كـبار القادة والمعارك الحاسـمة وتحليلها واستخلاص أسباب النصر أو الهزيمة في كل معركة.

٦ ـ نفسـية مسـتقـرة ثابتـة لا تتبـدل في حـالتي النصر والهـزيمة: من المعروف الـشائع أن أي اضطراب في النفس يفقـد الإنسان المقدرة على اتخـاذ القرار الصحـيح. وفي المعارك يتعـرض القائد لمواقف تهز كـيان الإنسان كله، أقلها مـقتل قائد مـهم أو صديق عزيز أو قريب حـميم، ناهيك عن الهزيمة والنصـر، وكلها تهـز الكيان حتى أن نشـوة النصر قـد تكون مؤثرة لدرجة تقـلب النصر إلى هزيمة، كما حـدث في معركة أحد، فـقد انتصر المسلمون، ولم يسـتطع الرماة ضبط أنفسـهم فـتركوا أمـاكنهم، واندفـعوا وراء الغنائـم، فاغـتنم خـالد بن الوليـد تلك اللحظة، والتف من وراء جـيش المسلمين. إن السيطرة عـلى الأعصاب في اللحظات الحـرجة والمواقف الحاسمـة أمر لا يستطيـعه كل انسـان. واضطراب النفس يفـقد العـقل توازنه وقـدرته على المحـاكمـة السليـمـة واتخاذ القـرارات الصحيحة. أما رسول الله محمد بن عبد الله ﷺ فـقد كان مثالا مدهشا في هذه الناحية. لقد سيطر على أعصابه يوم أحد فحال دون إبادة جيش المسلمين الفـتي، وجعل الأعداء ينسحبون بنصر توهموه نصرا. وسيطر على أعصابه يوم حنين فقلب الهزيمة في أول المعركة إلى نصر في آخرها. وسيطر على أعصـابه في غزوة الأحزاب، عندما حـاصر المدينة عشـرة آلاف مقاتل من مـشركي القبائل المخـتلفة فاستطاع بهدوئه، ورباطة جـأشه، منعهم من تحقيق أي هدف، صغيرا كان أو كـبيرا. والـسيطرة على النفس في حـالات النصر ولجم الانفعـالات على أنواعهـا قد يكون أصـعب من الـسيطرة عليـها في حالات الهزيمة. فكم من قائد غروره بانتصارات وهمية. وأمـا رسول الله محمد بن عبد الله ﷺ فقد فتح مكة، وليس أقدر منه على تقدير أهميـة ذلك النصر، ومع ذلك فقد رآه الناس يدخل مكة حاني الرأس خشوعا للـه وتواضعا لعباده، ولـم يغره نصـر ولم يدفعه انفعال لانتقام، ولـم يعرف حقد إلى نفسه سبيلا[2].

٧ ـ بعد النظر وصـحة التوقـعات: عندما انكفأت الأجزاء عن المـدينة بعد غزوة الخندق. قال الرسول للمـسلمين: «لن تغزوكم قـريش بعد عـامكم هذا، ولكنكم تغزونهم». لـقد لخص في هذه

(١) احمد راتب عرموش – المرجع السبق ص١٦٣.
(٢) احمد راتب عرموش – نفس المرجع ص١٦٥.

الجملة، بما أوتي من بعد نظر وحسن تقدير، الموقف العسكري للأعوام القادمة. وصحت توقعاته، فقد أدركت القبائل صعوبة انتصار قريش، وشكت قريش في إمكانية جمع القبائل مرة أخرى وضمان ولائها. وانقلب ميزان القوي بشكل واضح. وفي أواخر السنة السادسة للهجرة خرج الرسول إلى مكة معتمرا وخرج معه الف وأربعمائة من المسلمين، وساق الهدي وأعلن أنه لا ينوي حربا، إنما خرج زائرا للبيت ومعظما. ولكن قريشا استنفرت قواتها، لتحول بينه وبين قيام المسلمين بعمرتهم. ودارت المفاوضات ودارت المفاوضات، ومال معظم المسلمين إلى قتال قريش، ولكن الرسول بقي ثابتا على هدفه وقبل بشروط الاتفاق الذي عرف بـ« صلح الحديبية»، وكان ظاهر شروط الصلح مجحفا بحق المسلمين وقد آلم المسلمين موافقة الرسول على هذه الشروط التي ظنوها مذلة لهم لعدم التوازن والتساوي في ظاهر النصوص، ولكن الذي حصل فيما بعد أنه تبين للمسلمين وللناس أجمعين فوائد هذه المعاهدة وما خفي فيها على عامة الناس من الطرفين. وهذا هو الفارق بين القادة الملهمين الذين يقرأون المستقبل وبين العاديين. لقد تجمع الفارون من قريش وشكلوا عصابة تقطع الطريق على قوافل قريش، ولم تستطيع قريش منعهم ولا الطلب من محمد أن يمنعهم لأنهم ليسوا في عقده، فهم خارجون على القانون، مما اضطر قريشا أن ترجو رسول الله محمد ﷺ لكي يقبلهم ويكفيها شرهم. وبهذا ألغت قريش بنفسها البند الذي آلم المسلمين. أما الذين يفرون من المسلمين فهم لا خير فيهم أصلا، فليذهبوا إلى قريش فذلك أفضل من أن يبقوا «طابورا خامسا» مخرب يضاف إلى المنافقين الموجودين في المدينة. وقد أفسحت الهدنه في المجال أمام السلمين، ليبشروا بدعوتهم، ويتفرغوا لها، فزاد عددهم حتى أصبح جيشهم في سنتين، من يوم الحديبية إلى يوم فتح مكة، عشرة آلاف مقاتل. ومع أن القوي يستطيع إيجاد الذرائع لـلتخلص من معاهدات وقعها في ظروف معينة ولا يرغب بالمحافظة عليها، فإن الرسول ﷺ حافظ على الالتزام بهدنة الحديبية. ولكن إذا كان العدو غبيا مغرورا فإنه ينقض معاهدات من تلقاء نفسه على أمل النصر وتحقيق وضع أفضل. وستكون النتيجة خسارته وانتقاله إلى وضع أسوأ مما كان عليه. وهكذا فقد نقض الهدنة حلفاء قريش، فأعطوا بذلك المبرر للرسول ﷺ لفتح مكة بعد سنتين فقط من اتفاق الحديبية[1].

٨ ـ معرفة نفسيات الجنود وإمكاناتهم: كما أن من لا يعيش مع جنوده ليس مؤهلا لمعرفة نفسياتهم، فكذلك ليس كل من يعيش مع جنوده مؤهلا لهذه المعرفة الواعية، وكثيرا ما يخفي الناس أهواءهم وميولهم، وكثيرا ما يظهرون على خلاف حقيقتهم. أما رسول الله محمد ﷺ فقد ولد بين جنوده، وعاش معهم، ودرس نفسياتهم وعرف إمكاناتهم فكان يختار الرجل المناسب للمهمة المناسبة. لم يكلف حسان بن ثابت بقيادة أو حرب، ولم يعط سيفه يوم أحد إلا لمن يفيه حقه. فأعطاه لأبي

(١) احمد راتب عرموش - نفس المرجع ص١٦٦.

دجانة لأنه كان يعلم من هو أبو دجانة. كذلك لم يول أبا ذر الغفاري، رغم طلبه الولاية ـ لأنه وجده ضعيفا لا يستطيع القيام بواجبات الولاية، بينما سلم خالد بن الوليد القيادة من يوم التحاقه بصفوف المسلمين. وفعلا لم تنهزم لخالد راية قط طوال حياته العسكرية، ولذلك لم يعزله يوم أخطأ وأمر بقتل الأسرى في المعركة. أما محبو المال فقد أعطاهم حتى أرضاهم. قال صفوان بن أمية: ما زال رسول الله يعطيني من غنائم حنين وهو أبغض الخلق إلي حتى ما خلق الله شيئا أحب إلى منه. أخذ رسول الله محمد ﷺ في بناء الإنسان المسلم كجندي من جنود الله للدفاع عن مبادئ دولة الإسلام ليؤتي أكله مرتين، غير القادرين على الجهاد من أولاد المسلمين الصغار ليكونوا جيش المستقبل وجنود الفتح الإسلامي وقادته، والقادرون على الجهاد من شباب المسلمين وشيوخهم أيضا ليكونوا جيش الحاضر والمستقبل وجنود الفتح الإسلامي وقادته والقادرون وغير القادرين على الجهاد من المسلمين يحققون في المسجد بمصل الجهاد ماديا ومعنويا ليصبح الإنسان المسلم مجاهداً من الطراز الأول بماله ونفسه في سبيل الله[1].

٩ ـ الثقة المتبادلة بين القائد وجنوده: من الطبيعي أن تكون ثقة جنود رسول الله محمد ﷺ به عظيمة، ولم لا، وهم يرون شجاعته، وصبره، وحسن تقديره للأمور، وغير ذلك من الصفات التي توحي بالثقة، يضاف إليها إيمانهم بأنه رسول مؤيد من الله عز وجل. ولكن ثقة رسول الله محمد ﷺ بقواته كانت كبيرة أيضا، ويكفي للدلالة على ذلك أنه أقدم يوم بدر على زج قواته وهي قليلة التسليح والإمكانات مع قوات تقدر بثلاثة أضعافها، وحسنة التجهيز، فيها خيرة فرسان قريش وأكفأهم.

١٠ ـ المحبة المتبادلة بين القائد وعساكره: كان الرسول يحب أصحابه ويعطف عليهم، كما يعطف الوالد على أبنائه. وكان يعفو عن أخطائهم مهما عظمت، حتى أن أحد أصحابه أرسل إلى قريش يعلمهم بتحرك المسلمين لفتح مكة، ومع ذلك رفض قتله أو الاقتصاص منه لماضيه المجيد وما قدمه للإسلام من خدمات. وكان المسلمين يبادلونه حبا بحب، فيوم أحد ضغط المشركون على الناحية التي فيها رسول الله محمد ﷺ يهدفون إلى قتله، فتحلق حوله أصحابه يردون السهام والسيوف عنه بأجسادهم. ولما توفى، كاد المسلمون يفقدون عقولهم حتى أن عمر بن الخطاب أنكر وفاة الرسول ﷺ وهدد من يقول بأن محمدا قد مات بالقتل، هذا الرجل الحصيف القوي، الذي رفع المؤمنون صوتهم بالآذان يوم إسلامه كاد يفقد صوابه، ونسي ما يقرأ باستمرار في القرآن الكريم. ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ...﴿١٤٤﴾﴾ [آل عمران]، ولم يعده إلى رشده إلا صوت أبي بكر يذكره بالآية الكريمة[2].

---

(١) محمود شيت الخطاب - المرجع السابق ص٥٧٦.

(٢) أحمد راتب عرموش - المرجع السابق ص١٦٧.

١١ ـ شخصية قوية مهابة: لكي ندرك قوة شخصية رسول الله محمد ﷺ ونقدرها حق قدرها نستمع إلى عروة بن مسعود الثقفي وهو مشرك يصف محمدا للمشركين فيقول: يا معشر قريش إني جئت كسري في ملكه وقيصر في ملكه، والنجاشي في ملكه، وإني والله ما رأيت ملكا في قوم قط مثل محمد: لا يتوضأ إلا ابتدروا وضوءه، ولا يسقط من شعره شئ إلا أخذ، وأنهم لن يسلموه لشئ أبدا. وحدث مرة، في سنوات الدعوة الأولى، أن أبا جهل اشترى إبلا من رجل، وماطله بثمنها، فوقف الرجل على جماعة من أهل مكة يسالهم عمن يخلص له حقه من ذلك الظالم المفتري، فدلوه على محمد، يستهزئون به لما يعرفون من العداوة بين رسول الله محمد ﷺ وأبي جهل. فقدم الرجل على رسول الله محمد ﷺ، وروى له قصته، فقام معه الرسول ﷺ إلى بيت أبي جهل، وطرق بابه، فقال: «من هذا؟ قال: محمد فاخرج إلى، فخرج أبو جهل وقد امتقع لونه، فقال له الرسول ﷺ: أعط هذا الرجل حقه، فقال أبو جهل: نعم، لا تبرح حتى أعطيه حقه». فأية شخصية هذه؟ وأية مهابة كانت له في قلب أبي جهل؟ وهو من الفرسان المعروفين. ووصفه الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه فقال: «أجود الناس كفا، وأجرأ الناس صدرا، وأصدق الناس لهجة، وأوفى الناس ذمة، وألينهم عريكة، وأكرمهم عشرة، من رآه هابه، ومن خالطه أحبه». ولا بد من الإشارة إلى فارق دقيق قد يغيب عن بعض الأذهان بين «الشخصية القوية» و«الشخصية المخيفة»، فالأولى مهابة محترمة ومحبوبة، والثانية: مخيفة لكنها محتقرة. وغالبا ما تمتاز الأولى بتواضع جم، وحلم وكرم، بينما تكون الثانية متعجرفة متعالية[1]. وكان رسول الله محمد ﷺ في طليعة رجاله حين تحتدم نار الحرب ويهاب شواظها من لا يهاب وكان عليٌّ فارس الفرسان يقول: «كنا إذا حمي البأس اتقينا برسول الله محمد ﷺ فما يكون أحد أقرب منه إلى العدو» ولولا ثباته في وقعة حنين وقد ولت جمهرة الجيش وأوشك أن ينفرد وحده في وجه الرماة والطاعنين[2].

١٢ ـ اللياقة البدنية: لا يقصد باللياقة البدنية قوة العضلات فقط، بل صحة الجسم وقدرته على تحمل المشاق والسهر والتعب، وهي أكثر ضرورة لقائد ينتقل على الجواد والبعير من قائد ينتقل في السيارة والطائرة. ولكي ندرك قابلية الرسول البدنية يكفي أن نعلم أنه قاد بنفسه سبعا وعشرين غزوة، كلها بعدما تجاوز الثالثة والخمسين من عمره. وأن صحابته كانوا يلجأون إليه وهم يحفرون الخندق حول المدينة، كلما صادفوا صخرة قوية صعب عليهم تحطيمها، وما أسرع ما كانت تتفتت تحت ضربات مطرقته القوية..

١٣ ـ الماضي الناصع المجيد: الشخص المغمور لا يهتم الناس بماضيه، أما القائد الكبير، فهو عرضه للنقد والتجريح من الأصدقاء قبل الأعداء. فإن كان دافع الأعداء من نبش ماضيه تبيان المآخذ

(١) احمد راتب عرموش - نفس المرجع ص١٦٨.

(٢) عباس محمود العقاد - المرجع السابق ص٥١.

عليه لتشويه سمعته، بين أصحابه، وفي صفوف قواته، وأفراد شعبه، فإن دافع الأصدقاء غالبا ما يكون الغيرة والحسد للحلول محله. أما الرسول العظيم فقد كان كما قال الله عز وجل ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم]، وكما وصفته زوجه خديجة أم المؤمنين عندما أعلمها بالوحي، وكان خائفا مرتابا قالت: «أبشر يا ابن العم واثبت، فوالذي نفس خديجة بيده إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة. والله لا يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق». لقد لقبه الناس بالأمين قبل بعثه، ولما اختلف زعماء قريش على وضع الحجر الأسود في مكانه عند تجديد بناء الكعبة كان محمد الأمين الحكم بينهم. لم يعرف مجون شباب قريش في شبابه، ولم يلعب الميسر، أو يشرب الخمر في حياته، لذلك نرى النضر بن الحارث وهو مشرك يقول لقريش: «يا معشر قريش، قد كان محمد فيكم غلاما حدثا، أرضاكم فيكم وأصدقكم حديثا، وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب، وجاءكم بما جاء به قلتم ساحرا!».. هذه هي الصفات التي اتفق معظم المنظرين العسكريين على ضرورة توافرها في القائد وكلها كان الرسول مبرزا فيها كما رأينا، ولكن هناك صفات أخرى مهمة جعلته القائد المثالي والقدوة الحسنة، أهمها ما امتاز به فكر خلاق وطاقات رائعة. فالحرب ليست علما بالمعنى الدقيق للكلمة، ولذلك نرى بعض المختصين عندما يتحدثون عن الحرب يقولون «فن الحرب». الحرب عملية معقدة أكثر مما نتصور وعوامل النصر فيها كثيرة التشعب، فليس كل من طبق نظريات معنية حقق انتصارا مؤزرا، وليس كل من ووضعه قدره في منصب قيادي قائدا[1].

الرسول ومبادئ الحرب: يضع الكتاب العسكريون، وكبار القادة، للحرب مبادىء وقواعد مكثفة، يرون ضرورة اتباعها لتحقيق النصر، وهم يختفلون في تعداد هذه المبادى، وتدرج أهميتها فالأميركيون عموما وضعوا عام ١٩٢١ تسعة مبادئ ما زالت تشكل إلى اليوم هيكل مذهبهم العسكري العام مع تعديلات طفيفة وهي: ١ـ ملاحقة هدف واحد. ٢ـ التعرض. ٣ـ حشد الوسائط. ٤ـ الاقتصاد في القوى. ٥ـ الحركية. ٦ـ المفاجاة. ٧ـ الحيطة. ٨ـ العمل الموحد. ٩ـ البساطة.

أما «كلاوزفيتز» فلم يتقيد بعدد دقيق لهذه المبادئ، ولكنه أصر على مبادئ خمسة هي: ١ـ حشد القوي. ٢ـ الاحتياط (الاحتفاظ باحتياط يستعمل عند الحاجة). ٣ـ المبادأة (بدء العدو بالهجوم). ٤ـ المطاردة (بعد النصر). ٥ـ المفاجاة. بينما ذكر الجنرال «فوللر» المبادئ التالية: ١ـ الحيطة. ٢ـ المفاجاة. ٣ـ الحركية. ٤ـ حشد القوي. ٥ـ توحيد الجهود. ويركز «ليدل هارت» و «غودريان» على مبدأين هما: المفاجاة والحركية. ويرى الروس أن مبادئ الحرب وقوانينها غير ثابتة، ولا يقدمون به لائحة مقررة موحدة، ولكن يستنتج من مؤلفات ستالين أنهم يعيرون أهمية كبرى للمبادئ التالية:

---

(١) أحمد راتب عرموش - المرجع السابق ص١٧٢ .

١ـ استقرار المؤخرات. ٢ـ معنويات الجيوش. ٣ـ تجهيز الجيش. ٤ـ طاقة التنظيم في أجهزة القيادة. نرى مدى تطبيق الرسول ﷺ لمبادئ الحرب مع هذ المبادئ لم تكن معروفة من قبله، وإنما كان تطبيقة لها بما وهبه الله له من نفاذ بصيرة وحسن قيادة.

يبدأ تاريخ جيش رسول الله محمد ﷺ مع بدء نزول الوحي عليه فأعد جنوده وقادته بالتدرج أفراد في مكة المكرمة فلما هاجر إلى المدينة بدأت مرحلة جديدة من مراحل ذلك الجيش هي مرحلة تنظيم الأفراد ولم تمض سنة كاملة إلا وأصبح الجيش الإسلامي متكامل التنظيم قليل العدد ولكنه كثير المدد(١).

المحافظة على الهدف: كان الرسول يختار هدفه بدقة ويحافظ عليه. ولعل أبرز مثال على المحافظة على الهدف ما فعله في غزوة الحديبية فقد كان هدفه أداء العمرة وإظهار تعظيمه للبيت العتيق، والتاثير في معنويات قريش. ولم يكن القتال من بين أهدافه، لذلك تخلص من مواجهة قوات قريش باختيار طريق جانبي. ولما وصل الحديبية فاوض قريشا وعقد معها اتفاقا ورجع رغم معارضة أصحابه، ونزولهم على رأيه على مضض فيما بعد، ولم يجد عن هدفه قيد أنملة. أما يوم فتح مكة، فالوضع مختلف تماما. الهدف هو فتح مكة. ومع أن الرسول يفضل الوسائل السلمية، فانه لا فرق في المحافظة على الهدف بين فتحها صلحا أو حربا. وقد تجلى تصميم الرسول ﷺ على بلوغ هدفه، وعدم الانحراف عنه مهما كانت العوائق، من يوم رجوع أبي سفيان الأموي من المدينة خائبا، وعدم تمكنه من تثبيت هدنة الحديبية، إلى يوم وقوفه في مكة معلنا: من دخل دار أبي سفيان فهو آمن».

أمن العمل: أسس بنيان الجيش الإسلامي على تقوى الله ورضوانه لذلك أحرز انتصارات باهرة ولا تزال أعجوبة من أعاجيب الدهر وحقق فتوحات فذة لا تزال باقية على الدهر(٢). كان الرسول يولي الأمن اهتماما خاصا. فعندما كان يحرك قواته كان يرسل أمامها الاستطلاع ويسير الطلائع ويحمي مؤخرات الوحدات، ويهتم بالحراسة، ويحذر أية مباغتة. حتى أنه أمر المسلمين عندما يريدون الصلاة في الحرب أن ينقسموا إلى قسمين، قسم يصلي وقسم مستنفر، حامل السلاح جاهز للقتال. جاء في الآية الكريمة: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً ... ﴿١٠٢﴾﴾ [النساء]. وقد ذكرنا سابقا الحيطة التي اتخذها يوم أرسل سرية عبد الله بن جحش، فقد

---

(١) محمود شيت الخطاب - المرجع السابق ص٥٧٩.

(٢) محمود شيت الخطاب - المرجع السابق ص٥٩٦.

كتب المهمة في رسالة وأمر قائد السرية أن لا يفـتحها إلا بعد مسيرة يومين[1]. ويوم جهز جيشه بغية التوجه لفـتح مكة أخفي نياته عن أقرب الناس إليه، حـتى أن أبا بكر رفيقه في الهجـرة سأل ابنته، زوج الرسول، عن وجهته فلم تعرف بماذا تجيبه، لأنها لم تكن تعلم هدف رسول الله ﷺ.

وأمثلة ذلك كثيـرة في كتب السيرة، كلها تدل على مدى الحذر والحـيطة في تحركات الرسول ﷺ.

الحركية أو المرونة: كان جيش الرسول سريع التحرك مرنا، وكان يتمتع بمقدرة كبيرة على تحمل مشاق المسيرات الطويلة. ولعل أفضل مثـال على مرونة الرسول في وضع الخطط وفي تنفيذها ما كان منه يوم بدر. فقـد خرج الرسول لمصـادرة قافلة قريش التـي كانت في طريق عودتهـا من دمشق إلى مكة، ولكن العير فاتته. وبما أن الهدف الرئيس كسر شوكة قريش، كان للرسول هدف جديد، وخطة جديدة. وهكذا وبسرعة مـتناهية استشار أصحابه وأخـذ موافقتهم على مهاجـمة القوة، التي خرجت لتحمي القـافلة، ثم وضع خطته بسرعة لمعـركة بدر كما مر مـعنا. ومن الواضح أن حرص المسلمين على التدريب وهو مثل المناورات العـسكرية اليوم، وتفوقهم فيـه كان سببا من أسبـاب انتصارهم في المعارك التي خاضوها[2].

التعرض: ويمكن أن نسميه المبادأة، ونقصد به مبادرة العدو بالقتال. فالمهاجم غالبا هو صاحب النصر، وهناك قول مأثور أو قاعدة عامة في القتـال تقول: «الهجوم خير وسيلة للدفاع»، وهي بمعنى قول الإمام عـلي رضي الله عنه: «ما غزي قوم في عـقر دارهم إلا ذلوا»، ويقتصـر نصر المدافع على منع المهاجم مـن تحقيق أهدافـه فقط، بينما يعـمل المهاجم بشكل إيجـابي على تحقـيق أهدافه. ومن استعراض حروب الرسول كلها نجدها تعرضية «هجومية» ما عدا غزوتين فقط هما «أحد» و«الخندق». ففـي الغزوتين حـشد المشـركون قـواتهم وتعرضـوا للمسلمين. وفي أحـد خرج من المدينـة بجيـشه لملاقاتهم. وفي الأحزاب حصن المدينة ودافع عنها حتى انصرف المحاصرون بعدما استطاع أن يوقع بين الحلفاء بتخطيط مدروس واستفادة قصوى من مسلمين.

الاقتصاد بالقوى: إن من يدرس غزوات الرسول كلها يلاحظ أنه لم يكن يرسل في الغزوة إلا ما تحتاجه من قـوات، فإن اضطر إلى استنفار جميع المسلمين استنفرهـم، لأن الاقـتصاد بالقوى يعني عدم إهدار القوى واسـتعمال القوة الكافيـة لتنفيذ المهمة، والاحتـفاظ بباقي القوى لاستخـدامها عند الضرورة، ولا يعني حشد قـوات أقل من القوات اللازمة لتنفيذ المهمة. فإذا احـتاجت المهمة والوضع العـسكري إلى جمـيع المسلمين وجب حشـدهم كلهم، وللفقـهاء آراء في فـرض الجهـاد على بعض المسلمين، بحسب الحالة القائمة، يرجع إليها في كتب الفقه. وبناء على ذلك نجد تعداد سرية حمزة بن

---

(١) احمد راتب عرموش - المرجع السابق ص١٧٣.

(٢) محمود شيت الخطاب - المرجع السابق ص٦٠٦.

ن عبد المطلب يصل إلى ثلاثين فارسا، وهي أول سرية بعث بها الرسول ﷺ من المدينة، وكان تعداد المسلمين لا يزال بسيطا، بينما لم يتجاوز عدد أفراد عمرو بن أمية الضمري الرجلين، مع أن تعداد المسلمسن أصبح يومها بالألوف. فقد كانت قوة الرجلين كافية للقيام بالمهمة، فلا داعي للتبذير بالقوي. ومن الطبيعي أن تشمل القوى في العصر الحاضر العنصر البشري، والأسلحة والأعتدة، والآليات، وغيرها من وسائل القتال المادية بحيث يختر لكل عملية ما يلزمها..، ولا يهدر من الذخيرة إلا بمقدار الحاجة[1].

حشد القوى: قد يبدو بعض التعارض بين مبدأي الاقتصاد بالقوى وحشد القوى. والواقع أنه لا تعارض بينهما، إنما هي عملية توازن دقيقة. فلا يحشد القائد قوات في مهمة لا تحتاج إليها كلها، لا يقتصد في مهمة تحتاج إلى قوات أكثر مما خصصه لها، لأنه في الحالة الأولى يفرط في قواته كالذي يبذر أمواله، وفي الثانية يعرض قواته للهزيمة لأنها غير كافية لمواجهة العدد المتفوق عليها. ويلاحظ المتتبع لسيرة الرسول أنه لم يبدأ في قتال المشركين إلا بعدما هيأ من القوات ما يكفي للقتال؛ فهو في مكة كان يعد المقاتلين وينهاهم عن القتال. وقد حدث في بيعة العقبة الثانية أن اكتشفت قريش أمر البيعة، فلم يهتم الأنصار لذلك. وطلب سعد بن عبادة من الرسول أن يسمح لهم بالهجوم على المشركين فمنعه الرسول من ذلك لأنه كان يعلم أن إمكاناته ما زالت أضعف من أن يزجها في معركة خاسرة.

المفاجأة أو المباغتة: ربما كانت مفاجأة العدو من أهم عوامل الانتصار عليه. وهي تكون بالزمان، وتكون بالمكان، وتكون بأسلوب القتال، أو باستخدام أسلحة جديدة لا يعرفها العدو، أو لا يتوقع وجودها مع خصمه. ويعد الكتمان والمحافظة على سرية التحركات والعمليات من أهم وسائل تحقيق المفاجأة وقد كان الرسول ﷺ إذا أراد غزوة ورى بغيرها فينقل «الطابور الخامس» المنتشر في المدينة والمؤلف من: يهود، والمنافقين، وجواسيس قريش المعلومات الخاطئة إلى المشركين فيتوقعون شيئا، ويفاجأون بشيء آخر. ومن أمثلة المباغتة في المكان غزوة خيبر، فقد توجه نحو غطفان وأرسل مفرزة إلى معسكرهم ثم حول قواته الرئيسة إلى خيبر. ومن أمثلة المباغتة في الزمان، غزوة بني قريظة، فما كاد الأحزاب يفكون الحصار عن المدينة حتى صاح مؤذن الرسول: «من كان سامعا مطيعا فلا يصلين العصر إلا ببني قريظة». أما أمثلة المفاجأة بالأسلوب فقد كانت متنوعة ورائعة: في بدر استعمل أسلوب الصف، والأسلوب الذي كان متبعا عند العرب هو أسلوب الكر والفر. كما أن طريقة ضبط الرمي بالنبال، التي اتبعها، وعدم الالتحام مع العدو قبل إنهاكه وتمزيقه، لا تختلف عن أسلوب ضبط الرمي في العصر الحاضر حتى تصبح القوات المعادية ضمن المدى المجدي للأسلحة ففتح

---

(١) احمد راتب عرموش – المرجع السابق ص١٧٧ .

عليها النيران بغزارة. وفي غزوة الأحزاب فاجأ العدو بالخندق حفرة حول المدينة، فأجبر القوات المهاجمة على التوقف مذهولة أمامه، تلتمس مكانا تعبر منه، فإن استطاع بعضها اجتياز الخندق اجتمع عليه المسلمون وأجهزوا عليه. كما أنه استخدم المجانيق والدبابات في حصار الطائف، وهي أسلحة جديدة، فاستطاع بذلك أن ينتصر باستمرار على أعدائه[1].

إدامة المعنويات: استطاع رسول الله محمد ﷺ أن يجعل العقيدة الراسخة من ضمير الفرد رقيبا عتيدا عليه يأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر وأن يجعل من المجتمع الإسلامي إخوة متحابين في الله وأن يجعل من القدوة الحسنة مؤمنا وأن العقيدة الإسلامية قابلة للتطبيق عمليا وأن ما لا يمكن أن يكون يمكن أن يكون فعلا[2]. امتاز المسلمون بمعنويات لم تتوافر لأي جيش عرفه التاريخ. كانوا يتسابقون إلى الموت، وهي أقصى ما يمكن أن يواجهه الإنسان، لأن الرسول القائد استطاع أن يغرس في نفوسهم أن الاستشهاد في سبيل الله إنما هو انتقال إلى حياة أفضل: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [آل عمران]، ولإيمانهم بأن الجنة مثواهم وأن مقام الشهيد مع النبين والصديقين. ويكفي للتدليل على معنويات المسلمين العالية وتسابقهم إلى الموت هذا المثال: وقف الرسول في غزوة بدر يحرض المسلمين على القتال فقال: «والذي نفس محمد بيده، لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا، مقبلا غير مدبر، إلا أدخله الله الجنة، فقال العمير بن الحمام، وكان في يده تمرات يأكلهن بخ ـ بخ، أفما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلوني هؤلاء؟» ثم قذف التمرات وأخذ سيفه فقاتل حتى قتل. فهل عرف التاريخ جنودا يتسابقون إلى الموت فرحين مستبشرين كجنود النبي محمد ﷺ؟. وقد حرص الرسول ﷺ باستمرار على إدامة هذه المعنويات، وتقويتها، حتى أنه أخفى عن جيشه نقض «بني قريظة» عهدهم. فلما نقضوا العهد في أثناء غزوة الأحزاب، وعلم الرسول بذلك، أرسل وفدا يستطلع الأمر، وقال لهم: «انطلقوا حتى تنظروا، أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا؟ فإن كان حقا فالحنوا لي لحنا أعرفه، ولا تفتوا في أعضاد الناس، وإن كانوا على الوفاء، فيما بيننا وبينهم، فاجهروا به للناس».

تأمين الأمور الإدارية: لم تكن الأمور الإدارية معقدة كما هي الحال في العصر الحاضر، وكان غذاء المسلمين بسيطا أكثره التمر واللبن، ومع ذلك فقد أعار الرسول الأمور الإدارية اهتماما كبيرا حتى أنه كان يصطحب النساء معه في غزواته، فيقمن بمداواة الجرحى، وتأمين المياه، وتحضير الطعام، وغير ذلك من الأمور التي يحسن النساء القيام بها.

استقرار المؤخرات: والمقصود بذلك استتباب الأمن والهدوء وراء جبهات القتال. فالعسكري الذي تشغله أعمال القتال في الجبهة، يجب أن يكون مطمئنا إلى استقرار الأحوال في الداخل، وإلى

---

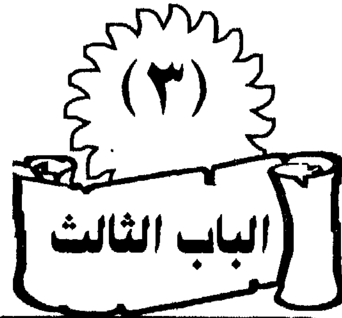
(١) أحمد راتب عرموش - نفس المرجع ص١٧٨.

(٢) محمود شيت الخطاب - المرجع السابق ص٥٨٥.

أنه لن يتلقى ضربة من الخلف، ولن تحـدث أعمال شغب أو فوضى أمنيـة تصيب أهله بأذى. لذلك نجد الرسول قد اهتم فـور وصوله إلى المدينة مهاجرا بتنظيم العلاقات في المدينة المنورة عـاصمة دولته الناشئة. ومع ذلك فقد هدد اليهود باستمرار مؤخرات جيش المسلمين، وظهر ذلك بأجلى مظاهره في أثناء غزوة الخندق، حيث نقض بنو قريظة عهدهم، فعانى المسلمون من الخوف على نسائهم وأولادهم وأموالهم أكثر مما عانوا في مجابهة جيـوش الأحزاب. ولهذا أمر الرسول جنوده بأن لا يضعوا السلاح بعد غـزوة الأحزاب قبل القـضاء على بني قـريظة لتأمين الاستـقرار والهدوء في مـؤخرات جيـوشه مستقبلا، فلا تتكرر مأساة خيانة بني قريظة مرة أخرى[1].

---

(١) أحمد راتب عرموش - المرجع السابق ص١٧٩.



سيادة الدولة الإسلامية الأولى على الجزيرة العربية

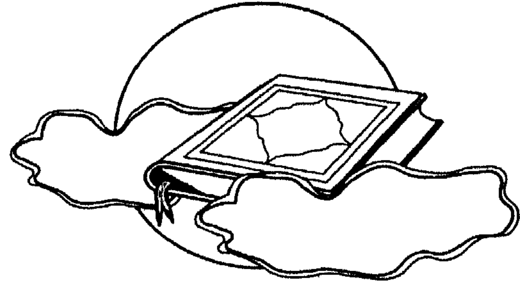
الفصل التاسع

التنظيم السياسي للدولة الإسلامية الأولى

الفصل العاشر

الدولة الإسلامية وعلاقاتها الخارجية

الفصل التاسع



التنظيم السياسي للدولة الإسلامية الأولى

التنظيم السياسي للدولة الإسلامية الأولى

بعد أن دانت الجزيرة العربية بكاملها للدولة الإسلامية كان لابد لهذه الدولة من إعلان سيادتها على جميع بقاع الجزيرة، وإعلان النظام العام الذي يجب على كل مواطن في هذه الدولة احترامه والالتزام به. وإن هذا الإعلان لابد وأن يكون في اجتماع عام تحضره القبائل العربية كلها. فإن أحسن زمان ومكان له هو موسم الحج. ولذلك أمر رسول الله أبا بكر الصديق أن يكون أمير الناس في الحج لهذا العام، ليقيم للناس حجهم، وكانت كل فئة من الناس تؤدي حجها على نهجها وطريقتها، المسلمون يؤدونه على نهجهم، والمشركون يؤدونه على نهجهم بما فيه من إشراك. وما إن مضى أبو بكر بالناس حتى نزلت على رسول الله ﷺ سورة التوبة (براءة) بإنهاء جميع العهود المفتوحة بين رسول الله والمشركين من قبائل العرب، والتي كانت تنص على حرية التدين والولاء، وكان ذلك أمرا طبيعيا بعد أن دانت دولة الشرك المتمثلة في قريش، وأصبح الأمر للدولة الإسلامية، وأصبحت السيادة والحاكمية في جميع أنحاء الدولة الإسلامية لشرعية الله تعالى، فهي تطبق على الجميع. وترك الله فرصة لذوي العهود المحدودة الأجل من المشركين لتسوية أوضاعهم بينهم، وانضوائهم تحت لواء الدولة الإسلامية كمواطنين مؤمنين صالحين يبذلون الولاء إليها إلى نهاية عهودهم، ومن لم يكن له عهد منهم أو كان عهده مفتوحا ضربت له مدة أربعة أشهر، لا عذر له بعد ذلك أبدا إن رأت الدولة الإسلامية تصفية وضعه بالشكل الذي تراه مناسبا، لأنه ليس من أمن الدولة في شيء أن تمنح حرية العمل، بل ليس من أمنها في شيء أن ترعى مواطنين لا يدينون لها بالولاء، بل ويتآمرون مع عدوها عليها لتقويض أركانها السياسية والفكرية[1].

تكليف الامام على كرم الله وجهه بإعلان النظام العام للدولة الإسلامية الأولى: دعا رسول الله ﷺ الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وأمره أن يلحق بأبي بكر الذي سار بالناس إلى الحج، حتى إذا ما اجتمع الناس في مجتمعهم الكبير في مني أعلن لهم النظام الجديد المتمثل في خمسة بنود: إنه لا يدخل الجنة كافر. إنه لا يجوز أن يحج بعد هذا العام مشرك. إنه لا يجوز أن يطوف حول الكعبة عريان. من كان له مع الدولة الإسلامية عهد موقت فعهده محفوظ إلى مدته المحدودة.

من لم يكن له عند الدولة الإسلامية عهد أو كان له عهد مفتوح أعده فله مدة أربعة أشهر يجمع فيها أمره ويختار طريقه، فإن آمن بالله ورسوله وأعلن ولاءه للدولة الإسلامية فهو آمن وهو رجل من المسلمين، وإن أبى الإقامة على الشرك ومناوءة الدولة فإن الدولة هي التي ستتولى علاجه

(١) د. محمد رواس قلعه جي - المرجع السابق ص٣٠٢.

بالطريقة التي تختارها. وهذه البنود الخمسة هي التي نزلت بها سورة التوبة (براءة) حيث قال تعالى: ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾ [التوبة].

وأجّل الناس أربعة أشهر من يوم فيهم ليرجع كل قوم إلى مأمنهم أو بلادهم، ثم لا عهد لمشرك ولاذمة إلا من كان له عند رسول الله عهد إلى مدة، فهو له إلى مدته. لقد جاء فرض النظام العام ومحو الشرك هذا بعد أن صفى رسول الله أوضاع قريش في مكة، وسوى أمره مع القبائل الكبرى، وبسط سلطانه على الجزيرة العربية بأكملها وأصبحت السيادة السياسية المطلقة للدولة الإسلامية، لقد أعلن فيه أن عهد الأصنام قد انقضى، وأن مرحلة جديدة قد بدأت، وما على الناس إلا أن يدينوا لهذه المرحلة الجديدة. لقد قضى رسول الله قرابة اثنين وعشرين عاما وهو يدعو إلى نبذ الأصنام، ولم يترك حجة إلا ساقها لهم، ولا برهانا ساطعا إلا بسطه لهم، ولكن الشيطان نفخ في أنوفهم فأبوا إلا إهدار كرامة الإنسان بسجوده للأصنام، وقد آن الأوان لإنقاذ هذه الكرامة، إنهم مرضى يرفضون تجرع الدواء، فكان من الحكمة أن يتجرعوه كرها أو طوعا ليبلوا من مرضهم، وإلا فلا أمل في الشفاء. ومن هذا المنطلق انبثق قانون محو الشرك. وطار الناس بنص هذا القانون ومعناه إلى الآفاق، فارتعدت لسماعه قلوب، وانفتحت له قلوب، علمت القبائل أن الأمر جد، وأن عهد الوثنية قد انقضى فعلا، فأخذت ترسل وفودها معلنة إسلامها ودخولها في التوحيد[1].

بعد أن دانت الجزيرة العربية لرسول الله ﷺ، وكان لا بد له من أن يجمع أكبر عدد ممكن من المسلمين يأتونه من القبائل من كل فج عميق ليخطب فيهم خطبة النصر، وليعلن لهم فيها في مواد دستورية المبادئ التي شرعها الإسلام في تربية الفرد والجماعة، والتي يجب عليهم التمسك بها وتطبيقها كمسلمين ومواطنين في الدولة الإسلامية، وأراد رسول الله محمد ﷺ أن يستغل مناسبة الحج ليبلغ المجتمعين في مكة الأحكام والأوامر[2] ويعلن عن نظام الدولة الإسلامية الأولى. ورأى عليه الصلاة والسلام أن أنسب مكان لهذا الاجتماع هو مكة المكرمة وأنسب زمان له هو موسم الحج.

---

(١) د. محمد رواس قلعه جي - المرجع السابق ص٣٠٣.

(٢) د. نبيه عاقل - المرجع السابق ص٥٣٦.

فأعلن للملأ أنه يريد الحج، ورغب إلى الناس بمرافقته، وأمرهم بالتجهيز له. وسار رسول الله وسار معه ناس مد البصر، فحج رسول الله بهم حجا ليس كالحج السابق، حجا قد تعرى من كل شعيرة وثنية، وهناك وقف عليه الصلاة والسلام خطيبا في الجموع الهادرة يقول: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك...» فخطب فيهم خطبته التاريخية، أعلن لهم فيها منهج الإسلام في إعداد الفرد المسلم، وبناء المجتمع، وقد جمع ذلك كله في خمسة مبادئ. اثنان منهما في إعداد وتربية الفرد، وثلاثة في بناء المجتمع. وأما إعداد الفرد وتربيته فقد أقامه رسول الله على ميدانين أساسين:

الأول: قطع كل صلة للفرد بالجاهلية، أوثانها، وثاراتها، ورباها، وغير ذلك، لأن الحياة الجديدة التي يحياها المسلم بعد إسلامه حياة لا صلة لها برجس الماضي وأدرانه. الثاني: الابتعاد عن الخطايا، لأن الخطايا تفعل بالفرد ما لا يفعله العدو بعدوه، فهي سبب مصائبه في الدنيا ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الشورى] فترديه في نار جهنم في الآخرة، وتفعل في المجتمعات ما لا يفعله السيف. وأعلن رسول الله أنه لا يقصد بالخطايا العودة إلى عبادة الأصنام، لأن العقول التي تفتحت على التوحيد ترفض أن تعود إلى الشرك الظاهر، ولكن الشيطان لا ييأس من أن يجد طريقه إليها من ثغرات الخطايا فيرديها في الشرك الخفي من غير أن تشعر. أما بناء المجتمع فقد أقامه رسول الله ﷺ على ثلاثة مبادىء أساسية[1]:

الأول: الأخوة الإسلامية، وهي الرابطة التي تربط المسلمين بعضهم ببعض، وهي الصلة التي عقدها الله في السماء لتكون الخيط الذي ينتظم فيه المسلمون جميعا انتظام اللآلىء لتشكل العقد الثمين، وبمقتضى هذه الإخوة يكون للمسلم حق الولاية على المسلم ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ... ﴿٧١﴾﴾ [التوبة] ينصحه ويفك عسرته والثاني: الوقوف بجانب الضعيف حتى لا يكون هذا الضعف ثغرة في البناء الاجتماعي، فأوصى عليه الصلاة والسلام في خطبته بالمرأة والرقيق على أنهما نموذجان عن الضعفاء. الثالث: التعاون مع الدولة الإسلامية على تطبيق أحكام الإسلام، التي تعمل على اقتلاع الشر، وزرع الخير في المجتمع، ولا يجوز أن يكون لون جلد الحاكم، أو أسرته أو قوميته حائلا دون التعاون معه عندما يريد نشر الخير.

تعتبر الخطبة التي ألقاها رسول الله محمد ﷺ أمام أكثر من مائة ألف من المسلمين عند جبل عرفات خطبة خالدة حيث أعلن فيها عن دستور الدولة الإسلامية، ولا غرو فقد بين فيها دستور الإسلام وقواعده ونادى بالمساواة بين الناس لا فرق في ذلك بين العبد الحبشي والشريف القرشي[1].

وجماع هذه المبادىء هو: التمسك بالكتاب والسنة، وبذلك لم يفت رسول الله أن يدعو إلى التمسك بهما والتحاكم إليهما وحط الرحال عندهما. وإن هذه الخطبة على قصرها حوت المبادئ التي

---

(١) د. محمد رواس قلعه جي - نفس المرجع ص٣٠٥.

(٢) د. حسن إبراهيم حسن - المرجع السابق ص١٤٩.

يصلح بها الفرد والمجتمع، ولذلك أكد رسول الله وأشهد أنه قد بلغ. وإليك نص خطبته عليه السلام بعد أن حمد الله وأثنى عليه قال: «أيها الناس، اسمعوا قولي، فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبدا. أيها الناس إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا، وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، وقد بلغت. فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها. وإن كل ربا موضوع، ولكن لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون قضى الله أنه لا ربا، وإن ربا عباس بن عبد المطلب موضوع كله، وإن كل دم كان في الجاهلية موضوع، وإن أول دمائكم أضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ـ وكان مسترضعا في بني ليث فقتلته هذيل ـ فهو أول ما أبدأ به من دماء الجاهلية.

أما بعد أيها الناس، فإن الشيطان قد يئس من أن يعبد بأرضكم هذه أبدا، ولكنه يطع فيما سوى ذلك فقد رضي به مما تحقرون من أعمالكم، فاحذروه على دينكم. أيها الناس، إن النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما أحل الله، وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا، منها أربعة حرم: ثلاثة متوالية ورجب مضر الذي بين جمادي وشعبان.

أما بعد أيها الناس، فإن لكم على نسائكم حقا، ولهن عليكم حقا، لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحدا تكرهونه، وعليهن أن لا يأتين بفاحشة مبينة فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضربا غير مبرح فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف، واستوصوا بالنساء خيرا فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئا، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمات الله. فاعقلوا أيها الناس قولي، فإني قد بلغت وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا، أمرا بينا، كتاب الله وسنة نبيه. أيها الناس اسمعوا قولي واعقلوه، تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم، وأن المسلمين أخوة، فلا يحل لامريء من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه، فلا تظلمن أنفسكم اللهم هل بلغت؟». فردد الناس جميعا: اللهم نعم. فقال رسول الله ﷺ: «اللهم فاشهد».

رسول الله محمد ﷺ رئيس الدولة الإسلامية الأولى

يصعب الفصل بين أعمال الرسول ﷺ بصفته القائد العسكري. وبين أعماله بصفته القائد السياسي، ورئيس دولة المسلمين الأولى، التي أنشأها في الجزيرة العربية، واتخذ المدينة المنورة عاصمة لها. سوف نحاول دراسة شخصية الرسول السياسية بالمعنى المتعارف عليه للسياسة وهي «فن حكم المجتمعات الإنسانية» وهي «علم الحكومة، وفن علاقات الحكم، وتطلق على مجموعة الشؤون التي تهم الدولة أو الطريقة التي يسلكها الحكام أهم مواقفه السياسية، من خلال الأحداث التي واجهها، إن أهم صفات القائد العسكري، هي في مجملها من الصفات المطلوبة في القائد السياسي، وبخاصة

عندما يتسلم القائد أعلى مركز في الدولة، أو يقوم بتأسيس دولة. ولئن كانت القيادة العسكرية وعمومًا تتطلب صلابة وحزمًا، بينما تتطلب القيادة السياسية حلمـا وحنكة، فإن الجمع بين الصفات اللازمة للقيادتين يمكن ان تتوفر لأشخاص نادرين، بحيث تتوازن مختلف الصفات لديهم، فلا تطغي واحدة علـى اخري، وهي ضرورية لـلقادة الذين يحملون دعوة، ويؤسسون دولة. ولهـذا فإن الله عزوجل وهب الرسول العربي ﷺ افـضل الصفات الضـرورية للقيادتين، حتى حلق في الناحـيتين لدرجة جعلت أحد الكتاب الغربيين المعاصرين يقول عنه بعدما وضعـه على رأس قائمة القادة الذين تركوا بصماتهم على التاريخ: «وفوق ذلك، فإن محمدًا ﷺ يختلف عن المسيح بأنه كان زعيما دنيويا فضـلا عن أنه زعيم دينـي، وفي الحقيـقة إذا أخـذنا بعين الاعتـبار القـوى الدافعـة وراء الفتـوحات الإسلامية، فإن محمدًا ﷺ يصبح أعظم قائد سياسي على مدى الأجيال» ويختلف رسول الله محمد ﷺ عن الزعماء السيـاسيين الآخرين في أنه لم يرث عرشًا، ولم يغتـصب حكمًا، بل أوجد دولة لا وجود سابق لها، غيرت مجرى التاريخ، وخلفت بصـماتها على أحداث العالم حتي العصر الحاضر، وستبقى آثارها حتى قيـام الساعة. ولإبراز الحكمة في سياسته سنوجز أهم أعمـاله السياسية في ثلاث نواح[1]: ١ ـ سياسته في بناء الدولة ٢ ـ سياسته الداخلية ٣ ـ سياسته الخارجية.

يعد الأسلوب الذي اتبعـه الرسول ﷺ، من يوم بعثه الله عز وجل ليبلغ رسـالته إلى البشر، الجح أسلوب يمكن ان يتبع، والدليل على ذلك مـا حققه ذلك الأسلوب من نتائج اعتـرف بها العدو قبل الصديق، وارست سياسته قواعد الاستراتيجية الإسلامية العليا الرئيسية التي اتبعها القادة المسلمون فيما بعد على مر العصور. يقول ليدل هارت، أشهر كـاتب عسكري متأخر: «وما الاستراتيجية العليا سوى السيـاسة التي تقود سير الحـرب، ويمكن التفرقة بينهـا وبين السياسة الأساسـية التي تحدد هدف الحرب. ويستخدم تـعبيـر الاستراتيـجية العلـيا لشرح فكرة «السـياسة خـلال التنفيـذ».. إن مدى الاستراتيجية محدود بالحرب، ولكن الاسـتراتيجية العليا تنظر إلى ما وراء الحرب، ونحو السلم الذي سيعقـبها، وليس عليها أن تكتفي بتحـقيق التوافق بين مختلف وسائط الحرب فـحسب، إنما عليها أن تنظم استخـدامها بغية تلافي مـا يؤذي السلم المقبل الذي يجب أن يكون ثابتًا ويحقق حـياة أفضل».
فمن أولى واجبات القيـادة السياسية وعي الظروف التي تعيشها وإدارتهـا، بحيث تستطيع التعامل مع الواقع في سبيل تغييره إلى الأفـضل والرسول ﷺ لا يبغي ملكًا، ولا ثروة. إنه يعمل في نشر دعوة جديدة لا أنصار لهـا ولا أتباع، وفي تأسيس دولة «عقيديـة» تؤمن بمبادئ مخالفة للأعراف والتـقاليد السائدة. والدولة لـها أركان ثلاثة: شـعب (سكان)، وأرض، وسلطة سياسـية يخضـع لها السكان. فالدولة «جـماعة من الناس يعـيشون بصـورة دائمة فوق إقلـيم جغرافي مـحدد، ويخضـعون لسلطة

(١) أحمد راتب عرموش - المرجع السابق ص١٨٨ .

سياسيـة معينة» لهذا بدأ الرسول بالركن الأول، وهو إعـداد المسلمين عقائديا ونفسيًـا وعـسكريًا. فأية دولة لا تقوم على قاعدة شـعبية متينة تهمل من المواطـنين مجموعة من اللامبالين السلبـيين، وتقتصر بطانته على المنافقـين والمنتفعين، ويقل فيهـا الصالحون والناصحون. وعندمـا تواجه الدولة أية مشكلة ينهار النظـام، لأن أعوانه الذين يفتـرض فيهم أن يفـدوه بدمائهم يتـخلون عنه، لأنهم لا يؤمنون به ابتداء. ولم تكن مهمة رسـول الله محمد ﷺ هينة، فالبيئة الاجـتماعية التي بعث فيها لها مـفاهيمها وعاداتها وتقاليدها، وكان عليـه تغيير تلك المفاهيم واستبدالها بمفاهيم الدين الجـديد وقيمه وأخلاقه. لقد قـضى في مكة ثلاث عشـر سنة يقابل الحرب بالسـلام، ويواجه الأعاصـير بالسكينة، والانتـقام بالصفح، والطـغيان بالدعـوة إلى العدل. ولايمكن ان نعتـبر مواقـفه تلك تهـربا من مواجهـة أعدائه والمشركين، ولا استسلامًا لطغيان قريش واعترافـا بسلطانها الجائر، لأنه يعرف أن الاستشهاد في سبيل إعلاء كلمة الله أعلى المـراتب التي ينالها المؤمن. ولذلك لم يفكر يومًا بالتخـلي عن أداء واجبه، ولم يدر أبدًا في خلده الهروب من المواجهـة، بل على العكس، كان قائدًا حكيمًا يجيد فن التـوقيت كما يجيد فن الصبر والاحتمال وسياسة النفس الطويل[1].

استطاع في خلال هذه المدة تكوين نواة أمته من أبطال يسترخصون الحياة في سبيل الله والدين الجديد. ولكنه اقتنع بـأن قريشا لن تسمح له بتحـويل مكة إلى «قاعدة قوية وأمينة» ينـطلق منها لنشر دعوته وتأسيس دولته. فقـد أوجد الناس المؤمنين،ركن الدولة الأول، وهو بحاجة إلى الأرض الركن الثاني في كل دولة، فتطلع إلى مـدينة أخرى يتخذها قاعدة. ووقع اختـياره على الطائف لأنها أقرب المدن إلى مكة قلب الجزيرة وقبلة العرب، ولأنها تمتاز بموقع استراتيجي، وأهلها محاربون أشداء، فقد خرج إليها يدعو قادتها إلى اعتناق الإسلام، ،لكنهم صدوه وآذوه، وأغروا به صبيانهم فعاد إلى مكة خائبًـا غير آيس من رحـمة الله وعونه. ولم يثـبط ذلك عزائمه عن دعـوة القبائل الـتي تفد إلى مكة لزيارتها وتعظيـمها على عـادة العرب في الجاهليـة. وكان بين الذين التقـاهم جماعـة من أهل يثرب (المدينة) عددهم اثنا عشر رجلا التقاهم بالعقبة ودعاهم إلى الإسلام، فاستجابوا له وآمنوا به، وبايعوه فيما سمي «بيعـة العقبة الأولى». ولما عادوا إلى المدينة أرسل معهم مصعب بن عـمير يعلمهم القرآن ويؤمهم في الصلاة. وفـور وصولهم إلى المدينة بدأوا يبشرون قومـهم بالدين الجديد. ويدعون الناس لاعـتناقه. وفي الـعام التـالي قـدم ثلاثة وسبـعـون رجلا منهـم، وتواعدوا رسـول الله في العـقبـة أيضًا،وكـانت بيعة العـقبة الثـانية. وفيـها قال رسـول الله ﷺ للوفد الذي تألف من سبـعين رجلا: «أبايعكم على أن تمنعوني ما تمنعـون منه نساءكم وأبناءكم» فبايعوه على ذلك. وعندئـذ شعر الرسول ﷺ بأنه يمكنه أن يتطلع إلى المدينة لتكون قاعـدته الأمينة التي ينطلق منها لتحرير الجـزيرة العربية من

(١) أحمد راتب عرموش - المرجع السابق ص١٨٨.

عبادة الطواغيت والأوثان، ولما أذن الله له بالهجرة إلى المدينة أدرك بأنه استكمل الركن الثاني من أركان دولته، وهو الأرض، وبقي عليه إيجاد نوع من التنظيم، والسلطة السياسية التي يجب أن يخضع لها جميع السكان لاستكمال عناصر الدولة جميعها. وفي سبيل ذلك كان أول ما قام به الرسول ﷺ، بعد تحصين جبهته الداخلية وتنظيم صفوف أتباعه بالمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، أن وضع مع بقية سكان المدينة معاهدة نظم فيها العلاقات بين عناصر المجتمع الجديد المختلفة، الذي كان عليه أن يعمل فيه، فوضع معهم معاهدة سميت «الصحيفة» لأنها تمثل الدستور المؤقت للدولة الإسلامية الأولى[1].

نلاحظ أن الصحيفة تضمنت مبادئ عامة، درجت دساتير الدول الحديثة على وضعها فيها. وفي طليعة هذه المبادئ، ولعله أهمها، تكوين الأمة وتعريفها، وبيان الحقوق والواجبات المترتبة لفئاتها وعليها، وهذا شيء جديد كل الجدة في تاريخ السياسية في جزيرة العرب. إذ نقل الرسول قومه من شعار القبيلة والتبعية لها، إلى شعار الأمة، التي تضم كل من اعتنق الدين الجديد، فلقد قالت الصحيفة عنهم أنهم: (أمة واحدة) إذن نستطيع أن نقول: أن الرسول ﷺ استكمل في هذه الصحيفة أركان دولته. فقد أصبح لديه أناس مؤمنون برسالته، وأرض يقيم عليها أولئك الناس، ويخضعون لسلطة سياسية واحدة هو رئيسها والمرجع الأعلى فيها. لا نستطيع أن ندعي أن الدولة التي أقامها الرسول ﷺ في المدينة هي دولة مكتملة العناصر بأجهزتها الحكومية والإدارية بالمفهوم المعاصر، ولكنها كانت دولة تفي بحاجات المجتمع في ذلك العصر، خضعت إلى التطور باستمرار حتى تفوقت على جميع الدول التي عاصرتها في جميع الميادين. وقد واجه الرسول ﷺ عقبات كثيرة من يوم وطئت قدماه المدينة؛ فقد كان الأوس والخزرج يتأهبون قبيل دخولهم في الإسلام لتتويج عبدالله بن أبي بن سلول ملكًا عليهم. وبدخولهم في الإسلام فقد ابن سلول أية إمكانية لتزعم المدينة، فشكل مع مجموعة من المنافقين معارضة داخلية، وكانوا نقطة ضعف في المجتمع الجديد، حتى أنهم شكلوا ثلث جيش المسلمين الذي خرج إلى غزوة أحد كما مر معنا، وتخلوا عن ذلك الجيش وهو في طريقه إلى المعركة. كذلك كان بين السكان عد كبير من اليهود، استمروا في خلق الفتن وافتعال الاضطرابات حتى أجلوا عن المدينة نهائيًا[2]. على أن الإرادة العليا إنما تتجلى في تدبير الشؤون العامة حين تصطدم بالأهواء وتنذر بالفتن والنزاع، لقد تمت في تدبير الشؤون العامة لرسول الله محمد ﷺ في حلول التوفيق وإتقاء الشرور أحسن تمام فما عرض له تدبير أمر من معضلات الشقاق بعد الرسالة ولا قبلها إلا وأشار فيه بأعدل الآراء وأدناها إلى السلم والإرضاء[3].

(١) احمد راتب عرموش - المرجع السابق ص١٨٩ .
(٢) احمد راتب عرموش - نفس المرجع ص١٩٥ .
(٣) عباس محمود العقاد - المرجع السابق ص٦٩ .

كذلك فإن المسلمين انفسهم تألفوا من مهاجرين وأنصار، ومع أن المؤاخاة بينهم قضت إلى حد كبير على أية إمكانية للخلاف والاختلاف، فإن وجود المنافقين بين صفوفهم، ومقدرتهم على تضخيم الأمور الصغيرة وإشعال نار الفتنة، بالاضافة إلى قرب العهد بالجاهلية، كان يؤدي إلى وقوع حوادث وفتن كثيرة، وكان الرسول في كل مرة، بسياسته الحكيمة وحسن تصرفه، يستطيع أن يقضي على الفتنة في مهدها، بل ويوظفها في مصلحة المسلمين وتعزيز اللحمة بيهم. وحسن التصرف هو نصف السياسة، ويتجلى أكثر في السياسة الداخلية، وهو الذي أمن الاستقرار الداخلي للدولة الناشئة. ولعل تصرف الرسول ﷺ مع أبي سفيان الأموي، أكبر أعدائه قبل إسلامه، يعطي فكرة واضحة عن تصرفاته الحكيمة. فهو قد حبسه يوم فتح مكة في مكان بحيث تمر جميع قوات المسلمين أمامه، حتى لا يدور في خلده أي تفكير في المقاومة. وبما أنه يعرفه محبًا للرياسة والزعامة، جعل (من يدخل دار أبي سفيان فهو آمن) كمن يدخل الحرم الشريف أو يبقى في بيته. وهذا ما جعل أبا سفيان يخرج في جيش المسلمين مقاتلا، بعد ما كان قائد قوات المشركين، ويحضر غزوة حنين وهو حديث عهد في الإسلام، لم يدخل الإيمان قلبه. وعند تقسيم الغنائم جاء أبوسفيان الأموي والأموال بين يدي رسول الله ﷺ فقال: «يا رسول الله، أصبحت أكثر قريش مالا! فتبسم رسول الله ﷺ. وقال: أعطني من هذا المال يا رسول الله! قال: يا بلال، زن لأبي سفيان أربعين أوقية، وأعطوه مائة من الإبل. . قال أبوسفيان: إنك الكريم، فداك أبي وأمي! ولقد حاربتك فنعم المحارب كنت، ثم سالمتك فنعم المسالم أنت» وهذا مثل من أمثال كثيرة تحول فيها العدو إلى صديق، ثم إلى محب[1].

وعندما بلغ الرسول، يوم فتح مكة، قول سعد بن عبادة، قائد قوات الأنصار المتقدمة نحو مكة لدخولها من الجهة الغربية «اليوم يوم الملحمة» أخذ منه الراية ليتحاشى تهور سعد، ومعركة هو في غنى عنها. ولكن حسن التصرف بدا جليا في تسليم الراية لابنه قيس بن سعد. وبهذا التصرف الحكيم حال دون تهور سعد، وفي الوقت ذاته لم يثره، ولا أثار الأنصار. فهو لم يأخذ الراية من أنصاري ويسلمها لمهاجر، بل أخذها من أنصاري وسلمها لابنه. ومن طبيعة البشر أن لا يرضى الإنسان بأن يكون أحد أفضل منه إلا ابنه. وفي أثناء غزوة بني المصطلق، وبينما جيش المسلمين على نبع ماء يقال له «المريسيع» تزاحم أجير لعمر بن الخطاب اسمه «جهجاه» وأحد الأنصار. فصرخ الأنصاري: يا معشر الأنصار. وصرخ جهجاه: يا معشر المهاجرين. فغضب عبدالله بن أبي بن سلول، رأس المنافقين، وقال: «أو فعلوها؟ قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا، والله ما أعدنا وجلابيب قريش إلا كما قال الأول: سمن كلبك يأكلك! أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل». وكان بين الحضور الذين سمعوا الكلام غلام اسمه زيد بن أرقم، فأخبر الرسول ﷺ بما

---

(١) احمد راتب عرموش - المرجع السابق ص١٩٦.

سمع. وكان عنـد عمر بن الخطاب، فقال: مـر عباد بن بشر فليـقتله، فقال رسـول الله تلك الجملة المأثورة التي يجب أن يحفظها كل قائد ويضعها نصب عينيه، قال: «فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمـدًا يقتل أصحابـه! ولكن أذن بالرحيل». ولم تكن الساعة سـاعة رحيل، كانت شـمس الجزيرة اللافحة تلهب الجيش، ومع ذلك سار النهار وأتبعـه بالليل، فشغل الناس بأنفسهم، وأنهكهم التعب، فلما أناخوا، ناموا، ولم يسمح لهم وضعهم الجسدي بالعودة إلى الحديث بالموضوع. لم يحاسب ابن أبي سلول، وقبل اعـتذاره، رغم تأكده من كـذبه الذي أكده القرآن الكريم، لأنه كـان صاحب مكانة مرمـوقة في المدينة، وله أتباع وأنصـار، ويمكنه ان يحدث فتنة تزعـزع الاستقرار في المدينة. فـفضل الرسول ﷺ اتبـاع أسلوب الملاطفة معـه والملاينة، والتغاضي عن الأخطاء والهـفوات، وبذلك يبقـيه معزولا فـي المجتمع، لا يستطيع أن يشـير أي عطف. «قد يقول البـعض: إن الحفاظ على الاسـتقرار الداخلي بهذا الأسلوب ضـعف في الدولة، وكان رسول الله ﷺ أن يـقطع رأس الأفعى لا أن يلمس جلدها، ولكن سياسـة رسول الله ﷺ مختلفة، ونظرته إلى الأمـور أبعد، إنه ينظر إلى أن قطع رأس الأفعى التي لهـا فراخ يولد الكره له في فـراخها، وهو عليـه الصلاة والسلام يريد أن يسـوس شعب دولته بالحب لا بالسيف، فحيـثما أمكن نثر بذور الحب امتنع استعمـال السيف، وهذا ما جعل شعب دولة الإسلام متفانيًا في الدفاع عن رسول الله ﷺ وعن دولته[1].

سياسة رسول الله محمد ﷺ مع القوى والقبائل المجاورة

لابد لأي دولة في العالم من التعاطي مع الدول المجاورة، وبالتالي فإن العلاقات بينها وبينهم تتنوع من التعاون وحسن الجـوار والخصومة أو الحرب. وبما أن الرسول محمـد ﷺ كان يحمل رسالة عليه أن يؤديهـا إلى الناس كافـة، فقد كـان عليه أن يحيط بما يـجري في الدول المجاورة، ويتـعرف أخبارها، ويدعوها إلى الإيمان بالله، كما دعا قريشًـا وغيرها من القبائل العربية. وفي المراحل الأولى من الدعوة، كانـت السياسية الخـارجية تقتـصر على التعامل مع قـريش وغيرها من القبائـل العربية، ولكنها بعد بسط سيادة الدولة الإسلامية على الجـزيرة العربية انتقل التعامل إلى الدولة المجاورة ومنها فارس والروم، الدولتان الـعظيمتان في ذلك الزمن. وفي السـياسة الخارجيـة تظهر أهمية صـفة «بعد النظر» وحسن الاختيـار بين السلم والحرب. فكم من قائد دمره غروره، وقصـر نظره، وسوء تقديره للأمور. وكم من قـائد يمضي الأيام ويصرف الأموال في تصـحيح أخطائه السابقة. أمـا الرسول ﷺ فقـد أثبتت الأيام صـحة قراراته كلهـا، وبعد نظره، وقـدرته الفائقة علـى كسب الأصدقـاء، وعزل الأعداء[2].

---

(١) احمد راتب عرموش - نفس المرجع ص١٩٧ .

(٢) احمد راتب عرموش - نفس المرجع ص١٩٨.

«ففي عهد الحديبية تجلى تدبير محمد ﷺ في سياسة خصومه، وسياسة أتباعه، وفي الاعتماد على السلم والعهد حيث يحسنان ويصلحان، والاعتماد على الحرب والقوة حيث لا تحسن المسالمة ولا تصلح العهود. بدأ بالدعوة إلى الحج، فلم يقصره في تلك السنة على المسلمين المصدقين لرسالته.. بل شمل بعض كل من أراد الحج من أبناء القبائل العربية التي تشارك المسلمين في تعظيم البيت والسعي إليه، فجعل له وللعرب أجمعين قضية واحدة في وجه قريش، ومصلحة واحدة في وجه مصلحتها، وفضل بذلك بين دعواها ودعوى القبائل الأخرى. ثم أفسد على قريش ما تعمده من إثاره نخوة العرب وتوجيهها إلى مناوأة محمد والرسالة الإسلامية[1]. فليس محمد وأصحابه أناسا معزولين عن النخوة العربية يضعون من شأنها ويبطلون مفاخرها، ولكنهم إذن عرب ينتصر بهم العرب ولا يذلون بانتصارهم، أو يقطعون ما بينهم وبين آبائهم وأجدادهم». وعند توقيع الهدنة لم يدرك الصحابة أهميتها ولكن بعد نظر الرسول جعله يرى ما لا يرون، ويدرك ما لا يدركون. وبعد مدة ليست بالطويلة بدأت نتائج الهدنة الميمونة تظهر للعيان. وأدرك الصحابة خطأهم، وعلى رأسهم عمر ابن الخطاب الذي بقي يلوم نفسه على معارضته في ذلك اليوم إلى أن توفاه الله تعالى «قال أبو سعيد الخدري: جلست عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه يومًا، فذكر القضية فقال: لقد دخلني يومئذ من الشك، وراجعت النبي ﷺ يومئذ مراجعة ما راجعته مثلها قط. ولقد عتقت فيما دخلني يومئذ رقابًا، وصمت دهرًا، وإني لأذكر ما صنعت خاليًا فيكون أكبر همي، ثم جعل الله عاقبة القضية خيرًا، فينبغي للعباد أن يتهموا الرأي. والله لقد دخلني يومئذ من الشك حتى قلت في نفسي: لو كنا مائة رجل على مثل رأي ما دخلنا فيه أبدًا. فلما وقعت القضية أسلم في الهدنة أكثر ممن كان أسلم من يوم دعا رسول الله ﷺ إلى يوم الحديبية، وما كان في الإسلام فتح أعظم من الحديبية».

وبعد تقسيم الغنائم في الجعرانة، قدم على النبي ﷺ وفد هوازن مسلمين، فأعاد إليهم نساءهم وأولادهم، وسألهم: «ما فعل مالك؟»[2] قالوا: يا رسول الله، هرب فلحق بحصن الطائف مع ثقيف في حين هو أمير هوازن قال رسول الله ﷺ: «أخبروه أنه إن كان يأتي مسلمًا رددت عليه أهله وماله، وأعطيته مائة من الإبل». وكان رسول الله ﷺ أمر بحبس أهل مالك بمكة عند عمتهم، أم عبد الله بنت أبي أمية وأوقف تقسيم أموال مالك. فلما علم مالك أن ماله موقوف لم يوزع، وأن أهله مكرمون عند عمتهم، قرر القدوم على الرسول ﷺ والدخول في الإسلام وخاف على نفسه ثقيفًا إن هم عرفوا بقراره، أو علموا بمقصده فرتب هربه من ثقيف بأن وضع بعيرًا خارج الطائف في مكان اسمه «دحنا» وهرب ليلا على فرسه حتى وصل ذلك المكان. فامتطى راحلته وأسرع بها حتى

---

(١) عباس محمود العقاد - المرجع السابق ص٦٠.

(٢) أي مالك بن عوف النصري، قائد تحالف ثقيف وهوازن في غزوة حنين، الذي أوقع خسائر جسيمة في جيش المسلمين، والذي هرب إلى الطائف في موقعه من غزوة حنين.

لحق بالرسول ﷺ فرد عليه أهله وماله، وعينه قائدًا على من أسلم من قومه، ومن القبائل التي كانت تقيم حول الطائف، وعقد له لواء، فكان يقاتل بمن أسلم معه أهل الشرك، ويغير بهم على ثقيف، حتى حصر أهل الطائف فيها، فلا يخرج لهم قطيع إلا استولى عليه، ولا تمكن من رجل منهم إلا قتله وهكذا فقد استطاع الرسول ﷺ ببعد نظره، وخبرته بالرجال، تحويل عدوه إلى تابع له، يؤدي أفضل الخدمات للإسلام والمسلمين، لقد عرف حرص مالك على أهله وأمواله، وحبه للزعامة والقيادة، فأعاد إليه أهله وأمواله، وزاده من مال الله الذي بين يديه، واستعمله على المسلمين من قبيلته فحبب إليه الإسلام، ورغبه فيه. وقد يتطرق إلى الذهن أن الرسول اشتراه بالمال، بالمعنى المعاصر، وأنه لم يسلم عن إيمان، بل أسلم خوفًا على أهله وطمعا في المال. وهذا صحيح إلى حد كبير. ولكن ما الخسارة في ذلك؟ بل ولنفرضه يظهر الإسلام، ويبطن الشرك، فهو عدو يقاتل عدوًا، ففي ذلك كسب المسلمين، وهذا نوع من السياسة الحكيمة لا مانع من اللجوء إليها عند الضرورة، كما فعل الرسول ﷺ[1].

خرج رسول الله محمد ﷺ ذات يوم على أصحابه فقال لهم: «إني بعثت رحمة وكافة: فأدوا عني يرحمكم الله ولا تختلفوا علي كاختلاف الحواريين على عيسى بن مريم، قال يا رسول الله وكيف كان اختلافهم؟ قال: دعا إلى مثل ما دعوتكم إليه، فأما من قرب به فأحب وسلم وأما من بعد به فكره وأبى، فشكا ذلك منهم عيسى إلى الله عز وجل، فأصبحوا من ليلتهم تلك وكل رجل منهم يتكلم بلغة القوم الذين بعث إليهم فقال عيسى: هذا أمر قد عزم الله لكم عليه فامضوا» ثم فرق رسول الله محمد ﷺ أصحابه إلى الملوك والحكام[2]..

مارس الرسول ﷺ السياسة بمفاهيم مثالية قد لا يستوعبها الناس في هذا العصر، مع أنه عاش الواقع، ومارس «فن الممكن» فتحالف مع مشركين في حلفه مع خزاعة، وتعاقد مع يهود في الصحيفة، فلم ينقض عهدًا، ولم يغدر بعدو، ولم يتخل عن صديق. وبقي أن نشير إلى أنه من الصفات الضرورية للقائد السياسي الناجح أن يكون فصيح اللسان، جميل، يدخل إلى قلوب مخاطبيه، ويقنعهم بأفكاره بأوجز عبارة. «أما محمد ﷺ فقد كان جمال فصاحته في نطقه كجمال فصاحته في كلامه، وهو يقول عن نفسه أنه أوتي جوامع الكلم، ولذلك نراه يطلق الشعارات كما هي الحال في العصر الحاضر، ولكنها شعارات رائعة، كل شعار يختصر موسوعة في علم الاجتماع، أو السياسة، أو غيرها مثل: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوي» «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» و«لاضرر ولا ضرار» و«الظلم ظلمات يوم القيامة» و«الدين النصيحة» وبقيت تلك الشعارات منارات للبشر كافة، تنير لهم الطريق عبر العصور[3].

---

(١) أحمد راتب عرموش - المرجع السابق ص٢٠١ .

(٢) د. حسن إبراهيم حسن - المرجع السابق ص١٥٨.

(٣) أحمد راتب عرموش - نفس المرجع ص٢٠٥ .

الدولة الإسلامية وعلاقاتها مع اليهود

كان اليهـود يؤلفون عنصرا قويًا مـن عناصر السكان في المدينة. ولقد تعاونت التـجارة والربا على جعلهم أصحـاب ثراء ضخم. وكان من دأب الأوس والخزرج، عامة، ان يقـترضوا المال منهم. وفي حقل الثـقافة أيضا، بل لقـد تقدموا جيـرانهم في كل ميدان من مـيادين الحياة تقـريبًا. ولدن وصول النبي إلى المدينة عقد اليهود اتفـاقًا مع المسلمين ولكن ازدهار الإسلام المتعاظم أضرم في قلوب اليهـود شرارة الحـسد. ولقـد وقفوا، ببـقائهم على اتصـال بالمنافقين سـري، إلى انزال أعظم الأذى بالمسلمين. ولم يتورعوا حتى عـن إيذاء الرسول نفسه، الذي كانوا يوجهون إليـه كلمات بذيئة نابية. وكانوا، مـثلا، إذا ما تحدثو إليـه حرفوا كلمة «راعنا» التي تعني «أصـغ إلينا» إلى «رعينا» وتعني «إنه مجنون» بسبب من حذف حرف العلة. وكذلك كانوا يحرفون كلمة «السلام عليكم» فيلفظونها «السام عليكم» أي الموت لكم. واصطنع اليهـود خططًا بارعة عديدة للإضـرار بقضية الإسلام فكان بـعضهم يعتنقـون الدين الجديد وكل قصدهم ان يخـرجوا من حظيرته عـددًا من المسلمين كبيرًا. ومـا كان في بادئ الأمر حسـدًا انتهى مع الأيام إلى أن يغدو عداوة حقيـقية. لقد عرضوا بالسـيدات المسلمات في أبيات من الشـعر الفاحـش، أيضًا. بل لقد انحطوا إلى درك مـضايقـتهن في الشوارع. وقـد أمضت إحدى هذه الحوادث إلى مقتل رجل يهوديٍ وآخر مسلم فـي شارع بالمدينة، وإلى نشوب قتال حقيقي بين الطائفتين. وعمد بنو قينقاع، إلى تحذير هؤلاء زاعمين انهم ليسوا مثل قريش، وأنهم سوف يلقون على أصحاب محمد درسًا قاسيًا. وهكذا نقضوا عهدهم، واعتصموا في حصونهم عاقدين العزم على مقاتلة المسلـمين. وتعين على المسلمين أيضا أن يتأهبوا للحـرب، فألقوا الحصار عـلى تلك الحصون. وبعد خمســة عشر يومًا انقضت على الحصار اسـتسلم بنو قينقاع وأبدوا استعدادهن لقـبول أيما عقوبة يرى الرسول إنزالـها بهم، جزاء نقـضهم عـهده. لقد طلب إليـهم أن يجلوا على المدينة، فـفعلوا، واستـقروا في أذرعات من بلاد الشام. وإنما تم ذلك بـعد شهر واحـد، تقريبًا، من معـركة بدر[1]. قامت بنو النضير، على الرغم من تعاهدها مع المسلمين، بمفـاوضات سرية مع قريش منذ البدء. لقد كتب القرشـيون إليها. قـبل موقعة بدر، يسألـونها قتل الرسول. والواقع أن بني النضـير هؤلاء دعوا الرسول ذات يوم وحاولوا الغدر به، ولكن محاولتهم أخفقت.

وإذ تجلت خيانتهم من طريق أعمال كهـذه لم يعد في طوق الرسول أن يجيز لمثل هذا العنصر الخطر أن يبقي في قلب المدينة من غير ان يعرضُ سلامته وسلامة المسلمين للخطر. وهكذا خيروا بين تجديد اتفـاقهم مع المسلمين كتـوكيد لنيـاتهم السلمية، أو الجـلاء والاقامة في مكان آخـر. وجدد بنو قريظة الذين لم يهتموا حتى الآن بأيما عمل جدي غادر ضد المسلمين، عهدهم عن طيب نفس. ولكن

---

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص١٧١.

بني النضير، وكانوا نزاعين إلى الشر والأذى، رفضا الإقدام على ذلك. ومن ثم أمسوا أعداء للإسلام على نحو صريح ووعدهم عبد الله بن أبي، أيضا، العون والمساعدة، فزادهم ذلك ثباتًا في مقاومتهم للمسلمين. ويتعين علينا أن لا ننسى هنا أن الإسلام كان يمر آنذاك بمرحلة حرجة جدًا من مراحل حياته. كانت هي فترة معركة أحد، عندما تألب الأعداء من كل صوب وشهروا السلاح لتسديد ضربة قاضية إلى الإسلام. كان الهجوم، يشن من الخارج، خطرًا من غير ريب، لكن الانفجار الداخلي المرتقب في كل لحظة كان أشد من ذلك خطرًا. يقول المثل: الإنذار المسبق يساوي التسلح المسبق. وكان هذا ممكنًا في حال هجوم خارجي، لما يتيحه للمسلمين من وقت يستعدون خلاله لمواجهة الوضع. أما الانفجار غير المرتقب في المدينة نفسها فخليق به أن يكون طعنة قاتلة توجه إلى فؤاد الإسلام نفسه[1].

وكان بنو النضير على صلات ودية مع أعداء الإسلام. وهكذا كان رفضهم تجديد الاتفاق بمثابة إعلان للحرب. وإلى هذا، فقد كانوا متهمين بمحاولة اغتيال الرسول. ونظرا لهذه الاعتبارات كلها لم يكن أمام المسلمين غير سبيل واحد: أن يعاملوهم معاملة أعداء جاهروا بعداوتهم. وهكذا ألقوا الحصار على حصونهم، ثم رفعوه شريطة أن يجلو بنو النضير عن المدينة. فشخص بعضهم إلى خيبر واستقروا فيها. وإنما حدث ذلك في السنة الرابعة للهجرة. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾﴾ [آل عمران].

ومثل بنو النضير دورا هاما في معركة الأحزاب. فبالإضافة إلى تحريضهم بيوتات قريش، راحوا يطوفون في الصحراء ملمين بمضارب البدو، يثيرونهم على الإسلام. وتأثر بنو قريظة أيضا، وكان موقفهم من الإسلام حتى ذلك الحين وديا، بهذه الحملة الدعاوية. لقد رفض بنو قريظة هؤلاء، أول الأمر، أن يشاركوا في الحرب ضد الرسلام. ولكنهم تلقوا تأكيدات تفيد أن المسلمين كانوا في وضع يائس لن يتمكنوا معه من البقاء. إنهم لن يستطيعوا، بأية حال، الصمود في وجه الأعداد الضخمة التي تجمعت، مثل نبات الفطر، في كل ناحية، للقضاء على الإسلام. ولقد قيل لبني قريظة إنه قد آن لهم أن يختاروا بين الانحياز إلى المسلمين وبين التعاون مع الأحزاب. وهكذا أقنع بنو قريظة بالانضمام إلى صف سائر القبائل المعادية للإسلام. فنقضوا عهدهم الذي أعطوه للمسلمين، وتحالفوا مع الأحزاب. والحق أن الميثاق الجديد، برغم أنه عقد سرا، لم يبق حرفا ميتا. فقد شارك بنو قريظة عمليا في القتال. وإلى هذا يشير القرآن الكريم بقوله: ﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾﴾ [الأحزاب][2]. والتاريخ، أيضا، يشهد على اشتراكهم في المعركة. بل لقد بيتوا خطة للهجوم على نساء المسلمين أيضا.

---

(١) مولانا محمد علي - نفس المرجع ص١٧٢.

(٢) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص١٧٣.

وكان في خيانة بني قريظة ـ وقد برز في الجانب الآخر من الخندق أربعة وعشرون ألف مقاتل متحرقين لسحق الإسلام، وانهمك المنافقون في إنزال الأذى بالمسلمين في الداخل ـ ما زاد في متاعب الرسول وأصحابه إلى حد بعيد. وهكذا رئي، عند انقضاء معركة الأحزاب، أن من المناسب أن تنزل ببني قريظة العقوبة التي يستحقون، والتي قد تحول دون تكرر مثل هذه الخيانة الغادرة في المستقبل. ومن ثم ألقى المسلمون الحصار على معاقلهم. فاستسلموا بعد مقاومة قصيرة. وإنما حدث هذا في السنة الخامسة للهجرة. وقد اختار بنو قريظة بأنفسهم سعد بن معاذ، وكان في ما مضي حليفهم، حكما يعين العقوبة التي يستحقون. ولو أنهم فوضوا أمرهم إلى رسول الله محمد ﷺ إذن لعاملهم في أغلب الظن كما عامل أبناء عمومتهم بني قينقاع وبني النضير. لقد كان خليقا به أن يحكم عليهم، في أسوأ الأحوال، بالنفي من المدينة. ولكن سعدا، الحكم الذي اصطفوه هم، كان ينظر إلى غدرهم الخطر، في لحظة الحرة، باشمئزاز بالغ. لقد ارتأى أن أعظم الأذى الذي أنزلوه بالمسلمين يقتضي عقوبة نموذجية بدونها لن تحظى المواثيق، في المستقبل، إلا باحترام ضئيل، وقد يعتبرها أي من الفريقين المعنيين عندئذ قصاصات ورق لا قيمة لها. ومن هنا انتهى إلى هذا القرار: أن جزاءهم العادل يجب أن لا يكون، بأية حال أخف من تلك التي قضى بها كتابهم المقدس، العهد القديم، في حق العدو المهزوم. وهذا ما يقضي به «العهد القديم» في هذا الصدد(1):

«وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف. وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة، كل غنيمتها، فتغنمها لنفسك وتأكل غنمية أعدائك التي أعطاك الرب إلهك» (سفر التثنية، ٢٠: ١٣ ـ ١٤). وهكذا حكم سعد، وفقا للشريعة الموسوية، بقتل ذكور بني قريظة، وعددهم ثلاثمائة، وبسبي نسائهم وأطفالهم، وبمصادرة ممتلكاتهم. ومهما بدت هذه العقوبة قاسية فقد كانت على وجه الضبط العقوبة التي كان اليهود ينزلونها، تبعا لتشريع كتابهم المقدس، بالمغلوبين من أعدائهم. وإلى هذا فإن جريمة الغدر الشائنة التي اتهم بها بنو قريظة خليق بها، في مثل تلك الظروف، أن لا تجازى بأيما عقوبة أخف، حتى في عصر المدنية المعاصرة هذا. كان القاضي من اختيارهم، وكان الحكم منطبقا أشد انطباق مع شريعتهم المقدسة نفسها. وفوق ذلك، فقد أدينوا بخيانة كبرى من نوع خطير. فهل من المنطق في شيء أن ينتقد الرسول لهذا السبب؟ أن كل اعتراض على قسوة هذه العقوبة هو اعتراض على الشريعة الموسوية. إنه في الواقع انتقاد لا شعوري لتلك الشريعة، وتسليم بأن شريعة أكثر إنسانية بحسب أن تحل محلها. وإنما مقارنة بالشريعة الإسلامية في هذا الصدد خليق بها أن تكشف، في وضوح بالغ، أي قانون رفيق، عطوف، رحيم قدمه الإسلام إلى الناس.

(1) مولانا محمد علي - نفس المرجع ص١٧٤.

يرجع موقف اليهـود من المسلمين إلى مجيء رسول الله محمـد ﷺ إلى المدينة عندما اتخذها مركـزًا لنشر دعوته، فقـد رأوا في رسول الله محـمد ﷺ وفي دينه الإسلام مناخـًا جديدًا يوشك أن يقضي على نفـوذهم وعلى نفوذ المسيحـيين جميعـا وأن ينتزع من الفريقين لواء الزعامـة الدينية الذي يتجـاذبونه، فقد كان رسـول الله من صميم العرب ومن أكـرم بيوتات قريش، فهـو لذلك أقرب إلى نفوس العرب الذين يبغضون اليهود الذين جـاؤوا من الشام بعد أن طردهم المسيحيون لذلك كان أهل المدينة أسرع إلى قبول دعوة رسول الله محمد ﷺ والانضواء تحت ذلك النبي العربي الذي كان اليهود يستفتحون به عليهم[1].

أما موقعة خـيبر فقد حدثت بعد صلـح الحديبيـــة، في السنة الســـابعة للهجرة، فحين نفى بنو النضير من المدينة، نزلت كثرتهم الكبرى، وبخاصة زعمـاؤهـم وأعيانهم، في خيبر، معقل اليهود في بلاد العرب، على مبعدة مئتي ميل، تقريبا، من المدينة. وكان اليهود ينعمون ثمة بسلطان مستقل، وكانوا قد حصنوا الموقع تحصينًا قويا. حتى إذا وفد عليهم بنو نضير غرست بذرة العداوة للإسلام في قلوبهم. وما إن نشـبت معركـة الأحزاب حتى راحـوا يحرضون المكيين، وقـبيلة غطفان، والقـبائل البدوية، على المسلمين، بل لقـد وفقوا إلى اكتسـاب تعاون بني قريظة أيضا. ورسـخت جذور القوة الإسلامية في المدينة بعد إخفاق حملة الأحزاب. ولكن الحقد اليهودي لم يزد إلا ضراوة. ولقد أجروا مفاوضـات سرية مع عبد الله ابن أبي، زعـيم المنافقين، الذي أكد لهم توكيـدا جازما انه لا يزال في إمكانهم سحـق القوة الإسلامـية. وفي العام السـادس للهجرة منع المـكيون الرسول من أداء فـريضة الحج، وتعين عليـه ان يعقد مـعهم صلحـا بشروط مـذلة بعض الشيء. وكان في هذا مـا مكن في نفوسهم الاعـتقاد باضمحلال قوة الإسـلام، فراودتهم آمال جديدة في القضـاء على المسلمين نهائيا. عندئذ شرعوا يتـآمرون مرة أخري مع قبيـلة غطفان، رجاء تسيير حـملة جديدة على المدينة. وبلغت الرسول أنباء ما بيـتوه، حتى إذا تبين الأمر واستوثق من صـحته، سير إلى خيبـر قوة مؤلفة من ألف وستمـائة مقـاتل. وعلى منتصـف الطريق بين خيـبر ومنازل غطـفان يقع مـوطن يعرف بالرجـيع. ولاعتبارات استراتيجية اختير الرجـيع قاعدة للهجوم، إذ كان يقطع كل اتصال بينهما. وهكذا لم يعد في إمكان اليـهود أن يرتقـبوا أيما عـون من غطفان. ليس هذا فـحسب، بل ان غطفـان ـ التي وعت خطورة مثل أقدمت عليـه ـ خشـيت أن يشن المسلمون عليـها هجـوما، فـهي من نفسـها في شـغل شاغل[2].

لقد ظن أن اليهود سوف يتخلون عن فكرة المقاومة، ويجنحون إلى الاستسلام. حتي إذا تقدم المسلمون إلى خـيبر تبـدي ان اليهود كـانوا قد اتخذوا اسـتعدادات كاملة لخوض معركـة ضارية مع

---

(١) د. حسن إبراهيم حسن - المرجع السابق ص١٣١.

(٢) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص١٧٥.

المسلمين. وبدأ القتال. ووفق المسلمون إلى احتلال عدد من حصون اليهود، أما حصن« القموص»، ،كان منيعا جدا يحميه عدد من الرجال وافر، فامتنع عليهم. والواقع انه صمد لهجماتهم نحوا من عشرين يوما، ولم يسقط إلا بعد أن حمل عليه الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه حملة ضارية. ثم ان اليهود استسلموا، وطلبوا أن يبقيهم الرسول على أراضيهم شرط أن يقدموا إلى المسلمين نصف ثمرها. فأجابهم الرسول إلى ما طلبوا، وأجاز لهم الاحتفاظ بأراضيهم، برغم ثقته من انهم لن يحجموا عن إنزال الأذى بالمسلمين حين تتاح لهم الفرصة. وبعيد عقد هذه التسوية مباشرة، ائتمر زعماء اليهود بالرسول، وحرضوا زينب بنت الحارث بن أبي زينب، وكانت زوجة سلام بن مشكم الذي قتل في المعركة، على أن تدعو الرسول إلى طعام مسموم. ولكن العناية الإلهية أشعرت الرسول بما بيت له من غدر، فلم يكد يلوك مضغة من الشاة المسمومة حتى لفظها وهو يقول: «إن هذا العظم ليخبرني انه مسموم»، في حين أساغ أحد أصحابه، بشر بن البراء، ما طعم من الشاة وازدرده فمات من أثر السم. والحق أن المسلمين عاملوا بني النضير بعد ذلك معاملة سمحة، ولكن ما فطروا عليه من غدر ونزوع إلى الأذى جعلهم في نجوة من التأثر بتلك المعاملة السمحة، فلم تنطفىء في قلوبهم نار العداوة للإسلام. لقد ظلوا مصدر ازعاج للمسلمين سرمدي، فلم يكفوا يوما عن التآمر عليهم وعن إيذائهم على نحو خسيس. ولقد واصلوا مؤامراتهم تلك حتى خلافة عمر بن الخطاب. وذات يوم قذفوا بابن عمر نفسه، عبد الله، من سطح بيت من البيوت. وإذ اثبتت الأيام اخفاق كل محاولة من المحاولات التي قام بها المسلمون لتألفهم، نفوهم آخر الأمر إلى بلاد الشام[1].

بيد أن الرسول حاسن يهود خيبر وعاملهم معاملة رحيمة. لقد بذل قصاري جهده لتألفهم. وكان خليقا بالمحاولة التي قاموا بها لتسميمه أن تبرر اتخاذ أقسى الإجراءات ضد الشعب اليهودي كله. ولكنه كان شديد الحرص على أن يراهم متحدين مع المسلمين برباط من المودة والصداقة. ومن هنا لم تنزل بهم أيما عقوبة. لقد اجترأ بانزال عقوبة الموت بزينب وحدها، التي كانت الأداة المباشرة لتنفيذ تلك الجريمة الحقيرة، وهذه أيضا إنما قتلت في بشر الذي مات مسموما. وعفا الرسول عن المتآمرين ـ والشعب اليهودي كله تورط في المحاولة الشنيعة ـ وتركهم ينعمون بالأمن والسلام. لقد استحقوا كلهم عقوبة الموت، ولكن الرسول رجا أن يفُضي العفو إلى تغيير موقفهم المعادي. وبالإضافة إلى هذا كله، قام بخطوة أخرى في سبيل الصداقة معهم. فقد كان بين السبايا التي أخذها المسلمون من حصون خيبر صفية ابنة زعيم بني نضير حيي بن أخطب. فأعتقها الرسول وتزوجها. ولقد زعم الزاعمون أن المسلمين غنموا عند فتحهم خيبر كنوزا أسطورية. إن الرسول، يوم بنائه بصفية، لم يجد ما يمكنه من دعوة أصدقائه، جريا على مألوف العدة، إلى وليمة عرس. ومن أجل

(١) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص١٧٧.

ذلك سأل كل من الصحابة أن يحمل معه طعامه. فتشكلت من مجموع هذا كله وليمة العرس. وكان ما وضع أمام الجماعة لا يعدو التمر ومسحوق الشعير. على هذا النحو احتفل بزواج ملك منتصر من أميرة![1].

توحيد ونشر الإسلام في الجزيرة العربية

في طريق عـودته من الطائف في شهـر ذي القعـدة في السنة الثامنة لـلهجرة، وبـعد أن أدى العمرة رجع إلى المدينة في أواخر العـام. كانت مكة تعرف بأم القرى، أي أم المدن. وعلى الرغم من أنها لم تكن العاصمة الزمنية للجزيرة، فقد كانت بلاد العرب كلها تدين لها بالولاء الروحي. فخلال أشهر الحج، الناس يتدفقون عليها، عاما بعد عام، من كل حـدب وصوب. فطبيعي أن يكون لأهل مكة سلطان عظيم على الجـزيرة التي بايعت قريشـا بالزعامـة في شؤون الدين. وكـان الرسول، في الأيام الغابرة، كلما دعا قبيلة إلى الدخول فـي الإسلام أجيب بأن عليه أن يقنع قومه أولا. وهكذا ما إن تم فـتـح مكة ودخل أهلهـا في الدين زرافـات زرافـات حتى ترك ذلك فـي النفوس قـاطبـة أثرا أعجوبيـا. وإلى هذا، فقد شهدوا بأم العين كـيف كتب النصر آخر الأمـر للرسول، وهو الذي جابه معارضة قريش وحيدا والذي نبذته القبائل كلها. لقد حصحص الحق، فكان من ثمرات ذلك أن شرع الناس ينضوون تحـت راية الإسلام. ذلك هو السبب الذي انـتـشر من أجله الإسـلام، خلال السنتين التاسعـة والعاشرة للهجـرة، في طول بلاد العرب وعرضها. وإنما اسـتهلت هذه الفترة، فـترة اعتناق الإسلام على نحو جمـاعي، في السنة التاسعة، عندما أعلنت القبائل واحدة بـعد أخرى دخولها في الدين. وفي تلك السنة نفسهـا نظم الرسول جمع الزكاة من مختلف القـبائل المسلمة. ونظمت دائرة خاصة لهـذا الغرض ووجه جامـعي الزكاة إلى مختلف المواطـن. كانت الزكاة فرضا واجـبا على كل مسلم. وإذا كانت الزكـاة هي المورد الأساسي لبيت المال، أو الخزينة العـامة، فقد اخـضعت لسيطرة السلطة المركـزية. وذات مرة وفد جـامعو الزكـاة على إحدى القبـائل، وجمـعوا قطيعًـا من الخراف والماشية، فأغارت عـليه قبيلة مجاورة غير مـسلمة، فاغتصبته. فلم يكن من عـيينه بن حصن، زعيم القبيلة المسلمة، إلا أن هاجم المغيرين، على سبيل الثأر، وأسر منهم خمسين شخصا[2].

تعارف كتـاب سيرة رسول الله محـمد ﷺ على تسمية السنـة التاسعة للهجـرة بعام الوفود، لكثرة مـا وفد على رسول الله محـمد ﷺ فيهـا من رجالات القبـائل العربية مبـايعين على الإسلام والطاعة بعد أن فتـحت مكة ودخلت قريش في الإسلام وثبت لسائر العرب أن المسلمين قوة سـياسية وحربيـة إلى جانب العـقيدة الجـديدة التي نزلت على نبيـهم، فقد كـان من أهم آثار انتشـار الدعوة الإسلامية بالجزيرة العربية أن قامت فيـها رابطة جديدة توحد بين قبائلها وأفكارها هذه الرابطة الجديدة

(١) مولانا محمد علي - نفس المرجع ص١٧٨.
(٢) مولانا محمد علي - نفس المرجع ص١٧٩.

هي رابطة الدين التي مهدت لقيام وحدة سياسية تجمع شمل العرب وتوحدهم هدفا وعملا. وقد ظهرت بوادر هذه الوحدة بعد عودة الرسول من غزوة تبوك حيث أخذت القبائل العربية تفد إليه معلنة إسلامها طوعًا واختيارًا(١).

لما فتح رسول الله مكة، وفرغ من تبوك، وأسلمت ثقيف وبايعت، ضرب رسول الله أمد أربعة أشهر لقبائل العرب المشركين لكي يقرروا مصيرهم بأنفسهم قبل أن تتخذ الدولة الإسلامية منهم موقفا معينا، ضربت إليه وفود العرب آباط الإبل من كل وجه معلنة إيمانها وولاءها: وفد بني عبد قيس، وتميم، وعامر، وبني حنيفة، وطيء، والأزد، وهمدان، وتجيب، وبني ثعلبة، وبني سعد هذيم من قضاعة، وفزارة، وأسد، وبهراء، وبلي، ومرة، وخولان، ومحارب، وصدائ، وغسيان، وسلامان، والنخع، وكندة، وزبيد، وغامد، وغيرها... وتحقق قول الله جل شأنه: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝﴾ [النصر] ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ۝﴾ [الفتح].

وفد كندة: وفد على رسول الله ﷺ الأشعث بن قيس في وفد كندة. فى ثمانين راكبًا من كندة، فدخلوا على رسول الله ﷺ مسجده وقد رجلوا جممهم. وتكحلوا، وعليهم جبب الحبرة، قد كففوها بالحرير، فلما دخلوا على رسول الله ﷺ قال: «ألم تسلموا؟» قالوا: بلى، قال: «فما بال هذا الحرير فى أعناقكم؟» قال: فشقوه منها، فألقوه. ثم قال له الأشعث بن قيس: يارسول الله، نحن بنو آكل المرار، وأنت ابن آكل المرار، قال فتبسم رسول الله ﷺ، وقال: «ناسبوا بهذا النسب العباس بن عبدالمطلب وربيعة بن الحارث» وكان العباس وربيعة رجلين تاجرين، وكانا إذا أبعدا فى تجارتها فى بعض العرب فسئلا مما هما قالا: نحن بنو آكل المرار! يتعززان بذلك، وذلك أن كندة كانوا ملوكًا ـ ثم قال لهم: لا، بل نحن بنو النضر بن كنانة، لانقفوا أمنا ولانتفى من أبينا، فقال الأشعث بن قيس: هل فرغتم يا معشر كندة؟ والله لا أسمع رجلا يقولها إلا ضربته ثمانين.

وفد الأزد: وقدم على رسول الله ﷺ صرد بن عبدالله الأزدى، فأسلم وحسن إسلامه، فى وفد من الأزد، فأمره رسول الله ﷺ على من أسلم من قومه، وأمره أن يجاهد بمن أسلم من كان يليه من أهل الشرك من قبائل اليمن. فخرج صرد بن عبدالله يسير بأمر رسول الله ﷺ حتى نزل بجرش، وهى يومئذ مدينة مغلقة فيها قبائل من قبائل اليمن، وقد لجأت إليهم خثعم فدخلوها معهم حين سمعوا بمسير المسلمين إليهم، فحاصرهم فيها صرد قريبًا من شهر، وامتنعوا فيها منه، ثم إنه رجع عنهم قافلا، حتى إذا كان إلى جبل لهم يقال له شكر ظن أهل جرش انه إنما ولى عنهم منهزمًا،

---

(١) د. نبيه عاقل - المرجع السابق ص٥٣٢.

فخرجوا فى طلبه، حتى إذا أدركوه عطف عليهم فقتلهم قتلا شديدا. وقد كان أهل جرش بعثوا رجلين منهم إلى رسول الله ﷺ بالمدينة يرتادان وينظران، فبينما هما عند رسول الله ﷺ عشية بعد صلاة العصر إذ قال رسول الله ﷺ: «بأى بلاد الله شكر؟» فقال الجرشيان فقالا: يارسول الله، ببلادنا جبل يقال له كشر - وكذلك يسميه أهل جرش ـ فقال: «إنه ليس بكشر ولكنه شكر». قالا: فما شأنه يارسول الله؟ قال: «إن بدن الله لتنحر عنده الآن». فجلس الرجلان إلى أبى بكر، أو إلى عثمان، فقال لهما: ويحكما !! إن رسول الله ﷺ الآن ينعى لكما قومكما، فقوما إلى رسول الله ﷺ فاسألاه أن يدعو الله أن يرفع عن قومكما، فقاما إليه فسألاه ذلك، فقال: «اللهم ارفع عنهم» فخرجا من عند رسول الله ﷺ راجعين إلى قومهما، فوجدا قومهما قد أصيبوا يوم أصابهم صرد بن عبدالله، فى اليوم الذى قال فيه رسول الله ﷺ ما قال، وفى الساعة التى ذكر فيها ماذكر. وخرج وفد جرش حتى قدموا على رسول الله ﷺ، فأسلموا، وحمى لهم حمى حول قريتهم على أعلام معلومة للفر، والراحلة وللمثيرة ـ بقرة الحرث ـ فمن رعاه من الناس فماله سحت. وقدم على رسول الله ﷺ بعد مقدمه من تبوك كتاب ملوك حمير، ورسلهم إليه بإسلامهم: الحارث بن عبد كلال، ونعيم بن عبد كلال، والنعمان قيل (أخو الملك) ذى رعين ومعافر وهمدان، وبعث إليه زرعة ذو يزن، مالك بن مرة الرهاوى بإسلامهم، ومفارقتهم الشرك وأهله[1].

كان الإسلام قد اكتسب الآن شعبية عامة فى طول بلاد العرب وعرضها. لقد انتشر نبأ انتصاره النهائى إلى أقصى زوايا الجزيرة. ولم يكن الناس غافلين عما جرى، طوال سنوات وسنوات، بين الرسول وقريش. لقد شهدوا، فى لهفة وشوق، مراحل الصراع كلها. لقد عرفوا كيف عذبته قريش وعذبت أصحابه لتبشيرهم بالفضيلة وبوحدانية الله، وكيف قامت ـ بعد هجرتهم ـ بمحاولات متعددة استمرت ثمانى سنوات، لسحق المسلمين. بعث رسول الله محمد ﷺ الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام وخالد بن الوليد إلى اليمن قبل حجة الوداع[2]، وقال الإمام علي رضي الله عنه[3] (بعثني النبي ﷺ إلى اليمن فقلت: يا رسول الله تبعثني إلى قوم أسن مني وأنا حديث السن لا أبصر القضاء، قال فوضع يده على صدري وقال: اللهم ثبت لسانه واهد قلبه. وقال: يا علي إذا جلس إليك الخصمان فلا تقضي بينهما حتى تسمع من الآخر)[4]. والواقع أن الذين شهدوا مواسم الحج السنوية حملوا هذه الأنباء إلى زوايا البلاد القصوى. وكان الناس على علم أيضًا بنبوءة الرسول القائلة بأن كل مقاومة للاسلام سوف تتلاشى آخر الأمر. وهكذا أخذت الوفود تتدفق على المدينة من كل حدب وصوب. فكان الرسول يستقبلها فى حفاوة بالغة، ويعلمها مبادئ الإسلام فى لطف ليس

---

(١) د. محمد رواس قلعه جي - المرجع السابق ص٢٩٤.

(٢) صحيح البخاري مع فتح الباري: ٨/ ٦٥.

(٣) البزار - مسنده البحر الزخار - ٢/ ٣٠٧، ٣٠٨ رقم ٧٣٣.

(٤) الحاكم - المستدرك مع التلخيص: ٤/ ٩٣ والطيالسي في مسنده: ١٦٢.

بعده لطف. وكـان يبعث مع الذين يعتنقون الإسـلام بمعلم يفقههـم فى الدين. وهكذا تقاطرت إلى المدينة فى النصف الأول من هذه السنة بالذات وفـود مقبلة من مـواطن قصيـة كاليمن، وحضـرموت والبحرين، وعمان، والتخوم الشامية والفارسية(١).

بعد أن قدمت وفود القبـائل إلى مقر الدولة الإسلامية معلنة إسـلامها أصبح على رسول الله ﷺ مهمتان على غاية من الأهمـية: المهمة الأولى: تنظيم الإدارة في تلك المناطق التي أعلنت ولاءها للدولة الإسلامية وإيمانها بالدين الجديد. المهمـة الثانية: تثقيف أولئك الناس الذين دخلوا في الإسلام من جديد، لأن العلم والوعي هما السند الأول الذي يشد عضد الدولة الإسلامية، وبذلك كان لا بد من نشر الوعي الديني بين صفوف القواعـد الشعبية في الدولة الإسلامية حتي لا يبـقي مسلم فيها إلا وهو يعرف أهداف الإسلام، وطرق النفـوذ إلى هذه الأهداف، وهو ما أقيمت الدولة الإسـلامية من أجله. أما تنظيم الإدارة فإنه أمر لا بد منه في كل دولة، لأنه ما سادت الإدارة في دولة من الدول إلا انتشر الظلم، وما انتشر الظلم في أمة إلا شحنت النفوس حقدا على الحاكم، وعمل الناس في الخفاء أو في الظاهر على إزالته. ولذلك اتسـمت هذه السنة العاشـرة بإرسال الكثير من الأمراء والمعلمين إلى أطراف الدولة الإسلامية(٢).

وقدم وفد همدان على رسول الله وفيهم مالك بن نمط، وأبو ثور ومالك بن أيفع، وضمام بن مالك السلماني، وعميرة بن مالك المخارقي فلقـوا رسول الله مرجعه من تبوك فقام مالك بن نمط بين يديه فقال: «يا رسول الله بقية من همدان من كل حاضر وباد، أتوك على قلص نواج، متصلة بحبائل الإسلام لا تأخذهم في الله لومة لائم من مخلاف خارف ويام شاكر، أهل السود والقود أجابوا دعوة الرسول، وفارقوا الإلهـات الأنصاب! عهدهم لا ينقض ما أقامت لعلع، وما جـرى اليعفور بصلع». فكتب لهم رسول الله كتابا فيه: «بسم الله الرحمن الرحـيم، هذا كتاب من رسول الله محمد لمخلاف خارف وأهل جناب الهضب وحقاف الرمل مع وافدها ذي المشاعر مالك بن نمط ومن أسلم من قومه، على أن لهم فراعـها ووهاطها مـا أقاموا الصلاة وآتوا الزكـاة، يأكلون علافهـا ويرعون عافيـها، لهم بذلك عهـد الله وذمام رسـوله، وشاهدهم المهاجـرون والأنصار». وأرسل مـعهم معلمين يعـلمونهم الإسلام. وبعث المهاجـر بن أبي أمية بن المغيـرة إلى صنعاء، فخرج عليه الأسـود العنسي وهو بها. وبعث زياد بن لبيد أخـا بني بياضة الأنصاري إلى حضرمـوت وعلى بني أسد. وبعث مالك بن نويرة

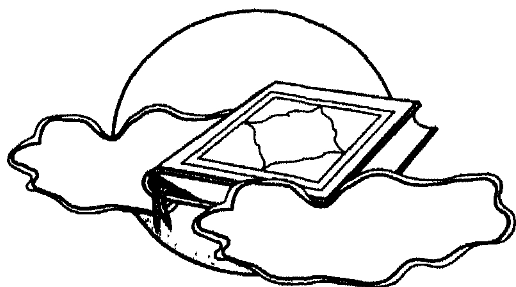
---

(١) د. محمد رواس قلعه جي - المرجع السابق ص٢٩٨.
(٢) د. محمد رواس قلعه جي - المرجع السابق ص٢٩٩ .

على صدقـات بني حنظلة، وفرق بني سعد على رجلـين منهم، فبعث الزبرقان بن بدر على النـاحية منها، وقيس بن عاصم على الناحية. وكان قد بعث العلاء بن الحضرمي على البحرين. وبعث الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه إلى أهـل نجران ليجمع صدقتهم، ويقدم عـليهم بجزيتهم. وبعث غيرهم وغيرهم. وهكذا غطى رسول الله جميع أنحاء الجزيرة العربية بالأمراء والمعلمين[1].

(1) د. محمد رواس قلعه جي - نفس المرجع ص٣٠٢.

الفصل العاشر



الدولة الإسلامية الأولى وعلاقاتها الخارجية

أثبتت الحوادث التي تلت هدنة الحديبية إثباتا لا لبس فيه أنه كان إيذانا بانتصار الإسلام. لقد تعاظمت قوة الإسلام العددية أضعافا مضاعفة. وانضوى، الآن، تحت راية الإسلام فاتحون مشهورون ـ من مثل خالد بن الوليد وعمرو بن العاص ـ كانوا في يوم من الأيام فخر قوات العدو. وهكذا حقق السلم ما عجز عن تحقيقه أي نصر في ساحة القتال، مهما عظم. ولقد اعتبره الرسول بشيرا بمنجزات رائعة، وعدل برنامج نشاطاته وفق ذلك. فلم يكد يرجع من الحديبية حتى دعا المسلمين كافة. وأن الوقت قد حان لحمل رسالة الإسلام إلى كل حدب وصوب، إلى ملوك الممالك المجاورة، أرسل رسول الله محمد ﷺ في السنة السادسة للهجرة الكتب إلى الملوك والأمراء فبعث دحية بن خليفة إلى هرقل إمبراطور الروم، وعبد الله بن حذافة إلى كسرى، وعمر بن أمية إلى النجاشي في الحبشة، وحاطب اللخمي إلي المقوقس عامل هرقل في مصر، وشجاع بن وهب إلى الحارث أبي شمر الغساني، والعلاء الحضرمي إلى البحرين، وعمر بن العاص إلى الجلندي في عمان[1]. ودعوتهم إلى الدخول في دين الله. ومن هذه الرسائل لم يكتشف في الفترة الأخيرة غير تلك التي وجهت إلى المقوقس، ملك مصر، محفوظة في نصها الأصلي حتى يومنا هذا. وتقول الرواية أيضا أن المقوقس عني بصيانة الرسالة ضمن علبة حلي نفيسة. ولقد نشر اليوم نصها الأصلي، فإذا به ينطبق انطاباق حرفيا على ما أوردته الرواية. والحق أن المقوقس رحب بوفد الرسول ترحيبا عظيما، وأرسل إلى الرسول أيضا بعض الهدايا، على الرغم من أنه لم يدخل في الدين الجديد. وقد اشتملت تلك الهدايا على بغلة بيضاء يركبها الرسول شخصيا، وعلى جاريتين اثنتين تزوج الرسول إحداهما، واسمها مارية، وبذلك ارتقت من وضع جارية مملوكة إلى مرتبة ملكة. أما الجارية الأخرى، وتدعى سيرين فقد أهداها الرسول إلى حسان بن ثابت الشاعر فتزوجها[2].

جمع هرقل بطاركته وحاول أن يقنعهم بتبني رأيه في الإسلام، باذلا جهده لحملهم على الاعتقاد بأن هذا التبني سوف يعود عليهم بالخير وقال إني عارض عليكم أمورا فانظروا فيما قد أردتها، قالوا: ما هي، قال تعلمون والله أن هذا الرجل لنبي مرسل وإنا نجده في كتابنا نعرفه بصفته التي وصف لنا فهلم لنتبعه فتسلم دنيانا وآخرتنا فقالوا: نحن نكون تحت يدي العرب ونحن أعظم ملكا وأكثرهم رجالا وأفضلهم بلدا؟[3]. حتى إذا وجد أنهم كارهون، جميعًا، لفكرة التخلي عن

(١) د. حسن إبراهيم حسن - المرجع السابق ص١٥٧.
(٢) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص١٩٥.
(٣) د. حسن إبراهيم حسن - المرجع السابق ص١٦٣.

عقيدتهم القديمة هدأ من غيظهم بأن أكد لهم أنه إنما قال ما قال ليختبر صلابتهم في دينهم ليس غير. وواضح أنه لم يكن في طوقه أن يثير الكنيسة كلها عليه. وهكذا لم يعلن إسلامه جهارا، ومات وهو على تلك الحال نفسها ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (64) ﴾ [آل عمران].

يقول ابن سعد في كتابه «طبقاته» قالوا: إن رسول الله محمد ﷺ لما رجع من الحديبية في ذي الحجة سنة ست، أرسل الرسل إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام وكتب إليهم كتبًا فقيل يا رسول الله، إن الملوك لا يقرؤون كتابا إلا مختوما، فاتخذ رسول الله محمد ﷺ خاتما من فضة فصه منه نقشه ثلاثة أسطر محمد رسول الله وختم به الكتب فتخرج ستة نفر منهم في يوم واحد وذلك في المحرم سنة سبع وأصبح كل رجل منهم يتكلم بلسان القوم الذي بعثه إليهم[1].

واشتملت الرسالة الإسلامية على دعوة أهل الكتاب إلى قبول ما هو مشترك بين عقيدتهم وبين الإسلام: أن لا يعبدوا إلا الله، وأن لا يشركوا به شيئًا، وأن لا يؤلهوا رجالا مثلهم. والواقع أن الآية تلفت الانتباه إلى مبدأ لو اصطنع اليوم إذن لوضع حدا لجميع المنازعات الدينية، صاهرا مختلف الأنظمة في دين كوني واحد، وصاهرا البشرية كلها في إخوة كلية واحدة. إنه يقرر، ابتغاء إزالة الفروق جميعا، أن كل ما هو مشترك بين جميع الأديان يجب أن يقبله الجميع، كأساس يبدأ به، ثم تشاد فوق هذا الأساس جميع التفاصيل الدينية المتداخلة مع هذه الحقيقة الأساسية. وهكذا تستطيع أديان العالم كلها أن تتلاقى على أرض مشتركة وتسوي خلافاتها بطريقة حبية. والواقع أن فكرة الدين الانتقائي التي انبثقت مؤخرا تنسجم مع الحقيقة نفسها التي دعا إليها الإسلام منذ ثلاثة عشر قرنا. وحمل عبد الله بن حذافة السهمي الرسالة إلى كسرى. وكانت بسملته بهذه الكلمات: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد...» وكان كسرى لا يطيق أن يرى اسم أيما امرئ يذكر قبل اسمه. فاستشاط غضبا إذ رأى اسم محمد مقدما على اسمه هو. فأساء الحديث عن الرسول، ومزق الكتاب إربا إربا[2]. وكان من الطبيعي أن كسرى وهو ذلك الملك الذي ورث «الحق الملكي المقدس» عن أجداده من آل ساسان يأبى أن يكون تابعًا للعرب ومن ثم كان يخشى من هذا الدين على شخصه وسلطانه اللذان كانا موضع قداسة الشعب[3]. وفي ثورة غضبه هذه كتب إلى عامله يأمره بأن يبعث إليه برأس هذا الرجل الذي بالحجاز. فلم يكن من العامل ـ وكان اسمه بازان ـ إلا أن بعث رجلين إلى المدينة لهذا الغرض. إن العرب لم يكن لهم، في أعين أولئك القوم، كبير شأن، وكان من غير النادر أن يعمد جنودهم إلى اعتقال أيما رجل من العرب. حتى إذا وصل هذا الرجلان إلى المدينة قال

(1) د. نبيه عاقل - المرجع السابق ص٥٣١.
(2) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص١٩٥.
(3) د. حسن إبراهيم حسن - المرجع السابق ص١٥٩.

أحدهما للرسول إن شاهنشاه ملك الملوك كسرى قد كتب إلى باران يأمره بأن يأتيه بك قد بعثني إليك لتنطلق معي، وقالا قولا يرشح بالوعيد، وكم كانت دهشتهما عندما قال لهما الرسول إن ملكهما، كسرى، نفسه لم يعد على قيد الحياة. فانقلبا عائدين، واستبد بهما الأسى إذ علما أنه ليلة نطق الرسول بهذه الكلمات قتل كسرى بيد ابنه شيرويه. وأفضت هذه الحادثة إلى إسلام العامل.

أما نجاشي الحبشة فلم يكد يتلقى رسالة الرسول حتى دخل في دين الله على يد جعفر بن أبي طالب، وهو مهاجر مسلم كان لا يزال في تلك الديار، فكان أول رسول بعثه النبي ﷺ عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي وكتب إليه كتابين يدعوه في أحدهما إلى الإسلام ويتلو عليه القرآن فأخذ النجاشي كتاب رسول الله محمد ﷺ فوضعه على عينيه ونزل من سريره فجلس على الأرض تواضعا، ثم أسلم وشهد شهادة الحق وقال لو كنت أستطيع أن آتيه لأتيته[1].

ومن بين الرسائل الموجهة إلى الزعماء العرب تجدر بنا الإشارة إلى تلك التي وجهت إلى شرحبيل بن عمرو عامل هرقل على بصرى الواقعة عند تخوم الشام. لقد قتل موفد الرسول، الحارث بن عمير، منتهكا بذلك الأعراف الأخلاقية القبلية كلها، وهو عمل كان بمثابة إعلان حرب على الإسلام، ولقد اعتبره المسلمون إعلانا للحرب فعلا. وكان من الخطأ أن يترك لشرحبيل متسع من الوقت لحشد قواته والانقضاض على المسلمين. وهكذا جهز جيش مؤلف من ثلاثة آلاف رجل للتوجه إلى العدو. وأسندت قيادة هذا الجيش لزيد بن حارثة عتيق رسول الله، وهو مثل رائع على المساواة الأساسية بين البشر، تلك المساواة التي قرها الإسلام وأكدها. لقد وضع المهاجرون القرشيون الفخورون والأنصار النبلاء كلهم تحت إمرة عبد رقيق سابق. ورافق الرسول الجيش حتى مكان يعرف بـ «ثنية الوداع». وكان شرحبيل قد حشد، في غضون ذلك، جيشا عظيما تذهب بعض الروايات إلى أن عدده بلغ مائة ألف رجل. وكان القيصر أيضا يتأهب للحرب. والتقى الفريقان في مؤتة، التي دعيت المعركة باسمها. فاستشهد زيد في الميدان، فخلفه في القيادة جعفر بن أبي طالب وقاتل جعفر قتال المستميت أيضا، ثم استشهد بعد أن أصيب بنحو من تسعين جرحا؛ عندئذ أخذ عبد الله بن رواحة الراية فقاتل حتى قتل. وكان النبي هو الذي سمى، مقدما، خلفاء زيد في القيادة، فقد كانت تلك عادته، يحدوه عليها رغبته في الاحتياط لكل طارئ. وبعد مصرع ابن رواحة اختار جند المسلمين خالد بن الوليد قائدا، فأظهر براعة عظيمة في إنقاذ جيشه الصغير، الذي كان هزيلا بالقياس إلى جموع العدو الضخمة. وإنما حدثت هذه المعركة في شهر جمادي الأولى من السنة الثامنة للهجرة[2].

---

(١) د. نبيه عاقل - المرجع السابق ص٥٣٨.

(٢) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص١٩٦.

لم يقل «المقوقس» حاكم مصر عن هرقل في الاحتفاء بحاطب بن أبي بلتعة رسول النبي ﷺ وانه احسن استقباله بقوله: «قد كنت أعلم أن نبيا قد بقى، وكنت أظن أن مخرجه الشام فأراه قد خرج في العرب في أرض جهد وبؤس، والقبط لا تطاوعني في اتباعه ولاحب أن يعلم بمحاورتي إليك» ورده بهدية إلى رسول الله محمد ﷺ على أنها مارية القبطية واختًا لها وشيئًا من خيرات مصر[1].

إن الظروف التي أحاطت بتوجيه هذه الرسائل إلى الملوك والأمراء لتستحق شيئا من التأمل والاعتبار. فلو أن الرسول وجهها بعد إخضاع بلاد العرب برمتها إذن لكان في إمكان الباحث أن يعتبرها إجراءً أوحى به الطموح. ولكن ما الظروف التي كانت سائدة فعلا في تلك الآونة؟ كانت المدينة قد حوصرت قبل ذلك باثني عشر شهرا ليس غير. وكان ثمة أمل ضئيل في نجاة نفس مسلمة واحدة. لقد كان المسلمون، حتى في ذلك الحين، أضعف من أن يشقوا طريقهم إلى مكة لأداء فريضة دينية هامة كالحج. وكان المشركون لا يزالون هم أصحاب السلطان. حتى لقد فرضوا شروط الهدنة، منذ فترة يسيرة، على المسلمين. في كل ناحية من بلاد العرب كان الإسلام محاطا بالأعداء، وكان تناثر المسلمين هنا وهناك لا يغير من الموقف إلا قليلا. ومع ذلك فإن إيمان الرسول بانتصار الإسلام النهائي لم يتزعزع لحظة واحدة، في وجه تلك الظروف الموئسة كلها. كان واثقا كل الثقة من أن الإسلام سوف يسود آخر الأمر، وكان في ميسوره أن يرى بعين بصيرته ذلك اليوم الذي سينير ضياؤه فيه كل زاوية من زوايا العالم. إلى هذا الحد كان إيمانه بقوة الإسلام عميق الجذور. وإن في هذا لدرسا نافعا لبعض مسلمي العصر الحاضر الضعيفي الثقة بإمكان انتشار الإسلام في ديار الغرب في أوروبا وأمريكا، ذلك بأنهم يعتقدون بأنه ليس ثمة إمبراطورية جبارة تسنده وتدعمه. إن الحق لا يعتمد، في بقائه وانتصاره، على القوة. إن له من القوة الذاتية ما يمكنه من الصمود[2]. إن على أولئك النزاعين إلى القول بأن هذه الرسائل الطموحة مردها إلى عقلية منحرفة أن يتأملوا قليلا في النجاح العظيم الذي حظي به الإسلام بعد سنوات معدودات انقضت على توجيهها. وإذا كانت هذه الوقائع تشير إلى أنه كان رسولا من رسل الله. إن هذه الرسائل لتثبت أيضا الحقيقة القائلة بأن الرسول اعتبر الإسلام، منذ البدء، دينا عالميا. إن المسيحية لم تدع العالمية. ويسوع نفسه لم يدع مثل هذا الوضع. لقد قال، في وضوح، أنه جاء لهداية خراف إسرائيل الضالة. بل لقد رفض أن يصلي على امرأة غير إسرائيلية. أما محمد، صلوات الله وسلامه عليه، فقد أعلن على العكس منذ فجر بعثته بالذات، أنه مرسل إلى البشر كافة. ولم تكن هذه دعوى فارغة. والحق أنه لم يدخر وسعا لتحقيق هذا المثل الأعلى في حياته هو، فدعا مختلف الملوك إلى قبول الحق الذي جاء به الإسلام. وإنما

(١) د. حسن إبراهيم حسن - المرجع السابق ص١٦٥.
(٢) مولانا محمد علي - المرجع السابق ص١٩٧.

وجهت هذه الرسائل إلى الملوك في السنة السابعة للهجرة. وكانت كلها تحمل خاتم الرسول مع هذه الكلمات: «محمد رسول الله»، وهكذا فقد سار رسول الله محمد ﷺ في أخريات حياته في طريق تعميم نشر الدعوة الإسلامية وحاول بالطرق السلمية أن يحقق ما طلب القرآن منه في قوله تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ [سبأ: ٢٨] على أن هذه الطريقة السليمة لم تكن ناجحة دوما واضطر الرسول ﷺ في سبيل تحقيق شعار أممية الإسلام الدعوة في أخريات حياته أن يلجأ للقتال فكان أن أمر بتجهيز جيش أسامة بن زيد لغزو الشام(١).

وفي ختام هذه السنة نفسها، السابعة للهجرة، وفد الرسول على الكعبة حاجا، وفقا لأحكام هدنة الحديبية. وفي تلك السنة نفسها، أيضا، رجع إلى المدينة سائر المهاجرين المسلمين في الحبشة.

رسول الله محمد ﷺ ومعايير الحاكم المسلم:

قام رسول الله ﷺ بنفسه بتأسيس دولة المسلمين الأولى «أما خطوات قيام هذه الدولة، ومتى جاء إذن الله سبحانه وتعالى بقيامها، فيكاد يجمع علماء المسلمين وفقهاؤهم على أن بيعتي العقبة الأولى والثانية تمثلان بداية إنشاء الدولة الإسلامية» وعلى ذلك نستطيع أن نقول: إن الدولة الإسلامية تأسست بأمر رباني، لا بقرار دولي، ولا ببلاغ عسكري. وبما أن رسول الله محمد ﷺ هو خاتم أنبياء الله إلى أهل الأرض، فإن الدنيا لن تشهد قيام دولة مثالية أخرى بالطريقة ذاتها وبنبي جديد، بلغت في عهد رسول الله محمد ﷺ درجة من النضج والرشد تؤهلها لوضع الطرق العملية لحكم نفسها بنفسها ضمن مبادئ الإسلام، الشريعة التي اختارها الله عز وجل لأهل الأرض جميعا ﴿... وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ... ﴿٥٨﴾﴾ [النساء]. وكان انتقال رئاسة الدولة «الخلافة» إلى أبي بكر الصديق، خليفة رسول الله ﷺ الأول، بترشيح أهل الحل والعقد، الذين هم وجهاء المسلمين وأعيانهم في ذلك الزمان، ومبايعتهم له، ثم بمبايعة المسلمين أجمعين. بينما انتقلت الرئاسة إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بعهد من الخليفة الأول أبي بكر إليه بعد مشاورة أهل الحل والعقد، وهو، أي عمر، عهد بعد الاستشارات ذاتها قبيل وفاته إلى لجنة لتختار من بين أعضائها خليفة. واغتيل الخليفة الثالث عثمان بن عفان، فانتخب المسلمون الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه خليفة. وفي قول الله عز وجل واصفًا المسلمين: ﴿... وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ... ﴿٣٨﴾﴾ [الشورى] ورفضه الصريح الواضح للوراثة على إطلاقها في القيادة بقوله عز وجل: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [البقرة]. فابن القائد إن لم تؤهله صفاته للقيادة فلا حق له في منصب القيادة بعد أبيه، هذا بالإضافة إلى عدم تعيين الرسول ﷺ خليفة له. وأساليب اختيار الخلفاء الراشدين الأربعة، دلائل على أن الطريق

(١) د. نبيه عاقل - المرجع السابق ص٥٤٨.

الشرعي للوصول إلى منصب رئاسة الدولة هو «البيعة» أي الانتخاب الديمقراطي التي هي عقد ثنائي بين الخليفة والأمة أي بين الحاكم والشعب، تبايع الأمة بموجبها، وبمحض إرادتها أكثر الناس ملائمة لهذا المنصب وتوكل إليه رئاستها، ويمكن أن يكون الاختيار مباشرة من قبل الأمة، أو من يمثلها من أهل الحل والعقد.

يقول القاسمي[1]:

«البيعة في الاصطلاح السياسي، وكما طبقت في أيام الخلفاء الراشدين عقد ثنائي الطرف، الخليفة طرفه الأول، والأمة طرفه الثاني، ولابد فيها من تحقق شروط أصلية حتى تكون مشروعة. وإنما نريد من لفظ «مشروعة» أنها منطبقة على أحكام الشريعة بالمفهوم الذي أراده فقهاء الحقوق الدستورية في الإسلام، كما نريد من هذا اللفظ ما يراد منه في هذه الأيام من حيث انطباقه على صحة التمثيل. وأول الشروط هو التزام الخليفة بأحكام الكتاب والسنة... وثانيها: أن تتوفر الحرية الكاملة للأمة في البيعة». ولا تقتصر القيادة، ولا المسؤولية على رئاسة الدولة. فرئاسة الدولة هي قمة الهرم في السلطة، وتندرج تحتها قيادات كثيرة. لذلك، والصفات والشروط الواجب توافرها في الرئيس الأعلى «الخليفة»، بغض النظر عن تسميته خليفة أو أميرًا أو رئيسًا، لأن الانتخاب هو الأصل في وصول «رأس الدولة» إلى منصبه. وكما أن المنصب مسؤولية وأمانة، كذلك فإن الانتخاب مسؤولية وأمانة. وبما أن على الناخب أن يختار الأفضل والأكفأ فيجب عليه معرفة الصفات الضرورية في الرئيس، والتي يخضع بعضها للتغيير بحسب المرحلة التي تمر فيها الأمة، كما يستطيع بهذه المعرفة التمييز بين القائد الكفء، والقائد المزيف، والموازين التي يجب على رئيس الدولة ومن بيده التعيين في المناصب المختلفة أن يعتمدها في اختيار الأشخاص المناسبين للوظائف المختلفة.

وضع الفقهاء شروطًا يجب توافرها في الخليفة، وربما لم تنطبق على كثير من الذين تسلموا «رئاسات» دول المسلمين، بغض النظر عما سموا به أنفسهم أو سماهم به الناس، ولكنها تعد في نظري، الشروط الدنيا الواجب توافرها في القائد الذي يستطيع أن ينهض بالمسلمين ليحتلوا المكان الخليق بهم بين أمم الأرض. وقد «اتفق الفقهاء على أن الشروط التي لابد من توافرها في كل خليفة هي: الحرية، الذكورة، البلوغ، سلامة العقل، سلامة البدن وأن يكون فقيها في الدين وأن يؤم المسلمين في صلاة الجمعة ويخطب الجمعة والعيدين والعلم، النزاهة، الشجاعة، الرأي. ونسميها الشروط الكمالية والنسب القريشي». و«لم يحدد الفقهاء للخلافة سنًا معينة، وإنما جعلوا البلوغ حدا أدنى لها، وبذلك تركوا تقدير هذا الأمر للناخبين وللظروف، فقد تدعو الظروف إلى تفضيل الشاب الشجاع على الشيخ المتردد، والأفضل أن تتوفر أكثر الشروط في المرشح للخلافة لأنه منصب عظيم،

---

(١) أحمد راتب عرموش - المرجع السابق ص٢٠٨ وانظر القاسمي: نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي، الحياة الدستورية، ص٢٧٤ .

فهو رئيس الدولة الإسلامية وهو زعيم الأمة وأمير المؤمنين الذي يقوم بحمل الدعوة الإسلامية إلى العالم ويطبق الشريعة الإسلامية كاملة على المسلمين[1].

رأي الفراء:

«وأما أهل الإمامة فيعتبر فيهم أربعة شروط: أحدها: أن يكون قرشيا من الصميم. الثاني: أن يكون على صفة من يصلح أن يكون قاضيا من: الحرية، والبلوغ، والعقل، والعلم، والعدالة. الثالث: أن يكون قيما بأمر الحرب والسياسة وإقامة الحدود، لا تلحقه رأفة في ذلك، والذب عن الأمة. الرابع: أن يكون من أفضلهم في العلم والدين».

«وإذا اجتمع أهل الحل والعقد على الاختيار تصفحوا أحوال أهل الإمامة الموجود فيهم شروطها، فقدموا للبيعة منهم أكثرهم فضلا، وأكملهم شروطا. فإذا تعين لهم من بين الجماعة من اداهم الاجتهاد إلى اختياره وعرضوها عليه. فإن أجاب إليها بايعوه عليها، وانعقدت له الإمامة ببيعتهم، ولزم كافة الأمة الدخول في بيعته والانقياد لطاعته. وإن امتنع عن الإمامة ولم يجب إليها لم يجبر عليها، وعدل إلى سواه مستحقيها فبويع عليها».

بتوضيح أكثر إن القائد القدوة، والأسوة الحسنة، هو رسول الله محمد ﷺ. وبما أنه لن يكون في الأمة ولا في سواها رسول الله محمد ﷺ جديد، فإن القائد يستطيع أن ينجح بمقدار ما يقترب في صفاته من رسول الله محمد ﷺ فهو المعيار في كفة الميزان. وكي نبقى في عالم الواقع نقول: إن الصفات المطلوبة في القائد، منها ما هو شرط ضروري لا يمكن التهاون فيه، ولا يتغير بتغير الزمان، ومنها ما يمكن أن يتغير بحسب الظروف، كأن ترتفع حظوظ العالم في ظروف الاستقرار، والعسكري الشجاع الحكيم في حالات الحرب. إذن على الناخب إن تأمنت له حرية الانتخاب وعلى الذي يريد أن ينتسب إلى حزب من الأحزاب أو يلتحق بحركة من الحركات أن يضع تقييما (علامات) لكل صفة مطلوبة في القائد أو الرئيس بحسب المرحلة التي تمر بها الأمة، ويعطي صوته لمن حصل على أعلى تقدير في عملية «التقييم» مبتغيا في ذلك وجه الله ليس غير، وهو ما عبر عنه العلماء باختيار الأفضل. ويجب ألا يفهم من الأفضل الأتقى أو الأعلم أو الأكثر تدينا وأية صفة محددة، بل الأفضل في المجموع العام[2]. «والذي يجب الانتباه إليه هنا، هو أن الفضل والتفاضل في هذا المجال (مجال اختيار رئيس الدولة) ليس خاصا بالدين فحسب، بل هو بالسياسة وحسن الخبرة في أمور الحكم أيضًا. وعلى هذا الأساس كان يسير رسول الله محمد ﷺ في اختيار ولاته، وقادة جنده»، فقد تختار الأمة وترضى بشخص لمنصب الخلافة، لأن البيعة هي حق الأمة في إمضاء عقد الخلافة، والبيعة حق للمسلمين وهي الطريقة الشرعية الوحيدة لتنصيب رئيس الدولة[3].

---

(1) د. محمود الخالدي - معالم الخلافة في الفكر السياسي الإسلامي ص١٦٨.

(2) أحمد راتب عرموش - المرجع السابق ص٢١٥.

(3) د. محمود الخالدي - المرجع السابق ص١٨٠.

في عصرنا الحاضر نرى المسلمين أشداء فيما بينهم، رحماء متغاضين عن الأعداء، حتى أن من لا يطلق لحيته عند بعضهم كافر مرتد يستحق القتل، بينما لا يستحق من يدعو الناس إلى نبذ الإسلام واعتناق مبادئ مستوردة ليل نهار، وعلى صفحات الصحف والمجلات، أن يجادل بالتي هي أحسن على أقل تقدير. إن القائد المسلم المعاصر، يجب أن يكون بعيدا عن التعصب، قادرا على توظيف ظاهرة الاختلافات المذهبية في مصلحة الإسلام، وجعلها ظاهرة حية تؤى إلى نقاشات هادئة، لا تمنع التعاون، والوقوف صفا واحدا في وجه العدو المشترك، على عكس ما هو واقع في حال الأمة من ترك للعدو يسرح ويمرح، وانشغالها بعضها ببعض بتخطئة كل فئة لمخالفيها حتى التكفير، ومحاربتها حتى الموت. إن القائد المعاصر يجب أن يكون مؤهلا لتوحيد المفترق لا تقسيم المؤتلف. ثقته بنفسه تجعله يبتعد عن سياسة لعبة التوازنات الداخلية، لأنه على استعداد دوما للتضحية بمركزه وبنفسه في سبيل ما يؤمن به. وأما في السياسة الخارجية فباستطاعته الاستفادة من التوازنات الخارجية وتضارب المصالح بين الدول غير الإسلامية. القائد الحكيم لا يرى ضيرا في أن يكون الإنسان مسلما ملتزما وعربيا، فلا تناقض بين العروبة والإسلام، ولا عصبية لأي منهما على حساب الأخرى. التناقض هو بين مبادئ زائفة مستوردة تجعل أمة ما فوق غيرها من الأمم، وبين دين متسامح يجعل الخلق كلهم عيال الله، ولا فرق بين عربي وعجمي إلا بالتقوى. إن القائد المسلم المعاصر، يجب أن يفرق بين الإرهاب ومكافحة العدوان، بين الجهاد في سبيل الله وقتل الناس في سبيل المال، بين الحزم والظلم، بين الشورى والفوضى، بين التدين والتعصب، بين المرونة السياسية والتنازل عن الحقوق، حتى لا تتوالى التنازلات[1].

تعتبر الدولة الإسلامية هي دولة الخلافة لأنها هي المنصب الذي يملك من يتولاه جميع صلاحيات الحكم والسلطان والتشريع دون استثناء وهي رئاسة عامة للمسلمين جميعا في الدنيا لإقامة احكام الشرع الإسلامي بالأفكار التي جاء بها، والأحكام التي شرعها ولحمل الدعوة الإسلامية إلى العالم بتعريفهم الإسلام ودعوتهم إليه والجهاد في سبيل الله ويقال لها الإمامة وإمارة المؤمنين[2].

تبرز أيضا أهمية الوعي السياسي لدى جمهور الأمة الإسلامية لتميز بين المرشحين لرئاسة الدولة الإسلامية فلا تنطلي على الأمة حرارة الدعاية الانتخابية ولا ما يقدم من مشروعات ولا ما يمتاز به شخص من نيله أعلى الدرجات أو أصوات الناخبين أو وجاهة ووسامة، وإنما ينبغي النظر بحرص إلى وجود ما يجعل من الشخص المرشح للخلافة أن يكون بحق رجل دولة ممتازًا لأن صفة رجل الدولة قد لا توجد في الأمة إلا بأعداد قليلة، وإن كان العيش في ظل الحياة الإسلامية ووجود الشخصية الإسلامية لدى أفراد المسلمين وممارسة العمل السياسي يجعل من الممكن أن يتقدم لمنصب

---

(١) أحمد راتب عرموش - المرجع السابق ص٢١٩ .

(٢) د. محمود الخالدي - المرجع السابق ص١٩٨.

رئاسة الدولة من المرشحين عشرون من المسلمين كلهم في واقعهم رجال دولة بل رجال كبار، والمسلمون بوعيهم على الإسلام يكونون قادرين على اختيار من يقودهم إذا تجاوزت النفوس عن الهوى[1].

ومن واجبات الرئيس ومن بيده التعيين أن يختار لمناصب الدولة الأصلح فالأصلح، لأنه «إذا وسد الأمر لغير أهله فانتظروا الساعة». والذي أميل إليه في معنى الساعة هنا أنها كناية عن الخراب والدمار. «فيجب على ولي الأمر أن يولي على كل عمل من أعمال المسلمين أصلح من يجده لذلك العمل، قال النبي ﷺ: من ولي من أمر المسلمين شيئًا، فولى رجلا وهو يجد من هو أصلح للمسلمين منه فقد خان الله ورسوله».

يختار الأصلح لكل منصب، لأن الله عز وجل يقول: ﴿... إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾ [القصص] والقوة من إمارة الحرب ترجع إلى شجاعة القلب والخبرة في القتال، وهي في الحكم ترجع إلى العلم بالعدل والقدرة على تنفيذ الأحكام.

فيجب على أفراد الأمة ألا يؤلهوه إن أصاب في قضية أحسن، وإلا يسخطوا عليه ويسخروا منه إن اجتهد فأخطأ. بل يجب عليهم أن يحموه من الغرور كلما أصاب ونجح ويأخذوا بيده ويمنعوه السقوط كلما أخطأ. «إن الحكم في الإسلام تعاون بين الحاكم والمحكوم على البر والتقوى، وتكافل بينهما على الفضل والمعروف، وتحاور بينهما للبلوغ إلى أسمى درجات العدل والسلام»[2].

وفاة رسول الله محمد ﷺ:

بينما كان الناس يتجهزون للسير مع أسامة بن زيد إلى جبهة القتال ضد الروم داهم رسول الله ﷺ المرض، وكان ذلك في أواخر شهر صفر، أو في أول شهر ربيع الأول، فكان أول ما ابتدئ به من ذلك أنه ﷺ خرج إلى بقيع الغرقد في جوف الليل فاستغفر لأهلها، ثم رجع إلى أهله، فلما أصبح ابتدئ بوجعه من يومه ذلك. ويروي لنا أبو مويهبة مولى رسل الله ﷺ كيف كان ذلك فيقول: بعثني رسول الله ﷺ من جوف الليل، فقال: «يا أبا مويهبة، إني قد أمرت أن أستغفر لأهل هذا البقيع، فانطلق معي». فانطلقت معه، فلما وقف بين أظهرهم قال: «السلام عليكم أهل المقابر، ليهنئ لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع آخرها أولها، الآخرة شر من الأولى». ثم أقبل علي فقال: «يا أبا مويهبة، إني قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها، ثم الجنة، فخيرت بين ذلك وبين لقاء ربي والجنة». فقلت: بأبي أنت وأمي، فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة، قال: «لا والله يا أبا مويهبة، لقد اخترت لقاء ربي والجنة».

---

(١) د. محمود الخالدي - نفس المرجع ص٢١٦.

(٢) احمد راتب عرموش - نفس المرجع ص٢٢١ .

ثم استغفر لأهل البقيع، ثم انصرف، فبدأ برسول الله ﷺ وجعه الذي قبضه الله فيه. رجع رسول الله من البقيع، ولكن ذلك لم يمنع رسول الله من أن يوفي كل زوجة من زوجاته حقها فكان عليه الصلاة والسلام في مرضه ينتقل بين بيوت نسائه على ما يقتضيه العدل بينهن حتى أثقله المرض وصعب عليه الانتقال وهو في بيت ميمونة، فخرج رسول الله ﷺ يمشي بين رجلين من أهله: أحدهما الفضل بن عباس والثاني الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، عاصبا رأسه، تخط قدماه حتى دخل بيت عائشة. ثم غمر رسول الله ﷺ واشتد به وجعه، فقال: «هريقوا علي سبع قرب من آبار شتى حتى أخرج إلي الناس فأعهد إليهم» فأقعد في حوض لحفصة بنت عمر، ثم صب عليه الماء، حتى طفق يقول: «حسبكم حسبكم»[1].

ثم خرج عليه الصلاة والسلام إلى الناس عاصبا رأسه حتى جلس على المنبر، ثم كان أول ما تكلم به أنه صلى على أصحاب أحد، واستغفر لهم فأكثر الصلاة عليهم، ثم قال: «إن عبدًا من عباد الله خيره الله بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عند الله». وصلى رسول الله بالناس، فاستغفر لأصحاب أحد وذكر من أمرهم ومآثرهم ما ذكر، ثم قال: «يا معشر المهاجرين استوصوا بالأنصار خيرًا، فإن الناس يزيدون وإن الأنصار على هيئتها لا تزيد، وإنهم كانوا عيبتي التي أويت إليها، فأحسنوا إلى محسنهم، وتجاوزوا عن مسيئهم». وكانت هذه إشارة منه عليه الصلاة والسلام إلى أن رئاسة الدولة هي من المهاجرين لا من الأنصار. ثم دخل رسول الله بيته، فاشتد به مرضه ولم يتكلم بشيء من أمر السياسة إلا قوله عليه الصلاة والسلام: «لا يترك بجزيرة العرب دينان». فكانت هذه آخر وصاياه السياسية عليه الصلاة والسلام.

كان جيش أسامة الذي جهزه رسول الله لقتال الروم. قد تم إعداده، ولكن القلق بدا واضحًا على وجوه كبار الصحابة، إذ كيف يخرجون ورسول الله في فراش المرض، ورأى جمهورهم التريث في الخروج، ولكن بعض مرضى القلوب اتخذوا ذلك ذريعة للطعن في إمارة أسامة وللتأخر في تجهيز أنفسهم للقتال شكا في كفاءة أسامة، وأخذوا يشيعون هذه الشكوك بين الصفوف. وبلغ رسول الله ما يرجف به المرجفون فخرج إليهم فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله وهدأ خواطرهم وأظهر لهم هدفه من تأمير أسامة وما في ذلك من إكرام لذكرى أبيه شهيد مؤتة، وصادف أن داهمه بعيد ذلك المرض الذي أودى بحياته ولكنه رغم ذلك، حرص على المضي في إعداد حملة أسامة وحض الناس على طاعة قائدهم[2]. ثم قال: «أيها الناس، أنفذوا بعث أسامة، فلعمري لئن قلتم في إمارته لقد قلتم في إمارة أبيه من قبله، وإنه لخليق للإمارة، وإن كان أبوه لخليقا لها».

---

(١) د. محمد رواس قلعه جي - المرجع السابق.

(٢) د. نبيه عاقل - المرجع السابق ص٥٥٠.

فأسرع الناس في تجهيز أنفسهم للقتال عندما سمعوا ما سمعوه من رسول الله، واشتد برسول الله ﷺ وجعه، فخرج أسامة، وخرج جيشه معه، حتى نزلوا الجرف ـ وهو مكان لا يبعد أكثر من فرسخين عن المدينة المنورة ـ فضرب به عسكره، فالتحق المتأخرون، إلى هناك، وثقل رسول الله ﷺ، فأقام أسامة والناس لينظروا ما الله قاض في رسول الله ﷺ. ولما أثقل المرض رسول الله، رجع أسامة إلى المدينة المنورة، ورجع معه الناس، فدخل أسامة على رسل الله وقد أصمت الرسول حتى إنه لا يقوى على الكلام، فجعل عليه الصلاة والسلام يرفع يده إلي السماء ثم يضعها على أسامة يدعو له. ولما كان يوم الاثنين الذي قبض الله فيه رسوله صلوات الله وسلامه عليه، صحا رسول الله من مرضه، فأحب أن يلتقي بأصحابه الذين فدوه بأرواحهم، فخرج إليهم وهم يصلون الصبح، فرفع الستر وفتح الباب، فقام على باب غرفة عائشة وأبو بكر يصلي بالناس، فاشتد فرح المسلمين وكادوا يقطعون صلاتهم ولكن رسول الله أشار إليهم أن اثبتوا على صلاتكم، وتبسم صلوات الله وسلامه عليه سرورا لما رأى من هيئتهم في صلاتهم يقول أنس بن مالك: وما رأيت رسول الله أحسن هيئة من تلك الساعة. ورجع أبو بكر عن مصلاه ليفسح المكان لرسول الله كي يتقدم فيصلي بالناس فدفع رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق في ظهره. وقال: «صل بالناس». وجلس رسول الله ﷺ إلى جنبه، فصلى قاعدا عن يمين أبي بكر، فلما فرغ من الصلاة أقبل على الناس فكلمهم رافعا صوته، حتى خرج صوته من باب المسجد يقول: «أيها الناس، سعرت النار وأقبلت الفتن كقطع الليل المظلم! وإني والله ما تمسكون علي بشيء، إني لم أحل إلا ما أحل القرآن ولم أحرم إلا ما حرم القرآن». ثم دخل رسول الله حجرته ودخل معه الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه فلم يمكث إلا برهة يسيرة حتى خرج فاستقبله الناس الواقفون على باب رسول الله وقالوا: يا أبا الحسن كيف أصبح رسول الله؟ قال: أصبح بحمد الله بارئا، فانصرف الناس بعد أن اطمأنوا على رسول الله وهم يرون أن رسول الله قد أبل من مرضه[1].

تولية خليفة رسول الله:

لما قبض رسول الله ﷺ اجتمع الأنصار في سقيفة بني ساعدة وهم يطمحون أن يولوا الخلافة زعيمهم سعد بن عبادة، واعتزل الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله في بيت فاطمة، وانحاز بقية المهاجرين إلى أبي بكر، وانحاز معهم أسيد بن حضير في بني عبد الأشهل، فأتى آت إلى أبي بكر وعمر فقال: إن الأنصار قد اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة وقد أجمعوا أمرهم على تولية الخلافة سعد بن عبادة، فإن كان لكم بأمر الناس حاجة فأدركوا الناس قبل أن يتفاقم أمرهم. فقال عمر لأبي بكر: انطلق بنا إلى إخواننا من الأنصار حتى تنظر ما هم

(١) د. محمد رواس قلعه جي - المرجع السابق ص٢١٣ .

عليه. ودخل عليهم أبو بكر وعمر في جماعة من المهاجرين، فلما جلسوا قام خطيب الأنصار فأثنى على الله بما هو له أهل، ثم قال: «أما بعد فنحن أنصار الله وكتيبة الإسلام، وأنتم يا معشر المهاجرين رهط منا، وقد دفت دافة ـ قدمت جماعة ـ من قومكم وإذا هم يريدون أن يحتازون من أصلنا، ويغصبونا الأمر». وكأنه يريد أن يقول: إن الأنصار هم أهل المدينة، وعلى أرضهم قامت دولة الإسلام، وبسواعدهم حموها، والمهاجرون وافدون ومن البديهي أن يكون رئيس الدولة من السكان الأصليين لا من الوافدين. فقام أبو بكر الصديق رضي الله عنه فأجابه فقال: أما ما ذكرتم فيكم من خير فأنتم له أهل، ولن تعرف العرب هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش: هم أوسط العرب نسبا ودارا. وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين فبايعوا أيهما شئتم. وأخذ بيد عمر بن الخطاب. وبيد أبي عبيدة بن الجراح وهو جالس بينهما. فقال قائل من الأنصار: أنا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب، منا أمير ومنكم أمير يا معشر قريش[1].

فكثر اللغط وارتفعت الأصوات، حتى خيف على الناس الاختلاف، وما أنقذ الموقف ودس أنف الشيطان في التراب إلا ارتفاع صوت عمر بن الخطاب، وهو يقول: ابسط يدك يا أبا بكر، فبسطها أبو بكر، فبايعه عمر بن الخطاب، ثم بايعه المهاجرون، ثم بايعه الأنصار رضي الله عنهم جميعًا. وتعتبر هذه البيعة ترشيحًا رسميا من أولي الحل والعقد في الدولة الإسلامية للخليفة الجديد، وبقي أن يتلقى هذا الخليفة البيعة المباشرة من القاعدة الشعبية في الدولة الإسلامية. ولذلك فإنه لما كان الغد صعد أبو بكر الصديق رضي الله عنه المنبر فجلس عليه، فقام عمر فتكلم قبل أبي بكر، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: «أيها الناس، إني قد كنت قلت لكم بالأمس مقالة ما كانت، وما وجدتها في كتاب الله، ولا كانت عهدا عهده إلي رسول الله ﷺ ولكني قد كنت أرى أن رسول الله ﷺ سيدبر أمرنا ـ يقول: يكون آخرنا ـ وإن الله قد أبقى فيكم كتابه الذي هُدى الله ورسوله ﷺ، فإن اعتصمتم به هداكم الله لما كان هداه له. وإن الله قد جمع أمركم على خيركم، صاحب رسول الله ﷺ، وثاني اثنين إذ هما في الغار، فقوموا فبايعوه». فبايع الناس أبا بكر البيعة العامة على الخلافة بعد بيعة أهل الحل والعقد في السقيفة، ثم قام أبو بكر فأعلن الأركان لسياسته المستقبلية وهذه الأركان هي: الالتزام بشريعة الله وتحقيق سيادتها. تكوين المعارضة البناءة. ـ الوقوف بجانب الضعيف حتى يقوى. مواصلة الجهاد في سبيل الله. محاربة الرذيلة. وكان ذلك في خطبة قال فيها: «أما بعد أيها الناس فإني قد وليت عليكم، ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني. الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أريح عليه حقه إن شاء الله. والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله. لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله

(١) د. محمد رواس قلعه جي - نفس المرجع ص٢١٣ .

بالذل، ولا تشيع الفاحشــة في قوم قط إلا عمهم الله بالبلاء، أطيعــوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم. قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله»[1].

جهاز رسول الله محمد ﷺ ودفنه:

فلما بويع أبو بكر رضي الله عنه أقــبل الناس على جهاز رسول الله ﷺ يوم الثــلاثاء. فغسـل رسول الله في ثيــابه دون تجريده منها، وقــد تولى تغسيــله الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجــهه والعباس بن عبد المطــلب والفضل بن العباس وقثم بن العباس وأسامــة ابن زيد وشقران مولى رسول الله ﷺ. واشتــد الشوق لرسول الله ببــعض أصحابه، فتــقدم أحدهم وهو أوس بن خــولى أحد بني عوف مــن الخزرج فقــال للإمام علــي بن أبي طالب كرم الله وجــهه: أنشــدك الله يا علي وحظنا من رسول الله ﷺ - وكان أوس من أصحاب رســول الله ﷺ وأهل بدر - فقال: ادخل. فدخل فجلس، وحضــر غسل رسول الله ﷺ، فــأسنده الرإام علي بن أبي طالب كــرم الله وجهه إلي صــدره، وكان العباس والفضل وقثم يقلبونه معه. وكان أســامة بن زيد وشقران مولاه هما اللذان يصبان الماء والإمام علي كرم الله وجهــه يغسله، وقد أسنده إلى صدره، وعلــيه قميصــه يدلكه به من ورائه، ولا يفضي بيده إلى رسول الله ﷺ، والإمام علي كرم الله وجهه يقول: بأبي أنت وأمي، ما أطيبك حيا وميتا!! لم ير من رسول الله ﷺ شيء مما يرى من الميت.

فلما فــرغ الإمام علي كرم الله وجــهه من غسل رســول الله ﷺ كفن في ثلاثة أثواب: ثوبين صحاريين وبرد حبرة أدرج به إدراجا. وتم دفنه حــيث قبض، فرفع فراش رسول الله الذي توفى عليه وحفر قبره تحتــه، وكان الذي تولى حفر قبره أبو طلحة، وقد حفره لحــدا. أي جعل بجانب القبر من أسفل شقًا فجعل فيه رسول الله ﷺ. ولما فرغ من تجهيز رسول الله يوم الثلاثاء وضع الإمام علي كرم الله وجهه ســريره في بيته الذي توفى فيه وجعل المسلــمون يدخلون يصلون عليه جماعات جــماعات دون أن يؤمهم في صلاتهم هذه أحــد فدخل الرجال أولا فصلوا عليه، فلما فــرغوا دخل النساء حتى فرغن، ثم دخل الصــبيان. ولم يفــرغوا من الصلاة عليــه إلى الليل فدفن عليه الصــلاة والسلام من وسط الليل ليلة الأربعاء. وكان الذين نزلوا في قبر رسول الله ﷺ الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، والفضل بن عباس، وقثم بن عباس، وشقران مولى رسول الله ﷺ. وقد قال أوس بن خولى لعلي بن أبي طالب: يا علي أنشدك الله وحظنا من رسول الله ﷺ! فــقال له: انزل. فنزل مع القوم. وقد كان مــولاه شُقران - حين وضع رســول الله ﷺ في حفرته وبنى عليه. قــد أخذ قطيفة قــد كان رسول الله ﷺ يلبسها ويفترشها، فدفنها في القبر وقال: والله لا يلبسها أحد بعدك أبدا. قال: فدفنت مع رسول الله ﷺ[2].

فصلى الله عليك يا سيدي يا رسول الله

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

---

(١) د. محمد رواس قلعه جي - نفس المرجع ص٣١٤.

(٢) د محمد رواس قلعه جي - نفس المرجع ص٣٥ .

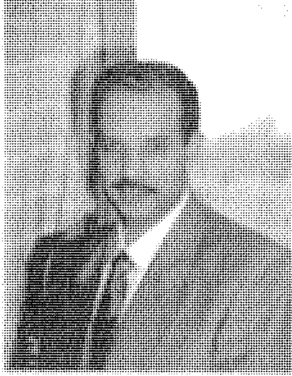
الفهرس

الموضوع	الصفحة

في هذا الكتاب

يتناول الكتاب ثلاثة أبواب :

- **الباب الأول :** بعنوان البعثة الشريفة لرسول الله محمد ﷺ ومحاربة كفار قريش ويضم أربعة فصول : (الجزيرة العربية قبل المولد النبوي الشريف لرسول الله محمد ﷺ، وسيرته حتى البعثة والدعوة الإسلامية لرسول الله محمد ﷺ وعداء كفار قريش ، ومن الخروج إلى الطائف حتى الهجرة الشريفة إلى المدينة المنورة .
- **الباب الثاني :** بعنوان معارك وغزوات الدولة الإسلامية الأولى ، ويضم أربعة فصول هي : (بناء الدولة الإسلامية الأولى في مدينة رسول الله محمد ﷺ ومعركة بدر ، وغزوتي أحد والأحزاب ، ومن هدنة الحديبية إلى فتح مكة ، ورسول الله محمد ﷺ القائد الأعلى للقوات الإسلامية) .
- **الباب الثالث :** بعنوان سيادة الدولة الإسلامية الأولى على الجزيرة العربية يضم فصلان هما : (التنظيم السياسي للدولة الإسلامية الأولى ، والدولة الإسلامية وعلاقاتها الخارجية).



المؤلف في سطور :

- من مواطني دولة الإمارات العربية المتحدة .
- يعمل في جامعة روتردام الإسلامية بهولندا .
- حاصل على الليسانس من لبنان والماجستير والدكتوراه من مصر عام 1983 في العلاقات العربية الإيرانية .
- من مواليد أبو ظبي 1950
- عمل في دائرة الإسكان والمشتريات بالحكومة المحلية في إمارة أبو ظبي (1970–1972) ثم مديرا للعلاقات الثقافية والمكتبات العامة في وزارة الإعلام والثقافة بالحكومة الاتحادية لدولة الإمارات العربية المتحدة (1979–1984) ، ثم جامعة الإمارات العربية المتحدة (1984–1993) وقام بالتدريس في كلية زايد العسكرية في مدينة العين وكذلك بكلية الظفرة الجوية في أبو ظبي ، كما شارك في دورة تدريب الدبلوماسيين في وزارة الخارجية بدولة الإمارات العربية المتحدة ، ثم عمل في جامعة الكويت منذ عام (1993–2000) ويعمل حاليا في جامعة روتردام الإسلامية منذ عام 2000، وعضو في الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب منذ عام 1991 وحتى الآن .
- صدرت له أكثر من اثني عشر كتابا وأكثر من أربعين بحثا معظمها في الخليج العربي والدراسات العربية والإسلامية .